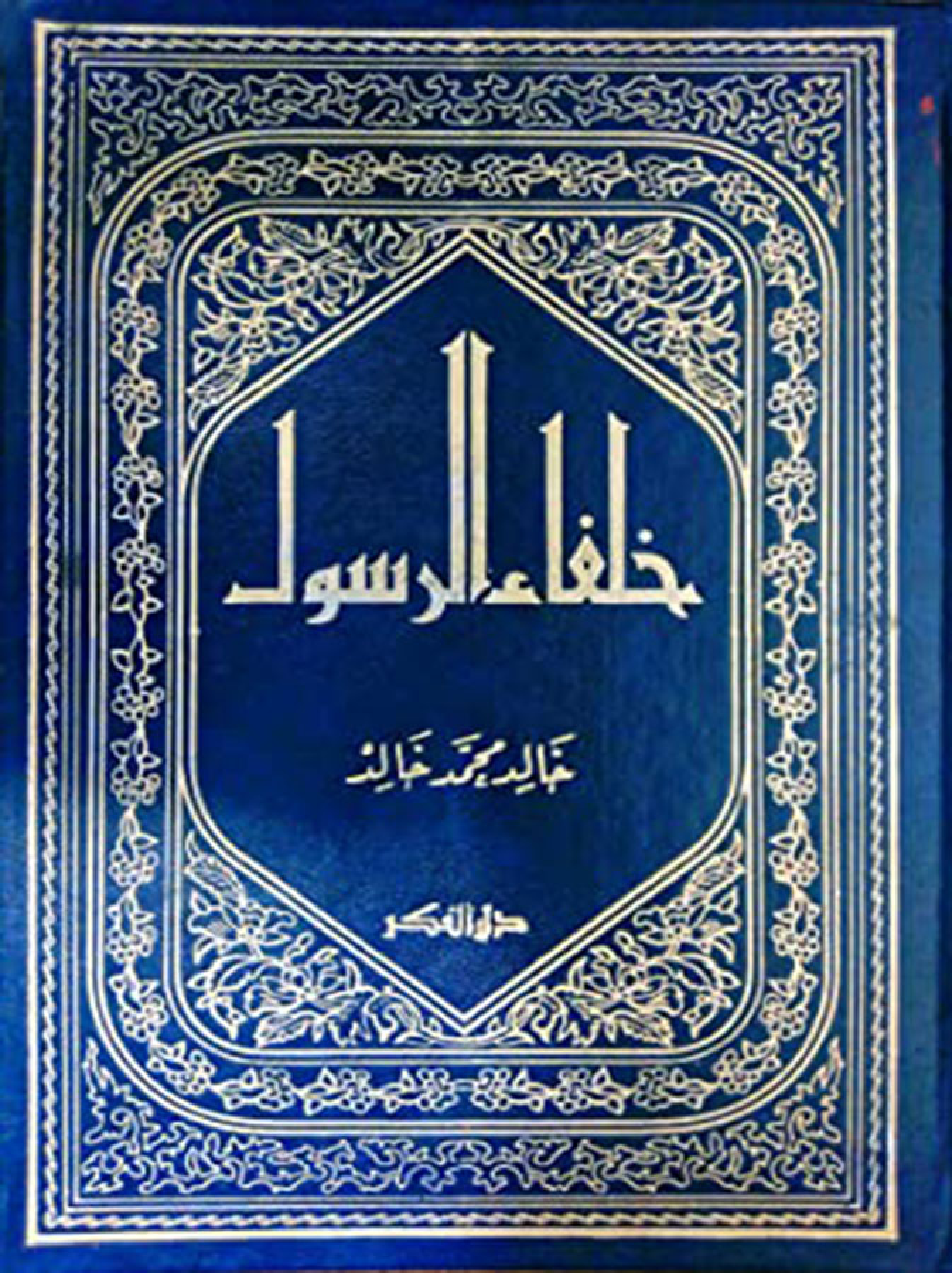

خلفاء الرسول
خالد محمد خالد
دار الفكر

خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم

خالد محمد خالد

في هذا الكتاب قصة كل خليفة من الخلفاء الراشدين والذين عدّهم الكتاب: أبو بكر، عمر، عثمان، علي، عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم والتي جاءت بأسلوب حمل من المشاعر الغامرة ومن الصدق الكثير بل الصدق كله، أسلوبا ابتعد فيه المؤلف عن تكديس المعلومات إلى جلاء الحقائق، باستحضار الوقائع حية، ليسبغ على روعة المضمون روعة السبك الأدبي الذي لم يغير من الحقيقة شيئا بل أعطى صورة واضحة عن سياسة هؤلاء الخلفاء اتجاه شعبهم وقبلا اتجاه أنفسهم المتأدبة بأدب الإسلام. إنه قطعة رائعة من أدب السيرة الذاتية. فعدا كون الخلفاء "الخمسة" تمتلئ حياتهم بالعبر والحكم، فقد أخذ الكاتب بيدك، عبر أسلوبه الفذّ، ليدلك على مكامن الروعة في حياة هؤلاء "الخمسة" الكبار الذين فتحوا أمام الإسلام، بهديٍ من الرسول صلى الله عليه وسلم، آفاقا رحبة أقل ما فيها عدل وحق وإيمان. وأنت إذ تنتقل بين روضاته الزاهية الزاهرة، لا تكاد تبهرك صور ومشاهد، حتى يحملك الكاتب إلى أجواء أبدع وأروع فيها، من الصور والمشاهد يأخذ منك اللبَّ ويأسر الروح. أولئك الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأولئك هُمْ اولُو الألباب "18" سورة الزمر

وجاء أبو بكر

الإهداء

يا أبا بكر..
يا خليفة رسول الله..
إذا أذنت لي في هذه الكلمات، أكتبها عنك،
فتقبل - يا ثاني اثنين - إهداءها..

المقدمة

*ما الدور الذي اختارالله أبا بكر لأدائه..؟
* أبو بكر وعمر ، أي طراز من الحكام كانا .؟
كان مفروضا ان يكون عنوان هذا الكتاب، وموضوعه أيضا ، بين يدي أي بكر بعد أن فتح الله بكلمات سالفة، ظهرت في كتاب بين .يدي عمر .
بيد أني لم أكد اتهيا للكتابة، وامضي فيها بضع صفحات حتى تغيرت المشاهد التي كنت اعيش فى بهرها وسناها ، وملا الافق امامى مشهد واحد فريد ومجيد ، فنحيت الاوراق جانبا، ورحت اتملى المشهد واتامله .
لقد بدا المشهد هكذا :
الله الرحمن الرحيم، يريد أن يبعث للناس على فترة من الرسل رسولا يرد الدين إلى جوهره ، وحقيقته ، ويخرج الحياة الإنسانية من الظلمات إلى النور ، ومن التيه إلى الرشد..
ولقد اختار الله رسوله ، وهو محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، ونزل الوحي ..وبدات رحلة القرآن مسيرتها المباركة.
هذا هو الموكب الجليل الذي وكلت إليه مهمة تغيير البشرية ، وتجديد ضميرها .. ا! محمد .. والوحي .. والقرآن..

و لكن ، بدا لي كانما الموكب واقف يترقب .. انه ينتظر رجلا له في الموكب مكان شاغر ، لن يتحرك الموكب حتى يجيء ..
وهذا الرجل ليس نبيا ..ومع هذا فهو الذي سيتم دور النبي. .
وفجاة.. غردت العصافير .. و أهلت البشرى .. وأقبل الرجل. وجاء أبو بكر.. !!
جاء الإنسان الذي سيقول للنبي دائما، وفي غير تلعثم أو تردد : - صدقت .. صدقت ..
جاء الرجل الذي سيزامل النبي في هجرته؛ وهو يعلم علم اليقين أن قريشا ستجند لمطاردة النبي المهاجر كل بأسها ،وحقدها ،وكيدها ..
جاء الرجل الذي سيرد المسلمين - جميع المسلمين –الى صوابهم يوم ينعى الناعي إليهم رسولهم.
جا، الرجل الذي سيشكل موقفه يوم السقيفة عمرا جديدا يكتب للإسلام، ولوحدة المسلمين.
جاء الرجل الذي لولاه أيام الردة لواجه الإسلام محنة فنائه واختفائه..
وبعبارة واحدة : جاء الرجل الذي كان لا بد ان يجيء ليكون مع الرسول صلى الله عليه وسلم، الأداة التي اصطفاها الله ليغير بها العالم، ويطهر الدنيا، ويقوم الحياة..
هذا هوالدورالحقيقي لأبي بكر كما تراءى لي.
وهذه الصفحات، محاولة متواضعة. لتصوير هذا الدور الفريد، والمجيد.. إن استاذ البشرية في فن الإيمان سيرينا من خلال حياته وثباته كل عجيب وعظيم في فن الإيمان..!!
وبعد.. فأي طراز من الحكام كان أبو بكر، وكان عمر..؟
إني أريد في هذه المقدمة أن أجيب عن سؤال واجهني في الحاح اثر صدور كتابي: بين يدي عمر ..
لقد أرسل الي بعض القراء الكرام يسألونني قائلين:
- كيف توفق بين إيمانك الاكيد بالديمقراطية، وإيمانك الاكيد بحاكم مثل عمربن الخطاب الذي لانستطيع برغم عدله المطلق أن نقتنع بأنه كان صاحب حكم ديمقراطي..؟
واذا أثير هذا السؤال عن عمر، فلابد من انه سيثارعن أبي بكر؛ فالخليفتان في حكمهما كانا من طراز واحد..
والاجابة عن هذا السؤال ، وتفنيد تلك الشبهة، من البداهة بحيث لا يحتاجان إلى إفاضة أو إسهاب.
وعندي إن الذين يرون في أبي بكروعمر مستبدين عادلين إنما يجانبون الصواب.
أولا : لان أبا بكر وعمر لم يكونا مستبدين لحظة من نهار.
ثانيا: لانه ليس في طول الدنيا ولا عرضها شيء اسمه مستبد عادل .

ولو التقت كل أضداد الحياة ومتناقضاتها فسيظل الاستبداد والعدل ضدين لا يجتمعان، ونقيضين لا يلتقيان. وإن أحدهما ليختفي فور ظهور الآخر،لأن أبسط مظاهر العدل ومطالبه ان يأخذ كل ذي حق حقه ، واذا كان من حق الناس- وهذا مقرر بداهة- ان يشاركوا في اختيار حياتهم وتقرير مصائرهم ؛ فإن ذلك يقتضي في اللحظة نفسها ، و للسبب نفسه - اختفاء الاستبداد .
ولقد كان أبو بكر وعمر على بصيرة من هذا .. وعلى الرغم من انهما - والأمة معهما - كانوا جميعا خاضعبن خضوعا مطلقا لما أنزل الله من شريعة .. على الرغم من هذا ، فقد هي!! للمسلمين كل فرص المناقشة والاختيار ، حتى رأينا مواطنا عاديا يأخذ بتلابيب عمر وهو في اوج سلطانه ، ويقول له : اتق الله يا عمر.. !!
وحتى رأينا هذا الخليفة نفسه يجمع المسلمين ويقوم بينهم خطيبا فيقول : أيها الناس ، ماذاتقولون لو ملت برأسي هكذا .. ؟
فيجيبه واحد منهم : إذن نقول بالسيف هكذا ..
فيسأله أمير المؤمنين : إياي تعني بقولك.. ؟
فيجيبه الرجل في اصرار : إياك اعني بقولي..
فيجيبه عمر : يرحمك الله.. والحمد لله الذي جعل فيكم من يقوم عوجي .. ا!
اهذا حاكم يوصف بأنه مستبد عادل .. ؟!
ومن أين جاءت هذه الشبهة وهذا، اللبس للسادة القراء الذين سالوني : كيف اوفق بين إيمانى بالديمقراطية و!يمانى بعمر.. ؟
لست انكر ان لهذه الشبهة منطقها .. ولكنه منطق شكل نفسه في غياب كثير من أجزاء الحقيقة ونورها ..
فلقد يبدو لنا ان أبا بكر وعمر ،لم يكونا حاكمين ديمقراطيين، لانه لم يكن إلى جوارهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة - البرلمان والدستور ، والمعارضة المنظمة ، والصحافة الحرة .. ووضع المسألة على هذا النحو ، يشكل خطأ كبيرا .
وانما يستقيم الفهم في ايدينا إذا نحن اجبنا عن هذا السؤال: - هل كان غياب هذه المؤسات الديمقراطية عن مجتمع المسلمين يومئذ راجعا إلى كفران الخليفتين العظيمين بهذه المؤسسات. ؟
والجواب الذي تمليه طبيعة حكمهما وسلوكهما في الحكم هو : لا .
وان غياب هذه المؤسسات لا يعني أكثر من انه تعبير عن العصر وعن البيئة ، وعن الحياة فى جزيرة العرب منذ ألف واربعمانة عام.
ولست أرى فارقا بين من يسأل مثلا : - لماذا لم يكن في عهد أبي بكر وعمرصحافة حرة..؟
ومن يسأل: - لماذا لم يكن لأبي بكر وعمرسفارة في لندن.. ؟!
ان المرحلة التاريخية التي كانت يومئذ، هي التي تجيب بداهة عن هذين السؤالين. على أن أبا بكر وعمر، حين لم تسعفهما طبيعة الزمان والمكان في

أيامهما بهذه الأشكال المنظمة للديمقراطية ، إنما حققا على أوسع مدى ، الجوهر الحي للديمقراطية من خلال الأشكال والتنظيمات التى تلائم تطورهم فى ذلك العهد البعيد .
فإذا كان تطورمجتمعهم يوم ذاك ، لم يهيىء قيام معارضة لها كيان منظم مهيب ، فإن المعارضة نفسها كانت تمارس بأسلوب فعال، و عميم..
واذا كان التطور يوم ذاك ، لم يهيئ لهم قيام برلمان يراقب الحكومة ويضع القوانين : فإن الشورى يومئذ كانت شعيرة من شعائر الله ، وكانت حقا مقدسا للجماعة كلها.
واذا كان التطور يوم ذاك ، لم يهيى لهم قيام صحافة حرة ، فإن الكلمة المخلصة الشجاعة كانت على كل لسان ، يصغي الخليفة اليها ، ويثيب عليها
ولو أن أبا بكر وعمر ، يحكمان في عصرنا هذا ، لاعطيا التجربة الإنسانية فى التنظيم الديمقراطي الرشيد كل احترامهما ، ولإنتفعا بها إلى أبعد مدى ، ولأخذا من اشكالها الحديثة كل ما يحقق جوهرها ويعبرعن خصائصها ..
ولست أريد أن اتجنى على الحق ، فاقول : ان ذلك كان سيتم بصورة مطلقة. لا .. وانما كان سيتم داخل إيمانهم المطلق بالدين الذي آمنوا به .. ووفق الطريقة التى تشكل بها هذا الإيمان. .
ولكن ، حتى مع وجود هذا التحفظ ، فإن ذلك لا ينقص شيئا من حقيقة انهما حاكمان ديمقراطيان.
ذلك ان أي حاكم ديمقراطي ، إنما يعمل داخل حدود الدستور القائم في دولته .. وأبو بكر وعمر كانا يعملان داخل حدود الدستور القائم في مجتمعهما .
لقد كان للقرآن في مجتمعهم، مثل ما للدستور في أي امة ودولة ، بل ان ولاءهم للقرآن كان يفوق ولاء أي امة لدستورها .. !!
ولقد تضمن القرآن الكريم مزيتين من أعظم مزايا الديمقراطية : أولاهما: انه جعل الشورى واجبا حتى على النبى الذي يوحى إليه ، فقال : "وشاورهم في الأمر ".. وقرنها بالصلاة حين نعت المؤمنين بأنهم الذين : " اقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم " .
ثانيتهما : انه لم يلزم بطاعة أحكامه واعتناق مبادئه الأ من يقره، ويختاره ، ويؤمن به - أي بلغة عصرنا الحديث : من يقترع عليه بالموافقة - أما الآخرون الذين لم يؤمنوا به ، فلهم ان يعيشوا وفق عقائدهم ، وتقاليدهم ، والأسلوب الذي يختارونه لحياتهم.. !!
صحيح انه دستور لم يضعه الشعب .. ولكنه دستور رضيه الشعب وامن به ، واستشهد في سبيله.
فالمسلمون الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وساوا معه ، آمنوا بأن القرآن وحي من عند الله، وعليهم طاعته.
ولقد حمل أبو بكر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم القيادة في المجتمع وفق هذا الإيمان.. ثم حمل عمر المسئولية بعد أبي بكر وفق هذا الإيمان أيضا ..

وهكذا ، فإن المعيار الصحيح الذي يوزن به حكمهما ،هو مدى احترامهما لهذا الكتاب الذي آمن به الناس وارتضوه قانونا لحياتهم.

*****

وفي عصورنا الحديثة هذه ، لا تستقيم الحياة الأ بأن يكون للأمم دساتير تحكم حياتها ..

دساتير تصوغها الأمة من عقائدها ،وتقاليدها ،واحتياجاتها ،وتساير بها موكب التقدم الإنساني المتجدد دوما .. والذي لا يقف ولا يتقهقر.

وتستطيع الأمة - أي أمة - ان تضمن دستورها كل ما أراده الله للناس من خير وصلاح ، وكل ما دعا إليه الدين من تقوى وحق.

وفى رايى، لو أن أبا بكروعمر ،يحكمان الناس اليوم وفق دستور رشيد وضعه الناس أنفسهم لأنفسهم ، ما نقص ولاؤهم لهذا الدستور مثقال ذرة ، عن ولائهم للقرآن الكريم الذي كانا يحكمان وفق هداه. ذلك، انهما من الطراز البشري الرفيع الذي يشيع في جوهره إلى جانب الإيمان بالله، الابمان بالإنسان ..

خالد محمل خالد

الفصل الأول ليبلغن الكتاب اجله

مكة ..
البلد الحرام الذي تتوسطه الكعبة ، موطن القداسات منذ رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل.. تمضي الحياة فيها لافحة مثل مناخها.. رأسخة مثل جبالها.حالمة مثل سمائها.
وأهلها عاكفون على عقائد وتقاليد تسمو أحيانا حتى تبلغ أوجا بعيدا .. وتسف أحيانا حتى تبعث على السخرية والرثاء .. !!
وحول الكعبة أصنام مبثوثة ، تطفلت في غفلة الزمن على هذا الحرم الأقدس الذي ظل قرونا ولبث احقابا يمثل راية الله المرفوعة في الأرض ، تنادي أهل الحنيفية والتوحيد..
هي كذلك ، ظلت دهرا طويلا حتى جلبت اليها الأصنام ذات يوم، وازدحمت حولها مع الأيام . حيث صارت مهوى أفئدة قريش وما حولها . يعبدها الناس ويتقونها، ويتملقونها ؛ لتقربهم إلى الله زلفى.. ا! فهنا اللات، والعزى، ومناة.. وهناك ، اساف، ونائلة ، وهبل .. وعشرات سواهن من الأوثان والأصنام ..
وان مواكب العابدين لتسعى ليل نهار إلى تلك الآلهة المجلوبة ، والمنحوتة .. الآلهة التي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تغني عن أحد شيئا .. !! لكل قبيلة الهها وصنمها. وكل طفل يولد ، لا يلبث حين يدرك الحبو، حتى يقاد إلى ربه ليعرفه، وليسعى إليه فيما بعد ويبثه امله ونجواه .. !!
وتاهت العقول في زحمة الخرافة .. ! وكان أمرا عجبا .. !!
فذووا الأحلام الرشيدة الذين انشئوا حلف الفضول حيث يقفون جبهة واحدة مع المظلوم ضد الظالم. . !
والذين استنوا للسلام منهجا فذا ،وابتكروا له سنة باهرة ، فأسسوا نظام الاشهرالحرم تقر السيوف خلالها في اغمادها ، وتنام الأحقاد والثأرات نوما عميقا ، ويلقى الرجل فيها قاتل أبيه أو اخيه وقد امكنته الظروف منه، لا يحصبه بحصاة، ولايقربه بسوء ..!!
والذين وضعوا للسؤدد الاجتماعي نظاما رفيعا ، فلا يسمح لاحد ان يسود في قومه الأ إذا تفوق في هذه الخصال الست : السخاء .. النجد ة.. الشجاعة .. الحلم..التوا ضع .. البيا ن ..
وكانوا يقولون : موت ألف من العلية، خير من ارتقاء واحد من السفلة .. !
* والذين كان لهم سوق عكاظ، ييممون وجوهم شطره من كل مكان ليلتقوا فيه باشهى ثمار النبوغ الإنساني ممثلا في شعر شعرائهم، وبيان خطبائهم.. !!
- هؤلاء المحلقون عاليا، ترين على افئدتهم هذه الغفلة العجيبة ، فيخرون ساجدين أمام أصنام نحتوها من حجارة أو عجنوها من صلصال.. !!

مفارقات محيرة.. ولكن ليسوا في هذا وحدهم. .
اثينا ..وفي ازهي عصورها .. عصر الفلسفة والفلاسفة وعصر سقراط وباركليز ، كان أهل اثينا يعبدون الهة الأولمب .. أصناما كأصنام مكة ، بل ان أهل مكة كانوا ينظرون إلى أصنامهم نظرة!كبار وتنزيه. أما أهل اثينا فكانوا يعبدون الهة خلعوا على بعضها اسوا الصفات .. !

***

ومع عبادة الأصنام التي سادت مكة ،كان هناك صنوف أخرى من العبادة تزخر بها انحاء الجزيرة العربية. فكان هناك من يعبدون الشمس ، مما جعل الرسول عليه السلام حين بعث وفرضت عليه الصلاة ، ينهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت الغروب ، حتى لا يكون ذلك محاكاة- ولو غير مقصودة - للذين يعبدونها ، ويخرون لها ساجدين لحظة الشروق ولحظة الغروب.
وكان ثمة من يعبدون الملائكة .. هؤلاء الذين ناقشهم القرآن فيما بعد فقال : " وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ اهَؤُلَاءِ إياكمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ "40" "
وكان هناك من يعبدون الجن .. هؤلاء الذين سينعتهم القرآن بقوله : " .. كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أكثرهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ "41"
وكان منهم عبدة الكواكب .. " الذين سيؤنبهم القرآن بقوله: "وانه هو رب الشعرى " .
وكان هناك الدهريون الذين روى القرآن فيما بعد قولهم : "ما هى الأ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الأ الدهر"
ملائكة.. وجن.. وكوا كب.. وأصنام.. ؟؟ أين ملة ابراهيم وسط هذا الزحام.. ؟؟
انه منذ القرون !!لأولى ،هاجر إلى هذا البلد المنيع الامن إنسان متبتل، غادر قومه الكلدانيين ، وترك وطنه وأهله في بابل، وجاء مكة حاملا كلمة الله .
وهنا في مكة حط رحاله ، ورفع رايته ، وهتف بالتوحيد وقال قولته الباقية :
"انى وجهت وجهى للذي فطرالسموت والأرض حنيفا وما انا من المشركين " ..
وتركها باقية في عقبه، مدوية في افق الجزيرة الواسعة. فماذا دهى الناس. ؟
وهل ضاعت الحنيفية المؤمنة الموحدة ، وسط الوثنية الطارئة ، والشرك الزاحف ..؟!
وهل اقحل هذا البلد الأمين ممن يجدد للناس دينهم الأول.. ممن يرفع صوته مذكرا بالحقيقة الدارسة..؟؟ كلا...
ولقد كان هناك عبر السنين والاجيال هداة يبزغون بين الحين والحين، يلوحون براية ابراهيم عليهالسلام، ويرفعون أصواتهم داحضين الشرك والزيغ..
كانوا كثيرين منهم من نعرف، ومنهم من لانعرف. . منهم من سبق الرسول صلى الله عليه وسلم بمئات السنين ، ومنهم من كان ارهاصا بين يدي فجره الطالع القريب.

من الأولين، سويد بن عامر المصطلقي - جهر بعقيدة، البعث ويوم الجزاء ..
وعامر بن الظرب العدوانى الذي كان يقول لقومه : اني ما رايت شيئا قط خلق نفسه .. ولا رايت موضوعا الأ مصنوعا ..ولاجائيا الأ ذاهبا .. ولو كان الذي يميت الناس الداء لكان الذي يحييهم الدواء ..؟!!
وكان هناك المتلمس بن أمية الكناني.. كان يتوسط قومه عند الكعبة ويصدع فيهم بقوله: اطيعوني ترشدوا ، لقد اتخذتم الهة شتى، وإن الله ربكم ورب ما تعبدون .
وكان هناك زهير بن أبي سلمى .. يمسك اوراق الشجيرات التى اهتزت خضراء بعد أن كانت يابسة هامدة ويقول : لولا ان يسبني العرب لامنت ان الذي احياك بعد جفاف ، سيحيي العظام وهي رميم ..وهو القائل:
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم   ليخفى ؛ فمهما يكتم الله يعلم
***
كان ثمة هؤلاء ، ومثلهم معهم.. ولكن لم يكن معهم سوى هذا الحنين إلى الحق، وهذا الاستشراف الحدسي لغايات لم يبلغوها ..
لم يرزق أحدهم المنهج الكامل الذي يمكن ان يدعو الناس اليه. وكانوا يبزغون ، الواحد تلو الآخر عبر السنين الطوال.
اما الآخرون الذين ظهروا قبيل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، فعلى الرغم من انهم كانوا مثل سلفهم بغير منهج واضح مفصل، فإن رؤياهم عن الحقيقة الروحية التي شغلتهم كانت أكثر بيانا وإسفارا ..
من هؤلاء : ابو قيس بن انس - اعتزل قريشا وأصنامها ، واتخذ له فى بيته مسجدا لا يدخله طامث ولا جنب ، وقال اعبد رب ابراهيم .. وقد عاش حتى بعث النبي فاسلم معه..
وكان هناك ثلاثة تركزت فيهم كل قوى الارهاص بالدين المقبل، هم : قس بن ساعدة الايادي .. وزيدبن عمرو بن نفيل.. وورقة بن نوفل..
انعقدت اوا صر قلوبهم على دين ابراهيم!! وانسابت من افئدتهم الضارعة : كلمات التوحيد كانسام الربيع وسط الهجير الوثني المتسعر..!
كانوا يغنون للنبي القادم .. كانوا يبشرون بالفجرالطالع.. كانوا يؤذنون بالدين المقبل الذي سيعيد راية الله إلى مكانها ، ويسوي بالأصنام التراب.!
والى هؤلاء جلس أبو بكر طويلا.. ولكلماتهم الرطبة المؤمنة ألقى سمعه .. وبغنائهم العذب ثمل.. وعلى حدائهم سار. وفي ضياء حكمتهم الوثقى ، وهداهم المكين ، ابصرت روحه الطاهرة موكب النبوة القادم، فجلس ينتطر، ويعد نفسه لأيام الهدى واليقين.. !! ولنبدا سيرنا في صحبة الرجل العظيم من ذلك الحين..
***
هذا الرجل الذي يشغل بين قومه مكانة مرموقة اهلته لها كفايته وحسبه، يحمل في ذات نفسه شكا مضيئا .. شكا يربي في قلبه يوما فيوما العزوف عن

وثنية قومه وضلالهم.
وانه ليمر بالناس متحلقين حول أصنامهم، وجائين امامها فتكسو وجهه سحابة اسف مرير ، ويسأل نفسه : أيمكن ان يكون هذا صوابا وهدى.. ؟؟
الناس ينظرون، ويسمعون، ويعقلون.. يخرون سجدا أمام حجارة مرصوصة لا تسمع، ولاتبصر،ولا تبين.؟!
ثم يردد قول زيد بن عمرو بن نفيل :
اربا واحدا أم ألف رب   ادين إذا قسمت الأمور ؟
ويطول التساؤل ، وتزدحم النفس بالقلق ، ويبرح طول الآن تظار بالرجل المنيب الاواب , الذي ينزع إلى معرفة الحق نزوعا حثيث الخطى مضطرما بالرغبة في التغيير ، والشوق ! إلى كلمة الله التي سيفصل مجيئها فيما اختلف الناس فيه.
ويحمله حنينه ، وتقوده اشواقه إلى الذين عندهم علم من الكتاب . الذين يعيشون في ذكريات العقيدة الدارسة التي صدح بها هنا ذات يوم بعيد خليل الله ابراهيم. الذين شغلهم المصير الإنساني، فرفعوا أصواتهم بعقيدة البعث والجزاء .. والذين طهروا قلوبهم تطهيرامنركل ولاءرلصنم وآمنوا برب ابراهيم. هؤلاء الذبن يقلبون وجوههم في الماء ، وتخرج الكلمات من افواههم كالاحلا م السعيدة.
اي حديث يبهر أبا بكر ويستهوي لبه خيرمن حديث هؤلاء .؟! ان كلماتهم حين يلقفها سمعه، لترن في روعه رنين الصدق. وانه ليتتبعها كما يتتبع الطيرالظامىء مواقع القطروالندى.
وهكذا كان يتروح دوما كلما اسعفه وقته بالجلوس إلى هذا النفر الصالح.
قس بن ساعدة - زيد بن عمرو - ورقة بن نوفل.. لم تكن قريش قد شطت في عداوة هؤلاء واضطهادهم. لانهم - أولا :كانوا عاكفين على أنفسهم ، لا يحملون دعوة منظمة ولا دينا جديدا يهدد دين قريش وتقاليدها.
ولانهم ثانيا : كانوا في مرتفعات اعمارهم، قد اوشكت حياة كل منهم على الغروب. .
لكن اعجاب رجل كابي بكر مجرد الاعجاب بهؤلاء وبافكارهم ، يعرضه لاستنكار قريش لا مجالة. فهو في ربيع العمر المرتجى.. وهوسيد فى قومه الذين اولوه عملامن أهم اعمالهم واجلها . فهو يومئذ حامل الديات.. ويفكر أبو بكر في هذا.
يفكر فيما يمكن ان يلحق به من ضر ، إذا هو خرج عن الصفوف المزدحمة ، وعلم الناس منه حفاوته بافكار قس ، وورقة ، وزيد ..
ان قسا ، وورقة ، وزيدا ، قد وضعوا عن كوأهلهم كل علاقتهم بالجماعة ، فلا يخشون باسا ، ومع هذا فإن قريشا ، وإن لم تناصبهم العداء ، لتعمل جاهدة على كبح جماحهم، وكلما ارتفع صوت زيد بن عمرو - وكان اعلى الثلاثة صوتا - اغروا به قريبه الخطاب بن نفيل ، فاغلق عليه داره وحال بينه وبين الناس .. !!

فكيف بابي بكر ، وعلاقاته بالجماعة مشحونة ونامية ، وهو في قومه ملء كل عين و كل اذن..؟!
اتاذن له قريش ولو في مجرد انطوائه على احلامه الجديدة ، ورؤياه الصامتة .. ؟؟
وقبل ان يطول التردد بابي بكر ، تلتمع خواطره ، فيرى القدوة والمثل ... محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم...!
انه في ربيع العمر والحياة، وانه حسيب نسيب، وانه في قومه كالمع درة في التاج..
ومع هذا ، فهو - في هدوء - قد عزف عن الأصنام ، وانه ليقضي أيامه بعيدا عن معابث الناس وعاداتهم . لا يكاد يلقى أحداولا يدع أحدا يختلس منه وقته ، واحلامه ، وسكينة نفسه .. يتعبد اليوم بالتامل ، حتى تاتيه عن الحق بينة ... ويطمئن أبو بكر.
انه يستطيع أن يسلك الطريق نفسه دون أن تكون لقريش عليه ثورة أو موجدة.. مثل محمد تماما ..
انه لا يذكر الأصنام بسوء بعد .. ولكنه أيضا لا يذكرها بخير .. لا يعبدها مع العابدين، ولا يسجد لها مع الساجدين، ولا يتقرب اليها ، ولا يحس بوجودها ..
لقد جرد من نفسه امة وحده، ومضى يبحث عن الحق، وهذا أعظم غرض تناط به حياة إنسان. وسرى فى اوصال نفسه برد اليقين.
فأبو بكر ، وإن يكن تجمعه ومحمدا سن واحدة؛ فانه يرى فيه مثلا اعلى وقدوة تدعو إلى الثقة.. ولقد كان هذا حريصا على صحبته ، حفيا بزمالته ، حتى لقد كان كما وصفته أم سلمة : خدنالمحمد صلى الله عليه وسلم وصفيا له ..
تذكر أبو بكر حال صديقه وصفيه ، فتبددت محاذره من قريش ، وقرر ان يستجيب لحنينه ، ويمضي مع اشواقه إلى الحق والمعرفة .
لكن نهجه سيختلف عن نهج صفيه محمد صلى الله عليه وسلم. .. تماما ، كما ستختلف النتيجة بالنسبة لكليهما ؛ فبينما يبحث أبو بكر عن الحقيقة ، إذا محمد يجدها .. !!
ان منهج محمد هوالتامل،والاصغاءالى الهمس الاتي من داخل الحقيقة ذاتها .
اما أبو بكر فمنهجه الفكر، والاصغاء إلى حكمة الحكماء ، ومنطق العابدين المبصرين..
وهو طوال عمره مولع بحفظ روائع الثقافة العربية من شعر ونشر .. ومن محفوظاته الثرية الغنية يمد عقله بأسباب التفكير .
وهكذا بينما يعكف محمد صلى الله عليه وسلم على تاملاته ، ويتلمس الحق من طريق حدسه وتجربته ورؤاه.
اذا أبو بكر يسلم قلبه وعقله للحكمة التي يبرق سناها في كلمات هذا النفر الصالح ذوي التجربة السديدة المديدة : قس ، وورقة ، وزيد .

ولا يترك فرصة تمكنه من التلقي عنهم والاصغا، إليهم الأ اهتبلها وفاز بها .
وانه ليحفظ اقوالهم حفظا رأسخا ، ويعيش في رؤاهم عيشة تساعده عليها فطرته العظمى التي تريد ان تعرف الحق وتبلغه مهما يكن الثمن..والتي رات في هؤلاء بحكم سنهم، وبحكم تجربتهم وحياتهم الطاهرة، دليلا قويما إلى الحقيقة المرجوة..

****

ذات يوم ، بعد أن تلقى محمد صلى الله عليه وسلم رسالة ربه ، وامن معه أبو بكر كان الرسول جالسا بين أصحابه يستعيد ذكرى أيام شبابه فقال: لست انسى قس بن ساعدة ، ممتطيا جملا اورق، في سوق عكاظ، وهو يتحدث حديثا ما احسبني احفظه .
فقال أبو بكر : اني احفظه يا رسول الله ، كنت حاضرا ذلك اليوم في سوق عكاظ .. ومن فوق جمله الاورق وقف قس يقول :
يا أيها الناس : اسمعوا ، وعوا ، واذا وعيتم فانتفعوا ..
ان من عاش مات، ومن مات فات. . وكل ماهو ات ات. .
ان فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا .
مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور..
ليل داج، ونهار ساج، وسما ء ذات ابراج..
يقسم قس ، ان لله لدينا هو احب إليه من دينكم الذي أنتم عليه ..
ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون .. أرضوا بالمقام فاقاموا .؟ أم تركوا فناموا ..؟!
ثم انشد أبو بكرشعرقس بن ساعدة:
في الذاهبين الأولين   من القرون لنا بصائر
لما رايت مواردا   للموت ليس لها مصادر
ورايت قومي نحوها   يسعى الاكابر والاصاغر
ايقنت اني لا مح   الة حيث صار القوم صائر

****

هكذا كان أبو بكريحفظ لهذا النفرالصالح ويتلقى عنهم. . وهكذا كانت روحه عاكفة على ما يبثونه من حكمة.
ولكم كانت غبطة نفسه، وحبور روحه يتالقان أعظم الالق حين يبصر زيد بن عمرو ابن نفيل فى جلال مشيبه، مسندا ظهره إلى الكعبة،مناديا الناس:
- يا معشرقريش، والذى نفسي بيده، ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيري..
اني اتبعت ملة ابراهيم واسماعيل من بعده.. واني لانتظر نبيامن ولد اسماعيل، ما اراني ادركه . ثم تقع عينه على عامر بن ربيعة فيناديه: ..ان طالت بك الحياة فاقرئه مني السلام .. كان أبو بكر يزدادطمانينة وامنا . كلما رأى زيد بن عمرو يشق صفوف الناس

المتحلقين حول الكعبة ويرفع عقيرته في غير تهيب قائلا :
لبيك حقا حقا .. تعبدا ورقا ..
عذت بما عاذ به ابراهيم..
واسلمت وجهي لمن اسلمت   له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها، فلما راها استوت   لى الماء ارسى عليها الجبالا
واسلمت وجهي لمن اسلمت   له المزن تحمل عذبا زلالا
ويحدث أبو بكر نفسه :
هذا ورب ابراهيم هو الحق.. ولكن كيف ومتى نصبح منه على يقين.. ؟؟
ويوما فيوما ، كان وجدانه يمتلى برؤى التبتل والنسك ويشغفه الحنين إلى دين ابراهيم.. ولكن أين الطريق. ؟ ..
ان الذين زكوا في روحه ووعيه هذا الشوق هم أنفسهم لايعرفون.
صحيح انهم على يقين بأن قريشا ليست في دينها على شيء من حق، وانها اخطات دين ابراهيم. ولكن ، ما المنهج الجديد الذي يعود ابراهيم من خلاله بدينه وحقيقته ..؟
انهم لا يعرفون. وذانك صاحباه لا يعرفان .
اما ورقة، فانه عاكف على الآن اجيل يتلوها ويدرسها ، عساها تدله على دين ابراهيم..
وأما زيد ، فهائم مع اشواقه المؤمنة ، منطلق في بطاح مكة تارة ..ولائذ الكعبة تارة أخرى..ومناج ربه دوما : - اللهم لو اني اعلم أي الوجوه احب اليك لعبدتك به ، ولكني لا اعلمه .
اذن هو لا يعلم، وإن كان قد اعلن الملامن قريش انه فارق دينهم، واعتزل الأوثان والأنصاب، وواد البنا ت، واجاب حين سئل عن ربه الذي يعبد 0 : اعبد رب ابراهيم .
وتزداد الاشواق العارمة إلى الحقيقة ازدحاما في روح أبي بكر ، فهو بفطرته لا تروي ظماه انصاف الحلول ، لقد اتضحت له معالم ال أزمة التي يعانيها الضمير الإنساني في قومه .. وهو الآن يربد جميع الحل ، وجميع الخلاص ..
أجل هذه هي ال أزمة .. الآن حراف عن دين ابراهيم إلى وثنية ضالة خاطئة .
والمخرج اذن، هو دين ابراهيم..
فمن يدلنا عليه. .؟؟
ان اكداسامن الأساطير والروا سب قد طمرت حقيقة هذا الدين فى زحامها وتلالها..
وليس ادل على هذا ،من ان الذين يعبدون الأصنام هنا - في مكة - يزعمون انهم ابناء ابراهيم..
ويهود الشام ونصاراه ، الذين كان يراهم في رحلاته التجارية يزعم كل منهم - على ما بينهم من تناقض-انهم ابناء ابراهيم وورثته فمن ياتينا بالحق المبين.؟
من يعيد الينا ابراهيم، ويعيدنا اليه..؟؟

من يدلنا على الشرعة والمنهاج اللذين نعبد بهما ربنا الحق ، وتقوم بهما حياتنا ..؟؟ وتتوالى الخاطرات الذكية على القلب الذكيً ويردد أبو بكر قول أمية بن أبي الصلت:
الانبي لنامنا فيخبرنا ما بعدغايتنامن رأس مجرانا
اني اعوذ بمن حج الحجيج له والرافعون لدين الله أركانا
ان اختلاف الناس فى دينهم يقض تفكير أبي بكر. وغياب الحقيقة - في حين ان الناس في أشد الحاجة اليها، واللهفة عليها - أمر ياسى له أبو بكر منتهى الاسى..
وانه ليجيل بصره بين قومه ويتساءل : اليس فينامن يجمعنا على الحق بعد أن يدلنا عليه.. ؟
وفجاة بومض في خاطره ذلك المشهد الباهر الذي راءه من قرابة اعوام خمسة ...
حين اتمت قريش تجديد الكعبة، هموا ليعيدوا الحجرالاسود إلى مكانه ، فاشتجر بينهم خلاف كاد يغرق قريشا كلها في الدم، وكاد ينشب فيها حربا أخرى كحرب الفجار.
وعاد المشهد كله يزحم خواطر أبي بكر..
فها هي ذي بطون قريش جميعا ، تتحول إلى شيع متربصة، تقسم كل شيعة ليكون لها دون سواها شرف رفع الحجرالمقدس إلى مكانه .
واذ بحتدم الخلاف ويبلغ ذروته ، فإن أمية بن المغيرة - اكبر قريش يومئذ سنا - يشير على الناس ان يحكموا بينهم أول قادم .. ويرتضوا حكمه ، ويترقبون مليا ، ويحتويهم صمت رهيب ، لا يسمع خلاله الأ صوت الدم في الاوردة والعروق .!.
وبسترسل أبو بكر مع ذكرياته في حبور..
ها هم أولا ء قابعون هناك .. اشراف قريش، والقبائل كلها .. وقد سمرت ابصارهم شطر القادم الجديد .. أول مقبل عليهم .. هذا الذي سيحسم مجيئه خلافهم، ويعصم دماءهم.
وفجاة يسمعون وقع خطوات، كانها نداء النجدة .. وتضطرم الآن فاس..
ويقترب القادم..
يقترب المنقذ.. واذا هو- محمد الأمين ..!!
ولا يكاد يبصرونه حتى يصيحوا فى غبطة : هذا الأمين محمد صلى الله عليه وسلم،نعم الحكم هو .
ويتمتم أبو بكر ، والذكربات تبهر خاطره فيقول لنفسه : اجل،كان نعم الحكم ، ونعم الملاذ . فماكاد يسمع أسباب نزاعهم حتى قال لهم : -هلموا إلى ثوبا .. فجاءوه بثوب.. وضع الحجر في وسطه ثم نادى: لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ، فاستجابوا له حتى اقترب الحجر من موضعه ، فاخذه محمد بيده فارساه مكانه .. وانتهت اسعد نهاية، فتنة كانت تنذر بشر وبيل..!!!

وعاد أبو بكر يسأل نفسه : رجليرذالى قريش نهاها ،فيحسم الخلافمرة أخرى، ويبين للناس ما اختلفوا فيه من الحق..
رجل يرد إلى قريش نهاها،وتمضي معه إلى عافيتها وهداها.. رجل يعطيهم من السلام، واليقين ، والعقل ، مثلما اعطاهم محمد ٠ يوم كاد خلافهم حول الحجر الاسود يفنيهم في معركة مجنونة ..!!
واستجاشت الذكرى السعيدة كل الابتهالات ، والنبوءات التى طالما سمعهامن قس، وزيد، وورقة بن نوفل..والتى كان يحفظها للسابقين من أمثال أمية بن أبي الصلت، وعامر بن الظرب، والمتلمس بن امية..
واقترب مشهد فريد، ظل يقترب ويكبر حتى ملا الشاشة كلها.. مشهد قس بن ساعدة ، وهو قائم بين الناس ملوحا بذراعها المبسوطة في الافق كانها راية، ويقول : يقسم قس بربه ليبلغن الكتاب اجله..
ووذع أبو بكر موكب ذكرياته وهو يتمتم في يقين قائلا: -صدق ابن ساعدة.. ليبلغن الكتاب اجله.. !ا

الفصل الثاني ان كان قال فقد صدق.

وتمضي الأيام طاوية اشواق الذين يؤمنون أو يحسون انهم على موعد مع الغيب عظيم. ويصبر أبو بكر حتى ياتي الله بامره.
ويقبل على شانه وتجارته ،واذ يحين اوان رحلة جديدة إلى الشام ، يشد رحاله مع صحب له من التجار، وتيمم القافلة وجهها شطر البلاد البعيدة ساعية وراء الرزق والربح الحلال.
وفي الشام يجد أبو بكر مناخا روحيا شبيها بمناخ قومه. .
اديان شى، وناس تائهون، وقلة مؤمنة تقلب وجوهها في السماءراجية منها اليقين، ومرسلة اطرافها في افاق الأرض، وكانها تريد ان ترى من أي اقطارها سيهل النذير المتتظر.
و أبو بكر في الشام مثله في مكة،لا يكاد ينجز عمله مع أهل مهنته من التجار حتى يبادر ويسارع إلى نفرمن الاحبار والرهبان، تعرف إليهم خلال رحلاته، وانس منهم عزوفهم عما عليه الناس من باطل ووهم،ورضي منهم بحثهم عن الحق، وانتظارهم لبشرى الله المقبلة.
فمن هؤلاء في الشام،كان يسمع نفس اللحن العذب المبشر بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي سمعه بمكة من ورقة بن نوفل واخوانه..
لقد أخذ هذه المرة يتردد على هذا النفر الصالح من رهبان الشام أكثر من أي مرة سالفة.
ولا بد من أن قلبه انذ كان يجيش أكثر من ذي قبل بمشاعر الحنين النامي إلى الفجر القريب .. ان أبا بكر لينتظر الرسول المقبل فى لهفة غلابة ، لا لانه سيهتدي به وحده إلى الحق .. بل لان الناس جميعا سيهتدون به من ضلالة ، ويفيقون به من غفلة .
أبو بكر الاواب، المحب الودود ، يود الحياة الصالحة لكل حى . وفؤاده الذكي ينطوي على رغبة غامرة في أن يسدي إلى الناس الخير الذي يحتاجون اليه.. لا الخير الذي يملكه..
وانه إذ يملك المال والجاه ، فانه ينفق منهما بغير حساب .
بيد أنهم الناس لا يحتا جون إلى المال وحده ،ولا إلى الجاه معه .
انهم مع ذلك، بل قبل ذلك، يحتاجون إلى الهدى والنور. وهو لا يملك من الهدى واليقين ما يقدمه للناس.. صحيح ان معه مكارم الاخلاق، وانه فيها وبهالمثل اعلى وقدوة سامقة.
لكن الهدى الأعظم لايزال ينقصه ، وينقص الناس.
التعرف إلى الحقيقة .. إلى السر الأكبر الذي يحيط بالحياة، ويحرك الكون .. وبكلمة واحدة الله..!! فاين إلى الله الطريق ؟؟ . وتزدهرخواطره وتتالق ..

ان في الأرض كثيرين يتملكهم ذات الحنين إلى معرفة الله الحق. في الشام، وفي مكة، وفي غيرهمامن بلاد الله لواسعة. كثيرون يؤرقهم الشوق إلى ان يعرفوا . كثيرون تهوى افئدتهم مطالع الضوء ، منتظرين ان تشرق عليهم فجاة كلمة الله. أو يتخلى الله عن عباده هؤلاء..؟؟ ايتركهم حيارى تائهين وقد بسطوا ! ليه سبحانه رجاءهم ..!
ابدا ..
وان الله لارحم من أن يغيب عن الذين يبتهلون إليه ليعرفوه. سيجيء الهدى اذن، لا محالة.. وسيطلع علينا الناس في فجر قريب، من يقول لهم صادقا " اني رسول الله إليكم "
ولكن من أين ياترى يجىء..؟!
ان الذين عندهم علم من الكتاب، في الشام وفي مكة، ليكادون يجمعون على انه سيهل على الدنيامن هناك.. من حيث رفع ابراهيم القواعد من البيت.. من مكة .. وطن الكعبة العظيمة .!!
ولكن مكة تموج بعبادة الأصنام .. بالعا كفين على الميسر والآنصاب والازلام ، وكل رجس من عمل الشيطان..
افلا يجد الله في أرضه الواسعة سوى هؤلاء ليختار من بينهم رسوله ..؟؟ ولكن أي باس في هذا. ؟؟ وهل يدخل الاطباء الأ بيوت المرضى.. ؟!!
وحيث تقضي الوثنية الضاربة على كل أمل فى التوحيد ، الأ تكون الحكمة عظيمة في أن يخرج من المكان نفسه من يرفع راية التوحيد .. ؟!
ثم إن في مكة قوما على الرغم من وثنيتهم، فانهم يحملون تراثا اخلاقيا نادر المثال..
فمن مثلهم يحمي الذمار، ويكرم الضيف، وينصر المظلوم، وبعين على نوائب الدهر.. ؟؟
من سواهم من !!لأمم، لهم اشهرحرم، تتحول السيوف فيها إلى اغصان.. ؟؟
من مثلهم يوقدون النيرا ن شاهقة عالية، لتدل الضيف وتناديه... ؟؟
من مثلهم يقول السيد فيهم لعبده :" ان تجلبن ضيفا ، فات حر " ... !
من اوتى من الحكمة ما اوتوا .؟
هؤلاءالذين انجبوا أمرا القيس، وزهيربن أبي سلمى، والنابغة الذبيانى، وطرفة بن العبد، وامية بن أبي الصلت، ولبيد بن ربيعة، وكعب بن زهير، وقس بن ساعدة، وسحبان وائل..؟؟

***

ويستطرد أبو بكرمع خواطره.. وتتراءى له أبهى فضائل قومه ومزايا امته. اهناك اقوم وهبوامن صدق الفطرة ما وهب العرب.. ؟؟ انهم قوم صدق، ولا مكان للزيف ولا للكذب في حياتهم وسلوكهم.. صادقون في فضائلهم.. وصادقون في رذائلهم.. !!
ان حياتهم واضحة وضوح الصحراء التي يقطنونها ، والسما ء التي فوقهم. .

ومن صدقهم هذا ، ووضوحهم، جاءتهم الحكمة ، وقدروا على العرافة، وتعلموا لغة الأشياء الصامتة فى الحياة .. !
وتتوالى الخواطر الرشيدة في وعي نسابة العرب وحافظ حكمتها ، ويمضي كانه يحدث تفسه : هذا هو قس بن ساعدة.. هذا ورقة بن نوفل.. هذا زيد بن عمرو بن نفيل. ومن قبلهم عشرات وعشرات عمرت بهم الاجيال والسنون - كلهم استنكفوا عن عبادة الأوثان ، وشقوا عصا الطاعة عن دين قومهم وما يعبدون ، وهتفوا بدين ابراهيم ، وتطلعوا إلى السماء ينتظرون كلمة الله ، ومامنهم من أحد الأ تمنى ان يكون النبي المنتظر .. ومع هذالم يدع النبوة منهم أحد . !!
ولقد كان إيمانهم وطهرهم وسلوكهم.. وكانت ثقة الناس بهم مدعاة لتصديقهم لو ادعى أحدهم النبوة وقال: اني رسول من عند الله.
كان الذين يناون عن عبادة الأصنام سيسارعون إلى اتباعهم ، فلماذالم يدع النبوة من هؤلاء أحد .؟!
لانهم صادقون.. اجل.. ان أعظم مزايا قومنا ، الصدق والوضوح.. وإن العربي ليستنكف ان يكذب على ناقته فيقول لها ،وقد هاجها الظما الشديد :
أريد امنيك الشراب لتهدئي ولكن عارالكاذبين يحول
افيخجل العربي العادي ان يكذب على ناقته .. ثم يكذب على الله أولئك الحنفاء المتطهرون.؟!
نحن إذن أهل صدق عظيم.. وهل يكون النبى الاصادقا. .
فلماذا لا تكون هذه النبوءات حقا .. النبوءات التي تكاد تجمع على أن النبي القادم سيهل على التاس من جوار الكعبة، بيت الله العظيم ۰۰ ؟؟
كانت الخواطر تغدو وتروح على هذا النحو في وجدان أبي بكر وعقله. والآن، وقد انجز اعماله فى الشام فانه يتهيأ للعودة إلى وطنه وبلاده. وقبيل رحيله بأيام قليلة يرى رؤيا:
يرى القمر قد غادر مكانه في الافق الاعلى ، ونزل على مكة ، حيث تجزا إلى قطع وأجزاء تفرقت على جميع منازل مكة ، وبيوتها . ثم تضامت هذه الأجزاء مرة أخرى ، وعاد القمر إلى كيانه الأول، واستقر في حجر أبي بكر.!
صحامن نومه، وللرؤيا على وعيه سلطان مبين. وسارع إلى أحد الرهبان المنتقين الذين الفهم، وعقد معهم من صلات الروح ما كانت تقر به عينه . وقص عليه الرؤيا ، فتهلل وجه الراهب الصالح وقال لأبي بكر : لقد اهلت أيامه. .!
ويتساءل أبو بكر : من تعني.. ؟ النبي الذي ننتظر ۰۰ ؟؟ ويجيبه الراهب : نعم ، وستؤمن معه ، وستكون اسعد الناس به .. !
لم تكن رؤيا أبي بكرمجرد حديث للنفس في منامها ، ولا مجرد تعبيرعن اشواق مستكنة فى لاشعوره ..

بل كانت ارهاصا بحقائق وطيدة رآسخة املت على صاحبها يقينا لا يتزعزع
بحاجة الناس إلى رسول، وبحتمية مجيءهذا الرسول.. وكانت رؤياء هذه،
بشرى بين يدي يقينه، وتحية الغيب لروحه المطلعة وإيمانه المتلهف. وهو حين
يختار الله محمدا ٠ للرسالة ..
وحين يسارع أبو بكر إلى الإيمان به ومعه، فلن يفعل لانه رأى رؤيا .. بل لانه
رأى رؤية .. رؤية عقل ، ومنطق ، وبصيرة اتاحها له طول تفكره ، وطول
اصغائه للحكمة ، وافاءها عليه - قبلا - سبق اصطفاء الله له، وهدايته اياه. !
ومع الصباح شد أبو بكر رحاله مع القافلة العائدة إلى مكة ،كانت النوق
والجمال تهرول، فرحة منتشية كانها فى عيد.
وهبت نسائم حلوة تحمل إلى الركب عطر بساتين الشام ،وكانها تحية الوداع
تنثال
ورا ءهم من البلد الطيب الذي غادروه من ساعات. وعزف الحنين المستيقظ
على اوتار القلوب المشتاقة فغردت كل جارحة في جسم وانطلق الركب
يسابق اشواقه .. وارتفع صوت حاد ينشد :

ساقدح من قدري نصيبا لجارتي   ادين إذا تقسمت الأمور
اذا انت لم تشرك رفيقك في الذي بكون قليلالم تشاركه في الفضل

ويجيبه صادح آخر ، وكانها مباراة

ايا ابنة ععبد الله وابنة مالك   ويا بنة ذي البردين والفرس الورد
اذا ما صنعت الزاد فالتمسي له   اكيلا لست اكل وحدي
اخا طارقا أو جار بيت فانني   اخاف مذ مات الاحاديث من بعدي

واني لعبد الضيف ما دام ناويا   وما في الأ تلك من شيمة العبد

ويخرج هذا التغريد الحلو أبا بكر من صمت نفسه ، وتتالق أمامه من
جديد فضائل

قومه .. هؤلاء الذين يعدون من مذمات الحياة ونقائصها ان يأكل الرجل
وحده دون أن تهبه الحظوظ الحسنة ضيفا يأكل معه .. !! وتتعا لى اناشيد
الركب وتتبارى قصا ئده .. وترتفع في السماء ذراع أبي بكر كانها راية،
ويعلو صوته قائلا : ايكم ينشدنا قول أمية بن أبي الصلت ؟ ويجىء صوت
من طرف القافلة :

....
اي قوله تريد يانسابة العرب ،فان لامية قولا كثيرا ؟؟
ويجيبه أبو بكر: الآن بي لنا.
ويرتفع صوت الرجل منشدا قصيدة أمية :

الانبى لنامنا فيخبرنا   ما بعد غايتنامن رأس مجرانا
فقد علمنا لو أن العلم ينفعنا   ان سوف يلحق آخر ا نا بأولانا

وقد عجبت وما بالموت من عجب ما بال احيائنا يبكون موتانا
وتزداد الابل هياما ، وتضطرم بالحداء نشوة ، فتقطع الأرض وثبا .. وتهتز افئدة المسافرين غبطة واملا ..
ومن يلق عينيه ساعتئذ على وجه أبي بكر المتالق تحت ضوء الحكمة، يبصر دموع الشوق تنحدر متألقة على وجنتيه كحب الجمان .. !!
ويستمر المنشد في انشاده قصيدة أمية :
يا رب لا تجعلنى مشركا أبدا واجعل سريرة قلبى الدهر إيمانا
اني اعوذ بمن حج الحجيج له   والرافعون لدين الله أركانا
مسلمين إليه عند حجهمو   لم يبتغوا بثواب الله اثمانا
وتمضي القافلة إلى غايتها ،تبيت إذا دئرها الليل ،وتنطلق إذا ناداها الهجير.. لقد مضى زمن طويل منذ غادروا مكة إلى الشام..
ترى ماذا جد هناك من امور .. ؟؟
هاهي ذي الأرض تطوى..
الشا م تذهب بعيدا .. بعيدا ..
ومكة تقبل حثيثا .. حثيثا ..
واخيرا .. تطل مشارف الوطن، وعبير الاهل..
وهناك ، عند تلك المشارف كانت كوكبة من الناس تنتظر ...
لقد بصروا بالقافلة من فوق ذرا الجبل ، فتنادوا وتجمعوا لاستقبالها ، وكلما اقتربت القافلة من المنتظرين احست منهم لغطا كثيرا واضطرابا .
ترى ، ماذا حدث .. ؟!
والتقى القادمون والمستقبلون في عناق ومودة ، تعالت خلاله الاصوات بالجديد الغريب من الآن باء.
الا تعلمون .. ؟ ان قريشامنذ فارقتموها لا تنام الليل .. !!
- ويح قريش.. ولماذا . !!
ان محمدا وضع الجمر على انفها .. !!
- الجمر ..؟ كيف ..؟ ماذا جرى.. ؟!
انه يقول: ان الله أرسله لنعبده وحده ونذر آلهتنا .. !!
وهمس واحد ممن تستهويهم الفكاهة قائلا : دعه يحطمها ، فطالما زاحمتنا في اكل الثريد ، وشرب اللبن .. !!
وا ختلطت الاصوات فى ضوضاء مثيرة ..
واقترب من أبي بكر بعض ذوي الآن اة، واخذ يقص عليه النبأ فى هدوء ، وأبو بكر يغالب دموعه وجبوره .. !!
ولدى مدخل مكة قابلتهم جماعة صغيرة يتقدمها ابوجهل – عمرو بن هشام - . وتعانقوا جميعا ..
وبدا ابوجهل الحديث: أو حدثوك عن صاحبك يا عتيق ..؟
وكان أِبو بكرقبل اسلامه يسمى عتيقا .

اجابه أبو بكر.
تعنى محمدا الأمين ..؟
قال ابوجهل: نعم ، اعني يتيم بني عبد المطلب.. ا!
ودار حوار سريع بين الاثنين : اسمعت انت ما يقول ياعمرو بن هشا م .. ؟
نعم ، سمعته ، وسمعه الناس جميعا ..
-وماذا قال..؟
يقول ان فى السماء الها ، أرسله الينا لنعبده ونذر ما كان يعبد اباؤنا .. ا!
-او قال ان الله اوحى اليه. ؟؟
الم يقل كيف كلمه ربه .. ؟؟
-قال: ان جبريل اتاه فى غار حراء ..
وتالق وجه أبي بكر كان الشمس قد اختصته آنئذ بكل ضيائها وسناها ، وقال في هدوء مجلجل: ان كان قال ، فقد صدق .. !!!
ودارت الأرض بابي جهل، وتلعثمت خطواته، وكاد جسمه يتهاوى فوق ساقيه المهزولتين..
وتناقل الناس كلمة أبي بكر، من واحد إلى آخر حتى صار لهم بها دوي كدوي النحل.
وقصد أبو بكر داره ليرى أهله، وينفض عنه وعثاء السفر، وبعدها يقضي الله أمرا كان مفعولا.
والآن، لنترك أبا بكر قليلا في داره وبين أهله، حيث نعاود السير في موكبه بعد قليل لنلتقي به بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠ ولنقض بعض الوقت مع كلمته الفذة الجامعة: "ان كان قال فقد صدق ..!!ا
اجل.. فهذه العبارة الأمينة المضيئة، هي التي ستشكل وفقها كل حياته المقبلة، وستجعل من صاحبها استاذا للبشرية في فن الإيمان. .
انظروا.. ان موضوع الرسالة لم يكن جديدا على أبي بكر، فهو بكل ما معه من ذكاء، وفطرة، ومنطق، قد قلب كل وجوه النظر السديد في هذه القضية، وانتهى إلى ان الله لن يترك عباده حيارى. وهوبكل ما معه من ذكاء وفطرة ومنطق،كان خبيرا بالرجال..
ولقدعاش مع محمد صلى الله عليه وسلم سنوات طوالا، ورأى فيه النموذج الحي للإنسان الكامل..
وهكذا، لم يكد يتلقى سمعه النبأ العظيم، حتى كان إيمانه الذكي مهيا لياخذ دوره من فوره.. ولم تكن المشكلة بالنسبة إليه تتمثل في احتمال الصدق والكذب،بل كانت تتمثل فى هذا السؤال: هل صحيح ان محمدا قال هذا الذي يرويه الناس عنه..؟؟
ان كان قال.. فقد صدق..!!
من شاء فليبحث، وليفحص، وليتشكك، ولينتظر.. أما أبو بكرفلا.
وحسب محمد ان تنفرج شفتا٥ عن كلمة..

حسبه ان يحرك لسانه بقول. فإذا الصدق الذي ليس كمثله صدق. وإذا اليقين الذي لايعلوه يقين.! وهذه الثقة بكل عرامها"1" وتقواهالم تعط كما قلنا اعتباطا.. إنما نسجت عراها الوثقى من كل نبوءة صادقة سمعها.. ومن كل منطق قويم اهتدى به، ثم من خبرته التي لا تكذب، بصدق محمد..وعظمة محمد..والحياة الطاهرة التى رأى محمدا صلى الله عليه وسلم يحياها.
محمد ٠..

"١"العرام : الكثرة والشدة، ويقال : جيش عرام، وعرمرم،اي: كثير شديد.

ما اطهرالاسم، وما أعظم صاحبه.. !!
اربعون عاما عاشها بين الناس قبل ان يجيء هذا اليوم الذي اختير فيه ليبلغ كلمة الله.
اربعون عاما كاملة . لمريخنرخلالها أمانة.رولمريزيفركلمة. ولم يكذب قط ، ولو مازحا .. ا! لم تأخذه عن الطهر نزوة ، ولا عن العظمة دنية !! لم ير قط الأ عظيما ، وكفؤا لكل عظيم..!
مذ كان طفلا يدعوه اترابه إلى مشاركتهم اللعب ، ومطارحتهم اللهو البريء ، فيلوي عطفه عنهم ويقول لهم : "لم اخلق لهذا".. !!
حتى صار شابا، فملا شبابه فجاج مكة عبيرا وطهرا ، وصار اسمه تسبيحة عذبة على كل لسان..!
وما كانت قريش هازلة معه، ولا مجاملة له، ولا متفضلة عليه حين خلع عليه اجماعها لقب "الأمين"..!!
بل كانت بهذا ترفع من قدر نفسها ، وتباهي من حولهامن قبائل العرب بهذا الذي ارتفع في سنه المبكرة إلى اعلى مستويات الأمانة .. لا أمانة المال وحده ، ولا أمانة الودائع وحدها.. بل الأمانة على كل ما فى الحياة من قيم، ومثل، وأشياء.
الان يكذب محمد ا! الآن تتحول فجاة حياة قامت على الصدق المطلق إلى هذه الاكذوبة الضخمة..ادعاءالرسالة والكذب على الله.؟؟
محمد التواب ، الاواب. الخاشع .. الضارع .. المتبتل الأمين ، الطاهر - يكذب على الله. ؟!
ابدا .. أبدا .. أبدا ..
ومنذ متى، كان من الحنفاء العابدين فى قومه من يكذب على الله.. ؟
وهل كان في ادعاء الرساله مغنم يزين للناس اتيائه. .؟! أو لم ير محمد صلى الله عليه وسلم بعينه كيف صرخت قريش في وجه زيد بن عمرو بن نفيل برغم شيخوخته المائلة للغروب، برغم انه لم ياتها بدين جديد ، ولم يضع المعول فوق الهتها وأصنامها .. ؟

فكيف إذا جاءها رسول مثل محمد صلى الله عليه وسلم، يقول للناس :
اتركوا الأصنام فإنها ضلال، واعبدوا الله الحي القيوم.. !
اهنالك مخاطرة تنذر بالهول كهذه المخاطرة .. ؟! وهل يختارها عاقل يتسلى بها ويتبذخ.؟!
ام انها رسالة فرضت نفسها فرضا على صاحبها ، وإيمان حق ألقى عباه الذي لا يقاوم على مصطفاه.. ؟!
ان محمدا محمد صلى الله عليه وسلم انضر مثال لكل ما ينعم به الله من عافية في العقل، وفي الخلق، وفي الضمير.. وما طوفت به ظنة ذات يوم..
وان الحنفاء الحكماء ليبشرون من عهد بعيد بالنبي القادم.
وان الناس حيثما يمم أبو بكر وجهه، لتأخذهم فاقة شديدة إلى هاد ومعلم.. إلى رسول من عند الله يبلغهم كلمته، ويرفع وسط صفوفهم رايته.
افان جاء الرسول يكفر به.. ؟ ومحمد بالذات..؟؟ لا...
"ان كان قال، فقد صدق" ..!
هكذا كان منطق الإيمان فى وعى الرجل الرشيد أبي بكر .
انه ليفرك كفيه فى غبطة، ويردد آخر مرة قول أمية بن أبي الصلت:
الانبي لنامنا فيخبرنا.. اجل،اخرمرة.
فمنذ اللحظة التى سيلقى فيها محمدا، لن يقول متمنيا : الآن بي لنا .. فقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت البشرى.
وسيكون شعاره، ونشيده وهتافه دوما : ان كان قال، فقد صدق .. ا!
سيقولها كلما جاء محمد باية. سيقولها عند كل فتنة مرجفة.. سيقولها عند كل هزيمة حالكة.. سيقولها حتى يثيبه الله عليها، فينعته ب " ثان اثنين و الصديق "
اما الآن ، فلنعد اليه، ولنصحب خطوه المبارك، إذ يأخذ طريقه إلى رسول الله لنشهد أول لقاء بين" الرسول صلى الله عليه وسلم و الصديق ..!!
غادر أبو بكر داره إلى دار الرسول تسبقه اشواقه..
وكان الرسول عليه الصلاة والسلام مقيما في داره مع زوجه خديجة رضي الله عنها.
خديجة.. التى كانت أول العالمين اسلاما معه وإيمانا به..
وطالما سمعت هى الأخرى من قريبها ورقة بن نوفل تراتيل، الحنين إلى النبي, المقبل.
ولقدعرفت محمدا زميلا لها في تجارتها ، ثم عرفته بعلا وزوجا ، فما رات سلوكا اطهر، ولا قلبا اكبر، ولا عقلا ارجح، ولا صدقا أعظم مما رات من محمد..
من أجل هذا ، لم يكد الرسول · يحدثها عن النعمة التي افاءها الله عليه بالوحي حتى قالت من كل يقينها : صدقت..!.

ولقد اختارها الله على علم لتكون شريكة رسوله في الحياة حين ينزل عليه الوحي بجلاله واثقاله ، وهيبته ورهبته ..
وكان هنا مع الرسول وزوجته فتى ممشوق، هو علي بن أبي طا لب رضي الله عنه ..
كان الرسول صلى الله عليه وسلم ضمه من عهد بعيد حين نزلت بعمه ضائقة ، وبقي معه ، فلما جاء الوحي سارع الفتى إلى الإيمان.
قرع أبو بكر الباب، ونادى..
وتالق بشر الحياة جميعه على محيا الرسول صلى الله عليه وسلم وقال مناديا خديجة:
انه عتيق ياخديجة. .
وسارع الرسول إلى لقاء صاحبه . وجرى الحديث بينهما في مثل سرعة الضوء وصفائه ..
قال أبو بكر :
اصحيح ما انباني به القوم يا اخا العرب .. ؟
اجاب الرسول سائلا : وماذا انبئوك. .
قالوا : إن الله أرسلك الينا لنعبده ، ولانشرك به شيئا ..
- وماذا كان جوابك لهم يا عتيق.
- قلت لم: ان كان قال، فقد صدق. !!
وفاضت عينا الرسول صلى الله عليه وسلم من الدمع غبطة وشكرا .
وعانق صا حبه وقبل جبينه ومضى يحدثه كيف جاءه الوحي في غار حراء قائلا له:
" اقرا باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرا وربك الاكرم. الذي علم
.بالقلم. علم الإنسان مالم يعلم"... ٠
وخفض أبو بكر رأسه في خشوع وتقوى، تحية لراية الله التي راها ترتفع أمامه إلى اعلى السارية ، متمثلة في هذه الآيات المنزلة.. !!
ثم رفع رأسه، وشد بكلتا يديه على يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اشهد إنك صادق امين.. اشهد ان لا اله الأ الله .. واشهد إنك رسول لله .. !!

***

وانئذ كان الغيب يجري أعظم عملية تفجير تاريخي ..
كان كل ما للإسلام من مستقبل وحضارة واتساع ، يغادر تلك اللحظة وياخذ كل شيء مكانه على أرض الغد الطويل..
اجل ، آنئذ ، وفي تلك اللحظة التي شهدت يدا تصافح ، وقلبا يبايع ، كانت نفس هذه اللحظة، تتفجر وتخرج خباها المهول.. ا!
كانت تلد زمانا باسره.. باجياله.. بمعجزاته وانتصاراته.

ولم يسمع أحد يومئذ دوي هذا التفجر.. حتى الرسول وصاحبه؛ لان صوت اليقين في قلبيهما كان اعلى من كل صوت عداه..!!

****

هكذا آسلم آبو بكرفي هدوء، ويقين، وقوة..
وسيظل حاملا رايته فى هدوء ، ويقين، وقوة..
اسلم الرجل الذي اصطفاه الله ليكون لرسوله الصديق. وثاني اثنين، وغدا يكون الخليفة.
اسلم الرجل الذي وإن لم يكن نبيا، فانه سيكمل دور النبي...
وفي زيارته التالية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن وحده. بل كان معه وفي صحبته خمسة من اشراف قريش، اقنعهم أبو بكرالإسلام، فجاءوا يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم .. أولئك هم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله..
اجل هؤلاء الخمسة الأ علا م، مرة وا حدة.
وكانت هذه اولى بركات أبي بكر. فعما قليل تنمو صفوف المقبلين على الإسلام.
وسيقبل الناس بعضهم على بعض قائلين: - محمد و أبو بكر ..؟! والله لا يجتمع مثلهما على ضلالة أبدا ..
امن أبو بكر اذن.. فمن أي طراز كان إيمانه.. ؟؟
ان عظمة هذا الرجل ماثلة فى إيمانه.. ماثلة فى انه مارس فوق أرض البشر وفي دنيا
الناس نوعامن الإيمان جد عجيب.. !!
إيمان محير! سهل إلى اصعب مدى. كالذرة لا تكاد ترى. وكالذرة، تنطوي على أعظم طاقة مذهلة.. !
ان إيمان أبي بكر، كالنسمات الوديعة الرقراقة، تنشقها دون أن نحسها ، ودون أن تثير فينا الآن تباه، ولكن حين تعرض لاحد أزمة اختناق ندرك ان هذا الشىء الذي كان عاديا،هو سر الحياة! وكل الحياة.. ا!
كذلك سيعيش أبو بكر بإيمانه بين الناس هادئا وديعا .
ولكن حين تلم بالإسلام أزمة ، يتبين الناس فجاة ، وعلى صورة نادرة باهرة ، أي طاقة جبارة شامخة ، تستقر تحت جوانح هذا الوديع الرقراق . !
ساعتئذ يدرك المسلمون ان الآن فاس الها دئة التي كانت تتردد بين صفوفهم ، هي روح الحياة ، وإن الإيمان الحى الذي يحمله هذا الرجل فى هدوء ، إنما هو قدر هائل لا تصمد أمامه عقبة ، ولا مستحيل ..
لقد تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فيما بعد كثيرا عن أبي بكر ..
وكان مما قال عنه :
" ما لاحد عندنا يد ، الأ وقد كافاناخ بها ، ما خلا أبا بكر ، فإن له عندنا يدا يكافئه الله بها يوم القيامة . " .
" وما نفعنى مال أحد قط ، مثلما نفعنى مال أبي بكر .." .

" وما عرضت الإسلام على أحد الأ كانت له كبوة عدا أبي بكر، فانه لم يتلعثم"
.. ا
هذا أصدق وصف وازكاه لإيمان أبي بكر . انه الإيمان الذي لم يتلعثم قط.
* لم يتلعثم عند السانحة !!الأولى،بل كان كانه على موعد مع الدين الجديد ، فسارع إليه مسارعة الظامئ المشتاق.. !!
* ولم يتلعثم عندما انتفض أهل الردة ضد الإسلام، وهبوا به اثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل إزداد هذا الإيمان فى قلب المحنة ثباتا ورسوخا ،وتالقا وتفوقا .
وعرف واجبه من فوره، ثم باشرهذا الواجب على اكمل وجه واتمه ..
* ولم يتلعثم فيما بين ذينك من مواقف امتحن يها إيمان المؤمنين امتحانا رهيبا، فلم يكن ثمة ارسخ ولا اقوى من إيمان أبي بكر..
ولنشاهد الآن بعضامن مواقف ذلك الإيمان الفريد بالله، وبرسوله ، وبدينه.
***
في ضحى يوم من الأيام اجتاح أهل مكة جميعا حديث اثار كل ما في أنفسهم من دهشة وعجب.
فقد كان ابو جهل ذاهبا لبعض شانه حين مر بالكعبة فابصر رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وحده فى المسجد الحرام ، صامتا مفكرا ..
واراد ابو جهل ان يؤذي الرسول ببعض سخرياته. فاقترب منه وساله : اولم باتك الليلة شيء جديد .. ؟!
فرفع الرسول صلى الله عليه وسلم رأسه نحوه واجاب في جد: نعم، اسري بي الليلة إلى بيت المقدس بالشام.
فقال ابو جهل مستنكرا : وأصبحت ين اظهرنا .. ؟؟
قال عليه الصلا ة والسلام : نعم ..
وهنا صاح ابو جهل في جنون : يا بني كعب بن لؤي، هلموا .. !! واقبلت قريش ، ينادي بعضها بعضا ..
ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حدث أحدامن أصحابه المؤمنين بنبا الاسراء بعد ..
تجمع الناس عند الكعبة ، ومضى ابو جهل يحدثهم في حبور بما سمع ، فقد ظنها الفرصة المواتية التي عندها سينفض عن الرسول كل من آمن به.
وتقدم واحد من المسلمين، وسال الرسول ۰ : احقا اسري بك الليلة يارسول الله.؟
فاجاب الرسول : نعم، وصليت باخواني الآن بياء هناك .. وسرى في الجمع المحتشد خليط متنافر من المشاعر المهتاجة.
ورحب المشركون بما سمعوا ، ظانين ان في هذا النبأ نهاية الرسول صلى الله عليه وسلم.. واحتوشت الشكوك فريقامن المسلمين.

وسعى بعض رجالات قريش إلى بيت أبي بكر فرحين شامتين، لا يخالجهم ريب في انهم سيعودون ومعهم ردته عن هذا الدين..!
فأبو بكر يعرف أكثر من غيره ، ما يحتاجه قطع المسافة بين مكة والشام من سفر مضن وزمان طويل.. فكيف بالذي راح، ورجع، وصلى هناك. . كل ذلك في بضع ساعات!
بلغوا دار أبي بكر، وصاحوا به : يا عتيق .. كل أمر صاحبك قبل اليوم كان امما - يعني هينا ومحتملا - أما الآن فأخرج لتسمع.
وبزع عليهم أبو بكر دهشا تجمله سكينته ووقاره، وسالهم : ماذا وراءكم.. ؟
قالوا : صاحبك !
وانتفض أبو بكر وقال: ويحكم.. هل اصابه سوء .. ؟!
وتراجع القوم قليلا ، وا زدرد كل منهم ريقه في مشقة،وقال قائلهم :
-انه هناك عند الكعبة ، يحدث الناس ان ربه اسرى به الليلة إلى بيت المقدس ..
وتقدم آخر يكمل الحديث ساخرا ، وقال : ذهب ليلا ، وعاد ليلا ، وأصبح بين اظهرنا ..
فاجابهم أبو بكر، وقد تهلل محياه: " أي باس في هذا ؟اني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك. . أصدقه في خبر السماء ياتيه في غدوة أو روحة ثم اطلق عبا رته الصامدة. "ان كان قال فقد صدق". . !!!
اهناك كلمات تستطيع النهوض إلى مستوى الاشادة بهذا الموقف أو التعليق عليه دون أن يغلبها الحياء والعجز على امرها..؟؟ عبارة وا حدة تستطيع المناسبة ان تسعفنا بها، هي : يا واهب هذا اليقين سبحانك.. !!!
هذا رجل لم يؤمن إيمان المصادفة، بل آمن إيمان الفطنة.. لم يؤمن بعواطفه، بل آمن بذكائه.
لم يد فعه إلى الإيمان منطق القلب و حده ٠٠ بل منطق العقل قبله..
انظروا إلى قوله: " اني لا صدقه فيما هو أبعد من ذلك.. أصدقه في خبر السماء ياتيه في غدوة أو روحة". اجل.. افلا يصدقه إذا قطع بضعة اميال في ليلة واحدة..؟!
ان الله الذي آمن به أبو بكر لا منتهى لقدرته.. والرسول الذي آمن به أبو بكر لا شك في صدقه.. وما أكثرالظواهرالتي نراها ونحسها ويعجزالعقل عن تفسيرها.! فلتكن هذه واحدة منها.
الذي يعنيه ان يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد اخبر وقال، وعندئذ يكون كل شيء ممكنا وصادقا.!!
اذا كان وافد السماء وسفيرها ، يغدو ويروح بين السماء والأرض في لحظة ملقيا
القرآن على قلب النبي ليكون من المنذرين..

واذا كان أبو بكر قد آمن بهذا ، ففيم يشك بعد هذا .. ؟ فى سفر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس واوبته منه في ليلة واحدة ؟ واي باس في هذا ؟
ان الزمان والمكان· وإن البعد والقرب.. كل أولئك امور تتعلق بقدرة الناس.
اما الله الذي يقول للشيء : كن - فيكون، فما الزمان والمكان أمام قدرته..؟؟
ما الابعاد والاماد أمام مشيئته.؟؟
ليست المشكلة اذن: كيف ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس وعاد منه في ليلة.. ولكن المسألة هي: هل قال محمد ذلك..؟
"ان كان قال، فقد صدق" .. !!!
وهرول أبو بكر إلى الكعبة حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وعند الكعبة رأى الجمع الشامت المرتاب ، متحلقين لاغطين .
ورأى نور الله هناك في جنته الخاشعة الضارعة مستقبلا الكعبة ، لا يحس من اللغط الدائر حوله شيئا، ولا يسمع للحمقى ركزا . وانطرح أبو بكر عليه يعانقه ويقول : بابي انت وامي يا رسول الله.. والله إنك لصادق، والله إنك لصادق ..
***
ومشهد آخر من مشاهد هذا الإيمان الفريد يتجلى خلاله تهلل هذا الإيمان للتضحية والبذل.
فذات يوم، وأبو بكر في داره سعد بزيارة رسول الله له ، وفوجئ بالرسول يقول له : يا أبا بكر ، ان الله إذن لي بالهجرة..
كان ا صحاب النبي عليه السلام ، قد سبقوه إلى المدينة مهاجرين ، وبقي الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر ان ياذن الله له، وبقى أبو بكر بجانبه ..
والآن وهو يسمع النبأ يكاد قلبه يطير من الفرح ويقول : الصحبة يا رسول الله .
فيجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم: الصحبة يا أبا بكر. .
ان الهجرة في حد ذاتها رحلة عافية؛ فهي اطراح لاذى قريش ولمؤامراتها التي لا تؤذن بانتهاء. ولقد هاجر المسلمون إلى المدينة باذن من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانهم بالهجرة لسعداء ، فقد اراحتهم من سفه قومهم،وان يك لفراق الاهل والوطن مرارة وغصة.. و لكن الهجرة بالنسبة للرسول بخاصة ، مخاطرة ، ما مثلها مخاطرة.. فإن قريشا إذا كانت قد تركت المسلمين يغادرون مكة في سلام، فما هي أبدا بتاركة رسول الله .
ولقد تحدث زعماؤها في هذا كثيرا ،وانتهوا إلى انهم إذا تركوا الرسول صلى الله عليه وسلم يخرج إلى المدينة، ويرفع في سمائها رايته، فلسوف يجمع العرب حوله ثم يغزو بهم قريشا .. ومن ثم قرروا ان يظفروا برأس الرسول.. ولعلهم إنما تركوا المسلمين ومعهم عمربن الخطاب - وعمر بصفة خاصة - نقول : لعلهم تركوهم يهاجرون ليبقى الرسول بينهم بلا انصار حتى يتاتى لهم الخلاص من أمره بسهولة .!

اذن فهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ليست نزهة ، ولا مجرد هجرة ، إنما هي مخاطرة مهولة . ومطاردة فادحة..
وأبو بكر يعرف هذا جيدا ، ويعلم أن قريشا ستملا السهل والجبل بفرسانها ومقتفي الخطى والاثار فيها حتى تظفربالنبي المهاجر.
فما باله يتهلل لهذه الصحبة ، ويحرص عليها ، ويطير قلبه فرحا بها .. ؟ انه الإيمان.!
إيمانه - أولا - بأن الله لم يلق بكلمته إلى الناس وفي مشيئته ان يتركها لقريش تذروها مع الريح من أول صيحة..
وإيمانه -ثانيا - بأن الإيمان مسئولية وتضحية ، ولقد أصبح مسئولا عن هذا الدين منذ تبعه ، وعن هذا الرسول منذ بايعه .. ومهما تكن العواقب اذن، فلن يكون ثمة سوى طريق واحد لا يعرف أبو بكر سواه.. ذلكم هو طريق الواجب الذي يحدده إيمانه ، وطريق التضحية التي يتطلبها هذا الإيمان.
لقد آمن بالله ، وبرسوله ، وبدينه . ومهمته بعد ، تتلخص في أن يجعل من حياته كلها سياجا يحمي به الدعوة والداعي . الدين والرسول صلى الله عليه وسلم...
وحين يوفق فى مهمته هذه، فتلك عنده هى الحظوظ الوافية التى يرجوها ، وينتشى حبورا بها ،ويحن كلما تزايدت اهوالها وأخطارها ،انه أعظم أهل الأرض حظا ،واوفاهم سعادة وغنما. .! ومن هنا كانت غبطته الفائقة حين رأى نفسه زميلا للرسول صلى الله عليه وسلم في هجرته. ولقد اجزل الله له المثوبة والمكافاة.
وكانت المثوبة مزيدا من الإيمان، ملا له به قلبه في ضوء تجربة من أروع التجارب.
فحين اوى مع الرسول إلى الغارليختفيا فيه من قوى المطادة التي كانت تلهث وراءهما طمعا فى نيل الجائزة المغرية التى اهدتها قريش لمن ياتيها بالرسول عليه السلام.
حين اويا إلى الغار معا- الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصديق، واقترب المطاردون من الغار ، وراحوا يطوفون حوله - وفزع أبو بكر تحت هول السؤال الذي أخذ يلح عليه : ماذا لونظرأحدهم إلى جوف الغار..؟ ماذا لو ظفر المجرمون برسول الله.
حيننذ كان الله يدخر للصديق الدرس الاخير الذي سيكمل إيمانه ، ويبلغ به اعلى مستويات الإيمان المتا حة لبشر ..
فلقد ألقى على الرسول سؤاله : يا رسول الله، لو نظر أحدهم الينا لرانا..
قال هذا وعيناه تتجهان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياء وقلق.
ولم يكد بصره يلتقي بمحي!! الرسول حتى رأى عجبا .. رأى وجها متهللا كانما القيت عليه آنئذ كل ما فى الحياة من سكينة ، وطمانينة ، وامل..
ورأى راحة الرسول تلامس صدره ، فكأنما تِسكب فيه الطمانينة سكبا .. !ا

وقال لله الرسول صلى الله عليه وسلم: يا آبا بكر لا تحزن ، ان الله معنا . ماظنك باثنين، الله ثالثهما. ؟!!
وسكن أبو بكر ،ورأى المطاردين يطوفون بالغار في خبال، ثم يرتدون عنده حيارى وعميانا ،لم ينالوا شيئا .. !! تم له يومئذ إيمانه، وا ستوى على عرش اليقين يقينه.
وكانما ا ختارته الأقدار لصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الهجرة لتريه هذا المشهد .
بل لكانما أراد القدر هذا المشهد وهياه ، ليبلغ أبو بكر من عظته البالغة كل ما تبقى له من خظوظ إيمانه ؛ جزاء وفاقا ، وكاسا دهاقا ، لن يظما أبو بكر بعدها أبدا إلى إيمان ويقين .. لقد بلغ إيمانه الذروة في لحظة الغار..!
***
ولنتابع سيرنا وراء هذا الإيمان الفذ لنرى جلاله المهيب في مشهد تلومشهد .. في السنة الخامسة من الهجرة ، وفي شهر ذي القعدة ،غادر الرسول ٠المدينة ، ومعه عدد كبير من المسلمين، قاصدين مكة ليعتمروا .. وساق الهدي أمامه لتعلم قريش ان الرسول جاء زائرا للبيت الحرام ، ولم يات مقاتلا .
بيد أنهم نبأ هذه الزيارة ، كان قد سبق إلى قريش بطريقة ما فحشدت جموعها ، وصممت على منع الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه من دخول مكة وزيارة الكعبة .
ونزل الرسول وأصحابه عند مهبط الحديبية . واوفد إلى قريش عثمان بن عفان ليشرح لها سبب مجيئه.
و اوفدت قريش سهيل بن عمرو ليفاوض الرسول في الأمر.
وانتهت المفاوضة إلى عقد ميثاق ، يعود المسلمون بمقتضاه إلى المدينة مرجئين زيارة البيت إلى العام لقادم، كما يتضمن الميثاق التزام المسلمين بأن يردوا إلى قريش من ياتيهم مسلما ، ولا ترد قريش إلى المسلمين من يعود اليها مرتدا .
ولم يكد الكاتب ينتهي من كتابة الميثاق، ولم يمهره الرسول صلى الله عليه وسلم بخاتم النبوة بعد، حتى فوجى المسلمون بفتى ياتيهم صارخا مستغيثا ، يرسف فى قيوده، ويجرجر اغلاله المثبتة في حجارة غليظة كي تعوقه عن المسير .. ا!
كان هذا الفتى ابا جندل وهو ابن سهيل بن عمرو مندوب قريش.. هذا الذي يتفاوض مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وفاض قلب الرسول من الاسى لمنظر أبي جندل الذي ارتفع جؤاره مستغيثا برسول الله.
وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لسهيل : اترك لنا جندلا فانا لم ننجزالعهد بعد.

وما كان لسهيل ان يترك ولده يذهب إلى الإسلام، وهو واحد من زعماء قريش ، فاصر على تسليمه ،او ينقض العهد كله .. وتكون الحرب .
وصاح ابو جندل : يا معشر المسلمين، اتتركونني ارد إلى المشركين وقد جئت مسلما ؟
الا تبصرون ما على جسدي من عذاب في الله.. ؟
وناداه الرسول صلى الله عليه وسلم بكلمات اسية : اصبر .. وسيجعل الله لك مخرجا ..
كان هذا المشهد ادهى واكبر من أن تحتمله اعصاب المسلمين .
فكيف يرجعون دون أن يزوروا البيت الحرام .. ؟
وكيف يسلمون للعذاب مسلما جاء يستصرخ بهم ويستغيث.. ؟
ويصور لنا احتدام القلق الرهيب في أنفسهم موقف واحد من أعظمهم إيمانا ، وتفانيا ، وطاعة .. هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ..
لقد ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يسأله، ويناقشه..
-يانبى الله،الست نبي الله حقا.؟
واجابه الرسول صلى الله عليه وسلم : بلى، ياعمر. .
قال : فلم نعط الدنية في ديننا .. ؟
اجابه الرسول صلى الله عليه وسلم: يا عمر ، اني رسول الله ، ولست اعصيه ، وهو ناصري ..
قال عمر : اولم تعدنا - يا رسول الله - باننا سناتي البيت ونطوف به.؟؟
قال، الرسول صلى الله عليه وسلم: أو قلت هذا العام، ياعمر . ؟ ؟
قال عمر : لا .
قال النبى صلى الله عليه وسلم : فانك اتيه ومطوف به .
ان هذا الحوار يكشف عن حدة ال أزمة التي عاناها المسلمون يومئذ .. ولكن ما شان أبي بكربهذا كله.؟؟
ان أبا بكر ،هواستاذ فن الإيمان في ذلك اليوم العصيب، كما سيظل استاذه في كل حين.. ولنمض وراء عمر فبعد لحظات سنلتقي معه عند منصة الاستاذية حيث يتربع فوقها هذا المعلم الكبير أبو بكر الصديق !!
ينصرف عمر .. من بين يدي رسول الله ، وهو لايزال يعانى مشاعره القلقة .. ولقد رده الادب مع الرسول صلى الله عليه وسلم عن الاسترسال في المناقشة والالحاح في السؤال . بيد أنه يحس في نفسه حاجة إلى مزيد من الوضوح.
فمع من يتحدث .. ؟؟
ل!!حد سوى أبي بكر.
ومضى يجتاز صفوف المسلمين وحلقاتهم حتى لمحه هناك، في أقصى الجمع ، تغمره طمانينة عجيبة .. !
القى عليه الإسئلة ذاتها التي القاها على رسول الله منذ لحظات.

و تلقى من أبي بكرالاجابات ذاتها التي سمعها من رسول الله. وانتهى الحوار بينهما..
يقول عمر :
- فاخذ أبو بكربيدي، وجذبها فى قوة، وقال لى :
" أيها الرجل ، انه رسول الله ، ولن يعصيه ، وإن الله ناصره، فاستمسك بغرزه"١"، فوالله انه على حق.." " فأنزل الله السكينة على قلبى وعلمت انه الحق" .
هذا هو إيمان أبي بكر الذي لا يتلعثم ، ولا يبحث عن نفسه أبدا ..
الإيمان الذي لا تأخذه سنة ، ولا تتقحمه خلجة شك في سر أو علن .. !
وفي ساعات العسرة ، وخلال الازمان العظمى ،كان إيمان هذا المؤمن يخرج خباه الباهر ، فيملا الزمان والمكان والآنفس روعة.. !!!
***
والآن لنشهده يوم بدر وقد نزلت قريش بجيشها اللجب عند العدوة القصوى من الوادي، مسلحة بكبريائها وباسها .
وخرج المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدتهم يومئذ ثلاثمائة لا يملكون من سلاح المقاومة الآن زرا يسيرا .
ويلتقي الجمعان ، وتتلظى أرض المعركة فجاة..
ورسول الله جالس في عريشه ، حيث توسل إليه أصحابه الأ يغادر خيمته مهما تدر رحى الحرب،وأبو بكر معه.
بصر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمعركة المحتدمة الحافلة ، ورأى أصحابه وهم قليلون ، يكادون يذوبون وسط الخضم الوثني المجنون . ! وكلما رأى شهيدا يسقط ، طارمعه قلبه حنانا واسى ..
وبلغ القتال ذروته الفاصلة ، ولم .بعد يسمع الأ صليل سيوف متوهجة تعزف لحن الموت والدم . واحس الرسول صلى الله عليه وسلم ان كل مقدرات الدين قد صارت في الكفة المرجوحة، لا الكفة الراجحة.
وخرج من خيمته باسطا إلى السماء ذراعيه ، مثل شراعي سفينة دهمهما موج عنيد عتيد.. !ا ورا ح يناجي ربه في ابتهالات عالية: " اللهم ان تهلك هذه العصاة من أهل الإسلام، فلن تعبد في الأرض.. "
" اللهم انجز لي ما وعدتني... " .
وتوالت ابتهالاته .. وبحت نبراته .. وتهدجت دعواته ، وسقط رداؤء من فوق منكبه ..
وهنا ... اقترب أبو بكر في هدوء فرفع رداء الرسول صلى الله عليه وسلم واعاده إلى مكانه فوق المنكبين اللتين كانتا آنئذ تحملان أعظم اعباء الحياة ..
وفي كلما ت متوسلة ،قال أبو بكر : " يا رسول الله ، كفاك منأشدتك ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك " .

لم يكن الرسول في شك من نصر الله .. فقبيل المعركة قال لأصحابه : "إن الله وعدنى النصر.." وقال لهم:" لكاني أرى مصارع القوم.."
لكن مسئولياته المباشرة عن أصحابه وعن الدين الذي يواجه أول معركة مع خصومه ، عكست على مشاعره حماس المعركة وقلقها . ومن شاء ان يرى إيمان أي بكر في احفل ساعاته.. من شاء ان يرى الإيمان العلوي الموصول بقيوم السموات والأرض ..
فلير هذا الإيمان يوم دعي الرسول إلى الرفيق الأعلى، فاجاب ورحل عن الحياة والاحياء.
يوم تلفت المسلمون فجاة ، فلم يروا بينهم الاب الذي كان يملا حياتهم حنانا ، والنور الذي كان يملا وجودهم ضياء . يومئذ تكشف جوهر هذا الإيمان .
إيمان رجل الهي ، أعطى له موثقه مع محمد ، فإذا اختفى محمد صلى الله عليه وسلم بالموت، فإن هذا الإيمان لا يضعف ، بل يتفوق .. ولا يجزع ، بل يحتشد .. ولا ينوء تحت وقع الضربة ، بل ينهض ايدا رشيدا ثابتا ، ليحمل مسئؤلياته وتبعاته.. !!
وهكذا وقف أبو بكر – أو بتعبيراحجى وقف إيمان أبي بكريوم وفاة لرسول وقفة ما كان يقدرعليها سواه.. !
يومئذ ، وبعد أن صلى بالمسلمين ،عاد الرسول في حجرته ، واستاذنه في أن يغيب عنه بعض الوقت، وذهب إلى داره با لعالية في أقصى المدينة. ومضى وقت ليس بالطويل قضى فيه بعض حاجات أهله.
واذا هو يتهيأ للعودة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا الناعي يقطع الأرض إليه وثبا ، ويلقي عليه النبأ الذى يهد الجبال.
حمد واسترجع ، واختلطت دموعه الهاطلة بكلماته وهو يقول : " أنا لله ، وإنا إليه راجعون.
و اغذ السير"1" رابط الجاش ، قوي الجلد إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

"١" اغذ السير :اسرع فيه.

لم يكد يقترب من المسجد حتى رأى الفاجعة الكبرى. لقد فقد المسلمون صوابهم.. ا!
حتى ابن الخطاب القوي الرأسخ، وقف بين الناس شاهرا سيفه. صائحا : " ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله مات، وانه والله مامات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران.. ". "والله ليرجعن رسول الله، فليقطعن ايدي رجال زعموا انه مات.. "
" الا، لا اسمع أحدا يقول ان رسول الله مات، الأ فلقت هامته بسيفي هذا"..ا تلك كانت حال عمر؛ فكيف كانت حال سواه..؟

لقد كان موت الرسول صلى الله عليه وسلم مفاجاة تامة للمسلمين على الرغم من سابق مرضه. كانهم ما تصوروا قط ان يقال لهم ذات يوم :مات الرسول..!
فلما انفذ الله امره، واختار لجواره رسوله، وكتب على الناس ان يسمعوا في لجج من الهول والاسى كلمة الموت مقترنة بكلمات الرسول، طار منهم صوابهم..
ولقد كان أبو بكر أحق الناس باكبر قدر من الاسى، والذهول..
فهو صديق العمرلمحمد صلى الله عليه وسلم منذ طفولة الحياة وشبابها. وهو صديقه منذ أول أيام الوحي والدين.. وهو قد احبه حبا ،واخاه مؤاخاة تجعل الصبر على فراقه فوق طاقة البشر.
لكن أبا بكر كان يبدو وكانه لا تحركه طاقات بشرية، بل طاقة الهية احلت فيه.!
ولندع شاهد عيان يصف لنا ثبات أبي بكر عند الصدمة !!لأولى: " أقبل أبو بكر، يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء ، ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مسجى في ناحية من البيت، عليه برد حبرة. فكشف عن وجهه، ثم قبله وقال: "بابى انت وامى، طبت حيا وميتا – ان الموتة التى كتبها الله عليك قد متها.. ثم رد الثوب على وجه الرسول.. " ثم خرج، وعمر يكلم الناس، فدعاه للسكوت، فابى عمر الأ أن يسترسل فى قوله.. " فلما راه أبو بكر لا ينصت، أقبل على الناس يكلمهم.. فلما سمعوه اقبلوا عليه منصتين، فحمد الله واثنى عليه، ثم قال: "ايها الناس: "من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات.. " ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. "ثم تلا هذه الآية: " وما محمد الأ رسول فد خلت من قبله الرسل افان مات اؤ قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين "
.
" فوالله لكان الناس يسمعون هذه الآية لأول مرة.. " أما عمر، فقد وقع على الأرض، حين علم من كلما ت أي بكر انه الموت حقا".. ا!

***

افي هذه اللحظات الذاهلة ، والفاجعة المزلزلة يكون مثل هذا الثبات. ؟
" من كان يعبد محمدا ،فان محمدا قد مات "
" ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت " .. !!
ان أقصى ما كان ينتظر ان يفينه الجلد والسكينة ، كلمات توصي بالصبر وتمنح العزاء .
ولكن البديهة المؤمنة التي تشبه عين الصقر ، وقعت في أقل من لمح البصر على كلمة السر التى سترد الهمم المنسحقة تحت وطاة الفاجعة إلى وعي قدير، يستقبل تبعاته الجسام ، ويعبر أزمة الموت بسلا م.. ! ولم تكن كلمة السر سوى هذه الصيحة الحاسمة الفاصلة : " من كان يعبد محمدا ،فان محمدا قدمات".. " ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت "

الله حي لا يموت.. ؟؟
اذن ياخيل الله اركبي.. ويا راية الله ارتفعى.
ويا حملة هذه الراية ، قوموا .. انهضوا .. واصلوا رحلة الشمس المشرقة ، والدين الجديد .. !!
ولقد فعلت صيحة أبي بكر في نفوسهم فعل القدر ، فقاموا إلى الجسد الكريم المسجى ، وادوا له تحية الوداع ممزوجة بالعزم الاكيد الذي سيستقبلون به تبعات الساعة التالية.. !!

****

عندما نستعرض هذه المشاهد التي تجلى خلالها إيمان أبي بكر ، نجد انفسنا أمام سؤال بالغ الاهمية .. هو : ماذا ،لولم يكن هناك أبو بكر .؟
وسيتالق هذا السؤال ، ويفرض نفسه بصورة أكد واوضح عندما نعيش عما قريب مع أبي بكر في اليومين العظيمين - يوم السقيفة، ويوم الردة..
ان الأمرليبدو كما لو كان لله سبحانه حين اصطفى محمدا عليه الصلاة والسلام ليكون رسوله إلى الناس، اجتبى معه في اللحظة نفسها ابابكر رضي الله عنه ليكمل دور الرسول ٠.. وحين تتطلع حياتنا الإنسانية إلى اساتذة تتلقى عنهم ومن سيرتهم فن الإيمان ، فإنها واجدة على رأس تلك القلة النادرة الباهرة، رجل الإسلام الكبير.. أبا بكر الصديق ..
ولقد عشنا لحظات مع إيمانه ، فلنر مع الصفحات المقبلة ، كيف حمل هذا المؤمن مسئوليات ذلك الإيمان، وكيف وهب حياته لتبعاته في تواضع مطلق، وسمو بعيد ..

الفصل الثالث ولو خطفتني الذئاب..

كان موقف الصديق يوم وفاة الرسول بمثابة البوصلة التي حددت اتجاه التاريخ نحو الرجل الذي سيملا الفرا غ الكبير الذي تركه الرسول برحيله .
فالرجل الذي لم يفقد شيئا من ثباته أمام المفاجاة التي روعت المسلمين ، جميع المسلمين .. !!
الرجل الذي احتفظ برباطة جاشه ، وسكينة نفسه ، وسداد فكره على هذا النحو الفذ في هذا الموقف الذي يدع الحليم حيران .. !!
هذا الرجل هوالجديربان يتقدم و يقود. ولم يكن ذلك فحسب مناط التزكية والتقديم.. فهناك الماضي الحافل بكل بطولة و كل مكرمة ..
ففي مرض الرسول عليه السلام ، اختار أبا بكر ليصلى بالناس مكانه ، وقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس".
وحين راجعته السيدة عائشة فى هذا قائلة : ان أبا بكر رجل رقيق القلب ، وانه إذا قام مقامك غلبه البكاء . فمر عمر ان يصلي بالناس .
حين روجع النبي في الأمر غضب، واعاد أمره مرتين: مروا أبا بكر فليصل الناس.
وامتثل الصديق أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو لا يدري - أو لعله كان يدري - انه في تلك اللحظات إنما يتسلم الراية من رسول الله ليحملها من بعده.
ولقد فوجى أبو بكر اثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة بموقف لم يكن يخطر بباله. ذلكم هوموقف السقيفة الذي بدا منذرا بشرمتطير، ثم انتهى نهاية موفورة العافية والسعادة، إذ بويع أبو بكر خليفة واماما ..
وحيث نطالع تاريخ أبي بكر لانجد لديه أدنى رغبة في أن يحكم الناس، أو ان يكون خليفة عليهم. ان شانه فى العزوف عن مناصب الدنيا، شان عمر.
بل ان عمر في زهده الجاه والمنصب، كان يتاسى بابي بكر، يتبع خطاه.
وجاء يوم السقيفة ليجتاز إيمانه امتحا نا رهيبا.
وكتب على الرجل الذي كانت هوايته ان يعيش في الظل مالم يكن ثمة خطر يدعوه.
الرجل الذي كانت قرة عينه في الأ تقع عليه عين وهو في مكان صدارة يبعث في النفس زهوا وعجبا. الرجل الحيي ، الوديع الاواب ، كتب عليه أن يعلو صدر الأحدا ث فجاء ، لا طمعأولا رغبا ، ولكن تلبية لتبعات إيمانه، ومسئوليات دينه.
فعلي اثر وفاة الرسول عليه السلام ، اجتمع نفر كبير من الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة .
وعلم أبو بكر فذهب إلى السقيفة ومعه عمر وابو عبيدة بن الجراح.

لم يسارع آبو بكر ليحتجز الخلافة لنفسه ، وانما سارع ليكف الفتنة آولا ثم ليكبح جماح الطائفية ، حيث وقف من يقول: يا للانصار ، ومن يقول: يا للمهاجرين ..
ثم ليسلك مع المسلمين الطريق الأمثل لاختيار الخليفة الذي يستطيع أن يملا الفراغ الرهيب الذي كان يملؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
واجه أبو بكر الجمع المحتشد في اناة.
كان ثمة كلمات تتطاير كالرصاص المقذوف.. كان ناس من الأنصار يحرضون الأنصار على التشبث بالخلافة بأسلوب حاد ولاهب .!
وكان هناك مهاجرون يرفعون أصواتهم الزاجرة ضد رغبة ذلك النفر من الأنصار..
لقد فقد الناس أكثر صوابهم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما اداروا خواطرهم حول موضوع الخلا فة وهم في جو الكارثة لايزالون ، اضطربت الأمور في أيديهم ، واتسع نطا ق البلبلة والاهتياج .
وليس ادل على أن هذا الموقف كان دخيلا عليهم وعلى إيمانهم من عودتهم السريعة إلى رشدهم واجتماع كلمتهم الغالبة حول هذا الحليم الاواب.
صحيح ان أبا بكر سيؤثر المهاجربن بالخلافة، ولكن، ليس لانهم مهاجرون قرشيون، بل لان الهجرة اعطتهم مكان السبق في الإسلام.
فالهجرة كانت نهاية لمرحلة العسرة التي سلط عليهم فيها كل باس قريش فيفتنوا عن دينهم ، فما إزدادوا الأ إيمانا وثباتا .. وهذا هو الميزان الذي يزن أبو بكر به الناس .
ولقد استنبطه من كتاب الله سبحانه إذ يقول : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار " .
ثم هو سيؤثر المهاجرين بالخلافة أيضا ، لان النفر الذين طلبوا الخلافة من الأنصار قد حرصوا على أمر جرت عادة الرسول الأ يمكن منه من يطلبه اويحرص عليه، وهو الولاية.. وإن أبا بكر ليذكر ذلك اليوم الذي ذهب فيه العباس عم النبي يلح يسأله ان يوليه ولاية، فاجابه عليه السلام قائلا: أنا والله لانولي هذا الأمر أحدا يسأله ، أو أحدا يحرص عليه..!
ذلك لان مسئولية الحكم غرم لا غنم. وتضحية لا تزكية ، فإذا حرص عليها أحد ، فمعنى ذلك انه لا يقدر المسئولية التي تنتظره عندها..!
وهناك عند السقيفة هم عمر ليتكلم في الحشد الثائر ولكن أبا بكر اوما إليه بيمينه ، واستاذنه في أن يبدا هو الحديث : يامعشر الأنصار . "انكم لا تذكرون فضلا الأ وانتم له اهل"..
هكذا بدا الصديق قوله .. ثم راح الحديث ينساب من قلبه . ومضى يدلي برايه فيمن يرشح للخلافة. انه واحد من اثنين.
عمر بن الخطاب..الرجل الذي اعز الله الإسلام به.. وابو عبيدة بن الجراح .. الذي وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه أمين هذه الأمة".. لقد رضيت

أحد هذين الرجلين، عمر ، وابي عبيدة. وارتعدت يد عمر كانما سقطت عليها جمرة ملتهبة.. وغض ابوعبيدة عينيه الباكيتين في حياء شديد..
وصا ح عمر: والله لان أقدم فيضرب عنقي في غير اثم، احب الي من أن اؤمر على قوم فيهم أبو بكر..!
وكان جلال هذا المشهد ابلغ من كل مقال.. فما كاد عمر يلقي بكلمته هذه ويتقدم باسطا يمينه ، مبايعا أبا بكر .. حتى ازدحم الأنصار على البيعة وكانما دعاهم من السما ء داع.. !!
لقد كره المسلمون ان يعيشوا يوما وا حدا بغير أمام يجتمع عليه أمرهم .
فذهبوا يبحثون الأمر، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدفن بعد ،واعصابهم رازحة تحت وطاة موته.. ولقد كان من المحتمل الأ ينتهي يوم السقيفة دون أن يترك في البناء شروخا غائرة.
لكن الله اكرم الإسلام والمسلمين يومها بابي بكر. واجتاز الناس في سلام عظيم أول تجربة من نوعها واقساها . وغربت مع شمس ذلك اليوم كل الخلافات .
ان العظائم كفؤها العظماء ..
ولقد اختار القدر هذا العظيم ليواجه جلائل الأمور وعظائم المستقبل .
ولسوف يثبت هذا الخليفة العظيم جدارته بالمكانة التي بواه الله اياها في قلوب الناس، وفي قلب التاريخ.. وسيتحرك تجاه الأ حداث الداهمة بأسلوب يكشف عن مدى ما يستطيع الإيمان ان يقهر من صعاب ، وياتي من معجزات .
.
فما كاد نبأ موت الرسول عليه السلام يذيع في البلاد حتى تصور المرجفون والذين في قلوبهم مرض ممن كان إسلامهم مداهنة وتقية. . تصوروا ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يمت وحده، وانما مات الإسلام معه.. وعليهم ان يتحركوا بسرعة ليرثوا ذلك الدين الذي انتهى في ظنهم، وليستردوا جميع الامتيازات التي كانوا قد فقدوها تحت ضغط الدين الجديد ..
وهكذا بدات انتفاضات ، لم تلبث حتى تحولت إلى ردة مستشرية ، وجيوش ينادي بعضها بعضا للزحف على المدينة ، والاجهاز على الإسلام .
فى البلاد البعيدة من المدينة كان أكثر المسلمين حديثي العهد بالإسلام ، وكان الدين مرتبطا في وجدانهم ارتباطا كاملا بصاحبه وبرسوله . فلما مات الرسول صلى الله عليه وسلم ،وقام فيهم من رؤسائهم من استغل حداثة إسلامهم، ساروا وراءه مرتدين.
والحق إنها لم تكن أول الأمر ردة كاملة عن الدين. إنما كانت اضرابا عن دفع الزكاة ..
لكن أبا بكر راها ردة، وراها عجما لعود الإسلام بعد أن مات رسوله ، فإذا ابدى الإسلام عن أي ضعف أما م هذا التمرد ، فستجاوز العواقب كل حسبأ ن -
ويومئذ ظهر رايان:

راي يري الأ يقاتل هؤلاء ،ما دأموالم يقترفوا سوى امتناعهم عن دفع الزكاة،
وعلى رأس هذا الفريق،عمر بن الخطاب.
وراي آخر ، يرى ان الزكاة - أولا- ركن من الدين، ليس من حق الخليفة ان يدع
الناس يهدمونه، وبرى - ثانيا - ان الامتناع عن أدائها ، ليس سوى البداية..
وليس سوى حركة استطلاع، يتوالى بعدها التمرد والقضاء على الإسلام.
وحمل لواء هذا الرأي أبو بكر.
وهنا يبين الفارق الخفي بين طرازين من العظمة، وهو فارق تناهى في الخفاء
والدقة.
ولو سئل الناس - جميع الناس - قبل ان يعلن كل من أبي بكر وعمر عن رايه
في هذه ال أزمة ، لو سئل الناس : من الذي سيكون أكثر صرامة وشدة ، ومن
الذي سيكون أكثر لينا ومهادنة ؟ لما ترددوا في أن يشيروا إلى عمر بن
الخطاب مناديا بالقمع الصارم، وإلى أبي بكر داعيا إلى الآن اة والملاينة. ومع
هذا فإن الذي حدث كان العكس والنقيض. .
فلقد باكر الصديق ال أزمة بارادة مشحوذة ، مصممة على أن تضرب في غير
تردد ، موضحا اقتناعه في هذه الكلمات: والله لو منعونى عقال بعير كانوا
يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف .
اما عمر فيقف من ال أزمة موقفا مغايرا .
ويوجه إلى الخليفة هذا السؤال: " كيف تقاتل قوما يشهدون أن لا الله الأ الله ،
وقد اخبر الرسول صلى الله عليه وسلم ان من قالها فقد عصم دمه
وماله"..؟؟
ويجيبه أبو بكر سائلا : ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم الأ بحقها"..؟ الأ
أن الزكاة من حقها ..
ووراء موقف أبي بكرهذا علامتان مضيئتان :
أولاهما: تكشف عن يقين أبي بكر المؤمن ..
وثانيتهما: تكشف عن بصيرة أبي بكر الخليفة والزعيم".
فيقينه بالله وبرسوله يرتفع إلى مستوى الاذعان المطلق لما القياه من أمر
ومنهاج.
وهوبهذا يحمل كل مسئوليته عن الدين، فلا يسمح بأن يتغير على عهده شيء
من شرع الله وسنة رسوله . وكل فريضة توفي الرسول صلى الله عليه وسلم
وهي قائمة ، لابد من أن تظل قائمة مهما تكن التضحية.
وهو ببصيرة القائد والحاكم والزعيم. يرى ان أي بادرة من الضعف تغشى
الإسلام في هذه ال أزمة الفاصلة، ستغري قوى النكسة والظلام بالوثوب عليه
من كل واد.
بإيمانه ذاك، وببصيرته هذه ، تشكلت في باطنه قوة هائلة هيات عقله وأرادته
لمواجهة الموقف على النحو الذي سبق ،والذي اظهر سير الحوادث انه لولاه
لتعرض الإسلام لما يشبه الفناء.

لكن هذا الإيمان وهذه البصيرة لم يكونا يعملان بمعزل عن رأي الجماعة ، وحقها في الشورى والمناقشة..!
فعلى الرغم من أن أبا بكر في أزمة الردة كان يستطيع أن يمضي في الحرب دون أن يقتنع بها الآخرون، بل حتى لو لم يقتنع هو بها ، لانه في هذا - إنما ينفذ حكما شرعيا لا يملك هو ،ولا المسلمون، ان يبدلوه ما داموا قد آمنوا بالقرآن واتخذوه دستورا وشرعة، وما دام القرآن يقول لهم : " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ "
وعلى الرغم من هذا فإن أبا بكر لم يمتشق حسامه حتى اقتنع المسلمون برايه ، واقتنعوا بأنهم حقا ليسوا أمام مجرد محاولة للنكوص عن دفع لزكاة.. بل هم أمام تجمهر مسلح ، وزحف اكيد على المدينة وعلى الإسلام..
وساعتئذ قال عمر قولته الماثورة: فما هو الأ أن شرح الله صدري لراي أبي بكر ..
وقال ابن مسعود كلمات تصور المو قف أصدق تصوير :
لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا ان من الله علينا بابي بكر .
لقد كان ثمة قدر يسمح باختلاف الرأي في هذا الموضوع وياذن بتباين النظر .. ومن ثم عرض أبو بكر المسألة للمناقشة مبديا تصميمه على أن يحمل المسئولية التي يفرضها عليه القرآن . وكان هذا القدرالذي سمح بتبادل الرأي متمثلا في الصورة التي بدات بها المحاولة المرتدة .. إذ كانت في الساعات !! لأولى لها مقصورة كما ذكرنا على الامتناع عن دفع الزكاة. فهل يوجب الامتناع عن دفع الزكاة القتال.؟
وبأسلوب عصرنا الحديث نقول: ان ال أزمة بدات بحركة عصيان مدنى تمثل فى الامتناع عن دفع الضرائب، وتحول إلى عصيان مسلح ليؤكد حقه في هذا الامتناع..
فهل تقف الحكومة ساكتة ضارعة أمام هذا التحدي.. أو تحمل مسئولية زجره وقمعه..؟
هذا مع ملاحظة ان الذين امتنعوا عن دفع الضريبة وحملوا السلاح، لم يظلوا مكانهم في ديارهم مكتفين بموقف الدفاع إذا هوجموا ، بل نادى بعضهم بعضا ليزحفوا على المدينة.
هذا هووضع ال أزمة تماما .
ومع ذلك ، فقد بلغ التسامح تجاهها ان يختلف فيها المسلمون ، ويتبنى الرجل الثانى فيهم وهو عمر بن الخطاب، الرأي الهاتف بالموادعة، وتركهم حتى يفيئوا تلقائيا إلى أمر الله وهداه.!!

***

ونغادر موقف الردة هذا وقتا وجيزا ، لنرى موقفا آخر سبق وقفة الردة، وتجلى فيه إيمان أبي بكر بربه وبرسوله، على نحو يجعل من هذا الرجل الشاهق

الباهر نسيجا وحده في الإيمان .. ذلكم هو موقفه من بعث أسامة ..
فقبل وفاة الرسول، صلى الله عليه وسلم اعد جيشا بامرة أسامة بن زيد ،وجهته الشام.
وكانا لجيش يوم مات الرسول صلى الله عليه وسلم معسكرا على بعد ثلاثة اميال من المدينة، يتهيأ للسير. وارجات وفاة الرسول زحفه. وا ختلف الرأي بعد هذا في امره..
فرأى فريق من المسلمين، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، ان بعث جيش أسامة إلى الشام مخاطرة رهيبة في الوقت الذي ا صبحت المدينة نفسها عاصمة الإسلام مهددة بغزو المرتدين.
وراوا ضرورة عودة الجيش إلى المدينة ليكون في مواجهة الأحداث الجديدة الزاحفة.
وكان أسامة نفسه قائد الجيش من أصحاب هذا الرأي.
والمسألة حين نقاس بالمنطق المجرد لا يبدو الصواب الأ في هذا الرأي الذي تبناه عمر وأسامة.
لكن أبا بكر يستمد منطقه من إيمانه.. وكل قضية عنده تتسع للاجتهاد الأ قضية ابرم الله فيها حكما، فليكن ما امرالرسول صلى الله عليه وسلم، مهما تكن مستحدثات الظروف، ومهما تكن الأخطار التي تهدد المدينة..!!
وهكذا كان جواب أبي بكر للناس : انفذوا بعث أسامة ؛ فوالله لو خطفتنى الذئاب لانفذته كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كنت لارد قضاء قضاه ..!!
لم يعد ثمة نزاع في الأمر، ولم يكن أبو بكر بتصميمه هذا مفتئتا على اراء الآخرين، لان القضية اساسا ليست مما يعرض للشورى بعد أن قال فيها رسول صلى الله عليه وسلم كلمته واعلى امره.
وأبو بكر يؤثر ان تتخطفه الذئاب على أن يرد للرسول قضاء ، أو يعطل مشيئة..!
وعاد بعض المسلمين وعلى رأسهم عمربن الخطاب أيضا، يطلبون من أبي بكر ان يجعل على رأس الجيش قائدا غير أسامة الذي كان فتى صغير السن، محدود الخبرة، ولا سيما في هذا الجيش شيوخ الصحابة واجلاؤهم.
وهذه المسألة أيضا إذا بحثت في ضوء المتعلق المجرد يبدو ذلك الرأي سديدا .
لكن أبا بكر فى هذا ، شانه فى كل أمر يستمد منطقه من إيمانه..
فالذي ولى أسامة قيادة هذا الجيش،هورسول الله. .
ولقد رضيه الصحابة ورسول الله حي، افيخلع أبو بكر رجلأولاه الرسول صلى الله عليه وسلم ..؟؟
لم يكد عمر يعرض الرأي المقترح على أبي بكر حتى ثار الرجل الحليم ثورة ما ثار مثلها قبل ولا بعد!

ولندع شاهد عيان يصف لنا المشهد فيقول: وثب أبو بكر من مكانه واخذ بلحية عمر، وقال: ويحك يابن الخطاب.. ايوليه رسول الله، وتامرنى ان اعزله ؟؟!
ثم قام يتبعه عمر إلى حيث كان الجيش معسكرا ، فدعا هم للتحرك على بركة الله وسار معهم مودعا .. ومشى الخليفة على قدميه إلى جوار أسامة الذي كان ممتطيا ظهر فرسه..
واستحيا أسامة، فهم بالنزول داعيا خليفة رسول الله إلى الركوب.
فثبته أبو بكر بيده فى مكانه وهو يقول : والله لا نزلت ولا اركب.. وماذا علي ان اغبر قدمي فى سبيل الله ساعة..؟!
كل أمر عنده سهل، وكل جلل يهون، الأ أمرا يدعوه إلى الخروج قيد انملة عن طاعة الله ورسوله..
ان بينه وبين الله عقدا وموثقا يتمثلان في إيمانه الرأسخ الصامد..
وانه لمصمم على أن يحمل - حتى الموت - الالتزامات كافة، التي يفرضها هذا الإيمان. ولو تخطفته الذئاب!!
وهو على يقين ان الإيمان يحمل معه بصيرته التي تهدي إلى الحق وإلى الصواب.
وفي قصة أسامة بالذات تجلى صدق هذا اليقين.
فا صرار أبي بكر على انفاذ بعث أسامة لم يفئ عليه مثوبة الطاعة فحسب ، بل افاء عليه الرشد والمنهج الصواب ..
فهناك صوب الشمال كانت الفتنة قد شرعت تذر قرنيها ..
ولكن لم تكد القبائل التي مر بها جيش أسامة وهو في طريقه إلى الشام.. لم تكد تبصرهذا الجيش اللجب حتى عاد اليها صوابها ، وقال بعضهم لبعض : والله لو كانت المدينة تئن تحت وطاة الضعف والخلاف كما سمعنا ، ما كان بوسعها ان تبعث هذا الجيش ، في هذه الأيام لتقاتل الروم..!!
وهكذا كان مجرد تحرك الجيش إلى غايته مثبطا أي مثبط لكثيرمن القبائل التي كانت فتنة الردة تتسلل اليها..!!

***

ونعود إلى الصديق وهو يواجه الردة بإيمانه الصلب .
وعندما نعيش مع المصادر التاريخية التي سجلت أحداث تلك الأيام الفاصلة يأتلق حتى يملا الافق سؤال اكيد هو : أي مصير كان ينتظر الإسلام لو لم يكن أبو بكر يومئذ هناك..؟؟
لقد كان ابن مسعود يبسط الحقيقة الكبرى فى قولته السالفة.
لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه، لولا ان من الله علينا بابى بكر ..
اجل ، لقد كان أبو بكر يومئذ نعمة الله ومثوبته للدين ، وللناس ...
قد تضرمت الأرض نارا في الجهات النائية من المدينة ، والتي كان معظلم أهلها حديثي عهد بالإسلام ، ولم يكونوا يتصورون بفطرتهم الساذجة ان رسول

الله يموت كما يموت الناس ، وهكذا بهذه السرعة ..!
لقد سقط هؤلاء تحت صياح الكاذبين المهرة الذين كانوا يتربصون بالإسلام كل سوء.
لقد انشقت الأرض فجاة عن كل الموتورين به والمتربصين. وعن انبياء كذبة ، قادوا ببراعة الافك ، جميع الذين كانت الغفلة ترشحهم لان يكونوا ضحايا اكاذيبهم ، ولا سيما أولئك البعيدين من المدينة والداخلين في الإسلام من قريب..
وقف طليحة الاسدي يعلن نبوؤة كاذبة ، وتبعه الكثيرون من قبائل اسد ، وغطفان ، وطيئ، وعبس، وذبيان.. ثم اشتعلت نيران الردة في بني عامر ، وهوازن ، وسليم..
ثم شبت في بني تميم، وجاءتهم المراة سجاح تزعق فيهم نبؤتها الضالة المهرجة.!!
ثم تمرد أهل اليمامة رافعين لواء اخطر مدعي النبوة جميعا - مسيلمة الكذاب..
وهكذا بعد أن كان أبو بكر يواجه فلولا صغيرة ، أصبح أمام جيوش جر!!ررة ، قوامها عشرات الالوف من المقاتلين.
وسرت العدوى إلى أهل البحرين ، وعمان ، والمهرة ، وصار هؤلاء وأولئك يتغنون ببيت من الشعر اطلقه أحد شعرائهم..
اطعنا رسول الله ما دام بيننا   فيا لعباد الله، ما لأبي بكر؟؟
ولكن لله من خلقه رجال تتحول المحن بين أيديهم إلى منح، والكوارث إلى ربيع، تملؤه روح الحياة ..! وأبو بكر من هؤلاء الرجال...!
فخلال هذه المحنة الصاهرة التي المت بالإسلام ، تكشفت كل جوانب الضعف في البناء البشري للإسلام، وهب الرجل الحكيم القوي من فوره ، فراب الصدع ، وحول الصف إلى تماسك واقتدار ..!
وكانت حظوظ الإسلام وافية ، ومقاديره سعيدة ،اذ جاءته هذه المحنة وأبو بكر حامل الراية ، وقائد الأمة.
وبفضل من الله ورحمة ، تفوق الرجل الكبير والخليفة المؤمن على أخطار كانت حرية بأن تداعي بناء امبراطورية شامخة رأسخة ، فما البال بدين ناشىء غض جديد ..؟!
وكانت تلك الأيام المزلزلة أعظم أيام الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم واخصبها ، وأكثرها بركة عليه ، وخيرا لمصيره .
لقد سقطت الاقنعة عن الوجوه المتنكرة ، وتقايات الصدور الموتورة كل احقادها الدفينة ، واقبلت النارالمباركة تصهر الأمة الجديدة وتنفى خبئها بصورة شاملة ، واكد إيمان أبي بكر مقدرته ، لا على اقتحام العقبات فحسب ، بل على أن يعلم الدنيا كلها اهمية الإيمان .

لقد آمن بأن الله حق ، وبان الإسلام حق ، وبان محمدا رسول الله حق .. فلم يعد له مع هذا الإيمان ان ينكث أو يتردد. .
ولقد تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها .. وأبو بكر اليوم خليفة الرسول على هذا التراث ، وواجبه ان يفعل كل ما يعتقد ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يفعله لوانه اليوم حي..
افكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقف صامتا أمام أولئك الكذبة الذين يحاولون ان ينكسوا راية الحق ، وبطفئوا نور الله ..؟
انهم برغم فساد منطقهم ، لم يتوسلوا بالمنطق ، بل حملوا السلاح وتنادوا لغزو المدينة .
فليصنع ما كان النبي صلى الله عليه وسلم صانعه..
وهكذا أرسل باسه العادل على المتمردين فى كل مكان ، وانتصرت جيوشه على تلك المعاقل.. ثم تعقبت المصادر الخفية المحركة للفتنة. هناك في الشام والعراق، حيث كانت الروم والفرس تتخذان منهما مراكز و ثوب، واوكار مؤامرة..
وهناك في الشام، وفي العراق، وفي دومة الجندل، وجدت جيوش الإسلام قوما عطاشا إلى الهدى والعدل والامن.
اين المرتدون الذين حملوا السلاح ليقضوا على الدين الجديد. .؟؟
اين مسيلمة ، وطليحة ، وسجاح ، بجيوشهم الجرارة. . ؟
اين أولئك الذين كانوا يتغنون وهم يرقصون باسلحتهم قائلين: فيا لعباد الله ، ما لأبي بكر.؟! لقد تمزقوا بددا كبقايا زوبعة ضالة ، وولوا أمام الحق، نائحين بشعر آخر :
الا فاسقياني قبل خيل أبي بكر لعل منايانا قريب، ولا ندري !
"خيل أبي بكر"..؟!!
لقد صارت هذه العبارة كقعقعة الهول في اسماع الذين أرادوا ان يخضعوا الحق للباطل.!!

***

ترى أي انقلاب هائل مخر عباب شخصية أبي بكر..؟!
الحق إنه لم يكن ثمة انقلاب ما ، وليست مواقف الصديق - مهما تتعاظم كل مالوف - بغريبة عليه .. فطبيعة هذا الرجل العظيم من الطبائع التي يتم نضجها واكتمالها في بواكيرالعمر دون أن يكون لها في مقبل الأيام نشازاوغرابة اطوار، إنما يكون لها امتداد طبيعي في الآفاق الواسعة لخصائصها ،وفضائلها ،وقواها.
فأبو بكر الوديع ، هو أبو بكر القوي ، منذ لبس ثوب الحياة.
وقوته هذه الصامدة العارمة التي تبدت عنه وهو خليفة ، هي نفس قوته التي كان يملك زمامها ورسول الله حي .. لكنه في أيام الرسول صلى الله عليه

وسلم ، كان يجتهد ان يبقى في الظلال، فلا يقع عليه ضوء ، ولا يعزى إليه فضل.
اما بعد وفاة الرسول عليه السلام ، فقد صار - شاء أم أبي - صا حب الدور الأول والرئيسي على مسرح الأحداث.. ومن ثم لن يستطيع أن يخفي مزاياه وسط الزحام، لان مسئولياته وضعته أمام جميع الصفوف ..
وهكذا اتيح للإسلام ان يرى بصورة اوضح خصائص ابنه المبارك العظيم..
ان قوته وصلابته اللتين يواجه بهما مسئولياته كخليفة ، هما اللتان واجه بهما من قبل مسئولياته كمؤمن ..
*ففي الأيام !!لأولى للدعوة، لم يكن يسمع ان الرسول صلى الله عليه وسلم في اذى، الأ ويهرول مسرعا ، فيخلص الرسول من الأذى ويسلم نفسه إليه ..!
ويوم الهجرة ، تمتلىء نفسه غبطة بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على يقين بأن قريشا ستجند لمطاردتهما كل باسها وقواها ..
ويوم بدر ، يلازم الرسول في خيمته، وهو يعلم أن الخطر كله إنما يحدق بهذه الخيمة.
ويوم احد، حين خالف الرماة نبيهم، ظانين ان المعركة قد !!نتهت بهزيمة قريش، فتركوا موقعهم اعلى الجبل، حيث عاد جيش قريش فدمدم على المسلمين واصلاهم هزيمة اليمة.. وخلا الميدان الأ من جثث الشهداء يمثل بها المشركون فى وحشية داكنة.
يومئذ بصرالرسول بابي بكر، يجري وحده إلى المشركين شاهرا سيفه، فيناديه في ضراعة عالية : اغمد سيفك يا أبا بكر ، لا تفجعنا بنفسك ..
ويواصل الرسول نداءه لابى بكرامرا اياه ان يعود ، فيعود .
فما كان له ان يعصي لرسول الله أمرا ،حتى لو حال الأمر بينه وبين جلال الاستشهاد الذي كان مندفعا نحوه في شوق عظيم ..!
***
هذه هى القوة الأمينة التى كان أبو بكر يستمدها من أعماق كيانه، ومن أعماق إيمانه.
كيان عربي حر، تلقى من تربيته ومن بيئته أروع المزايا..
وإيمان صديق عظيم، يؤثر ان تتخطفه الذناب، ولا يعصى لإيمانه أمرا ..
وان مواقفه الباهرة ، قبل الخلافة وبعدها ، لتشكل نموذجا واحدا من القوة،والأمانة، وسلامة التقدير.
ذلك ان الله انعم عليه بطبيعة قويمة ، وإيمان مكين . إيمان رجل أسلم وجهه لله، وهو محسن.. وأعطى حياته لإيمانه وهو مغتبط .. وحمل مسئوليات دوره فى تقى، وأمانة، وبصيرة.. ا!

الفصل الرابع ولست بخيركم

هذا الرجل العظيم المتفوق .
كيف عاش حياته كحاكم ، وما رس دوره كخليفة
هذا الذي ولد سيدا ،وعاش سيدا .. هذا الذي لم تفلت منه مزية ، ولم تغب عنه فضيلة ...
هذا الذي انقذ الإسلام من خطر محقق ، ورد إليه حياته وثباته ..
هذا الذي بدات ابراج كسرى وقيصر تتساقط تحت قدميه ،والعالم القديم كله يتداعى بين يديه.
هل غيرت الخلافة من جوهر نفسه أو من أسلوب حياته .. ؟
هل نسي تواضعه ، وفضائله في زحمة انتصاراته..؟!
هل عاش خليفة - فوق - الناس ؟ أم ظل واحدا بين الناس... ؟
لنقف في رحابه لنرى.. ولنبدا باللحظات !!لأولى من خلافته :
ها هو ذا ينقل خطاه فى حياء ووجل ، ميمما وجهه شطر منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .
هذ, المنبر الذي طالما نادى النبى المسلمين من فوقه، ودعاهم إلى الهدى ودين الحق ..!٠ ها هو ذا أبو بكر ، يصعده مرة ، بعد أن غاب عنه فيصله وربأنه ..
وانه ليصعد درجتين ثم يجلس، فهو لا يبيح لنفسه ان يصعد كل الدرج، وكل المرتقى..!!.
لا يبيح لنفسه ان يجلس حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس .. وها هو ذا يستقبل الجمع الحأشد يتلو على الناس موثقه وعهده :
"ايها الناس. اني وليت عليكم، ولست بخيركم.. ان أحسنت فاعينوني .. وإن اسات فقوموني .. الأ أن الضعيف فيكم قوي عندي ، حتى أخذ الحق له .. الأ وإن القوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه .. اطيعوني ما اطعت الله ورسوله . فإذا عصيت فلاطاعة لي عليكم" .. ا! .
اننا على كثرة ما وعى التاريخ من مواثيق وخطب استهل بها الحكام عهود حكمهم، لم نجد قط - ولن نجد أبدا - مثل هذه الحكمة ، وهذا القسطاس !! .
ولقد زاد الموقف روعة وعظمة ان سلوك صاحبه لم يند عنه لحظة، ولم يعزب عنه قيد شعرة..!!.
لقد كان أبو بكر بهذه الكلمات المعجزات ، يضع في اطار من الذمة والصدق مسئوليات الحاكم الأمين ، ويكشف عن جوهر كل حكومة صالحة ..
" اني وليت عليكم ولست بخيركم" .

بالله ما أروعها من بداية .. !! فهو يريد أن ينزع من صدور الناس أي وهم يجعلهم يضعون الحاكم فوق قدره ومكانه. .
يريد أن يقر في افئدتهم ان الحكم ليس مزية ولا امتيازا . إنما هو خدمة عامة في أكثر مستويات هذه الخدمة مشقة ومسئولية وشظفا .
انه بهذه الكلمات الوضاء يقرر :
ان الحكم وظيفة لا استعلاء. وزمالة لا كبرياء .. ويقرر ان الحاكم فرد في الأمة. وليس الأمة في فرد .
" ا ني وليت عليكم ، ولست بخيركم" . اجل. انه ليس بخيرهم لانه حاكم .. ولكنه خيرهم لانه حكيم .. لانه الصديق الذي توافر له من الصدق ومن الإيمان ، ومن الأمانة، ومن الرشد ما جعله ثاني اثنين..
ومن اجدر منه بهذة الكلمات .. ؟ من أحق من أبي بكر واولى بهذا الموقف ..موقف الحاكم الذي يدرك تماما انه لن يكون عظيما الأ بقدر ما تكون أمته عظيمة .. ولن يكون حرا الأ بقدر ما تكون أمته حرة .. ولن يكون عزيزا ،الا بقدر ما تكون أمته عزيزة ..
ولن يكون امنا الأ بقدر ما يكون شعبه امنا ..
وسبيل ذلك عندة ان بملا الشعب مكانه ؛ ويدرك انه الضمان الاوحد لكل ما برجى للوطن وللحاكم من خير وعدل وسد!!د .. !!
" لست بخيركم" " فإن ا حسنت فاعينوني" . " وإن اسات فقومونى " !! .
وهذه هي وظيفة الشعب عند أبي بكر . وهذا هو جوهر علاقته بحاكمه. ان يكون عونا له على نفسه وعلى مسئولياته .
وذلك لا يتم الأ بأن يقف منه موقف الشريك البصير لا موقف التابع الضرير ... يعينه إذا أحسن. ويقومه إذا اساء ..
ثم ينتقل أبو بكر في خطابه وميثاقه إلى سيادة القانون فيعلنها، ويؤكد اصراره عليها...
" الضعيف فيكم قوي، حتى أخذ الحق له .. " " والقوي فيكم ضعيف، حتى أخذ الحق منه .. " " اطيعوني ما اطعت الله ورسوله .. " " فإذا عصيت؛ فلا طاعة لي عليكم

***

اي صدق... واي روعة.. ؟!
رجل له كل هذه المزايا وسط هذه الجماعة المؤمنة ، ثم يبدا خلافته داعيا الناس في اصرارعظيم كي ياخذوا مكانهم إلى جواره.. لهم الحقوق نفسها ، وعليهم الواجبات نفسها
اجل .. لقد كان عظيما - أي عظيم - وهو يعلم الناس بقوله وبسلوكه انه لا يفضلهم في شيء ، وانه في حاجة دائمة وملحة إلى ما معهم من فضل ، ومن رأي ، ومن اعتداد بالنفس، وصلابة في الحق...

***

ولقد تقبل الخليفة منصب الخلافة غير راغب فيه ، ولا حريص عليه ، ولولا انها التبعات الفاصلة في الأيام الحاسمة لاوى إلى ركن بعيد ، ولهرب من ذلك الذي يسارع الناس اليه، ويتهالكون عليه..
لقد كان صادقا حين قال : - "والله ما كنت حريصا على الإمارة يومأولا ليلة.. ولاسالتها الله فى سر ولا علانية" ..
اجل. . لم يكن عليها حريصا . ولولا ان يكون بتخليه عنها قد هرب من مسئوليات دينه وإيمانه لانخذ سبيله إلى الفرار سربا..!!
ولقد حاول ذلك فعلا بعد أن فرغ من قمع فتنة المرتدين. فذات يوم دخل عليه عمر رضي الله عنه داره ، فالفاه يبكي . وما كاد يبصر عمر أمامه حتى تشبث به كانه زورق نجاة، وقال له : " يا عمر ، لا حاجة لي في امارتكم ٠٠ " ٠
ولم يتركه عمر يتم حديثه، فقد بادره قائلا : -"الى أين المفر.. ؟ والله لا نقيلك، ولا نستقيلك" .. !!

* **

والآن، لنقترب من بعض تلك المشاهد .. حيث يضع الخليفة موضع التنفيذ ، خطابه الذي اعلنه يوم بيعته.
لنقترب ولنر هذا الابن المبارك العظيم.. لا للإسلام وحده.. بل للحياة كلها .
لنبصر هذا الحاكم الهاطل يملا حياة الناس عافية ورحمة ، وروعة وامنا .
لقد كتب عليه أن يبدا عهد خلافته بواقعة امتحن فيهأولاؤه للقانون وللحق امتحانا عظيما . ذلك ان السيدة فاطمة بنت رسول الله ، والعباس عم رسول الله ، ذهبا إليه يسألانه حقهما في قطعة أرض صغيرة كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد اصابها في بعض الفيء ، وكان عليه السلام يعطي السيدة فاطمة وبعض أهله جزءا من نتاجها، ثم يقسم الباقي بين فقراء أصحابه.
والآن ، بعد وفاته - عليه السلام - ذهبت فاطمة رضي الله عنها إلى خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم تسأله هذه القطعة من الأرض باعتبارها ميراث ابيها عليه السلام.
قال أبو بكرلهاوللعباس : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " نحن معاشر الآن بياء لا نورث ، ما تركناه صدقة " ، واني والله لا ادع أمرا رايت رسول الله يصنعه الأ صنعته ؛ فاني اخشى ان تركت شيئا من أمره ان ازيغ" .
ان أبا بكر يعلم أن اولى الناس بالرعاية - فى الحق - هى بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلم كم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحبها ويؤثرها .
ويعلم مدى حاجتها وزوجها وأولادها إلى هذه القطعة الصغيرة من الأرض.
وأبو بكر يؤثر ان يركب الصعب في غبطة ، على أن يقول لابنة الرسول : لا ... ومع هذا ؟ فقد قالها.!
انه حين آمن بالرسول وبدينه وشرعته صارت هذه الشرعة قانونا ..
وإيمانه بالقانون لا ينفصل عن إيمانه بالله ورسوله ..

ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: نحن معاشر الآن بياء لانورث .
اذن، فقد صار حكما من احكام الشريعة التي يؤمن بها الأ يورث نبي.
وهكذا وجد نفسه بين ولاءين :
ولائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في احب الناس اليه، وهي ابنته ..
وولائه للقانون الذي جاء به رسول الله نفسه ..
ولم يكن له ان يتردد..
فهو رجل لا يحمل إيمان العوام.. بل إيمان العباقرة.
الايما ن الذي لا تثني عزيمته قربى أو مجاملة..
ولم تكد السيدة فاطمة - رضي الله عنها - تسمع جواب أبي بكر عن مسالتها حتى اكتسى وجهها بالاسى والالم.
والصديق يعلم انها اسرع الناس إلى طاعة رسول الله، وانها لا تخالف أبدا عن امره.. ولكن قد يخامرها الشك في أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال هذا ا لحديث ، وشرع هذا الحكم ...
ومن ثم أرسل إلى عمر ، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسالهم امامها : "نشدتكم بالذي تقوم السماء والأرض بامره، ألم تعلموا ان رسول الله ٠ قال : نحن لا نورث ، ما تركناه صدقة " ؟؟
وادلت فاطمة بحجة جديدة ، فقالت للخليفة : إنك تعلم ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد وهبها لي في حياته، فهي لي إذن بحق الهبة، لا بحق الارث...
قال أبو بكر: اجل، اعلم.. ولكني رايته يقسمها بين الفقراء والمساكين وابن السبيل بعد أن يعطيكم منها ما يكفيكم... واذن فقد أراد ان يكون فيها حق دائم للفقراء .
قالت فاطمة : دعها تكن في ايدينا ، ونجري فيها على ما كانت تجري عليه وهي في يد رسول الله .
قال أبو بكر : لست أرى ذلك ، فانأولي المؤمنين من بعد رسولهم ، وإنا أحق بذلك منكما - اضعها في الموضع الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يضعها فيه ... !
فى هذه الواقعة التى واجهت الصديق فى بداية حكمه اجتاز إيمانه بالحق وبالقانون امتحانا لا يدرك رهبته ومشقته أحد سوى أبي بكر . ولقد اصاب في هذا الامتحان ظفرا عظيما .. !!

***

واحترام أبي بكر للقانون لا ينفصل عن احترامه للذين يحملون معه مسئولية رعايته .
فيوم خرج يودع أسامة - وقد سبق الحديث عنه - كان بين جنود هذا الجيش ، عمر بن الخطاب. وكان أبو بكر حريصا على أن يبقى عمر بجواره في المدينة .
ولقد كان يستطيع كخليفة للمسلمين ان يستبقيه بقرار ينفرد باصداره ، لكنه

يعلم آن في هذا التصرف افتياتا على موظف مسئول ، يجب آن تتوافر له الضمانات التي تمكنه من اداء واجبه وممارسة وظيفته.
واولى هذه الضمانات الأ تنتقص سلطة ما شيئا من حقوقه ، حتى لو تكون سلطة الخليفة نفسه .
وهكذا ، اقترب الخليفة من قائد الجيش أسامة ،وقال له في همس رجاء : " إذا رايت ان اترك لي عمر بن الخطاب، فاني اجد في بقائه معي خيرا ونفعا " ..؟؟
وبادر أسامة بالرضا والموافقة .
ان أبا بكر لم يفعل ذلك مجاملة ، أو تواضعا .
انما فعله واجبا ...
ولو قال أسامة ساعتئذ : لا ، ما وسع الخليفة ان يخالف أو يفتات.
ومن شاء ان يرى جلال الحكم، وعظمة الحا كم، فلينظر أبا بكر غداة استخلافه.
اذ خرج من داره حاملا على كتفيه لفافة كبيرة من الثياب.
وفي الطريق يلقاه عمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح فيسألانه :
- إلى أين يا خليفة رسول الله.. ؟؟
فيجيبهما: إلى السوق.
قال عمر : وماذا تصنع بالسوق ، وقد وليت أمر المسلمين .. ؟؟
قال أبو بكر : فمن أين اطعم عيالي.. ؟
لم يدخل منصب الخلافة على النفس الكبيرة أي زهو ، ولم يحرك لها رغبة - أي رغبة - في تغير أسلوب الحياة.
قال له عمر : انطلق معنا نفرض لك شيئا من بيت المال.
وصحبهما الخليفة إلى المسجد حيث نودي أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليهم عمررايه في أن يفرض للخليفة بدل تفرغ . وفعلا - فرضوا له كفافا.. بعض شاة كل يوم ومائتي دينار وخمسين في العام... ثم زيدت بعد ذلك آل ىشاة في اليوم وثلاثمائة دينار في العام.
وعاش أبو بكر بهذا هو واسرته الكبيرة، حتى بعد أن فتح للمسلمين ابواب الرزق والرغد ، وبدات خيرات الشام والعراق تفد إلى المدينة .
ولم يكن الصديق يلتزم القناعة لمجرد الزهد ، بل كانت قناعته جزءا من فلسفته.
فهو يقدس اللقمة الحلال ، ويحاذر ان يدخل جوفه كسرة فيها شبهة ..
وهو يرى ان الحلال ليس من الكثرة بحيث يتسع للا سراف.
فإذا وجد سرف ، أو ترف ، فاعلم ان ثمة سبلا للعيش غير مشروعة .
وان خليفة محمد صلى الله عليه وسلم ليؤثران يشدعلى بطنه حجرين من المسغبة كما فعل معلمه ورسوله صلى الله عليه وسلم على أن يدخل امعاءه لقمة فيها شبهة..

يحدثنا الإمام البخاري في صحيحه انه كان لخليفة رسول الله غلام جاءه يوما بشيء، فاكل منه، ولما فرغ من اكله قال له الغلام: اتدري ماهذا يا خليفة رسول الله.؟
قال أبو بكر: ما هو.؟
قال الغلام : انى كنت قد تكهنت لرجل في الجاهلية ، وما أحسن الكهانة الأ اني خدعته.. وقد لقيني اليوم فاعطاني ، فهذا الذي اكلت منه...
" فادخل أبو بكر يده في فمه حتى قاء، كل شي، في جوفه" .
ويضيف صاحب الصفوة إلى ذلك انه قيل لأبي بكر : " يرحمك الله.. كل هذا من أجل لقمة واحدة" .. ؟!!
فاجاب قائلا: " والله لو لم تخرج الأ مع نفسي لأخرجتها .. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل جسد نبت من سحت فالنار اولى به . فخشيت ان ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة "
كان اصراره عظيما على الأ ينال من بيت المال الأ ما يكفيه وأهله بالمعروف. وما نال من المال وهو خليفة ، ولا نال من مناعم الحياة الأ ما كان يأكل وأهله من جريش الطعام. .والا ما كانوا يلبسون من خشن الثياب. !!
وبرغم هذا كله فحين ادركه الموت دعا إليه ابنته عائشة رضي له عنها ،وقال لها:
- انظري مازاد فى مال أبي بكرمنذ ولى هذا الأمر فرديه على المسلمين.
وكانت روحه الطاهرة تتحرك صاعدة إلى بارئها وهويردد هذه الكلمات ...
ترى ماذا كان هناك حتى يشغل بال أبي بكر إلى هذا المدى..؟
ماذا ادخر في أيام خلافته من ثراء يخاف ان يلقى به ربه.؟؟
انظروا .. ان عائشة حملت تركة ابيها فور وفاته ، وفور مبايعة عمر. حملتها إلى أمير المؤمنين تنفيذا لوصية ابيها ، فما كادعمر يرى ويسمع حتى انفجرباكيا ، وقال : يرحم الله أبا بكر.. لقد اتعب كل الذين يجيئون بعده .!
يعنى بهذا ان الصديق بسلوكه وورعه قد سن نهجا تناهى في العظمة ، بحيث يضني بلوغه ومضاهاته كل خليفة ياتى على اثره.
لماذا انفجر عمر باكيا حين نثرت أمامه ثروة أبي بكر ..؟
لقد كان أمرا غير معقول .. هذه التركة التي خلفها الرجل الذي افدى الإسلام بماله .. والخليفة الذي بدات تنثال فى أيامه خيرات الشام وا لعراق ..
هاهو ذا ، الميراث الذي خلفه أبو بكر، والذي اصر على أن يرذ إلى بيت المال. بعير، كان يستقى عليه الماء ..! ومحلب ، كان يحلب فيه اللبن..!! وعباءة،كان يستقبل فيها الوفود
***
هذا هوالإنسان الكبيرالبارالذي جعل شعارحياته، وشعارحكمه لست بخيركم .
وانه لا يردد هذا الشعا ر تواضعا ، بل يعبر به عن جوهره وبضمنه اسمى مبادئ سلوكه .. فهو - حقا - لا يري نفسه خيرا من احد. لقد أنزل الله فيه قرآنا :

" الأ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إذ آخر جهُ الّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذ هُمَا فِي الْغَارِ..."
ولقد كان قبل الإسلام واحدا من إعلام قريش وسادتها..
ولقد أخذ مكانه، في الإسلام من أول لحظة إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يتقدم عليه أحد .. ولقد أسلم وهوفي اوج ثراته ، فلم يذخرلنفسه ولا لأهله درهما ، وبذل فى سبيل الله كل ثروته - يحرر الارقاء ، ويطعم الطعام على حبه مسكينا ، ويتيما ، واسيرا ..
ولقد بلغ من اعزاز الرسول صلى الله عليه وسلم له ان أمر بايصاد جميع الابواب التي كانت نفتح على المسجد، الأ بابا واحدا أمر ان يبقى.. هو باب أبي بكر...
ولم يكن الرسول ليغضب لنفسه قط .. لكنه لم يكن يصبر على أي اساءة طفيفة توجه إلى أبي بكر.
ولقد استخلفه الرسول عليه الصلاة والسلام على الصلاة، وا صر على استخلافه..
ولقد با يعه المسلمون بعد النبي صلى الله عليه وسلمً خليفة لهم واماما ..
ولقد تحدته فتنة الردة تحديا رهيبا ، فنصره الله عليها نصرا مؤزرا ..
ولقد رأى ابراج الروم والفرس تتداعى تحت سنابك خيله ، واقدام جنده ، ورأى العالم القديم كله يبدا رحلة فناء له تحت خفق رايا ته الظافرة ...
كل هذا ولم تتسلل إلى نفسه همسة بأنه خيرمن أحد ..
بل كان دوما ، يمسك قلبه بيمينه ، ويجار بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك" ...
بهذا الإيمان الذي يكفي أهل الأرض جميعا، يخاف على قلبه ان يزيغ...
ويقول وهويبكي: يا ليتني كنت شجرة تعضد ..
فإذا ذكر بمقامه عند الله أجاب : - "والله لا آمن لمكرالله ، ولوكانت احدى قدمى فى الجنة" ..
من هنا كان قوله: لست بخيركم تعبيرا أمينا عن طبيعته ، وفقهه . ومن هنا كان نايه الشديد عن كل مظاهر الزهو والاستعلا ء .

***

ولقد حقق الصديق هذا المبدا تحقيقا جعل حياته العظيمة نسيج وحدها .
فهو يوم كان يملك ثراء عريضا ، سال نفسه: لماذا ينعم بهذا الثراء والمسلمون فى فاقة..؟؟ هل هوخيرمنهم..؟
واجاب نفسه قائلا: لست خيرا منهم.. واذن فلنكن في هذه النعماء سواء..
وهكذا اقرض الله كل ماله ، حتى لقد ساله الرسول صلى الله عليه وسلم يوما : " ماذا ابقيت لاهلك يا ابا يكر".؟؟
فاجاب: " ابقيت لهم الله ورسوله" !!

وهو حين صار خليفة للمسلمين ، وحين فتح الله عليهم من الرزق والخير ما يسمح له بأن يعيش فى رغد وسعة ، رفض ان يتقاضى من بيت المال أكثر مما تتطلبه ضرورات العيش ، وأكثر مما ينال أي بيت من بيوت المسلمين يضم من الآن فس ما تضمه اسرة أبي بكر.
* ولقد سال نفسه: لماذا يأخذ أكثرمما يستحق..؟
هل هوخيرمن الآخرين حتى يختص نفسه بمزيد..؟
واجاب نفسه بأنه ليس خيرا من احد.. واذن فليعش في مستوى المواطن العادي في أمته وجماعته، مع انه يوم كان يعيش من ماله ومن تجارته كان مستوى معيشته عند مستوى دخله.. رغد كثير ونفقة واسعة...
فلما ولي أمر الناس دحض كل ما من شانه ان يخصه بامتياز أي امتياز. ورد جميل للذين اختاروه خليفة عليهم بأن فرض على نفسه مساواة كاملة بهم ، وجهدا مضنيا في سبيلهم ..
وان عظمة أبي بكر ومن بعده فى هذا الفاروق عمر لتتمثل أكثرما تتمثل فى انهما سلكا ذلك المسلك النادر المثال ، وهما متربعان فوق كرسي الخلافة .
واين.؟
في امة جديدة .. جديدة بكل معاني الكلمة ، تقرع ابواب العالم ، ويعانق النصر راياتها فى كل مكان..!
ولقد كان لابد لحكام امة هذا شانها ، ان يستحوذ عليهم قدر من الزهو ، ومن الاستمتاع بالحياة مهما يكن زهدهم وورعهم ! ..
. لكن شيئا من هذا لم يحدث قط ، بل حدث النقيض.
فعاش أبو بكر مع دموعه الخاشعة ، يردد عبارته الماثورة : يا ليتني كنت شجرة ثعضد ..
وعاش عمر مع دموعه الخاشعة ، يردد عبارته الماثورة : ياليت أم عمر لم تلد عمر ..!
وكانا ينشران على الناس اسلاب كسرى وقيصر ، وهما يسيران في ثوبين ازدحمت فيهما الرقاع.!!!
وا ذا مات أبو بكر الخليفة عن بعير ، ومحلب ، وعبا ءة ، اصر على أن ترد إلى بيت المال .
يا سكان هذا الكوكب الذي نعيش فوقه. .. هل عندكم لهذه النماذج الطاهرة نظير ..؟؟
الا انها مدرسة القرآن. ..
الا انها مدرسة محمد .. عليه أفضل الصلاة وازكى السلام. .!!.

***

ان هذه العبارة الحافلة: لست بخيركم ..تصورنا جوهر الشخصية الفريدة التى كانها أبو بكر الصديق.
فهو منذ اسلم، وقبل ان يكون خليفة، يضع نفسه من الناس في موضع سواء...

ولنصغ الآن إلى ربيعة الاسلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"كان بيني وبين أبي بكر كلام، فقال لي كلمة كرهتها ، ثم ندم عليها ، وقال لى: يا ربيعة، ردعلي مثلها حتى تكون قصاصا ..
قلت: لا أفعل.
فقال لي : لتأخذن بحقك مني ، أو لاشكونك إلى رسول الله ...
قلت :ما أنا بفاعل.
فذهب عني منطلقا إلى النبي عليه السلام ، وانطلقت ورا ءه..
فجاء ناس من أسلم فقالوا: يرحم الله أبا بكر .. في أي شي، يستعدي عليك الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال لك ما قال..!
فقلت لهم: اسكتوا ،هذا أبو بكر.. وهذا الذي قال الله عنه - ثاني اثنين إذ هما في الغار - إياكم لا يلتفت فيراكم تنصرونني عليه فيغضب ، فيغضب رسول الله لغضبه ، فيغضب الله لغضبهما، فتهلك ربيعة ..
وا نطلقت وراء أبي بكر حتى اتى الرسول صلى الله عليه وسلم فحدثه بما كان..
فرفع الي رسول الله ٠ رأسه وقال : يا ربيعة ، ما لك والصديق..؟
قلت : يا رسول الله ، انه قال لي كلمة كرهتها ثم طلب الي ان اردها عليه لتكون قصاصا فابيت..
فقال الرسول: أحسنت يا ربيعة ، لاتردها عليه، ولكن قل: غفراله لك يا أبا بكر..
فقلت:غفرالله لك يا أبا بكر..
فولى أبو بكر وهو ببكي".!! والآن، فلننظر. .
انها كلمة واحدة ندت عن اسانه فلتة .
وهي كلمة لا يمكن ان تكون من فحش القول أبدا ؛ لان اخلاقه لم تكن تسمح له بهذا ، ولم يؤثرعنه -حتى في الجاهلية - شيء من هذا.
هي كلمة هينة، ولكنها اصابت من ربيعة موجعا.. إذا أبو بكر يزلزل من اجلها ، ويابى الأ القصاص عليها ، مع انه يومئذ كان الرجل الثاني في الإسلام بعد رسول الله.
ولكن لم لا يصنع ما صنع ، وهو يرى الرجل الأول نفسه .. رسول الله الكريم ، يقف الموقف نفسه وينهج النهج نفسه . وكز رجلا في صدره وهو يسوي صفوف المقاتلين في احدى الغزوات، حتى إذا رأى الوكزة قد المته، يكشف عن صدره، من فوره، ويصرعلى أن يكزه وكزة مثلها ..؟!!
ويروى لنا ابوالدرداء نبأ شبيها بهذا ، فيقول : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر اخذا بطرف ثوبه حتى ابدى عن ركبتيه،وقال:
يا رسول الله، انه كان بيني وبين عمر بن الخطاب شيء، فاسرعت إليه نادما وسالته ان يغفر لي فابى علي..
فقال له الرسول صلى الله عِليه وسلم : " يغفر الله لك يا أبا بكر" ..

ثم إن عمر ندم؛ فاتى منزل أبي بكر فلم يجده..ثم اتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله أنا كنت اظلم.. يا رسول الله : أنا كنت اظلم..
فقال الرسول صلى الله عليه وسلم ان الله بعثني إليكم، فقلتم كذب. وقال أبو بكر. صدقت.. وواساني بنفسه، وماله؛ فهل أنتم تاركون لي صاحبي..؟ فهل أنتم تاركون لي صاحبي..؟
انه حين تند منه كلمة عابرة لعمر ، أو لربيعة الاسلمي لا يقول لنفسه: لا باس ، وسيغفرها الله لابى بكر ، صا حب كل جليل من المواقف..وباذل كل عظيم من التضحيات ..لان ما انعم الله به عليه من التوفيق ورفيع الخصال لا يبتعث في نفسه الزهو، بل يطالبه بالشكر ويحثه إلى التواضع والعرفا ن..

***

هكذا كان جوهرعلاقنه بالناس جميعا قبل الخلافة وبعدها .. ليس خيرا منهم.. ولكنه واحد لا تميزه عنهم سوى فضائله الباهرة ، وعظمته السامقة ..!

الفصل الخا مس   يا اماه!

كانت بساطته ، أهم عناصر عظمته ..وكان قبل ان يصير خليفة يقدم لاهل الحي الذي يسكنه خدمة تناهت في الطرافة والروعة .
فقد كان في جيرته بعض الارامل العجائز اللائي مات ازواجهن أو استشهدوا في سبيل الله. كما كان هناك بعض اليتامى الذين فقدوا اباءهم. .
وكان رضي الله عنه يوم بيوت الأوليات فيحلب لهن الشياه . ويؤم بيوت الآخرين فيطهو لهم الطعام.
ولما صار خليفة ، تناهى إلى سمعه حسرة العجائز ، لانهن سيحرمن منذ اليوم من الخدمة الجليلة التي يؤديها لهن الرجل الصالح.. - لكنه اخلف ظنونهن.!!

***

وذات يوم ، يقرع باب احدى تلك الدور ، وتسارع إلى الباب فتاة صغيرة لا تكاد تفتحه حتى تصيح : انه حالب الشاة يا اماه ...
وتقبل الام إذا بها وجها لوجه أمام الخليفة العظيم، فتقول لابنتها في حياء: ويحك ، الأ تقولين خليفة رسول الله .. !؟
ويطرق أبو بكر و يهمهم مع نفسه كلمات خافتة. . لعله كان يقول: دعيها ، فقد وصفتني بحب اعمالي إلى الله.!! وتقدم حالب الشاة ليؤدي الواجب الذي فرضه على نفسه .
اجل.. حالب الشياه للعجائز..!! والعاجن بيديه خبز الايتام..!!
بساطة ، ورحمة ، تفانيا في اداء حق الحياة .!!!
ترى لو قدر لأبي بكر بشمائله هذه ان يكون رئيس دولة في عصرنا الحديث ، اكان منهجه هذا يتغير ..؟؟
كلا.. صحيح انه لن يحلب الشياه ، ولن يطهو بيده الطعام..
بيد أنهم شمائله تلك ، كانت ستعبر عن نفسها في مشاهد كهذه تناسب روح العصر دون أن تبخس نفسها في شيء ..
ان بساطة هذا الإنسان البار ، لمن الأمور المعجزة ..
ولقد اعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم حقه حين قال عنه: ارحم امتي بامتي أبو بكر .
لقد كان يحمل قلبا مشحوذا بالاحساس بكل ألم إنساني .
وكان يملك ارادة مباركة تسارع إلى انجاز توصيات قلبه الرشيد الودود ..

***

كان في بدء اسلامه لا يطيق ان يرى مؤمنا يتعذب ، وكانت نفسه تنوء بالالم حين يكون أولئك المعذبون رقيقا ، ومن ثم وضع ثروته في سبيل تحريرهم، وحررهم جميعا بماله.

بلال.. عامر بن فهيرة.. زبيرة.. أم عبس.. النهدية، وابنتها .. جارية ابن عمرو بن مؤمل.. وغير هؤلاء.
وكان عظيما ، وهو يشعر هؤلاء الارقاء انه لا يحررهم ، بل يحرر نفسه قبلهم .. لانه وقد اتاه الله المال ونعمة الإسلام بات واجبا عليه أن يحطم من الاغلال الظالمة كل ما يستطيع تحطيمه ..؟؟
حين افتدى بلالا ، قال له سيده – تحقيرا منه لشان بلال:
خذه فلو ابيت الأ اوقية واحدة بعتكه بها . فاجابه أبو بكر قائلا: والله لو ابيتم الأ مائة لدفعتها ..!
ومن الطريف ان يتناقل الناس في مكة ان أبا بكر يبذل في سبيل تحرير العبيد من ماله بذل السماح ، فيعمد بعضهم حين تنتابه أزمة مالية إلى انزال العذاب بعبده ، كي يسارع أبو بكر لنجدته ويتقاضاه السيد ثمنا يدفع به ضائقته وازمته ..!
انه رحيم اواب... انه إنسان انتهى إليه كل مافي الإنسانية من حنان ونجدة ا!
ولقد خلق هكذا .. وخلق لهذا ..
في أيام الجاهلية كان ذلك خلقه.. لم يعرف عنه مرة واحدة انه قاتل، اوشاتم، أو اساء ، أو تخلى عن مروءة ، أو بخل بماله اوجاهه. فلما أسلم اضيف إلى صدق فطرته، صدق دينه..

***

وكان ربانيا فى كل مشاعره وسلوكه .
يعبد الله كانه يراه .. ويعامل الناس جميعا كانهم ابناء الله .
ذهب عمر بعد وفاته يسأل زوجته اسماء بنت عميس : كيف كان أبو بكر يعبد ربه حين يخلو بنفسه ، فاجابته قائلة : كان إذا جاء وقت السحر قام فتوضا وصلى .. ثم يظل يصلي .. يتلو القرآن ويبكي .. ويسجد ويبكي .. ويدعو ويبكي .. وكنت آنئذ اشم في البيت رائحة كبد تشوى .. !
فبكى عمر رضى الله عنه وقال: انى لابن الخطاب مثل هذا ..؟؟
رائحة كبد تشوى من بيت أبي بكر..؟؟
الرجل الطهور الذي لا يكاد يعرف له خطا، يحمل كل هذه النفس المولولة من خشية الله ، وكل هذه الجوانح المتلظية من رهبته ..!
اجل.. ان اجلاله ربه وتوقيره كانا يملان نفسه روعة ، .يملانها حياء ، واخباتا ..
ولقد كان يعلم علم اليقين ان من تمام توقيره ربه، توقير عباد هذا الرب العظيم.
وهكذا ، لم يكن في علاقاته بالناس يسير وفق ما ينبغي فحسب... بل وفق الربانية
التي اسكنها الله في قلبه وضميره...
فهذا الرجل الالهي لا يعطي الناس من ذات نفسه ما ينتظرون.. بل يعطي ما يقدر هو على اعطائه، وانه ليقدر على كثير وكثير.

ومن ثم رآيناه دوما المبادر المقدام نحو كل وا جب، نحو كل ازمة.. ونحو كل تضحية..
والمستوى الذي تعمل عنده فضائله المتفوقة مستوى واحد ومتكافئ..
فالروح المستبسلة التي واجهت ازمات الدعوة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد مماته - هي نفس الروح التي دفعت صاحبها إلى ان بحلب الشياه للأيامى.. ويعجن الدقيق لليتامى..!!

***

وبساطة خلقه تتواءم مع بساطة خلقه ، وكما ان بساطة شمائله تتضمن عظمة خارقة . فكذلك كانت بساطة تكوينه تتضمن شخصية خارقة ..!
واذا أردنا ان نرى صورة التكوين الجسدي لهذا السيد الجليل، فها هي ذي الصورة كما تقدمها ابنته السيدة عائشة - هو : ابيض ... نحيف ... خفيف العارضين ... احنى الظهر .. معروق الوجه .. غائر العينين..ناتىء الجبهة..عاري الاشاجع. "1" .
هذا هو الرجل الذي اختارته الأقدار ليكون على رأس اساتذة البشرية جميعا في فن الإيمان والعظمة ..!

"١" الاشاجع : عروق ظا هر الكف.

هذا هو الرجل الذي اختير لتكون أيامه السطور !!لأولى في نعي أعظم امبراطوريات عصره وعالمه ا لروم وفارس.!!
وليكون أول خليفة لرسول ، سيسير دينه كالضوء مشرقا ومغربا ،صانعا حضارة تملأ الدنيا ، وتسعد الناس ...
اجل .. وفى هذا الجسد الناحل وجدت العظمة منزلا لها ومقاما.!
انه لا يملك جسما ملكيا ،وليس فى تكوينه شىء من سمات الاباطرة ..
لكان الله علم من عبده الصالح هذا، انه لن يضيق في حياته بشيء مثل ضيقه بأن يميزه عن الناس شيء يجعله مهوى اعينهم المبهورة، فاختارله هذا المظهرالبسيط والتكوين العادي..!
انظروا وصف ابنته له: غائرالعينين... معروق الوجه. ناتئ الجبهة . !!
اجل.. لا شيء غير عادي في سيد قريش، وخليفة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقاهر جيوش الردة، وحالب شياه الأيامى.!!
لاشيء غير عادي، اللهم الأ ذلك اللالاء المشع من عينيه اللتين ترسلان سنا عجيبا ، والقا باهرا ، كانهما كوكبان دريان. .!!!
وانهما لهاجعتان تحت جبهته العالية ، وجبينه المتئد ، تنعكس عليهما كل ما في قلبه من ضياء ، وقوة، وحب... فإذا وقعتا على اسى، التمعتا بفيض من الحنان والرحمة والنجدة..

واذا وقعتا على ظلم، توهجتا باللهب المقدس.. واذا وقعتا على وجه إنسان، قراتاه في لحظة... واذا استقبلتا آية من آيات اله، فاضتا بالدمع خشية واجلالا ..!
انهما عينان غانرتان حقا ، لكنهما خلقتا لتريا الحق وتهتديا إليه في غيرعناء ..
وجسده نحيل ضامر ، لكنه يتفجر حيوية وطاقة ..
وفي داخل هذا الجسد، المتواضع، تقيم روح من أعظم ارواح بني الإنسان!
****
وبعد ..
فهذا هو الصديق ..!ا لا يرفع الكاتبون من قدره بما يسطرون عنه وعن فضائله ، إنما يرفعون من اقدار أنفسهم حين يؤهلونها للحديث عن هذا الطود الشامخ العظيم..
ولقد كان رضى الله عنه أكثر الناس حياء إذا القيت عليه كلمة ثناء ..
حين ذاك، كانا الدمع يبلل عينيه، ويردد ابتهاله الماثور :
- اللهم اجعلني خيرا مما يظنون.
وا غفر لي ما لا يعلمون..
و لاتؤاخذني بما يقولون. . ا
يرحمك الله ، أبا بكر..
انك دوما ، وابدا ، لخيرمما يظنون.. !! وخيرمما يسطرون ..!! .

بين يدي عمر

أياذن أمير المؤمنين

مقدمة

لست أكتب تاريخا لعمر ، ولا ازيد الناس معرفة بعظمته وشاوه.. ولا ازكي على الله نفسي بالكتابة عن رجل احبه الله واصطفا٥ ..
ان المحاولة اكى أنا بصددها ، أكثر تواضعا من هذا كله. . اني اصغي إلى أمير المؤمنين، لا أكثر.. واتطلع اليه، لا اقل..
وفي دروب التاريخ سنحاول - أنا والقراء - ان نلتقي بالرجل الذي لم تسعدنا المقادير باللقاء معه في دروب المدينة ، حيث كانت سجاياه وعظمته تملأ الزما ن والمكان بما لا عين رات ولا إذن سمعت من عدالة الحاكمين ، وزهد القادرين ، و اخبا ت الناسكين ، وقوة الودعاء الراحمين ، ووداعة الاقوياء المتقين. !!
اجل ؛ هذا ما نحاول فى هذه الصفحات بلوغه .. ان نعيش لحظات فى رحاب عمر ، وناخذ من المشهد المكنوب عوض مافاتنا من المشهد الحي، ونلقي السمع والبصر والفؤاد بين يدي هذا القوي الأمين. والمعلم الذي ليس له بين المعلمين نظير، ونقضي في معيته لحظات ترفع من قدرحياتنا .

***

و معية أميرالمؤمنين ، ليست مثل معيات غيره من الأمراء ، والحاكمين .
انها شيء مختلف جدا . فلا مكان فيها لاطايب الطعام ، ومناعم الشراب ، ومباهج الحياة . لا مكان للفرش المرفوعة ، ولا للاكواب الموضوعة ، ولا للنمارق المصفوفة ، ولا للزرابي المبثوثة.
لا مكان للراحة.. لا مكان للزهو.. لا مكان لزلفى..
من أجل هذا كان الاقتراب من هذه المعية رهيبا ، بقدرما هو حبيب إلى النفس ، وبقدر ما يفضي إليه من شرف عظيم.
و عمر من الطراز الذي تغمرك - وانت تقرا تاريخه المكتوب - كل الهيبة التي تغمرك ، وانت تجالس ذاته وشخصه .

والمشهد المسطور من تاريخه ، لا يكاد يختلف عن المشهد الحي الأ في غياب البطل عن حاسة البصر .. أجل .. عن حاسة البصر وحدها .. أما الافئدة .. أما البصيرة ، فتحس وهي تطالع سيرة عمر انها تعايشه ، وتجالسه ، وترى رأي العين جلال الاعمال ومناسك البطولات التي يتنأولها بيد استاذ عظيم، جد عظيم..

ولكن على الرغم مما تفرضه صحبة عمر من حرمان وشظف .. فليس على ظهر الأرض بهجة ، ولا متعة ، ولا نعمة تفوق مباهج ومناعم هذه الصحبة بحال. . !

فالرجل الكبير فى بساطة ، البسيط في قوة ، القوي في عدل ورحمة ، لا يستريح ولا يترك الذين معه يستريحون ، ولكنه يمنحهم بدلا من الراحة المفقودة ، أعظم ما في الحياة من سؤدد ، وغبطة، وتفوق.

هذا هو أمير المؤمنين، الرجل الذي انجبته البشرية، ورباه الإسلام.

هذا هوالحاكم المؤمن، الذي إذا ذكر رؤساء الدول والحكومات منذ فجرالتاريخ الإنساني إلى يوم الناس هذا كان أعظمهم، وابرهم، وازكاهم من غير مبالغة أي مبالغة.

هذا هوالناسك الذي تفجر نسكه حركة،وذكاء ... وعملا ، وبناء .. هذا هو المعلم الذي صحح مفاهيم الحياة ، وافرغ عليها نورا من روحه ، وكساها عظمة من سلوكه، وكان للمتقين اماما .. !!

***

ترى ماذا يذكرلتاريخ اليوم من نبئه العظيم، وبم يلهج الناس من سيرته الفاضلة ؟ ؟

هل يذكرون فتوحاته على كثرتها ... ؟؟ هل يذكرون انتصاراته على روعتها .. ؟؟

ان سلوك أمير المؤمنين، يشغل التاريخ ويشغل الناس عن كل شيء سواه. ودائما وابدا تطل على الحياة صورة ذلك الإنسان الالهى الذي يجري فى وقت الحر القاتل وراء بعير من اموال، الأمة مخافة ان يند ويضيع ، فيحاسبه الله حسابا عسيرا .. !!

او الذي يصطحب زوجته في الهزيع الاخيرمن الليل، حاملا على كتفيه وفي يديه جراب دقيق ، وقربة الماء، ووعاء السمن ، حيث تتولى زوجته أمر سيدة غريبة ادركها المخاض ، وحيث يجلس هوخارج الكوخ ينضج لها طعام الوالدات. !!

او الذي يتأخرعن خطبة الجمعة، ثم يجيء مهرولا في بردة بها احدى وعشرون رقعة، تحتها قميص لم يجف بعد من البلل ثم لا يكاد يصعد المنبر حتى يعتذر للناس عن تاخره فيقول : " حبسني عنكم قميصي هذا .. كنت انتظره حتى يجف، انه ليس لي قميص غيره. !!". اوالذي يستقبل هدية من الحلوى ، أرسلها إليه عامله على اذربيجان ، فيسأل الرسول الذي جاء بها : اوكل الناس هناك ياكلون هذا ؟. فيجيبه الرجل قائلا : كلا يا أميرالمؤمنين، انها طعام

الصفوة.. !! فيختلج عمر ويقول للرجل : "اين بعيرك ؟. احمل هديتك وارجع بها إلى صاحبها وقل له : عمر يامرك الأ تشبع من طعام حتى يشبع منه قبلك جميع المسلمين..!! ".

***

هذا هوعمر في ذاكرة التاريخ، وفي ضميرالبشرية. هذا هو منارة الله في الدنيا ،وهديته إلى الحياة.
وعلى مائدته الخالية من اطايب الطعام ، الحافلة باطايب العظمة ، سنقضي اسعد وارغد لحظات حياتنا .. !!

خالد محمد خالد

الفصل الأول ليوسعنهم خيرا

كانت مكة تودع ضيوفها الذين وفدوا عليها من مختلف بقاع الجزيرة يشهدوا مهرجان عكاظ ، حيث تزهو القبائل بشعراثها المتفوقين ، وحيث تزدان حلبة المصارعة بفتيان قريش الأشداء يعرضون العابهم فى فن عظيم.
كانت مكة تودع أولئك الاضياف الذين شدوا الرحال راجعين إلى بلادهم ، ونجوعهم عدا نفر قليل منهم استهواهم البلد الحرام، فتهيبوا الظعن، واثرو !! لمكث.
من هؤلاء النفر ، ذلك الشيخ الذي يقطع الطريق وهنا ، ميمما وجهه شطر دار الندوة ليقضي بها ساعة الاصيل ، مع رفاقه في الشيخوخة والذكريات. . !
وانه لماض في سبيله،اذ لقيه في الطريق اعرا بى قريب العهد بمكة، يعمل راعيا لدى واحد من سادات قريش..
ولا يكاد الفتى يبصر الشيخ أمامه حتى تتحدر الكلما ت من بين شفتيه في حمية وعجلة.
هل علمت النبأ العظيم يا اخا العرب..؟
اي نبأ يا بني ... ؟
ذلك الرجل الاعسر اليسر.
ويتساءل الشيخ قائلا : الذي كان يصارع في سوق عكاظ.. ؟
-اجل... هو.
-ما باله يا فتى..؟
-لقد اسلم، واتبع محمدا ..
ويفيق الشيخ من الدهشة ، ويقول وقد كست وجهه حكمة السنين : " أما والحق، ليوسعنهم خيرا .. أو ليوسعنهم شرا " .. !!

***

اما الاعسر الذي كان يصارع في سوق عكاظ، فهو عمر..
و أما نبوءة العربي، فقد جاءت كفلق الصبح، وضوء النهار . ومع ذلك اليوم، لم يعد الاعسر اليسر.." عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى" ، من بني عدي.. لم يعد ذلك الذي يصارع الأشداء في سوق عكاظ، بل صار الفاروق عمر ،الذي سيصارع الباطل في جزيرة العرب، أول النهار. وفي كل الدنيا ،اخره. .
سيكون الرجل الذي يملا أرض الناس عدلا ، وامنا ، ورحمة، وهدى..
سيكون المعلم الذي يبلغ الرشد الإنساني على يديه رشده . و الاستاذ الذي تجلس الدنيا عند قدميه .. ! اجل.. سيكون الإنسان الذي يرفع الله به من قدر البشر، وقدر الحياة.

***

" ليوسعنهم خيرا ، أو ليوسعنهم شرا " .. ا!
كيف أدرك الشيخ العربي مصائر الأمور على هذا النحو السريع الفطن .. ؟؟
الحق ان الذي قدر له ان يرى عمر في شبابه ولو رؤية عابرة، قادرعلى أن يردد نفس النبوءة ، ويستشرف الغد الذي استشرفه الشيخ في غير عناء .
فعمر ، ذلك الرجل القوي ، المجدول اللحم ، المشرب بالحمرة ، الغليظ القدمين والكفين ، العريض المنكبين ،الفاره الشامخ العملاق،الذي لم يسر قط مع قوم الأ كان اعلاهم رأسا من فرط طوله .
الرجل الذي كان كما نعتوه: إذا تكلم اسمع، واذا مشى اسرع، واذا ضرب اوجع .
عمر الذي لم يخف قط في حياته أحدا ، ولم يخلج جنانه الصامد أمام رهبة، أو فزع.
عمر الذي ورث من طباع ابيه ، صرامة لا تعرف الوهن ، وحسما لا يؤرجحه التردد ، وتصميما لا يقبل انصاف الحلول .
عمر هذا ..من اليسير جدا استكشاف حقيقته ، وقراءة دخيلته ، والتنبؤ بمصائر الأمور يين يديه، فاما أقصى اليمين، وأما أقصى اليسار.
انه أبعد الناس عن ازدواج الشخصية ، وتعددها .
ومركز الثقل فيه ، لا تتناوبه اشتات نفس موزعة ، ولا تميل به اهواء متنافرة ، إنما تحتشد به شخصية متسقة حافلة .
فحيث يوجد عمر توجد كل شخصيته ، وكل أرادته، وكل منهجه.
لا ينقسم على ذاته أبدا .. ولا يضع احدى قدميه هنا ، وثانية القدمين هناك ..
انه رجل جميع تتحرك كل قدراته في دقة واتساق .. يفوقان دقة الجيش المدرب واتساقه. وليس لذرة واحدة فى كيانه فرصة للتخلف.. أو للتلكؤ أو للنشاز.. !
انها طبيعة فذة قلما تتكرر، وقلما يكون لها في الاعداد الهائلة من البشر نظير.
ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدرك عظمة الطبيعة البشرية التى رزقها عمر ..وكان يعرف ماتنطوي عليه من أصالة واقدار. . كما كان يعرف ما

يتمتع به عمرو بن هشام من جاه ونفوذ.
من أجل هذا دعا ربه الكبير ان ينصر الإسلام باحب الرجلين إليه عمربن الخطاب ، أو عمرو بن هشام .
ولقد ريح الإسلام احب الرجلين إلي الله ، وكان عمربن الخطاب صاحب الفطرة القوية السوية الجياشة .. ألقى ثقله كله في كفة التوحيد ، على حين ألقى الآخر ثقله فى كفة الشرك. ولكن مصير الميزان تقرر في نفس اللحظة التي أصبح يها عمر ..قوة في احدى كفتيه .. واستبان غد الإسلام كضوء الفجر ، منذ قال ابن الخطاب :" لا الله الأ لله ، محمد رسول الله".. !
يقول عبد الله بن مسعود : " ما زلنا اعزة منذ أسلم عمر، كان اسلامه فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت إمارته رحمة ، ولقد رايتنا وما نستطيع ان نصلي بالبيت حتى أسلم عمر" .. !!.

***

هذا العنفوان الوثيق فى شخصية عمر كان يبدو كما لوكان تطرفا ،وتزمتا ،وغلظة. .
في الجاهلية ، كانت محادته للإسلام ، تكاد وحدها تعدل أذى قريش .. وكان تشبثه بموقفه يدحض أي أمل في عدوله عنه ، حتى لقد صور أحد المسلمين يومئذ ياسه من اسلام عمر بقوله :" انه لن يسلم حتى يسلم حمار الخطاب". !.
وفي الإسلام ، صارت محادته للوثنية تكاد تعدل وحدها مقاومة الإسلام باسره ، وصارت صرامته العادلة العاقلة مضرب الأمثال ، حتى لقد كان الوحيد بين الصحابة الذي يكثر من مناقشة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي يقترح أحيانا على الرسول ، فيمضي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اقترح ، ويسن ما ارتاى . وكان شديد الوطاة على خصوم الإسلام بصورة تفرد بها عمن سواه.
بيد أنهم ذلك لم يكن من عمر تطرفا ، ولا تزمتا ، ولا قسوة. إنما كان تفوقا . ذلك ان الطبيعة التي كانت تحتشد مواهبها وقدراتها على هذا النسق الفذ الذي توفر لعمر ، لا يكون لصاحبها الخيار الأ في مستوى هذا التفوق المهيمن العميم .
وهكذا كان عمر . رجل مزود بطبيعة مشحوذة قوية ممتلئة .. طبيعة مستقيمة القصد ، شديدة الاسر ، سواء فى ضلالها وهداها .
وهي إذا اتخذت موقفا ، تبلغ فيه المدى ، لا استجابة لنزعة الغلو ، بل تحقيقا لامكاناتها الحافلة ، وتعبيرا تلقانيا عن تفوقها وامتلائها .
ان ثمة فارقا كبيرا بين التفوق والتطرف..
ا لأول : يشبه النمو الطبيعي.
والثاني :يشبه مرض نمو العظام.

الأول تثمره خلايا حية عاملة ، وطبيعة سوية نامية ؛والثاني عرض من اعراض العلة والسقم .
وا لتفوق ، قوة عادلة تتضمن الحكمة ، ولا تستعلي على الخير ، أو تتوارى من الحق ...وهكذا كان الذي مع عمر التفوق،لا التطرف.. والقوة، لا القسوة. ..
وان الظروف التي ازجت اسلامه ، واحاطت به لتكشف جوهر طبيعته ، وتوضح هذا اوضح بيا ن...

***

ذات يوم لاهب، خرج من داره حاملا اصراره الحرور، وسيفه الجسور، موليا وجهه شطر دار الأرقم، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم ونفر من أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك، ويعبدونه.
وفي الطريق يلقاه نعيم بن عبد الله فيرى ملامحه تتفجر باسا ونقمة، فيقترب منه في وجل ويسأله:
-الى أين يا "عمر"..؟
فيجيبه : "الى هذا الصابئ الذي فرق امرقريش وسفه احلامها ، وعاب دينها ، وسب الهتها فاقتله" ..
ويذهل نعيم عن إحساسه بالموقف، ويالخطر الذي ينجم عن معارضته لعمر، يقول له:
-" لبئس السعي سعيك، وبئس الممشى ممشاك". . !
ويخشى "عمر ان يكون نعيم" قد اسلم، فيقول له:
-"لعلك صبات.. ان تكن فعلت فواللات والعزى لابدان بك".
و نعيم يعرف تماما ان "ابن لخطاب يعني ما يقول، فينهي الحوار بعبارة تلوي زمام عمر ، إذ لا يكاد يحتمل وقعها الشديد:
- " الأ فاعلم يا عمر ان اختك وزوجها - سعيد بن زيد - قد اسلما، وتركا دينك الذي انت عليه".
اخته... ؟؟ فاطمة بنت الخطاب ؟؟
ما له ولدارالأرقم اذن، وقداقتحم الخطر داره هو وعرينه..؟
وهكذا، اغذ السير إلى دار ختنه سعيد .

***

في جوف الدأركان سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب و خباب بن الارت ،و ملء أيديهم صحيفة فيها من وحي الله آيات يتلونها ويتدارسونها.
وقرع الباب قرعا رهيبا..
وقيل :من؟ قال: عمر...
اما خباب، فسارع إلى مخبا قصي في الدار، سائلا الله حفظه وغوثه..!!
وأما اخت عمر وزوجها، فقد استقبلاه لدى الباب يغشاهما ذهول المفاجاة، ولم تنس بنت الخطاب في هذه الغمرة الداهمة ، الصحيفة الكريمة التي بها أي الله فخباتها تحت ثيابها .

قال عمر والهول ينقذف من عينيه : ما هذه الهينمة التي سمعت عندكم.. ؟
اجابا : لا شيء انها نجوى واحاديث ...
قال لهما : سمعت انكما صباتما ...
قال سعيد :" ارايت يا عمر ان كان الحق في غير دينك" ؟؟

"١" الهينمة:الكلام الخفي.

ولم يمهله عمر حتى يتم حديثه ، فوثب عليه في عنفوان لجب ، واخذ برأسه يجره ويلويه ، ثم القاء أرضا ،وجلس فوق صدره...وحين تقدمت اخته لتدافع عن بعلها اصابتها منه لطمة ادمت وجهها فصاحت به، وكانها بوق سماوي يدوي ويصلصل : - " يا عدو الله ، اتضربنى على إيمانى بالله الاحد ؟ الأ ما كنت فاعلا فأفعل ؛ فانى اشهد ان لا الله الأ الله، وإن محمدا رسول الله" .. !
والآن ، انتبهوا جيدا ، فإن اللحظة الحاسمة تدق ، مؤذنة بالتحول ، وكاشفة عن الجوهر النقى القوي ، الذي صنعت منه فطرة هذا الرجل الكبير . فبينما هو فى باسه الشديد ذاك، يجابهه الحق عالي الصيحة ، فيلين له عمر ويتخشع ...
ذلك ان الكلما ت المندلعة من ا صرار اخته كانت تحمل كل رنين الصدق. هذا الرنين الذي يعرفه ويميزه من له فطرة كفطرة عمر تماما مثلما يدرك الفارس الاصيل المجرب، أصالة الخيل من صهيلها .. !!
ولوكانت قوة عمر قوة عناد وقساوة، لمادت فى ضراوتها ،ولبلغت من الموقف ما تريد .
اما وهي قوة تفوق وبطولة ، فقد استجابت من فورها لهذا المتبدي امامها ، لهذا الرأس العزيز المرتفع ، رأس فاطمة بنت الخطاب المؤمنة بالله وبرسوله ... ولهذه الكلمات المتوهجة بنور الحق، الصادحة برنين الصدق.
وفجاة ينهض من فوق صدر سعيد ويبسط يده الضارعة إلى اخته، سائلا اياها ان تعطيه الصحيفة التي راها تبرز من تحت ثيابها :
- هات هذه الصحيفة، لانظرما فيها .
وتجيبه اخته : " كلا ، انه " لا يمسه الأ المطهرون " ، اذهب فاغتسل وتطهر" .
ويمضي عمر كالانفاس الوديعة الهادئة ، هذا الذي كان منذ لحظات إعصارا يدمدم... ويعود ولحيته تقطر ماء، وتعطيه اخته الصحيفة، ويقرا : بسم الله الرحمن الرحيم .
طه "1" مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لِتَشْقَى "2" الأ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى "3" تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأرض وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا "4" الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى "5" لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى "6" وإن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَانَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَاخْفَى "7" اللَّهُ لَا الَهَ الا هُوَ لَهُ الْاسْمَاءُ الْحُسْنَى "8"
ثم يتابع التلاوة في خشوع وتبتل :

اِنَّنِي أَنا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنا فَاعْبُدْنِي وَاَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي "14" إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى "15" فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى "16"
ويعانق عمرالصحيفة ثم يقبلها . وينهض واقفا ويقول :
" لا ينبغي لمن هذه اياته، ان يكون له شريك يعبد معه، دلوني على محمد" !
وهنا يبزغ خباب بن الارت من مخبئه، وبهرول صوب عمر صائحا :
" ابشر يا عمر، فوالله لقد استجيب دعا الرسول لك" .
ويتخذ عمر سبيله إلى الصفا حيث دار الأرقم ، وهناك بين يدي رسول الله عليه الصلاة والسلام يدخل في الدين الحق ويكبر المسلمون تكبيرة تهتز لها مكة جميعا.
في مثل لمح البصر ، تم هذا التحول الهائل العظيم ، وانتقل إلى أقصى رحاب الهدى، رجل كان يقف في أقصى مجاهل الوثنية.
والطبيعة القوية التى كانت تحتشد لتحرس الهة قريش من زحف الدين الجديد ، وثبت الآن وثبة فى الضياء إلى الجانب الآخر من أرض المعركة بكل باسها وبكل قوتها ، ابان لحظة حاسمة اجاد توقيتها وأحسن اعدادها قدر حكيم عليم .. !
لقد كان عمر يذود عن مقدسات الجاهلية ، يوم كان يؤمن انها حق.
وهو الآن وقد أسلم وجهه لله، سيضع كل حياته وقوته في خدمة دين، آمن انه الحق.
ذلك انه رجل يسير وفق إيمانه واقتناعه ، لا وفق هواه ..
بيد أنهم إيمانه الأول و إيمانه الاخير لا يستويان .
فإيمانه القديم ، إيمان لا برهان له - برهانه التقليد الذي يحجب عن العقل ضوء الحقيقة ، ويحرم القلب بهجة الصدق .
اما إيمانه الجديد فمعه برهان. . أي برهان. . !
ان الله الذي يعبده اليوم ليس من حجر ولا من مدر .انما هو نور السماوات والأرض، على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.، والداعي إلى الدين الجديد ، ليس واحدا من طراز أولئك الكهنة الذين يرتزقون بالأصنام، ويستمدون سلطانهم من جهالة الناس وترويجا لأساطير. إنما هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي لم يكن صدقه ولم تكن أمانته موضع ريبة أو شبهة طوال الاربعين عاما التي قضاها بين قومه عابدا ، قانتا ، طاهرا ، باهرا .
وزملاؤه الجدد ، اخوانه في هذا الدين ، ليسوا على شاكلة الآخرين الذين لا هم لهم سوى اللهو واللعب، والميسر والضياع.
انما هم رعيل عظيم وضع وزره ، ونضا عن نفسه غرور الحياة الدنيا ، وتهيا لرسالة كبرى وجهاد عظيم.
اجل ..ان الناس هنا ، مع محمد رسول الله ٠ ، قد وجدوا غرضا عظيما يحيون من أجله ...اما الآخرون الذين خلفهم عمر وراء ظهره فينكفئون على موائد

الميسر يزدادون بها سفاهة ، آو يتحلقون حول الازلام يستفتونها في حظوظهم العاثرة .. أو يطوفون حول أصنام من حجارة، نحتوها بأيديهم، ثم خروا لها سجدا .
هنا إيمان حق ، معه من الله برهان.
هنا إيمان يرفع الرءؤس عالية، ويصل الإنسان بالله دونما حاجة إلى وسيط أو شفيع.
وطبيعة كطبيعة عمر ، ترفض التبعية، وتستعلي على الاذعان والرضوخ، ليس لها مجال حيوي ولا مناخ طبيعي الأ في دين كهذا الدين ، حيث يقف الناس سواسية كاسنان المشط ، وحيث اكرمهم عند الله اتقاهم، وحيث يعبق الطهر ويتضوع الحق ، وحيث يتلو محمد آيات ربه فتتبدى من خلالها معالم الحياة الوافدة ، والمصائر الواعدة، وتسمع الألباب فيها صلصلة الحقيقة ، وتجد الافئدة معها برد اليقين.. !!
ان القوة نفسها و لأصالة نفسها . تعملان فى الطبيعة الفريدة لعمر بعد أن صار الإسلام له دينا . ولكن هذه الطبيعة بعد الإسلام تتفوق تفوقا بعيدا عنها قبل الإسلام، ذلك انها وجدت نهاها، وهداها ، ولم يعد مجالها تلك الأصنام الهامدة حول الكعبة ، أو تلك الشئون الضحلة لحياة مكة ، بل تعلقت هذه الطبيعة بالسماء وبالأرض جميعا ، وصار موضوع نضالها دينا يدرك بفطنته المشرقة انه لن يقتصر على أرض الرمال ، وا لابل ، والشعر ، بل سيزحف مشرقا ومغربا حتى يغمر العالمين.. ا!
من أجل هذا يبدا القلق الذكي في الطبيعة العمرية من اولى لحظات اسلامه ، فيقول لرسول الله عليه السلا م : - "السنا على الحق في مماتنا و محيانا .. ؟؟ ".
ويجيبه الرسول: " بلى يا عمر. والذي نفسي يده انكم لعلى الحق ان متم وإن حييتم" .
يقول عمر : فيم الاخنفاء اذن.. ؟والذي بعثك بالحق لتخرجن، ولنخرجن معك .
ويخرج الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه في صفين: عمر في صف، و حمزة في الصف الآخر.
وبهذه الخطوات التي استحثها ابن الخطاب ،بدا الزحف الطويل المبارك الذي استمر الفا واربعمائة عام. ولا يزال.. !
ان الرجل الذي جاء منتضيا سيفه ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد تحول في لحظات سعيدة إلى مؤمن بالله وبرسوله ، فماذا عساه يفعل الآن ؟.
ما الامتداد الذي ستواصل طبيعته المسير فيه. وما رد الفعل الذي سيكيف وجهتها الجديدة ؟
ان خواطره السريعة لتهل. . وكانها تحرك وفق خارطة مفصلة قد وضعت سلفا .

ولسوف يتابع عمر المسلم اداء المهمة التي بداها عمر الوثني ، ولكن في مستوى اعلى، وغاية ارفع..
اجل، لقد خرج من داره منتضيا سيفه ، قاصدا دار الأرقم، ليصرع الباطل.
حسن . فليمض لغايته ، وليواصل مهمته .. غير أنه الآن لن يصرع الحق الذي كان يتوهمه باطلا .. بل سيصرع الباطل الذي طالما توهمه حقا .. !
سيصرع الباطل الذي هو باطل،والذي انخدع عمر عن زيفه وحقيقته فترة من الزمان.
وانه الآن ، وقد كشف عنه غطاؤه ، ليدوي بصوته الجسور :
- " والله ، لن اترك مكانا جلست فيه بالكفر الأ جلست فيه بالإيمان" .. !
وان مع طبيعته من الذكاء المقدرة ما يجعلها مهياة للعمل دوما ، واضعة عينيها على الهدف ابدا.
وهو لهذا وبهذا ، رجل لا يعرف انصاف الحلول ، ولا ينام على الضيم لحظة من نهار أو مساء .. والضيم عنده اشمل واعم من أن يكون رهقا ينزل به ، أو خسفا يسامه .. والضيم أيضا ان يعجز عن تحقيق ذاته ، وانجاز مشيئته ، وبلوغ الأمر الذي يريد .
وهكذا ،راى من الضيم ان يترك معالم جاهليته تعيش ، ولو خايبة كابية ، ومن ثم فإن اثار قدميه فى طرقات مكة حيث كان يذرعها منددا بالإسلام ، ومتعقبا ذويه ، لابد من أن تذوب وتتلاشى في خطواته الجديدة الثابتة التي سيذرع به الطرقات نفسها مسبحا بحمد الله ، ومقدسا له .. وكل مكان رفع فيه عقيرته لاهجا بأصنام قريش ، لابد من أن يجلجل فيه بلا اله الأ الله، محمد رسول الله"..!!
اجل ، سيتعقب عمر كل حركاته ،وكل كلماته ، و كل خلجاته التي ظلت تحمل سخريته بدين الله مدى ستة اعوام ، منذ بدء الرسالة حتى يوم اسلامه ..
سيتعقبها في كل مظانها ومواطنها ، وسيضع مكان كل سيئة حسنة.
سيقتلع جميع الاشواك التي ملا بها طريق محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه، وسيغرس مكانها ازاهير، سيزرعها حب ، وتفانيا ، وسيشتري آمن هذا الدين بحياته ، جميع حياته.. ا! ان طيييعته تنادي , الزمان و المكان ، بل تلغيهما الغاء لتظل لها سيادتها وتفوقها فإذا اخطا عمر في زمان ما ، في مكان ما .. ثم أراد ان يصحح خطاه ، فليس يكفي فطرته الفذة النادرة ان تتجنب الخطا بل هي تريد اقتلاعه تماما ، واقتلاع الزمان والمكان اللذين كانا للخطا وعاء ..
ومن ثم فهي تابى الأ أن تعود للمكان نفسه ، ولو استطاعت لاستردت الزمان نفسه لتقول ان ذلك الخطا لم يكن ولا كان المكان الذي شهده ولا الزمان الذي احتواه.. !ا!
من أجل هذا مضى إلى كل مكان جلس فيه بالكفر ، فجلس فيه بالإيمان -
اكان ذلك كافيا ..؟ لا ، فهناك عمل كثير وقدير، سيواصله عمر حتى يحس انه قد طهر نفسه من كل اثام جاهليته .

فهو يذكر ان تمسكه السالف بدين قريش ،كان من أهم أسباب الاضطهاد الذي لقيه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه .. واليوم وقد آمن ، فلابد من أن يكون !سلامه عاملا حاسما في شد زناد المقاومة الإسلامية .
اجل بالأمس كانت وثنيته من الأسباب التي حملت المسلمين - وهم قلة - على الفرار بدينهم إلي دار الأرقم حيث يعبدون الله خفية.
واليوم، لابد من أن يكون اسلامه عاملا حاسما في الجهر بالدعوة، ونبذ التخفي والمداراة
وانه ليذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :
- " بابى انت وامى يا رسول الله ، ما يحبسك ؟.. فوالله ما تركت مجلسا كنت اجلس فيه بالكفر ، الأ اظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خانف - الأ اننا لن نعبد الله سرا بعد اليوم"
ويستجيب الرسول صلى الله عليه وسلم لرايه ، وتخرج الدعوة من مكمنها إلى أرض الله الواسعة .
افهل يكتفي عمر بذلك..؟
كلا ، فلايزال ثمة خطوة تبهر الألباب حقا .
لقد تذكر عمر انه بالأمس كان كفار قريش ياخذهم الزهو ، ان عمر يضرب بيده أصحاب محمد ..فليمنح المسلمين اليوم زهوا مثله . وهو إذا كان لا يستطيع الآن ان يجلو بقبضته رءوس صناديد قريش وظهورهم ، فليرفع من شان العذاب الذي يلقاه ضعاف المسلمين بأن يشاركهم فيه ، ولياخذهم الزهو ، بأن عمر الجسور العملاق المهيب يضرب مثلما يضربون، ويضطهد كما يضطهدون.. !!
نعم .. لن يظل اضطهاد قريش وقفا على بلال . و خباب ، و عمار و صهيب ،واخوانهم من الفقراء والمستضعفين ، بل لابد من أن يصلاه معهم فتى الفتيان هذا ، الذي تسبقه هيبته، والذي تنخلع أمام سطوته الافئدة والقلوب.
لابد من أن يضرب عمر كما يضربون ، وبهذا لا يصير ضربهم وتعذيبهم ذلة تكسر نفوسهم ، وتدغدغ كرامتهم ، وبهذا أيضا يتم لعمر اسلامه ، إذ تتم له المساواة مع المسلمين في دفع الثمن الذي يشترون به راية الله ... !!
هكذا فكر ابن خطاب .. هكذا فكر صاحب الطبيعة القوية والفطرة السوية .
ولكن انى له هذا ،وهو المرهوب الجناب إلى الحد الذي جعل مجرد التفكير في مشاناته مغامرة خاسرة .. ؟
اذا أراد عمر ان يكون الظافر المنتصر ، فلن يعببه السبيل ، أما ان يكون المضروب المنهزم، فهذه هي المشكلة الكبرى التي يحتاج الظفر بحلها إلى جهد كبير.
فمن الذي يجرؤ ان يضرب عمر في قريش كلها .. ؟؟
ولكن عمر قرران يرفع من قيمة العذاب الذي يلقاء !خوانه ، بأن يتعرض له، يأخذ نصيبا منه - اجل، لقد قرر واراد ، وما دام قد أراد ، فلابد من أن يوجد

الطريق.
ويرسم خطته، ويبدا جولته بابي جهل، فيذهب إليه في داره ويقرع الباب، ويخرج ابوجهل ليجد أمامه عمر ، فيغلق الباب دونه .
ويمر باشراف قريش في دورهم متحديا ، رجاء ان يخوض أحدهم معه معركة يخرج منها بلطمة في صدره ، اوجرح في وجهه اولكنهم جميعا يتحاشونه ويتحامونه ..
واخيرا يقرر ان يلقاهم عند الكعبة وهم مجتمعون هناك، ولا يكاد يبلغهم حتى يستثيرهم بالحديث. ولنصغ إليه يروي بقية ما حدث، يقول رضي الله عنه: -" وثار إلى الناس يضربونني واضربهم، فجاء خالي وقال : ماهذا ؟. . قالوا : ابن الخطاب، فقام على الحجر وقال : الأ اني قد اجرت ابن اختي، فانكشف الناس عني، فكنت لا ازال أرى الذين يضربون من المسلمين، وإنا لا يضربني احد، فقلت : الأ يصيبني ما يصيبهم ؟ فجئت خالي، وقلت له: جوارك مردود عليك..قال: اتفعل يا بن اختي. قلت: بل هو رد عليك. قال: ما شئت فأفعل، فما زلت اضرب واضرب حتى اعز الله بنا الإسلام"..
هذا السلوك الباهر الذي يتبدى من عمر ،انما ينبثق من طبيعة استوفت كل عناصر الكمال، والسؤدد. طبيعة لا يرحم إخلاصها للمسئولية شيء ما ، ولا يشغلها عن صقل جوهرها شاغل.
والرجل الذي وقف موقفه هذا أول اسلامه، هو الذي ستلتقى به فيما بعد، أميرا للمؤمنين، وجيوشه تثل سلطان كسرى وقيصر، فيصعد المنبر بعد أن دعا المسلمين للاجتماع، ثم يقول: -"ايها الناس : لقد رايتني وإنا ارعى غنم خالات لي من بني مخزوم نظير قبضة من تمر أو من زبيب".. ثم ينزل من على المنبر بين دهش المجتمعين وتساؤلهم..
ويتقدم منه رجل لم يطق على ما رأى صبرا وهو عبدالرحمن بن عوف وقال له: ما اردت إلى هذا يا أمير المؤمنين ؟
فيجيبه عمر : - " ويحك يابن عوف، خلوت بنفسى فقالت لى : انت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله احد، فمن ذا أفضل منك..؟ فاردت ان اعرفها قدره!!! " .
هذه طبيعة مستقيمة، ليس بداخلها عوج، ولا تصبر لحظة على ما يحول بينها وبين رؤية الحق واتباعه.
ولقد جعلت هذه الفطرة القويمة صاحبنا رجل صدق عظيما، لايبغى على ما يعمل جزاء أو شكورا .. وانما يعبر عن طبيعته الممتلئة التى وضعها فى خدمة الله ، ونذرها لدينه..
وكلما ملات الرحب بنشاطها الفذ، وقدرتها الهاطلة.. وكلما آخر جت من خبئها وثرائها النفسى الذي لاينفذ.. وكلما نسجت لله راية. وهدمت للشرك قلعة، وادت لإنسان حقا..
كلما فعلت هذا، كان عمر سعيدا ، جد سعيد..!!!

الفصل الثاني ما تقول لربك غدا ؟

لا شيء يميز الطبائع المتفوقة السوية، مثل نايها عن الغرور.
ولو كان ثمة رجل ، لابد للغرور ان يتسور حصونه المنيعة ، لفرط مزاياه
وروعة أمجاده وانتصاراته ، لكان عمر .
فهو يدخل الإسلام في حفاوة بالغة من الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه.
وهويرى كيف صارالإسلام دينا جهوري الصوت، صادح الكلمة، في اليوم نفسه الذي
اعتنقه فيه.
ويبصرالمسلمين الذين كانوا من قبل يستخفون من طغاة مكة، يواجهون اليوم الأذى في شموخ، ويرجون مكة بتكبيرهم بعد أن صار لعمر بينهم مكان.
ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينعته بالفاروق، بعد أن فرق الله باسلامه بين الحق والباطل، وبين الملاينة والمواجهة.
ويرى نفسه يقترح على رسول الله بعض ارائه ، فلا يوافقه الرسول فحسب ، بل يتنزل به
الوحى، ويصير قرآنا يتلى.
وفيما بعد ، يضحى خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أبي بكر، وأميرا للمؤمنين، تنفتح في أيامه بوابات العالم لدين الله ،وتزحم راياته جو السماء في كل افق.
كل هذا ، ألا يجد الغرور من خلاله ثغرة ينفذ منها ، ان لم يجد أكثر من الثغرات ؟؟ .. !
ومع ذلك ، فلانكاد نعرف نفسا امتنعت على الغرور وتكسرت أمام حصونها المنيعة كل
محأولاته، مثل نفس هذا الرجل الفرد. عمر .!
فمن أين له هذا..؟
لا ربب ان لطبيعته واستعداده الفطري الاثر الكبير الناجع.
ولا ريب أيضا في أن الطريقة التي اتصلت بها هذه الطبيعة بالله قد افاءت عليها مددا لا يفنى، ومقدرة لاتتلجلج، وعزوفا كاملا عن كل ما في الحياة الدنيا من غرور وزهو.
ان عمر نفسه يرد إلى الله، وإلى الدين الذي انتهج نهجه كل ما معه من فضائل، وهدى، واقتدار.
ولطالما كان يقول لاخوانه : " لقد كنا ، ولسنا شيئا مذكورا حتى اعزنا الله بالإسلام ،
فإذا ذهبنا نلتمس العز في غيره ذللنا " .

فلننظر كيف كانت علاقة عمر بربه ..
لننظر كيف التقت طبيعة قوية بنسك قوى، لينجبا الرجل القوي الأمين.
ولسوف نجد كل تصرفات عمر تسير وفق اجلال لله فريد .
اجل ، ان عمر ليخشى ربه خشية ، ويوقره توقيرا ، حتى انه ليكاد يذوب ويتحلل كلما هومت حوله من بعيد ومضة من ومضات ربه ذي الجلال والاكرام.
وكان لا يفتا يردد لنفسه هذا اللحن المهيب : ما تقول لربك غدا . ؟!
نعم. . ماتقول لربك غدا .. ؟
عبارة قد نتلوها نحن في دعة ويسر ، أما هو فكانت تزلزله زلزالا شديدا .. !!
يقول الأ حنف بن قيس : كنت مع عمربن الخطاب فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين انطلق معي فاعدني على فلإن "١" فقد ظلمني .. فرفع عمر درته وخفق بها رأس الرجل وقال له : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم، مقبل عليكم، حتى إذا شغل بامر من امور المسلمين اتيتموه: اعدني.. اعدني..
فانصرف الرجل غضبان اسفا ، فقال عمر : علي بالرجل .
فلما عاد ، ناوله مخفقته وقال له: خذ واقتص لنفسك منى.
قال الرجل: لا والله، ولكني ادعها له.. وانصرف.
وعدت مع عمر إلى بيته فصلى ركعتين ثم جلس يحاسب نفسه ويقول :
ابن الخطاب .. كنت وضيعا فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فاعزك الله . ثم حملك على رقاب الناس، فجاءك رجل يستعديك فضربته ، فماذا تقول لربك غدا إذا اتيته؟!!
فى هذه العبارة، يتمثل دين عمر ومنهاجه، وتستمد حياته معاييرها وموازينها .
وفيها يتمثل جواز مروره إلى الدنيا، وجواز مرور الدنيا ،بكل طيباتها اليه.
فامام كل لقمة شهية ، وامام كل شربة باردة .. وامام كل ثوب جديد ساقط دموعه .. تلك الدموع التي تركت تحت مقلتيه خطين اسودين من فرط بكائه ، ويصلصل داخل نفسه هذا النذير: "ماذا تقول لربك غدا .. ؟
هذا هوجبارالجاهلية ، وعملاق الإسلام.
هذا هو أمير المؤمنين الذي تفتحت لاعلامه الخافقات أقطار الدنيا ، واستقبل الناس جيوشه كانها البشريات .
ها هو ذا يوم الناس في الصلاة فيسمع بكاءه ونشيجه أصحاب الصف الاخير .. !
وها هو ذا يعدو ، ويهرول ورا ء بعير افلت من معطنه ، ويلقاه علي بن أبي طالب فيسأله: إلى أين يا أمير المؤمنين؟
فيجيبه : بعير ند من ابل الصدقة اطلبه.
يقول له علي : لقد اتعبت الذين سيجيئون بعدك. .!
فيجيبه عمر بكلمات متهدجة :

"١} يقال : استعديت الأمير على فلان، اي: استعنت واستنصرت به عليه.

والذي بعث محمدا بالحق ، لو آن عنزا ذهبت بشاطئ الفرات ، لاخذ بها عمر يوم القيامة .. !
اكان عمر يخاف خوف العبد الذي يرهبه قرع العصا ولذع السياط. .؟
لا . وانما كان يخشاه خشية الحر الذي يرجو لربه وقارا ، ويضرع إليه اجلال أو اكبارا ، ويخجل ان يلقاه بتقصير - أي تقصير.. !!
وهذا هو نشيده دوما : كنت وضيعا فرفعك الله، وكنت ضالا فهداك الله، وكنت ذليلا فاعزك الله، فماذا "نقول لربك غدا إذا اتيته . ؟!
ولكن ، لم كل هذه الخشية الضاغطة ، والحياء الداهم ؟
ان عمر قد تادب على يدي رسول الله أحسن تادب ، وانه ليتابع الرسول صلى الله عليه وسلم في غير جنف أو ميل، وانه لذو نسك عظيم، وانه لنسيج وحده في ورعه، واخباته، وزهده، وتقواه .
افلا يفيء هذا على نفسه القلقة كثيرا من الطمانينة والراحة ؟
بلى يفيء ، لو كان إنسانا آخر غير عمر ، أما هو فلا يرى في هذا النسك كله سوى جهد المقل العاجز، ولا يرى في توفيق الله له سوى نعمة تستوجب شكرا يليق بها .
ذات يوم، يقول لجليسه أبي موسى الاشعري : يا ابا موسى ، هل يسرك ان اسلامنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهجرتنا معه ، وشهادتنا ، وعملنا كله يرد علينا، لقاء ان ننجو كفافا ، لا لنا ولا علينا" .؟
فيجيبه ابو موسى : لا والله يا عمر ، فلقد جاهدنا ، وصلينا ، وصمنا ، وعملنا خيرا كثيرا ،واسلم علي ايدينا خلق كثير، أنا لنرجو ثواب ذلك .
فيجيبه عمر ودموعه تتحدرعلى وجنتيه كحبات لؤلؤ منثور :
اما أنا ، فوالذى نفس عمر بيده لوددت ان ذلك يرد لي ، ثم انجو كفافا ، رأسا برأس"..ا
انظروا إلى أي مدى يهاب الله وبستحي من جلاله!
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بشره بالجنة .
وانه لاقوى من كل شهوة وزلة ، حتى لكانه معصوم من الخطا عصمة كاملة .. !!
ومع هذا بقف دائما من الله موقف الخشية والحذر و الحياء ..
ولم لا يكون ذلك ، وهو يرى رسول الله نفسه ، يقضي ليله كله متهجدا متعبدا ، ونهاره كله صائما ومجاهدا ، فإذا قيل له : يا رسول الله ، لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر؟ .بجبب صلى الله عليه وسلم قائلا: "افلا اكون عبدا شكورا"؟
انه توقير الله أكثر ما يكون التوقير ، وشكرانه أكثر ما يكون الشكران.
وهذه هي المدرسة التي تربى فيها عمر وتخرج.
مدرسة لو لم يخف أهلها الله ، ما فكروا في عصيانه ، ولو لم يكن للاثم عقوبة ، ما فكروا في أن ياثموا ، ولو قال لهم لله : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم،

ما خطر ببالهم قط ان يعملوا الأ ما يرضى ربهم ويحب..
ذلك ان علاقتهم بالله لم تكن بواعثها الفزع، بل كانت حب الله وتوقيره، والحياء منه.
وان إنساننا الباهرالعظيم عمر ،ليمثل قمة هذا الفهم السديد.
انه على يقين بأن أحدا لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره مهما تكن حياته فاضلة عادلة مستقيمة .
وانه ليعلم أن كل شكر الله إنما هو نعمة جديدة ، تستاهل شكرا جديدا ..
وهو يعلم أن ما افاء الله عليه من نعمة الإيمان والهدى والإمارة إنما هي من محض فضله سبحانه وتعالى، وإن الله كان قادرا على أن يختص بهذا سواء ، أما وقد اثره هو وقال له : اليك مني هذه العطايا يا عمر . فإن هذا ليجعله يذوب ، ويذوب. وينكمش ثم ينكمش ... ويقول وقد فجر حياءه هذا الشعور : يا ليت أم عمر ، لم تلد عمر .. !
او يردد : ما تقول لربك غدا .. ؟
انه مصمم على أن يتفوق على ذاته، ويجاوز كل حدود قدراته حتى يحقق اكبر حظ ممكن من العرفان والشكر لبارئه وخالقه وربه .
فعمر الذي يقف خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا من أصحابه.
و عمر الذي يصيرفيما بعد خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وامينه على أصحابه .
عمر هنا وهناك ، هو هو ، ذلك الإنسان الخاشع الضارع الاواب الذي لا يرجو في دنياه أو آخر اه سوى ان ينجو كفافا لا وزر ولا اجر .. !
انه لا يطمع في أكثر من الأ يقف بين يدي ربه خزيان بسبب خطأ ارتكبه ، أو مظلمة قصر في درئها ، أو نعمة لم يبذل الجهد في شكرها !!
لا شيء يؤرقه في نومه ، ويقلقه في صحوه ، مثل الخشية من أن يسأله ربه غدا في عتاب: لماذا فعلت هذه يا عمر .. ؟؟
و هذه التى هى رمز لاي فعلة مجهولة ، تحمله على أن يقضى عمره كله جوابا داخل نفسه وخارجها باحثا عن هذه ...ومحاذرا ان يقترف هفوة وهو لا يدري. ..!
من أجل هذا يترك الطيبات والمباهج التي احلها الله خشية ان تتنكر يها هذه التي يخشى السؤال عنها من الله.!!
لنقرا بعض فقرات كتابه إلى عامله على البصرة عتبة بن غزوان :
... وقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعززت به بعد الذلة، وقويت به بعد الضعف ، حتى صرت أميرا مسلطا ، وملكا مطاعا ؛ تقول فيسمع منك ، وتامر فيطاع امرك . فيا لها نعمة ، ان لم ترفعك فوق قدرك، وتبطرك على من دونك... !
" تحوط من النعمة تحوطك من المعصية، فلهي اخوفهما عندي عليك، ان تستدرجك وتخدعك، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم، اعيذك بالله واعيذ نفسي من ذلك" .. ا!

ويحدثنا جابر بن عبد الله فيقول : - رآى عمربن الخطاب لحما معلقا فى يدي، فسالنى: ما هذا ياجابر ؟ قلت : هو لحم اشتهيته فاشتريته ، فقال : أو كلما اشتهيت اشتريت ، أما تخاف ان يقال لك يوم القيامة اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا .. ؟!

***

ترى ماذا يكون موقفه من السيئات، هذا الذي يخاف على دينه من الطيبات. ؟! ولكن ما شان السيئات بعمر، وهي التي تفر منه مذعورة إذا ابصرت نوره على بعد فرأسخ ؟!!

لقدحرم عمر نفسه من طيبات كثيرة، ومن مناعم لم يحرمها الله عليه؛ لانه كان يرى نفسه عاجزا عن شكر القليل، فلم يرد ان يتورط في عجز أكثر أمام النعم الكثيرة.. ولانه كان يحمل فى أمانة كاملة مسئولية القدوة.. !!

ولو شاء ان يظفر بالمناعم المباحة على كثرتها لظفر بها جميعا ، لكن بطولة روحه وعظمة نفسه، واستقامة نهجه حملته دائما على أن يلتزم الكفاف ويختار الشظف.

زاره يوما حفص بن أبي العاص ،وكان عمر جالسا إلى طعامه، فدعا إليه حفصا، لكن حفصا رأى القديد اليابس الذي يأكل منه عمر ، فلم يشأ أن يكبد نفسه عناء ازدراده، ولا ان يجشم معدته مشقة هضمه؛ فاعتذر شاكرا .

و أدرك أمير المؤمنين سر عزوفه عن طعامه، فرفع بصره نحوه وساله :

- ما يمنعك عن طعامنا .. ؟

ولم تنقص الصراحة حفصا فقال: انه طعام جشب غليظ واني راجع إلى يبتي فاصيب طعاما لينا قد صنع لي..

فقال عمر : "اتراني عاجزا عن ان أمر بصغارالمعزى، فيلقي عنها شعرها ، وامر برقاق البر، فيخبز خبزا رقاقا، وا مر بصاع من زبيب فيلقى في سمن حتى إذا صار مثل عينا لحجل صب عليه الماء، فيصبح كانه دم غزال فاكل هذا واشرب هذا..؟؟ ".

فقال له حفص وهو يضحك: إنك بطيب الطعام لخبير.. !!

واستانف عمر حديثه فقال: "والذي نفسي بيده، لولا ان تنقص حسناتي لشاركتكم في لين عيشكم - ولوشئت لكنت اطيبكم طعاما ، وارفهكم عيشا ، ولنحن اعلم بطيب الطعام من كثير من اكليه، ولكننا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها .. وانى لاستبقى طيباتي؛ لاني سمعت الله تعالى يقول عن اقوام:

" اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها " ...!!!

هكذا عزله حياؤه من الله عن كل ترف، بل عن كل راحة في الدنيا ، وابى ان يصيب و أهله من الطعا م الأ تقوتا ، ومن العيش الأ كفافا .. !!

***

فإذا جئنا موقفه من السلطان ، حيث يتنازل الناس عن أكثر اعمارهم لقاء أيام يقضونه سادة حاكمين، فماذا نجد .. ؟!
لقد كانت اغلى امانيه ان يظل عمر بن الخطاب ، لاغير.. فلا هو خليفة، ولا هو أمير.
ولقد اقتربت منه الخلافة اثر وفاة رسول الله ، إذ بسط إليه أبو بكر يمينه في اجتماع السقيفة قائلا : هات يدك يا عمر نبايع لك.. لكن عمر خلص منها ناجيا ، إذا قال: - " بل إياك نبايع فانت أفضل مني" .
قال أبو بكر : " انت اقوى منى يا عمر" .
قال عمر : " ان قوتي لك مع فضلك " . وسارع فمد يمينه وبايع أبا بكر ، وبايعه الناس طى اثره ..
وحين كان أبو بكر يودع الدنيا ،ويعهد بالخلافة لعمر .وكان عمر يتقبل مكرها وكارها امارة المؤمنين . ولولا ان يكون باعتذاره عنها في هذا الظرف الحرج الدقيق هاربا من واجب سيسأله الله عنه غدا ، لرفض السلطان وهرب من الإمارة. .
ايها الناس. اني قد وليت عليكم، ولولا رجاء ان اكون خيركم لكم، واقواكم عليكم، وأشدكم اضطلاعا باموركم ما توليت ذلك منكم، ولكفى عمر انتظار الحساب .. !
انظروا .. ولكفى عمر انتظار الحساب. . !
هذا رجل مشغول لاغير بالكلمة التي سيقولها له الله غدا ،وبالكلمة التي سيقولها هو لله.
والحظوظ الوافية عنده ليست فى منصب اوجاه، إنما هى فى الظفر برضاء الله سبحانه.
وفد عليه يوما جماعة من المسلمين النازحين. فسالهم عما صادفهم من اخبار الناس فى البلاد التى مروا بها.
فقالوا : أما بلد كذا فانهم يرهبون أميرالمؤمنين ويخافون باسه. وأما بلد كذا فانهم جمعوا اموالا كثيرة تنوء بها السفن وهم في الطربق بها اليك .. وأما بلد كذا فإن بها قوما صالحين يدعون الله لك ويقولون: اللهم اغفرلعمر وارفع درجته.
فقال عمر ،معقبا على حديثهم هذا : -" أما من خافنى ، فلو أريد بعمر الخير ما خيف منه .. وأما الأموال التي تنوء بها السفن فلبيت مال المسلمين .. ليس لعمر ولا لال عمر فيها شيء .. وأما الدعاء الذي سمعتم بظهر الغيب ، فذلك ما ارجوه .. ا!
اجل ، هذا خير ما يرجو عمر .. مغفرة ربه ورضوانه . أما السلطان ، وما حول السلطان من زينة وزخرف ونفوذ ؛ فتلك محنة عمر ، وانه ليسأل الله ان يجتازها في خير وعافية.!

حين دعي للقا ء ربه ، واقتربت اللحظات التي سيودع فيها دنيا الناس، وكانت مشغلته الكبرى آنئذ اختيار الرجل الذي يسلمه الأمانة والزمام ، اقترب منه المغيرة بن شعبة قائلا : أنا ادلك عليه يا أمير المؤمنين، انه عبد الله بن عمر ..
هنالك انتفض عمر وقال: لا ارب لنا في اموركم؛ اني ماحمدتها - يعني الخلافة - فارغب فيها لاحد من أهل بيتى. ان كانت خيرا فقد اصبنا منه، وإن كانت شرا ، فبحسب آل عمر ان يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر امة محمد .. الأ اني قد جهدت نفسي وحرمت اهلي.. وإن نجوت كفافا لا وزر ولا اجر اني لسعيد ٠!
بالله ما اتقاء، وما انقاه، وما ابره ، واطهره.. انه مهموم ما سيقوله لربه غدا .
انه يرفض كل نعيم يخشى ان يلجلج لسانه غدا ين يدي الله.
ويجفل عن السلطان على فرط عدله وورعه وأمانته، مخافة ان تتعثر الكلمات على لسانه غدا حين يلقى الله.!
ان الكلمة لتي سيجيب بها غدا حين يسأله الكبير المتعال ، هي البوصلة التي تتحرك معها وعلى هداه كل ذرات كيانه وروحه .
وهو في شدته حين يشتد ، وفي لينه حين يلين، إنما يحركه حرصه الشديد على أن يلقى الله صادق الحجة .
يقول لعبد الرحمن بن عوف :
" يا عبد الرحمن ، لقد لنت للناس حتى خشيت الله في اللين ، ثم اشتددت حتى خشيت الله في الشدة، وايم الله لانا أشد منهم فرقا وخوفا ، فاين المخرج.. ؟؟ " .
يقول هذا ، وينتحب با كيا .
فيقول عبد الرحمن بن عوف، وهو يتملى هذا المشهد الفريد :
" اف لهم من بعدك" ... !

***

ترى كيف قضى الرجل العظيم تلك السنوات العشر ، والاشهر الستة ،والأيام الاربعة التي قضاها خليفة للمسلمين وأميرا للمؤمنين؟
ترى كيف قضاها ، وامضاها ، وعاناها تحت ضغط هذا الاحساس الراجف ، والقلب الواجف من خشية الله العلي الاعلى.. ؟
وهل سمع الناس في طول دنياهم وعرضها ، بعاهل استحالت كل ابهة السلطان وبذخه أمام ناظريه إلى جمر ملتهب يتوقاه أكثر ما يكون التوقي، ويحاول الفرار منه لو يجد للفرار سبيلا؟
عاهل ذلل كل سلطانه لخشية الله ، ووفر للناس من الطمانينة والامن قدر ماخاف هو الله..؟
حاكم لم تنل من سكينة نفسه مهام الأمور وأخطارها ، ولا عقد الوية الجيوش الفاتحة واخبارها ، ومع هذا فقد كان يزلزله زلزالا شديدا اهة مظلوم ، أو نفثة مكروب ، أو همهمة حق ضائع يقول له صاحبه : اتق الله يا عمر .. !
هل سمع الناس بمثله .. ؟! ومتى .. ؟
ذات يوم وهو جا لس مع اصحا به اقتحم المجلس رجل مكروب تغشاه وعثاء السفر ، واذ يقترب من الناس وبراهم يقولون لأحدهم : يا أمير المؤمنين ، يتجه صوب هذا الأمير ، ويقول له في مرارة: !!نت عمر ؟؟ ويل لك من الله يا عمر! ثم يمضي لسبيله غير وإن ولا مكترث.. ويلحق بعض الحاضرين الرجل في غيظ منه وحنق عليخ، لكن عمر يناديهم ويامرهم ان يعودوا لمجلسهم، وبهرول هو وراء الرجل وفؤاده يرتجف.
الم يقل له الرجل: ويل لك من الله يا عمر!! انها الطامة اذن، وانه الهول الذي لا يطيق عمر عليه صبرا . !
ويدرك الرجل ثم يعود به ويسأله: ويلي من الله! لماذا يا اخا العرب ؟؟
فيجيبه الرجل : لان عمالك وولاتك لا يعدلون، بل يظلمون.
ويسأل عمر أي عمالي تعني..؟
يقول الرجل :عامل لك فى مصرأسمه عياض بن غنم .

ولا يكاد عمر يسمع تفاصيل الشكوىرحتى يختار من أصحابه رجلين ويقول لهما !! ..اركبا إلى مصر، واتياني بعياض بن غنم
هذا الرجل عمر ..
هذا الشامخ العارم الذي يتفجرقوة وجراة وباسا ..
اذا اردت ان تبصره يرتجف كعصفوراحتواه إعصار ، فليس عليك الأ أن تقول له : الأ تتقى الله يا عمر ؟ ؟
هناك تشهد إنسانا قامت قيامته ، وببدو كما لو كان واقفا أمام الله .. الميزان عن يمينه ، والصراط إلى يساره ، وكتابه منشور أمام عينيه ، والافق كله يدوي في سمعه :
"اقْرَا كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا "14""..!

وعلى الرغم من معاناته المضنية لهذه المواقف ،فانه كان يقر بها عينا ويطيب نفسا ، لانها تذكره بجلال الله وبمقامه ، ولانها تمنحه اليقين بأنه لم يجاوز قدره قط كعبد لله ، وخادم للناس..!
لطالما كان يدعو ابا موسى الاشعري ليتلوعليه بصوته العذب المؤثر آيات من القرآن العظيم ويقول له: ذكرنا ربنا ،يا ابا موسى ..فيقرا ابوموسى، ويبكي عمر. .
وكثيرا ما كان يلقى صبيا من الصبيان في طرقات المدينة ، فياخذ بيده ويقول له وعيناه تفيضان من الدمع: ادع لي يا بني، فانك لم تذنب بعد .. !
وساعة كان يستقبل الموت، يقول لابنه عبد الله :
"يا عبد الله، خذ رأسي عن الوسادة وضعه فوق التراب، لعل الله ينظر الي فيرحمني" . !!
ان الميزان قد استقام في يد عمر تماما حين أسلم وجهه لله و هو محسن.
وان طبيعته الهادرة الجياشة ، وقدراته الفائقة الغلابة ، قد نهضت ثابتة الخطى فوق صراط العدل،والفضيلة، والواجب، حين وثقت بالله عراها ، واسلست وراء محمد خطاها.
وليس يحاذر عمر على نفسه وعلى مصيره خطرا مثلما يحاذر أي انعزال عن الله ، واي انحراف عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم.
كان قبل اسلامه يتحرى الصواب ليسير وفقه سيرة جديرة باستعداده ، وعظمة شمائله ، وقوة روحه . أما اليوم ، فقد عرف محض الحق ومحض الصواب حين جاءهم به من عند الله رسول كريم، لاينطق عن الهوى.
وان عمر ليؤرخ ميلاده بهذا اليوم الذي صافح فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: اشهد ان لا اله الأ الله، واشهد ان محمدا رسول الله ..
فيومئذ ، بل ساعتئذ ، وجد نفسه ، والتقى بمصيره العظيم ..
وهو حين آمن بالله وبرسوله، وبدينه، لم يؤمن إيمان العوام، ولا إيمان المنتفعين، ولا إيمان الهواة.. بل آمن إيمانا العارفين الابرار.
وحين سمع لأول مرة آية الله يتلوها رسوله .. تلك الآية التي تقول: " افحسبتم إنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون " ؟ سمعها ، وكانما يسمعها وحده، وكانما انزلت إليه وحده .. وادرك يومئذ - كما أدرك قبلئذ - ان حياته القصيرة مهما تطل سنواتها لن تغنى عنه شينا ،وانه بحاجة إلى ألف حياة مثلها لكي يستطيع أن يصنع صنيعا يرضيه.. ولكي يستطيع أن يعبدربه ويشكره.
من أجل هذا ،كان شديد الخوف على اللحظة العابرة ان تضيع ، وعلى الكلمة العابرة ان تنحرف ، وعلى الخلجة العابرة ان تزل ..
كان شديد الخوف على حياته السامقة ان تغيرها خطيئة ، أو تعيبها شبهة ؛لانها لو كانت ملكا له لوجب عليه أن يربا بها عن كل سوء ، فكيف وهي في تقديره ليست حياته ، وليست ملكه إنما هى وديعة الله عنده. والله صا حبها وما لكها ، ولسوف يسأله عنها :

" افحسبتم إنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون" من أجل هذا ،عاش قلقا مؤرقا ..ولكنه القلق الذكي المبتعث، والارق المفكرالممتلئ. ..
لا ينام الأغبا .. ولا يأكل الأ تقوتا .. ولا يلبس الأ خشنا .. يقظان دائما ..
يقول : "اذا نمت الليل اضعت نفسى؛ واذا نمت النهار ضيعت الرعية" . !!
ويسال كل من يلقاه في لهفة وجد : قل لى بربك ولا تكذبنى: كيف تجد عمر ..
؟ اتحسب الله عني راضيا .. ؟ اتراني لم اخن الله ورسوله فيكم ؟؟!!
واذا غشيته من مظنة التقصير غاشية ، صاح صيحة مكظومة :
- ياليت أم عمر لم تلد عمر .. !!
كل هذه الرجفة..كل هذا الحياء..كل هذا الهم الجليل، لانه ل يدري: ماذا يقول لربه غدا .. !!!

الفصل الثالث الآن ابن أمير المؤمنين ؟!

رأيناه كيف وهب طبيعة سوية متفوقة باهرة.
ورأيناه كيف وصل طبيعته هذه بالله ، ووضعها في خدمته وعند أمره .
وإنسان يتوافر له هذا ، لابد من أن يكون إحساسه بالمسئولية مشحوذا وعارما . وإن عمر لذلك الإنسان .
ينفعل بالمسئولية ،ويتبتل لها ،ويقبل عليها ، في مثل عزم المرسلين.
والمسئولية لديه لا تتجزا ، ولا تتنوع ، ولا تتفاوت ..
ليس هناك مسئوليات صغيرة وأخرى كبيرة.. مسئوليات عادية وأخرى فوق مستوى العادة.
هناك مسئوليات وحسب ..
و عمر أمام هذه المسؤليات . هو عمر الذي يحتشد لكل تبعة و لكل عمل ، احتشادا لا تتفاوت درجاته .. لانه يتصرف وفق طبيعته القوية الأمينة المؤمنة .
وطبيعته هي الأخرى لا تتجزا ، ولا تتقسم .. كل عمل من اعمال عمر نجد فيه عمر كله..
ضع عينيك على أي واقعة من وقائع حياته ، تجد فيها شمائله كلها - عدله ، ورعه ، زهده ، ابمانه ، شدته ، لينه ، عظمته ، بساطته ..!!
وهو لا يتحمل من المسئولية القدر الذي يخصه، وببرئ ذمته، بل يحمل منها القدر الذي يتطلبه الموقف جميعه ، وتحقق به المسئولية كل ذاتها ، ولا يسأل نفسه ساعتئذ ان كان وحده ، أم مكان معه نصراء ..
ان بين جوانحه ، وملء نفسه تفانيا رهبانيا ، لا يسأل عن العواقب ولا يجري بين يديها أي تقدير أو حساب ..!!

***

لقد كان يوم أسلم ، العضو الاربعين بين رجال هذه الجماعة المؤمنة ، ولا يكاد يمضي على اسلامه لحظات ، أجل لحظات ، حتى ينتفض في قلبه الشجاع إحساسه بمسئوليته عن الدين كله ، وعن هذه الجماعة المسلمة كلها ، بل بمسئوليته عن مستقبل الدين وأهله عبر القرون الاتية والدهور المقبلة..
ومن ثم يخرج من فوره معلنا اسلامه على الصورة التي اشرنا اليها من قبل..
وهو آنئذ يدرك تماما انه لا يعلن اسلامه هو.. اسلام عمر بن الخطاب .. بل يعلن اسلام التسعة والثلاثين الذين سبقوه إلى الإسلام، والذين يعبدون الله خفية..
بل يعلن أيضا اسلام مئات الملاين القادمة عبر المستقبل..!!
ولا تقف مسئوليته عن هذا الدين الذي اعتنقه باعلان اسلامه ، بل تجاوز ذلك إلى آخر اج الإسلام والمسلمين من الخفاء الذي اضطرهم إليه اضطهاد قريش ..

وهكذا يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: والله يا رسول الله ، لن نعبد الله سرا بعد اليوم ..
وتخرج الدعوة لتواجه خصومها ، وتنادي الموعودين بها ، وتتلقى قريش من تكبيراتها المدوية اولى الكلمات في منشور نعيها ، ونعي أصنامها.!

***

كانت هذه أول بركات عمر ..
وكان هذا نموذجا للأسلوب الذي سيتحمل به عمر مسئولياته عن دين الله ، ودنيا الناس.
انه أسلوب رجل يرى نفسه تجاه الأحداث والمواقف ،وكانه المسئول الاوحد عنها .
كل أزمة ستواجه الإسلام والمسلمين، سيجابهها عمر ، بوصفه المسئول وحده عن مقارعتها وحلها .
وإيمانه بمسئوليته هذه سيدفعه إلى ان يرفض على طول الخط كل دنية في الدين ، وكل ملاينة لأعداء هذا الدين.
وعلى الرغم من إيمانه المطلق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن مسئوليته ستتحرك في كل الاتجاهات ، حتى لو تجعله يبدو - معارضا - الرسول الذي يقدسه ويفتديه ..!
ففي صلح الحديبية يرى عمر ان المزايا التي اعطاها الرسول عليه السلام لكفار قريش سخية وكثيرة، وهو يؤمن بضرورة مناجزتهم ودخول مكة عليهم طوعا منهم أو كرها لهم، ما دأموالايريدون أن يجنحوا للسلم، ويحتكموا إلى الحق..
وما دام الحق والباطل في معركة ، فلابد للحق من أن يستعلي بدل ان يهادن.. ولابد له من أن يناجز بدل ان يساير ..
هكذا فهم عمر المسألة،وكون الرأي، ولم يكن للجهربه من مفر.
وهكذا أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ان بدا الكاتب في تحرير صحيفة المعاهدة وقال:
- يا رسول لله، السنا على الحق، وهم على الباطل ؟
فال الرسولصلى الله عليه وسلم : بلى
قال عمر: اليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار..؟
قال الرسول صلى الله عليه وسلم: بلى.
قال عمر: فعلام نعطى الدنية في ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم..؟!
قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ابن لخطاب..؟ انى رسول الله ولن يضيعنى الله ابدا.
وترن عبارة انى رسول الله فيروع عمر رنين الصدق، ويستنتج من نطق الرسول بها في هذا المقا م، ان الخطة أكثر وابعد من أن تكون مجرد رأي عابر لرسول الله، فيسكت..

وبذهب غير بعيد ، يدير خواطره على الموقف كله ، ويعود إحساسه العارم بالمسئولية في غالبه، ويغريه بالمعاودة، فينطلق حثيثا إلى أبي بكر رضي الله عنه، ويسر في اذنه الحديث : -يا أبا بكر ، السنا على الحق، وهم على الباطل..؟
- بلى ياعمر..!
فلماذا إذن نعطى الدنية في ديننا ،ونرجع ولما يحكم له يننا وبينهم..؟!
ويطمننه أبو بكر إلى ان الله لن يتخلى عن رسوله، وإن فتح الله قريب.
ويهدا عمر .. وإن كان هدوؤه هذا لم يمنعه ان يشيع سهيل بن عمرو مندوب قريش ، بنظرات مضطرمة فاتكة..!!
وعندما مات عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان كبير المنافقين في المدينة ، عارض عمر في اصرار صلاة رسول الله عليه.
ولنصغ إلى عمر نفسه يقص علينا النبأ : لما توفى عبد الله بن أبي ، دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام إليه ، فلما وقف عليه بريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره ، فقلت: يا رسول الله ، اعلى عدو الله تصلى ..؟ وأخذت اعدد أيامه الخبيثة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم، حتى إذا أكثرت عليه، قال: آخر عني يا عمر، اني خيرت فاخترت، قد قيل لي استغفر لهم،أولا تستغفر لهم، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، فلو اعلم اني ان زدت على السبعين غفر له، لزدت.. ثم صلى عليه ومشى مع جنازته وقام على قبره حتى فرغ منه..
فعجبت لى، ولجراتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوالله ما كان الأ يسيرا حتى نزلت الآية : " ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره " ، فما صلى بعدها رسول الله على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل:!!
هذا المشهد يكشف عن الطربقة التى كان عمر يحمل بها مسئولياته فى شجاعة وصدق.
فركوب مخاطرالدنيا كلها اهون عليه من أن يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : لا.. لكنه إنسان لا يملك أمام مسئولياته خيارا ، وما دام يرى من واجبه ان يقول: لا .. فليقلها وامره إلى الله؛ فإذا استمسك الرسول بموقفه ، يكون عمر قد قال كلمته ، وابرا ذمته ، وليس أمامه بعد هذا سوى سبيل الطاعة والإيمان.
وهو فى هذه الواقعة ، قدر ان صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم على منافق ضخم كعبد الله بن سلول عمل يغري المنافقين بمزيد من اللؤم والصلف ، ويضائل من حرمة الصدق والإخلاص عند كثير أو قليل من الناس.
واجلاله المسئولية يدعوه لاعلان هذا الرأي، حتى فى مثل هذا الموطن، حيث وقف الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل ليصلى على جثمان الرجل ، فيعترضه عمر . ويقول: اعلى عدو الله تصلي يا رسول !!له ..؟!

على أن تناول عمر مسئولياته، يبدو أروع وأبهى ما يكون عندما صار أميرا للمؤمنين..!
هنا نلتقي بأعظم آيات التفوق الإنساني ..
هنا ، نبصر نبوغ النفس،وبطولة الروح، وإعجاز السلوك.!!
هنا ، نرى ما لا عين رات ، ولا إذن سمعت ، ولايكاد يخطر بقلب بشر ..!
اجل،هنا العظائم نتفوق على نفسها ، ويزحم بعضها بعضا . هنا عمر . رضي الله عن عمر !!!
حاكم يحمل مسئولياته على نمط فذ ، ويعطي البشر جميعا إلى آخر لحظة في الأبد ، درسا في الأمانة - أي درس.. وقدوة في الذمة - أي قدوة.. ا!
موقفه من نفسه .. موقفه من أهله .. موقفه من الضعيف ومن القوي في قومه وامته .. موقفه من ولاته. موقفه من اموال الأمة.
مواقفه هذه ، المترعة باجلال منقطع النظير لمسوليته تجاه عمله ، وتجاه أمانة الحكم في كل مجالي الحكم ومظاهره...
اما هو كحاكم ، فقد حرم نفسه – لا من الطيبات المشروعة للحاكمين فحسب ، بل من الطيبا ت المشروعة للمواطن العا دي فى كل زمان ومكان.
فعل ذلك بروح المسئولية التي حببت إليه ان يكون أول من يجوع إذا جاع قومه..واخر من يشبع إذا شبعوا .. والتي فرضت عليه أن يعاني كل ما يعانيه الناس من عمل وشظف.
وانه - رضي الله عنه - ليصور هذا الضمير القوي في فلسفة حكيمة فيقول : " كيف يعنيني شان الناس ، إذا لم يصبني ما يصيبهم" ٠٠ . وهكذا رأينا أمير المؤمنين ، يلتزم اكل الزيت ، حين اصاب المسلمين أزمة شديدة في اللحم والسمن، ويدمن ابن الخطاب اكل الزيت حتى تئن امعاؤه ونقرقر، فيضع كفه على بطنه، ويقول : " أيها البطن لتمرنن على الزيت، ما دام السمن يباع بالاواقي" . !!
وفي عام الرمادة ، وكان عام مجاعة قاتلة في المدينة ، أمر يوما بنخر جزور ، وتوزيع لحمه على أهل المدينة ..
وقام المختصون بانجاز المهمة، بيد أنهم استبقوا لأمير المؤمنين، اطيب أجزاء الذبيحة. .
وعند الغداء ، وجد عمر أمامه على المائدة سنام الجزور و كبده، وهما اطيب ما فيه.! فقال : -من أين هذا.؟
قيل : من الجزور الذي ذبح اليوم..
فقال : وهو يزيح المائدة بيده الأمينة :
" بخ٠بخ، بئس الوالي أنا ، ان طعمت طيبها ،وتركت للناس كراديسها –يعني عظامها "
فنادى خادمه أسلم ، وقال له :
- يا أسلم ،ارفع هذه الجِفنة . وائتني بخبز وزيت !!

ان قوله : بئس الوالي أنا ،ان طعمت طيبها يرسم الصورة الكاملة المضيئة لروح المسئولية التي كانت تسيطر على تصرفات ذلك العاهل المنقطع النظير .
انه رجل يرى نفسه واحدا من الناس اثره الله عليهم بمزيد من التبعة والواجب حين ولاه أمرهم ، واستخلفه عليهم . ولم يؤثره بامتياز يجعل الحكم كلا مباحا ، وقنصا بواحا..!
على أن عمر وهو أمير للمؤمنين ، يبذل من الجهد ، ما يشفع له ان هو امتاز لنفسه طعمة طيبة تعينه وتقويه .. هذامنطقنا ، وهو منطق عادل في رأينا ..
اما عمر فصاحب منطق آخر .. وهو يعرف العدل في ذراه العالية التي تتقطع الآن فاس دون بلوغها .. !! هو يدرك ان مسئوليته تقتضيه ان يوفر عيشهم ، فإذا قعدت به دون هذا ظروف لا يملك لها دفعا ، تكون مسئوليته ان يسوي بينهم بالحق، وإن يكون هو أول من يحمل حظه من الخصاصة والضنك ..
ذات يوم يتلقى من أحد ولاته هدية من الحلوى،ولا تكاد توضع بين يديه حتى يسأل الرسول الذي جاء يحملها :
- ما هذا..؟
قال : حلوى يصنعها أهل اذربيجان ، وقد أرسلنى بها اليك عتبة بن فرقد – وكان واليا على اذربيجان فذاقها عمر فوجد لها مذاقا شهيا .
فعاد يسأل الرسول : - ا كل المسلمين هناك يطعمون هذا ... ؟
قال الرجل : لا . وانما هو طعام الخا صة ..
فاعاد عمر اغلاق الوعاء جيدا ، وقال للرجل:
-اين بعيرك .. ؟ خذحملك هذا ،وارجع به لعتبة، وقل له : عمر يقول لك: "اتق الله ، واشبع المسلمين مما تشبع منه " .. !!
هذا حاكم لا نلقاه في مكان الصدارة ، ولا في مقدمة الموكب الأ حين تكون المخاطر داهمة .. أما دون هذا ، فقد اختار مكانه دوما هناك .. آخر مقعد .. في آخر صف .. ليحرس القافلة ، وليتاكد إذا كان ثمة نعمة مقبلة ، انها لم تبلغه الأ بعد أن تكون قد مرت بالناس جميعا .. !!!
* **
فإذا جئنا موقفه من أهله واسرته ، وجدنا تقديسا للمسؤلية لا يضاهيه تقديس ، واكبارا لأمانة الحكم لا يضاهيه اكبار.
انه لا يحرمهم مما ليس لهم بحق فحسب، بل مما هو لهم حق مشروع. وانه ليحملهم من المسئوليات اضعاف ما يحمله نظراؤهم من الناس ؛ حتى صارت قرابة عمر عبئا يود الأقرباء لواستطاعوا منه الفرار..!
ان أمير المؤمنين يعلم أن أمانة الحكم لا تمتحن امتحانها الوثيق الأ هنا .. في علاقات الحاكم بأهله ، هل لهم قانون ، وللناس قانون ؟ أم انهم والناس سواسية أمام قانون واحد ، وعدالة واحدة ؟ ؟
من أجل هذا بالغ في الزامهم جميعا مسؤلية القدوة.

ولطالما حملهم على شظف العيش ،ولاواء الحياة .. لطالما انتزع من أيديهم - بل من افواههم - اللقمة الطرية .. !!
ولقد كانت الأرض تميد ، والسماء تمور ، حين يعلم أن أحدا من اسرته ذهب بامتياز- اى امتياز..!
وكان إذا سن قانونا ، أو حظر أمرا ، جمع أهله أولا ، وقال لهم : " انى قد نهيت الناس عن كذا ، وكذا . وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا . وإن هبتم هابوا . واني والله لا اوتي برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه الأ ضاعفت له العذاب لمكانه مني.. فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر"!
أرأيتم.. ؟؟
" ضاعفت له العذاب لمكانه منى " ..
ان القربى من عمر، لا تعني ان العدل في اجازة.. ولا تعني ان القانون لغو بل تعني اضعاف مضاعفة من التبعة والمسؤلية والحرمان.. تعني ٠ البعد من كل شبهة . والتخلي عن كل متعة . تعني ان يتقدم هؤلاء الأقرباء عند الخطر ، ويتأخروا عند المغنم . بل هي كذلك تعني عند عمر حرمانهم من حق مكسب ، تفاديا لشبهة محتملة .. !!
ولو رأيناه وهو عاتب ولده عبد الله بن عمر لرأينا عجبا. .
مع ان عبد الله - رضي الله عنه -كان اماما في الورع والزهد والتقى... كان يتبع خطى ابيه، ولم تكن نفسه لتزين له شبهة من سوء ؛ ومع هذا ، فما كان عمر يراه يستروح نعمة متواضعة من نعم الحياة الدنيا ، الأ قال له : -" الآن ك ابن أمير المؤمنين" ... !؟
وكانت هذه العبارة : " الآن ك ابن أمير المؤمنين " تمثل الشعار الحي الذي رفعه عمر لأهله بخاصة ،وللناس كافة تجاه الحق والمعدلة.
يدخل يوما دار ا بنه عبد الله ، فيجده يأكل شرائح لحم . فيغضب ويقول له : " الآن ك ابن أميرالمؤمنين تاكل لحما ، والناس فى خصاصة.. ؟ الأ خبزا وملحا . ؟ الأ خبزا وزيتا"..؟!
ويخرج إلى السوق يوما في جولة تفتيشية، فيرى ابلا سمانا ، تمتاز عن بقية الابل بنموها وامتلائها ، فيسأل : - ابل من هذه..؟؟
قالوا :ابل عبد الله بن عمر..
وانتفض أمير المؤمنين ، كانما القيامة قامت ، وقال : - عبد الله بن عمر.. ؟؟بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين !!
. وأرسل فى طلبه من فوره، وأقبل عبد الله يسعى.. وحين وقف بين يدي والده، أخذ عمر يفتل سبلة شاربه - وتلك كانت عادته إذا اهمه أمر خطير - وقال لابنه: - ما هذه الابل يا عبد الله.. ؟؟
فاجاب: انها ابل انضاء- أي هزيلة - اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى الحمى - أي المرعى - اتاجر فيها ، وابتغي ما يبتغى المسلمون..

فعقب عمر في تهكم لاذع: ويقول الناس حين يرونها .. ارعوا ابل ابن أمير المؤمنين.. اسقوا ابل ابن أمير المؤمنين.وهكذا تسمن ابلك، ويربو ريحك يا بن أمير ا لمؤمنين !!
ثم صاح به : ت يا عبد الله بن عمر، خذ رأس مالك الني دفعته في هذه الابل واجعل الربح في بيت مال المسلمين ..
يا خالق هذا الإنسان، سبحانك...!!!
ان عبد الله بن عمر لم يات أمرا نكرا ، إنما يستثمرماله الحلال في تجارة حلال ، وهو بدينه القوي و اخلاقه الأمينة فوق كل شبهة .
ولكن لانه ابن أمير المؤمنين ، يحرمه أمير المؤمنين ، مما هو له حق - مظنة ان تكون بنوته لعمر ، قد هيات له من الفرص ما لا يتوافر لغيره من الناس .. !!
هذا حاكم يمسك الميزان في رهبة لا تماثلها رهبة ، وهو لا يدرا أهله عن ان يكونوا أهل حظوظ ومزا يا فحسب.. بلم إنه ليضطرهم إلى ان يعيشوا معه فوق صراط أحد من الشفرة.. وارق من الشعرة، حتى لكانما رزئوا بقرابة عمر بدل ان يهننوا بها ويتبذخوا فيها .. !
يصل إلى المدينة يوما بعض اموال الأقاليم ، فتذهب إليه ابنته حفصة رضي الله عنها ، لتأخذ نصيبها . وتقول له مداعبة :
-" يا أميرالمؤمنين ، حق اقاربك فى هذا المال ، فقد اوصى الله بالأقربين " ..
فيجيبها جادا :
-"يا بنية، حق أقربائي في مالي.. أما هذا، فمال المسلمين.. قومي إلى بيتك" .
هذا رجل تادب على يد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ..
ولطالما راه يقول لاحب الناس إليه ابنته فاطمة البتول : لا يا فاطمة .. ان في المسلمين من هم احوج منك لهذا المال"..
ثم يحرمها ويعطي سواها !ا ٠٠
من هذا المنهل ارتوى عمر ،وعلى هذا الهدى سار. .
وهو يطالب أهله وذويه ان يرتفعوا دوما إلى مستوى المسئولية لا الحظوة .
فليس لدى عمر حظوة لإنسان. .
هو يريد منهم ان يكونوا عونا له على واجبه ، وذلك يقتضيهم ان يبذلوا جهدا أكثر ، ويحرزوا تفوقا اكبر..
يقتضيهم ان يعطوا كثيرا ،وياخذوا قليلا ،وينتظروا من الله حسن الثواب..
اجل .. يقتضيهم ان يكونوا قدوة لاهل العفاف والكفاف .
حين افاء اله على المسلمين في عهده خيرا كثيرا ،وامتلا بيت المال بالمال، أشار عليه نفر من صحبه ، ان يقوم باحصاء الناس ، ورصد اسمائهم في ديوان ، حتى ينالوا جميعا رواتبهم السنوية في نظام محكم..
واختير لهذه المهمة - عقيل بن أبي طالب، وجبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل - وكانوا اعلم الناس بانساب قريش، وأكثرهم معرفة بالمسلمين.

جلسوا يدونون الاسماء ، بادئين ببني هاشم، ثم بال آبي بكر، ثم بني عدي آل عمر.
فلما طالع أمير المؤمنين الكتاب رده إليهم ، وامرهم ان يقدموا على آل عمر كثيرين غيرهم، اقترح اسماءهم، وذكرعائلاتهم.. وقال : "ضعوا عمر وقومه موضعهم" ..!!
وعلم بنوعدي بهذا ، فذهبوا إليه راجين ان تظل اسماؤهم في مقدمة الديوان كي ينالوا انصباءهم والمال وفير ،وقالوا له: السنا أهل أمير المؤمنين . ؟ ؟
فاجابهم عمر :
" بخ بخ بني عدي، اردتم الاكل على ظهري، وإن اهب حسناتي لكم، لا والله، لتأخذن مكانكم ولو جئتم آخر الناس" ..
ان القرابة من أمير المؤمنين ، لا تعني - كما اسلفنا - الأثرة والحظوة ، إنما تعني
العرق والشظف .. ولقد رفض أمير المؤمنين الحاح أصحابه واخوانه لكي يولي ابنه عبد الله منصبا من مناصب الدولة..
ولقد كانوا فى الحاحهم مدفوعين بحرصهم الشديد على الآن تفاع بمواهبه النادرة ..
لكن عمر رفض ، كما رفض عند موته ان يرشحه للخلافة .. بل رفض ان يجعله ضمن
الستة الذين رشحهم هو ليختاروا من بينهم خليفة قائلا :
" حسب آل عمر ان يحا سب منهم واحد ، هو عمر".. !
لكن يا أمير المؤمنين ، ان ولدك عبد الله هو التقي العادل ، فهل ذنبه ، وذنب الناس الذين ستسعدهم ولايته انه ابن أمير المؤمنين.. ؟!
طالما قيل هذا القول لعمر .. فيذكر قائليه بأن عبد الله ليس هو التقي العادل وحده .. وهناك في المسلمين نظراء له في العدل والتقوى، فإذا اثره : عمر عليهم يكون قد حابى وجامل..! ثم إن عمر رجل قدوة ،قبل ان يكون رجل حكم ؛ فإذا استعمل اليوم صالحي أهله ، فايان يذهب إذا جاء من بعده حكام يسرفون في تولية اهليهم. ويقولون: لقد فعل هذا عمر .. ؟!!
من أجل ذلك وضع مبدا جليلا فقال : " من استعمل رجلا لمودة اوقرابة، لا يحمله على استعماله الأ ذلك ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين" .
انه إذا ولى عبد الله ابنه عملا، لن يفعل، لمكان عبد الله منه؛ بل لمحض استحقاقه وكفايته، ومع هذا يصرعلى موقفه..
جلس يوما بين أصحابه وقال: -"اعياني أهل الكوفة.. ان استعملت عليهم لينا استضعفوه ، وإن وليتهم القوي شكوه ، ولوددت انى وجدت قويا أمينا مسلما ، استعمله عليهم".
فقال أحد جلسائه: أنا والله ادلك على القوي الأمين المسلم..
قال عمر متحفزا :من هو.؟

قال الرجل :عبد الله بن عمر.
فاجاب أمير المؤمنين قائلا : قاتلك الله.. والله ما اردت الله بهذا... ثم اختار واليا آخر

****

لقد اعتدنا ان نضع هذا السلوك المعجز لعمر، تحت عنوان الزهد أو التقشف.
فعمر يجوع، ويقشف في مطعمه، وملبسه، ويحمل أهله معه على ذلك بدافع نسميه زهدا.
ولكن الحق، ان وراء الزهد حافزا أبعد غورا واعمق جذورا.
ذلك هو الاحترام الفريد لمسئوليته، وا لتفاني الفذ في الإخلاص لتبعاته وواجبه.
ان للمسئولية في ضميره الطاهر الحي قداسة مطلقة،وجميع الاعتبارات والمواقف، تتكيف وفق مقتضيات هذه المسئولية، ولا تخضع هي لاي موقف أو اعتبار.
ولعل من حظوظنا الوافية ان نطالع هذه الخطبة التي استهل بها عهد خلافته: -
".. بلغنى ان الناس هابوا شدتى، وخافوا غلظتى، وقالوا : قد كان عمريشتد ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه ..؟
الا من قال هذا فقد صدق، فاني كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم عونه وخادمه.. وكان عليه السلام من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله تعالي "بالمؤمنين رءوف رحيم " ، فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدني، أو يدعني فامضي.. فلم ازل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني را ض. والحمد على ذلك كثيرا.وإنا به اسعد..
ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا تنكرون دعته، وكرمه، ولينه، فكنت خادمه واخلط شدتي بلينه، فاكون سيفا مسلولا حتى يغمدني فامضي. فلم ازل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى را ض، والحمد لله على ذلك كثيرا. وإنا به اسعد..
ثم اني قد وليت اموركم أيها الناس، فاعلموا ان تلك الشدة قد اضعفت، ولكنها تكون على أهل الظلم والتعدي، فاما أهل السلامة والدين والقصد فانا الين لهم من بعضهم لبعض. ولست ادع أحدا يظلم أحدا ، اويعتدي عليه، حتى اضع خده الأرض، حتى يذعن للحق، واني بعد شد تي تلك، اضع خدي على الأرض لاهل العفاف واهل الكفاف..
ولكم علي أيها الناس خصال اذكرها لكم فخذوني بها :
لكم علي الأ اجتبي شيئا من خراجكم وما افاء الله عليكم الأ من وجهه، ولكم علي إذا وقع في يدى الأ يخرج مني الأ في حقه، ولكم علي ان ازيد عطإياكم

وارزاقكم ان شا ء له تعالى ، واسد ثغوركم ، ولكم علي الأ القيكم في المهالك ، واذا غبتم في البعوث فانا ابوالعيال حتى ترجعوا إليهم...
" فاتقوا الله واعينوني على انفسكم بكفها عني ، واعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واحضاري النصيحة فيما ولاني الله من امركم. . " !!

***

هذه الخطبة، ليست اجمع خطب عمر . ولا أكثرها القا ونورا ، ولكنها في هذا المقام تلقي ضياء غامرا على الحافز العميق الذي كان يحرك الرجل الكبير ويهدي خطاه ..
فلقد كان ورسول الله حي - سيفا مسلولا على كل ما هو زيف وباطل ، يضرب به الرسول صلى الله عليه وسلم ما يشاء.
وكان - وأبو بكر حي - السيف المسلول نفسه فى يد خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أي انه كان جنديا ، قد يناقش قائده، ولكنه آخر الأمرالسميع المطيع.. أما اليوم، فقد صار السيف والضارب معا .. الجندي والقائد جميعا .. ومسئوليته عن كل شىء مسئولية مباشرة.. وهو لا يعد نفسه مسئولا أمام الناس ، ولا أمام التاريخ ، ولا أمام شيء من هذه المصطلحات . بل هو مسئول أمام الحق المبين - الله الذي لا تخفى عليه خافية .. !!

***

اجل - أمام الله العلي الكبير يحمل عمر المسئولية التي كان يحملها صاحباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخليفته أبو بكر..

***

واذا كنا رأينا كبف تفوق بمسئولياته على كل خوالج النفس ، ورغبات الاهل .. فلننظر الآن كيف باشر مسئوليته تجاه الناس الذين استخلفه الله عليهم .
وهنا نلتقي مثلما التقينا من قبل- وكما سنلتقي من بعد - بالرجل الذي هو نسيج وحده.
انه يرى مسئوليته مباشرة عن كل رجل في سربه..عن كل امراة في بيتها .. عن كل رضيع في مهده. ا!
وهو يبدا مسئوليته تجاه الناس ، بأن يعيش في أدنى مستويات عيشهم . فإذا دست عليه لقمة متميزة قال كما قرآنا من قبل : " بئس الوالي ان أنا طعمت طيبها ، وتركت للناس عظامها".!
وا عجب من كل عجب ، انه لم يسلك سلوكه هذا تجاه الاحياء وحدهم ، بل تجاه الاموات أيضا.!
فكان يرفض ان يظفر بنعيم لم يظفر به اخوانه الذين سبقوه إلى الله ، واستشهدوا
في سبيله قبل ان يمكن للإسلام والمسلمين.

حين زار الشام ، جيء له بطعام طيب ، مختلف الوانه، وبدلا من آن يقبل عليه ، وينعم بمذاقه، رمقه بعينين باكيتين وقال :
- " كل هذا لنا ، وقد مات اخواننا فقراء لا يشبعون من خبز الشعير " ؟؟!
وهو يأخذ بمكاظم الجبارين العتاة حتى يخضعوا للحق ، ويوطئوا الاكناف لاخوانهم الذين يتميزون عليهم.
وفي الوقت نفسه يضع خده هو على الأرض - كما سمعناه يخطب من قبل - لاهل العفاف واهل الكفاف.
وهو يحمل مسئولياته فوق كاهله..، ولا يوزعها على الآخرين الذين هم بمسئولياتهم مشغولون ..
فإذا تقدم منه أحد أصحابه ليريحه من عمل ، أو يشاركه فيه ، نهره قائلا :
"اتحمل وزري يوم القيامة " .. ؟!
وحين نبصر الجو النفسي المشحون بالاهتمام والحركة عندما تنادي عمر احدى مستولياته، نرى عالما يموج ويتحرك، وليس فردا مجرد فرد..
والحدث العابر الذي لا يكاد يحسه أكثر الناس يقظة وتحفزا وإنسانية .. كان عمر يرتجف منه ، ويحتشد له ، ويقيس عليه الاشباء والنظائرثم يضع تشريعا ، ويسن قانونا .
قدم المدينة بعض التجار في احدى الامسيات ، وخيموا عند مشارفها ، فاصطحب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن عوف ليتفقد أمر القافلة ، وكان الليل قد تصرم ، واقترب الهزيع الاخير منه .. وعند القافلة النائمة اتخذ عمر وصاحبه مجلسا على مقربة منها ، وقال عمر لعبد الرحمن : " فلنمض بقية الليل هنا ، نحرس ضيوفنا " .
واذ هما جالسان ،سمع صوت بكاء صبي ، انتبه عمر وصمت.. وانتظر ان يكف الصبي عن بكائه ، ولكنه تمادى فيه ، فمضى يسرع صوبه ، وحين اقترب منه وسمع امه تنهنهه، قال لها :اتقي الله، وأحسني إلى صبيك.. !!
ثم عاد إلى مكانه .. وبعد حين عاود الصبي البكاء ، فهرول نحوه عمر ،ونادى امه : قلت لك : اتقى الله وأحسنى إلى صبيك ..
وعاد إلى مجلسه بيد أنه لم يكد يستقر حتى زلزله مرة أخرى بكاء الصبي، فذهب إلى امه وقال لها : ويحك .. اني لاراك أم سوء . ما لصبيك لا يقر له قرار . ؟!
قالت ، وهى لا تعرف من تخاطب : يا عبد الله قد اضجرتنى.. انني احمله على الفظام فيابى..
سالها عمر : ولم تحملينه على الفطام.. ؟
قالت :لان عمر لا يفرض الأ للفطيم..
قال وانفاسه تتواثب : و كم له من العمر .. ؟
قالت : بضعة اشهر ..
قال : ويحك .. لا تعجليه ..

يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف : فصلى بنا الفجر يومئذ ، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء. فلما سلم قال: " يا بؤسا لعمر ا! كم قتل من أولاد المسلمين" ؟!!
ثم أمر مناديا ينادي في المدينة : " لا تعجلوا صبيانكم على الفطام، فانا نفرض من بيت المال لكل مولود في الإسلام". ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته في الأمصار.
***
أمير للمؤمنين، "ندك جيوشه معاقل كسرى وقيصر، وهو هنا في الساعات الأخيرة من الليل يحرس قافلة وفدت على المدينة.. ثم يؤرقه بكاء طفل ويزلزله، حتى يشرق بالدموع وهو يصلي بالناس ، ثم لا يعالج واقعة الحال هذه وحدها ، بل يضع في التو واللحظة قانونا يستوعب كل حالاتها المشابهة..
اهتمام عجيب بمشاكل الناس، وممارسة فذة خارقة لمسئولية الحكم.. !
وفي عام الرمادة يسمع عن جماعة في أقصى المدينة، قد نزل بهم من الضر أكثر مما نزل باهل المدينة كلها .. فيحمل فوق ظهره جرابين من دقيق، ويحمل خادمه أسلم قربة مملوءة زيتا ، ثم يهرولان إلى هناك يحملان النجدة والغوث.
وعندما يبلغان القوم، يطرح أمير المؤمنين بردائه وبطهو بنفسه طعامهم حتى يشبعوا .. ثم يرسل خادمه ليعود إليه بابل يحملهم على ظهورها إلى داخل المدينة حتى يكونوا بقرب منه، وحتى ينزلوا مكانا اطيب، وبنالوا رعاية أكثر..
الناس..الناس.. الناس.!!
هذه الكلمة كانت الهتاف العلوي الذي يجلجل في روع عمر اناء الليل واطراف النهار.
حتى لنراه وهو يجود بانفاسه الطاهرة، وجراحه النبيلة الشهيدة تنشخب دما ، لا يشغله الأ أمر الناس..
فيدعو بالستة الذين اختارهم ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد ؛ واذ يحضر منهم على، وعثمان، وسعد ، يوصيهم وهو لا يقوى علي الكلام فيقول : " يا علي.. إذ وليت من امور الناس شيئا، فاعيذك بالله ان تحمل بني هاشم على رقاب الناس.. ! "
" يا عثمان.. اذأوليت من امور الناس شيئا ، فاعيذك بالله ان تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس.!".
" يا سعد .. اذأوليت من امور الناس شيئا ، فاعيذك بالله ان تحمل اقاربك على رقاب الناس.!".
وفي العام الذي لقي الله فيه ، كان على موعد مع نفسه ان يطوف بجميع الأمصار ليتفقد أحوال الناس، ويبلو اخبارهم، ولقد قال يوما لأصحابه :
" لئن عشت إنشاء الله، لاسيرن في الرعية حولا ، فاني اعلم ان للناس حوائج تقطع دوني.. أما ولاتهم فلا يرفعونها الي. وأما هم فلا يصلون الي. اسير إلى

الشام فاقيم شهرين ، وبالجزيرة شهرين ، وبمصر شهربن ، وبالبحرين شهرين ، وبالكوفة شهرين ، وبالبصرة شهرين ، والله لنعم الحول هذا " .. !

***

وتنقلنا مسئولية عمر عن الناس إلى مسئوليته عن الولاة والعمال الذين كان يكل إليهم مصائرالناس في البلاد البعيدة والقريبة.

فكيف كان عمر يباشرمسئوليته تجاه ولاته ومعاونيه في الحكم؟ ؟

كان يباشرها على طريقته ، طريقته التي لا تتغير ، والتي لا نرى في نماذجها مهما تتكاثر أدنى تفاوت..

وكان يختارهم في حرص من يختار مصيره.. ا!

انه يعد نفسه مسئولا عن كل غلطة يرتكبها أحد ولاته، علم بها عمر أم لم يعلم ..

ومن ثم، فهو يقلب وجهه، ويعمل فكره، ويستخير ربه، ويستشير صحبه، ويستاني قبل ان يختار عامله ومعاونه.. !

كان يقول لأصحابه : -" أرأيتم إذا استعملت عليكم خيرمن اعلم، ثم امرته بالعدل، ايبرئ ذلك ذمتي". . ؟؟

يقول أصحابه : نعم ..

فيقول : " كلا .. حتى انظرفي عمله ، اعمل بما امرته أم لا ". .

ويقول : "ايما عامل لي ظلم أحدا ، وبلغتني مظلمته فلم اغيرها ، فانا ظلمته" . ا!

ويقول لخالد بن عرفطة : - " ان نصيحتي لك وانت عندي جالس ، كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين ، وذلك لما طوقني الله من أمرهم ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من مات غاشا لرعيته لم يرح رائحة الجنة" . !

ان عمر يريد من ولاته ان يباشروا مسئولياتهم على المستوى نفسه الذي بباشر فيه مسئولياته .

واذا كان ذلك عسيرا .. بل مستحيلا ، لان عمر لا يتكرر ، فقد كان يبحث عن أقرب الناس مسافة من هذا المستوى.

وهو لهذا ، يختارهم ممعنا في التحوط والدقة واليقظة..

فهو - أولا - يرفض كل من يسعى إلى المنصب أو يطلبه لنفسه.

وانه في هذا لمقتد برسول الله عليه الصلاة والسلام ،اذ كان يقول : " أنا والله لانولي هذا الأمر أحدا يسأله أو يحرص عليه " .

هذه اولى خطوات عمر في اختيار معاونيه .. استبعاد كل راغب في المنصب، طامح اليه، لان الذي يحمل شهوة الحكم يحمل شهوة التحكم.. والذين يطلبون ان يكونوا حكاما وولاة، لا يقدرون مسئولية الحكم تماما ، والا لهربوا منه، وزهدوا فيه..

ذات يوم اسر في نفسه اختيار أحد أصحابه ليجعله واليا على أحد الأقاليم ..

ولو صبر هذا الصحابي بضع ساعات، لاستدعاء عمر ليقلده المنصب الذي رشحه له.
ولكن اخانا بادر الأمور التي لم يكن يعرف عنها شيئا ، وذهب إلى أمير المؤمنين يسأله ان يوليه امارة.
يبتسم عمر لحكمة المقادير ، ويفكر قليلا ثم يقول لصاحبه :
- " قد كنا أردنا لك لذلك ، ولكن من يطلب هذا الأمر لا يعان عليه ولا يجاب إليه " .. ثم صرفه وولى غيره.. !!
سنقول لانفسنا : واي باس في أن يطلب رجل لنفسه الحق في عمل يثق في قدرته على مسئوليته ، وحفظ أمانته ؟؟
الم يقل يوسف الصديق للملك : " اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم " .. ؟؟
اجل ، قال يوسف الصديق هذا ، بيد أنه حين تقدم طالبا ذاك المنصب ، كان تماما كفدائي يخاطر بحياته .. كان كجندي الاطفاء يلقي بنفسه في افواه اللهب ، وهو لا يدري : ايعود معافى ، امي تحول هناك إلى رماد .. ؟!
صحيح انه طالب بمنصب رفيع ، بيد أنهم هذا المنصب ساعتنذ كان غرما لا غنما ، وكانت مخاطره المحققة ، تفوق كثيرا مباهجه المحتملة ..
كان هناك افلاس ، ومجاعة ، وخراب ، وكل المسئولين يهربون مما جنت أيديهم ، ثم يتقدم رجل لينقذ أزمة تستعصي على الآن قاذ.
هذا ليس طالب منصب ،بل عاشق الخطر ، وراكب الصعب.. !!
على أن عمر ، لم يكن بحاجة إلى ان يفلسف المسألة على هذا النسق ..
فالأمر لديه غاية في الوضوح.. انه يريد واليا يرتفع إلى مستوى المسؤلية كما يفهمها عمر. واي واحد من هذا الطراز سيهرب من الولاية بدل ان يحرص عليها أو يطلبها .
لقد هرب عمر مما هو أكثر من الولاية..هرب من الخلاقة اثروفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولا ان طوقه بها أبو بكر في لحظة لا تسمح بالتردد ، بل ولا بالتفكير ، لهرب منها أيضا ، ولاثر كما قال : " ان يضرب عنقه ولا يرى نفسه أميرا للمؤمنين " .. !!
ان كل من يطلب الإمارة إذن يكون سيئ التقدير لتبعاتها ، وعقباه ، ومن ثم لا يراه عمر جديرا بها ..
هذا أول ما يتطلبه من ولاته : الزهد فى المنصب ، والفرار منه ، حتى إذا جاءهم كرها ، اخذوه مشفقين.. !!
بعد هذا ، يختار لها القوي الأمين ..
ولا يكاد يختار الوالي حتى يأخذ بيده ويقول له :
- " اني لم استعملك على دماء المسلمين ، ولا على اعراضهم . لكني استعملتك لتقيم فيهم الصلا ة، وتقسم بينهم، وتحكم فيهم بالعدل".
ثم يعد له عدا ،النواهي التي عليه أن يتجنبها :

لا تركب دا بة مطهمة .. لا تلبس ثوبا رقيقا .. لا تاكل طعاما رافها .. لا تغلق با بك دون حوائج الناس.
ولكن ، لماذا يحول عمر بين عماله ، وهذه الطيبات المباحة الدابة المطهمة .. والثوب الرقيق.. واللقمة الطرية.. ؟!
انه يفعل ليعيشوا دالما- في مستوى الشعب الكادح الفقير.. وليظلوا في مكانهم الحق ، خداما للناس ، لا سادة لهم..
انه لا يريد لولاته ان يفتنوا ، أو يترفوا ، اوينالوا باسم الحكم أي بلهنية ،او امتياز.
من أجل هذا ، يتعقبهم في كل مظاهر الزينة، والعلو، فيذودهم عنها ، حتى لو يكون هذا المظهر دابة الركوب ..
يجب أن تكون هذه الدابة للعمل ، لا للخيلاء .. للخدمة لا للزهو .. للضرورة ، لا للصلف ولا للترف..!
انه لا يريد لولاته ان يفقدوا وجاهتهم .. ولكنه يريد لهم الوجاهة المشروعة التي لا بغى فيها ولاغرور. .
بريد ان يتفوقوا على الناس باناقة النفس ،لا باناقة اللباس ، وبمحامد الافعال، لا بالمظاهر الكاذبة، والغبار الباطل.!!!
انظروا كيف يرسم في حذق باهر، صورة الأميرالذي يحب، والحاكم الذي يؤثر..
ذات يوم قال لاخوانه : " دلوني على رجل اكل إليه أمرا يهمني ..قالوا :فلان.
قال: لا حاجة لنا فيه.. قالوا : فمن تريد ؟
قال : " أريد رجلا إذا كان في القوم وليس أميرا لهم بدا وكانه أميرهم.. واذا كان فيهم وهو أميرهم بدا وكانه واحد منهم" .. !!
يا بها ء عقلك، وذكاء روحك.. !!
انظروا .. هذا ما يريده عمر تماما : أمراء في اخلاقهم وتواضعهم ، وليس في تبذخهم وعلوهم.. أمراء ، لا يفسح الناس لهم الطريق ، ولا يتخطون الرقاب ، لا يمشون على الأرض هونا ،ويعيشون قانعين.
أمراء ، يشاركون الناس ولا يتميزون عليهم بغير العمل الصالح، والجهد المبذول.

"١" بلهنية : الرخاء وسعة العيش.

ولقد تعلم هذ من خير المعلمين، من رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام.
فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرى أصحابه في عمل الأ شاركهم، اخذا أكثر جوانب العمل مشقة..
يجمع يوما الحطب لأصحابه وهم سفر "1" فإذا قالوا: نحن نكفيك ذلك يا رسول الله، قال لهم: انئ اكره ان اتميز عليكم ..

ويسمع بعض أصحابه يقولون له: " انت سيدنا ،وابن سيدنا " فينهاهم قائلا : " لا يستغوينكم الشيطان "

***

ولاتقف مسئولية عمر عن ولاته عند حسن اختيارهم، وحسن توجيههم بل تنهض إلى اقامة كل الضمانات التي تجعل ولايتهم على الناس رحمة، ورخاء ، وامنا...
وسبيله لهذا ، ان يجعل الحاكم تحت رقابة المحكوم.. وإن يحقق بنفسه - وعلى الفور- كل شكوى يشكوها مواطن من حاكم، وإن يتتبع في يقظة عارمة سلوك ولاته فى كل الأمصار ..!
في موسم الحج، وعلى ملئ من الاعداد الهائلة من حجاج المسلمين القادمين من كل بلد، جمع عماله وولاته جميعا، ووقف خطيبا : - " أيها الناس، اني والله لا ابعث عمالي إليكم ليضربوا ابشاركم، ولا لياخذوا اموالكم، ولكن ابعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم ٠ ، فمن فعل به سوى ذلك، فليرفعه إلى فوالذي نفسى بيده لامكننه من القصاص" .. !
ويقف عمرو بن العاص ، الذي رأي فى هذا الحض خطرا على هيبة الولاة والحاكمين. فيقول : ارايت ان كان رجل من المسلمين واليا على رعية فادب بعضهم، اتقتص منه"..؟؟
ويجيب عمر : اي، والذي نفسي بيده لأفعلن، فقد رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه، ويقول: " من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليقتد منه" .. ا!
و عمر .بعتي دائما ما يقول، فما كانت تبلغه شبهة عن وال حتى يتوفر عليها في "2" يقظة وحزم.
سال وفدا زاره من أهل حمص عن واليهم عبدالله بن قرط فيقولون : خيرأمير يا أمير المؤمنين، لولا انه قد بنى لنفسه دارا فارهة..
ويهمهم عمر : دارا فارهة.. ؟ يتشامخ بها على الناس؟ بخ بخ لابن قرط..

"١" السفر: المسافر "للواحد والجمع" .
"٢" يتوفر عليها : يصرف اليها همته حتى .يستوفيها.

ثم يوفد إليه رسولا ، ويقول له: أبدا بالدار فاحرق بابها ... ثم ائت به الي.
ويسافر الرسول إلى حمص، ويعود بواليها ، فيمتنع عمر عن لقائه ثلاثة أيام، ثم في اليوم الرابع يستقبله ، ويختار للقائه مكان الحرة حيث تعيش ابل الصدقة واغنامها ٠٠ولا يكاد الرجل يقبل، حتى يامره عمر ان يخلع حلته، ويلبس مكانها لباس الرعاة ويقول له : "هذا خيرمما كان يلبس ابوك.. " .. ثم يناوله عصا ، ويقول له : "وهذه خيرمن العصا التي كان ابوك يهش بها على غنمه" .. ثم

يشير بيده إلى الابل ويقول له: " اتبعها وارعها يا عبد الله" .. !! ثم بعد حين، يستدعيه ، ويقول له معاتبا :
-هل أرسلتك لتشيد وتبني .. ؟! ارجع إلى عملك ولا تعد لما فعلت ابدا. !!
هذا موقفه من رجل شهد له قومه بأنه خير أمير ، لولا ان ميز نفسه بدار فارهة .. !!
الا ترون اننا أمام اسطورة .. بل لو كانت اسطورة لصعب تصديقها .. ولكن لحسن حظ البشرية كلها ان عمر لم يكن اسطورة ؛ بل كان حقيقة ملات الزمان والمكان .. وكان هدى من الله للناس ، يقول لهم هكذا حاولوا ان تكونوا.

***

وفي الوقت الذي تجمع فيه الفرس وحلفاؤهم، في نهاوند .. وسعد بن أبي وقاص بتهيا لمنازلة جيوشهم اللجبة ، تصل المدينة شكوى ضد سعد ، فيستدعيه عمر فورا ، غير منتظر قليلا ريثما تنتهي المعركة الموشكة على البدء والآندلاع . ذلك ان عمر يرى انه إذا كانت الشكوى صحيحة وصادقة ، فلن يبقي على سعد ، حتى لو خسر المسلمون المعركة كلها .. لان النصر - كما يقول عمر - إنما يبطى عن كل قائد أو جيش يجترح السيئات.. !!٠
وهكذا ، وفي هذا الظرف الدقيق الحرج، يرسل عمر محمد بن مسلمة إلى هناك ليفحص الشكوى ، فإن وجدها حقا ، عاد بسعد إلى المدينة ..
ويذهب محمد بن مسلمة وياخذ بيد سعد الفاتح الأعظم ، والوالي المهيب ، ويطوف به على الناس يسألهم الرأي فيه.. فقوم يقولون عنه خيرا ... واخرون يحصون عليه بعض مأخذهم.. واخيرا ، يصطحبه ابن مسلمة إلى المدينة .
وإنا لنعرف نباه مع حاكم مصر وفاتحها ، عمرو بن العاص حين وفد عليه من مصر فتى مكروب يقول : يا أميرالمؤمنين، هذا مقام العائذ بك..
ويستوضحه النبأ ، فيعلم منه ان محمد بن عمروبن العاص قد اوجعه ضربا ، لانه سابقه فسبقه ، فعلا ظهره بالسوط وهو يقول : خذها ،وإنا ابن الاكرمين .. !!
ويرسل أميرالمؤمنين يدعوعمرو بن العاص وابنه محمدا. . ولندع انس بن مالك يروي لنا النبأ كما شهده وراه:
يقول : فوالله أنا لجلوس عند عمر ، واذا عمرو بن العاص يقبل في ازاره وردائه ، فجعل عمريتلفت باحثا عن ابنه محمد ، فإذا هوخلف ابيه. .
فقال : أين المصري.. ؟
قال : هانذا يا أميرالمؤمنين..
قال عمر : خذ الدرة ، واضرب بها ابن الاكرمين ..
فضربه حتى اثخنه ونحن نشتهي ان يضربه، فلم ينزع حتى احببنا ان ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول : اضرب ابن الاكرمين!!

ثم قال عمر للمصري : " اجلها على صلعة عمرو ؛ فوالله ما ضربك الأ بفضل سلطانه.. !ا".
قال الرجل :يا أميرالمؤمنين، قد استوفيت، واشتفيت، وضربت من ضربني..
قال عمر : أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون انت الذي تدعه..
ثم التفت إلى عمرو،وقال: يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا
والتفت إلى المصرى وقال له: انصرف رأشدا ،فان رابك ريب فأكتب الي .. ا! .
هذا هو عمرو بن العاص، صحابي من شيوخ الصحابة ، وحاكم اقليم من اكبر اقاليم الفتح الإسلامي، ولا ينجو ولده من العقوبة، بل تكاد العقوبة تدرك عمرو بن العاص نفسه لولا عفو صاحب الحق... !
***
على أن هذه المواقف الصارمة الح أزمة التي يقفها عمر من ولاته الذين قد يسيئون استعمال سلطانهم .. هذه المواقف تتحول إلى مشاهد أخرى يذوب فيها عمر حنانا وغبطة حين يحقق مع أحد لولاة، فينتهي بريئا ..
ذات يوم تلقى شكاة ضد وال له، هو سعيد بن عامر الجمحي تتضمن ثلاثة مأخذ :
أولها : انه لايخرج إلى الناس حتى يتعالى النهار .
ثانيها : انه لا يجيب أحدا بليل..
ثالثها : يغيب عن الناس كل شهر يوما ، فلا يرى أحدا ولا يراه احد.
واستدعاه عمر ، وواجهه بالشاكين ، وقال لهم : تكلموا .
قالوا : لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار..
ونظر أمير المؤمنين صوب سعيد وساله ان يجيب..
فقال : والله يا أمير المؤمنين، ان كنت لاكره ذكر السبب : ليس لاهلي خادم، فانا اعجن معهم عجيني، ثم اجلس حتى يختمر،ثم اخبز خبزي، ثم اتوضا وأخرج إليهم.. واشرقت اسارير عمر ، فقد بدا انه لن يساء في رجل وثق في دينه، واختاره بنفسه. .
ثم قال للشاكين : وماذا أيضا .؟
قالوا: لا يجيب أحدا بليل.
قال سعيد : والله ، ان كنت لا كره ذكره، اني جعلت النهار لهم، وجعلت الليل لله عز وجل.
قال عمر : وماذا أيضا تشكون منه... ؟
قالوا :ان له فى الشهر يوما لايقابل فيه أحدا ..
وقال سعيد : ليس لي خادم يغسل ثيابي، ففي هذا اليوم اغسلها ، وانتظرها حتى تجف، ثم آخر ج إليهم آخر النهار..
قال عمر وقد غمره الحبور والبشر : الحمد لله الذي لم يخيب فرأستي.. !

ان سعادته تكون غامرة ، حين تخيب شكوى ، وتظهر براءة ، لانه يريد آن يرى ولاته كلهم، بل للناس جميعا متفوقين على الضعف، مبرئين من العيب..
أرسل عمير بن سعد واليا على حمص ، فمكث هناك عاما لا يرسل خراجها ، ولا تصل منه أي أنباء ، فقال عمر لكاتبه :
أكتب إلى عمير فاني اخاف ان يكون خائنا .وأرسل إليه يستدعيه. .
وذات بوم شهدت شوارع المدينة رجلا اشعث اغبر ، تغشاه وعثاء السفر ، يكاد يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا من طول ما لاقى من عناء ، وبذل من جهد ..
على كفه اليمنى جراب وقصعة.. وعلى كتفه اليسرى قربة صغيرة فيها ماء .
وانه ليتوكا على عصا لايئودها حمله الضامر الوهنان ..
ودلف إلى مجلس عمر في خطوات متئدة..
السلام عليك يا أميرالمؤمنين ..
ويرد عمر السلام، ثم يسأله ، وقد المه ما راه عليه من جهد واعياء.
ما شانك يا عمير ؟؟
شاني ما ترى..الست تراني صحيح البدن، طاهر الدم، معي الدنيا اجرها بقرنها ..
قال عمر : وما معك.. ؟
قال عمير : معى جرابى احمل فيه زادي، وقصعتى اكل فيها ، واداوتى احمل فيها وضوئي وشرابي ، وعصاي اتوكا عليها ، واجاهد بها عدوا ان عرض ، فوالله ما الدنيا الأ تبع لمتاعي ٠
قال عمر:اجئت ماشيا..؟؟
- نعم ..
- أو لم تجد من يتبرع لك بدابة تركبها .. ؟
- انهم لم يفعلوا ،واني لم اسالهم..!
- فماذا عملت فيما عهدنا اليك به ؟؟
اتيت البلد الذي بعثتني اليه، فجمعت صلحاء أهله، ووليتهم جباية فيئهم واموالهم، حتى إذا جمعوها وضعتها في مواضعها ، ولوبقي لك منها شيء لاتيتك به..
- فما جئتنا بشيء .. ؟
- لا...
قال عمر وهومنبهرسعيد : " جددوا لعمير عهدا " .
قال عمير : " تلك أيام قد خلت، لا عملت لك ولا لاحد بعدك " !!
والويل الشديد للوالى الذي يفكر في أن يهدي لعمر هدية ما ..
والحق إنهم جميعا كانوا من الفطنة بحيث لم يتورطوا قط في أمر كهذا .. !!
ولم يفعله منهم مرة واحدة سوى الرجل الصالح الطيب أبي موسى الاشعري ..

فذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى داره، فوجد رقعة من سجاد لا تزيد على متر ، وبعض متر ،فسال زوجه عاتكة :
-"!!نى لك هذه ..؟؟".
قالت: اهداها الينا ابوموسى الاشعري .
" ابو موسى.. ؟؟ ايتوني به" .. !!
ويجيء ابو موسى ، تسبقه مخاوفه ،ولاي يكاد يقترب من عمر ويلمح السجادة في يمينه، والتحفز فى وجهه،حتى يبادره القول: لاتعجل على يا أميرالمؤمنين ..
ولكن أمير المؤمنين يعاجله ، ويلفح بالسجادة رأسه ويقول له : ما يحملك على أن تهدي الينا ؟ خذها فلاحاجة لنا فيها .. !!
والويل كذلك. لمن يطمع في أن يتسورمسئوليات هذا الرجل الكبيربشفاعة يشفعها في غير حق.
حدث يوما ان انزل باحد ولاته جزاء ، فانتهزت زوجه عاتكة ساعة من ساعات فراغه وهدوئه ، وشفعت للرجل ، ولم تزد على أن قالت : يا أمير المؤمنين ، فيم وجدت عليه. ؟
هنالك انتفض" عمر كانما انهد من دين الله ركن، وصاح فيها :
- "ياعدوة الله ، وفيم انت وهذا " . ؟!
لو كان هذا الموقف من زوجته مشورة ورايا ، لتقبل المشورة ، وبحث الرأي، فسنراه بعد حين ينحني في اعجاب وخشوع لسيدة عارضت رايه فى تحديد المهور..
اما هنا ، فقد تصور عمر الموقف على انه تدخل في المسئولية من غير مسئول ، ولون من الشفاعة أو الوساطة ايسكت عمر عليه ،ولا يتسامح معه. .
هذه مسئوليته تجاه ولاته ..
فلننظر مسئوليته تجاه اموال الأمة . وانها لمسئولية تحير العقول ، وتبهر الافئدة .
ولنبدا بهذا النبا.
يقول غبد الله بن عامر بن ربيعة : صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة فى الحج، ثم رجعنا ، فما ضرب له فسطاط ، ولا خباء ؛ ولا كان له بناء يستظل به ، إنما يلقى كساء على شجرة فيستظل تحته" .. !!
ويقول بشار بن نمير: " ... وسالني عمر : كم انفقنا في حجتنا هذه ؟ قلت : خمسة عشر دينارا .. فقال : لقد اسرفنا فى هذا المال" .. !!
أرأيتم إلى الرجل الذي وضعت تحت عتبة خزانته اموال كسرى وقيصر ، ثم يخرج إلى الحج وسط صحراء ملتهبة ، فلا يهىء لنفسه من ضرورات الرحلة شيئا .. ؟! يذوق وفدة الحر ، وقيظ الجبال المستعرة ، مثلما تذوقه الناس كافة ، وينفق خلال رحلته كلها خمسة عشردينارا . ثم يقول : لقد اسرفنا .. ؟!

قبل ان يلي امور المؤمنين ويصير آميرهم، كان تاجرا يكسب عيشه ورزق آهله وعياله من التجارة ، فلما تفرغ لمهمته الجديدة ، فرض لنفسه من بيت المال ما يعيش به هو وعائلته في مستوى الكفاف.
وكان مع الأيام تزداد تبعاته ، وتزداد احتياجاته ونفقاته ، ويرفع كلما هب الرخا ء رواتب جميع المسلمين في المدينة وخارجها ، لكنه لا يفكر في أن يزيد نفسه درهما ..
حتى سمع أصحابه يوما ان أمير المؤمنين يقترض ليعيش، فاجتمع نفر من الصحابة معهم عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، واتفقوا على أن يتحدثوا معه ، ويطلبوا إليه ان يزيد فى را تبه ، ومخصصاته ، لكنهم عادوا وتهيبوا محادثته ، لانهم يعرفون انه في هذه المسألة بالذات شديد الوطاة ، لافح الغضب..
قال عثمان : فلنستبرئ ما عنده من وراء وراء .. واتجهوا إلى حفصة بنت عمر ، واستكتموها امرهم، وطلبوا اليها ان تستطلع أمر ابيها .. وذهبت حفصة إلى عمر متهيبة ، و أخذت تسوق الحديث بحذر ورفق.
فقال عمر : من بعثك الي بهذا .. ؟
قالت : لا احد. .
قال : بل بعثك بهذا قوم، لوعرفتهم لحاسبتهم.
ثم قال لابنته :لقد كنت زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فماذا كان يقتني في بيتك من الملبس ؟
قالت: ثوبين اثنين.!
قال: فما اطيب طعمة رايته ياكلها .. ؟
قالت : خبز شعير طري مترود بالسمن..
قال : فما اوطا فراش كان له ببيتك.. ؟
قالت : كساء ثخين. كنا نبسطه في الصيف ، فإذا كن الشتاء بسطنا نصفه .. وتدثرنا بنصفه .. !!
قال:"يا حفصة، فابلغى الذين أرسلوك إلى ان مثلى ومثل صاحبى الرسول صلى الله عليه وسلم وابى بكر - كلاثة سلكوا طريقا ، فمضى الأول وقد تزود فبلغ المنزل .. ثم اتبعه الآخر ، فسلك طريقه فافضى اليه.. ثم الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما الحق بهما وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما .. !!!
اهناك كلام يصلح ان يكون تعليقا على هذا المشهد الفذ العجيب .. ؟! كلا .. فلندعه بدون تعليق .. !!
***
وكانت القيامة تقوم إذا سمع عمر ان درهما واحدا من الأموال العامة قد اختلس، أو انتهب، أو انفق فى ترف أو اسراف..
كان يرتجف ، ويرجف، كان خزا ثن المال كلها قد ضاعت ، وليس درهما أو بعض درهم.. !!

وكان يقسم لو آن بعيرا من ابل الصدقة ضاع على ضفاف دجلة آو الفرات ، وعمر بالمدينة ، لخاف ان يسأله الله عنه .. !!
وفي يوم صائف قائظ يكاد حره يذيب الجبال، اطل عثمان بن عفان من بناية له بالعالية، فرأى رجلا يسوق أمامه بعيرين صغيرين، والهواء الساخن يغشاه كلفح السموم..
فقال محدثا نفسه : ما على هذا الرجل لو اقام بالمدينة حتى يبرد . ؟ وامر خادمه ان بنظر من هذا الرجل العابرمن بعيد ،والذي تخفي الزوبعة والرمال السافيات معالمه.
ونظر الخادم من فرجة الباب، فقال : أرى رجلا معمما بردائه يسوق بكرين امامه.
وانتظر حتى اقترب الرجل، فعرفه الخادم وصاح : انه عمر.. انه أمير المؤمنين.. !
فأخرج عثمان رأسه من كوة صغيرة متوقيا سخونة الريح ، ونادى :
- ما آخر جك هذه الساعة يا أميرالمؤمنين ؟
اجاب عمر : بكران من ابل الصدقة تخلفا عن الحمى - المرعى - وخشيت ان يضيعا ، فيسألني الله عنهما .. ا!
قال عثمان : هلم إلى الظل والماء ، ونحن نكفيك هذا الأمر.
فقال له عمر : عد إلى ظلك يا عثمان..
قال: عندنا من يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين ..
قال مرة أخرى : عد إلى ظلك يا عثمان .. ومضى لسبيله والحر يصهر الصخر ..
فقال عثمان ماخوذا ومبهورا : " من أراد ان ينظر إلى القوي الأمين ، فلينظر إلى عمر."!!
والقوي الأمين يباشر مسئولياته المالية مباشرة ذكية عميقة، فهو لا يعنى بالسهر على حفظ اموال الأمة فحسب ، بل يعنى بالعمل على تنميتها ، وارباء الدخل القومى بكل سبيل ممكنة .
فهو - مثلا - يقاوم توزيع أرض السواد على الفاتحين ، لان ذلك يخلق طبقة محتكرة، وفي الوقت نفسه، عاجزة عن خدمة الأرض، غير خبيرة بزراعتها ، وبترك الأرض تحت ايدي زارعيها ، مكتفيا بالضرائب التي تدفع لبيت المال ، ثم ينال كل مسلم حظه منها ..
وهو يشجع على احياء الأرض الموات التي لا صاحب لها ،والتي قال فيها الرسول عليه السلام : " من احيا أرضا ميتة فهى له"..
وحين يرى أمير المؤمنين اناسا يضعون أيديهم على هذه الأرض، ويسورونها ، ثم يهملون استصلاحها وزراعتها ، يسن قانونا يمنح واضع ليد فرصة مداها ثلاث سنوات ، فإذا عجز خلالها عن احياء الأرض وتحويلها إلى حقل، أو بستان، ومرعى، نحي عنها ، واعطيت لغيره من القادرين.

وهو كذلك يحض المسلمين على الكسب المشروع ، فيغربهم بالتجارة الشريفة النظيفة ، قائل!! لهم : غدا سيكون لكم ابنا، وحفدة، فماذا يغني عنكم هذا الذي بايديكم.. ؟!
وهو يعني عناية خاصة بالثروة الحيوانية ، فيخصص للماشية مرعى خصيبا رحيبا ، يرعى المسلمون فيه ماشيتهم بغير مقابل ، وانه ليتعهد هذا المرعى دائما ، وقلما كان يوم يمر دون أن يرى الناس عمر قد خرج منتصف النهار ، واضعا ثوبه فوق رأسه يقيه من الشمس، قاصدا أرض الحمى والمرعى ، يتعاهدها ويتفقدها ، ويحذر حارسها من أن يسمح لاحد ان يعضد شيئا من شجرها ، أو ان يضرب فيه بفاس.. ا!
***
ولا يخطر بالبال- ونحن نتحدث عن المال وعن الدخل القومي أيام عمر - اننا نتحدث عن اموال شحيحة ومواد ضحلة ، فإن عمر لم يمت الأ بعد أن كان يحرك يده القوية الأمينة في دخل من اضخم الدخول يومئذ ، بعد أن الت إلى الإسلام معظم ممتلكات الروم والفرس.. !!
ويقول له خالد بن عرفطة : " يا أمير المؤمنين تركت الناس يسألون الله ان يزيد في عمرك من اعمارهم .. ما وطئ أحد القادسية الأ وعطاؤه الفان ، أو خمس عشرة مائة . وما من مولود يولد الأ الحق في مائة وجريبين كل شهر ذكرا كان أو انثى، وما يبلغ لنا ولد الأ الحق على خمسمائة أو ستمائة " . ٠ !
وحرص عمرعلى تنمية الثروة، لم يحمله قط عل سلوك سبيل فيها جشع أو ارهاق..
فالثروة عند عمر ، فى خدمة الآن سا ن ، وليس الإنسان فى خدمة الثروة .. !!
لهذا ، كان ينزل غضبه الشديد على كل وال يحرم أهل ولايته لكي يرفع إلى المدينة خراجا كبيرا يظن انه يكسبه رضاء أمير المؤمنين..
وكان يامر ان تقسم خيرات البلد- أي بلد- على أهلها أولا فإذا بلغوا كفايتهم رفع إلى عاصمة الدولة نصيبها ..
وكان يامر عماله ان يتقاضوا الضرا ئب فى رفق وعدل ورحمة .
حمل إليه يوما مال وفير من أحد الأقاليم، فسال عن مصدره وعن سر وفرته وكثرته، فلما علم انه من ضريبة الزكاة التي يدفعها المسلمون ، وضريبة الجزية التي يدفعها أهل الكتاب، قال وهو ينظر اليها كثيرة عارمة :
- اني لاظنكم قد اهلكتم الناس.
قالوا :لا والله ، ما اخذنا الأ صفوا عفوا ..
قال : لا سوط، ولا نوط .. ؟؟ "١" قالوا : نعم.
قال ووجهه يتهلل ويشرق: " الحمد لله الذي لم يجعل ذلك علي ولا في سلطاني" .. !!
وكان يعفي من ضريبة أهل الكتاب، كل من عليه دين يستغرق ماله، ذلك لانها لم تكن ضريبة اذلال، بل ضريبة دخل، فإذا عجز عنها دافعها ، وضعت عنه فورا

.. !

***

وبعد..فهذا هو عمر الحاكم المسئول. وهذه هي طريقته في تحمل مسولياته جميعها .
هذا هو الرجل الذي كانت جيوشه تديل مظالم الروم والفرس وتدكها دكا، بينما هو يسير في طرقات المدينة لابسا ثوبا به احدى وعشرون رقعة.. ويبطىء عن المسلمين يوما في صلاة الجمعة ثم يعتذر إليهم حين يصعد المنبر قائلا :
- " حبسني قميصي هذا ، لم يكن لي قميص غيره" .. !!
ان مسئولياته المباركة دفعته إلى نهايات الطرق ، وقمم المثل ، فجاءت تصرفاته كلها تمثل أقصى ما يستطيع الكمال الإنساني ان يبلغه..
فتجاه مسئولياته عن نفسه وأهله ، يحملهم كل مغارم الحكم ، ويحرمهم من كل مغانمه.!
وتجاه ولاته ومعاونيه ، يختارهم بنفسه ، ويلزمهم صراطا مستقيما أحد من الشفرة ، وارق من الشعرة.. !!
وتجاه اموال الأمة ، يبلغ أقصى درجات الحفاظ عليها ، والزهد فيها .. ا!
و تجاه الجبارين العتا ة ، يبلغ أقصى أسباب الشدة والحزم .. !!
وتجاه الضعفاء والبسطاء يبلغ غاية المدى في الحدب واللين .. !!
ان مسئولياته تقودة ، وانه ليباشرها بروح المخبت العابد الاواب.
وان عظمة سلوكه ، كرجل مسئول ، لا تتمثل فى العجالة التى سردناها الأ كما يتمثل ضوء الشمس في الشعاعة المتسللة من حنايا النافذة.. ا!
الا وإن عمر الحا كم، ليتعب كل حكا م التا ريخ، ويجعل مسئوليتهم فادحة و كبيرة..
ذلك انه لم يكن الها ولا ملكا ، ولا رسولا يوحى إليه ، إنما كان فردا من الناس يجتهد رايه ، وينهض بعزمه . ولقد استطاع ان يبلغ ذلك الشاو البعيد في عدله ، وفي رحمته ،وفي أمانته ، فما عذر الآخرين إذا قعدت بهم عزا ئمهم ؟!..
ان عمر الحاكم، حجة الله على كل حاكم. .
فإذا قال حاكم ما ، ساعة حسابه : يا رب عجزت ..
قال الله له : ولماذا لم يعجز عمر .. ؟؟!

"١" اى :بلا ضرب ولا تعليق.

الفصل الرابع ولا خير فينا إذا لم نسمعها

لم يكن أمير المؤمنين يحمل مسئولياته حملان رجل مفتون بنبوغه ، صلف بمكانه ،
مستعل بسلطانه.
بل كان يحملها بضمير الأمين على العهد، الباحث عن الحق، المستنهض وجود الآخرين وتفكيرهم لياخذوا مكانهم معه، وينضجوا بارائهم رايه، وبعاونوا برشدهم رشده.
ولقد اقتضاه هذا ، ان يقدس الشورى، ويحني رأسه العالي في خشوع وتهلل لكل معارضة شجاعة صادقة. .
فإذا بهرنا جلال المسئولية عند عمر "، وسموقها الصاعد في السماء ، فلنضع اعيننا على القاعدة التى استقر فوقها هذا البناء العملاق – الأ وهى الشورى والمعارضة.
وانه لامر عجب حقا ان يرفع لواء الرأي والمعارضة إلى المدى البعيد الذي سنراه ، رجل يؤمن بالنصوص إيمانا مطلقا.. رجل يخاف ان يفسر الآية من القرآن، خشية ان يحملها من رايه ما لا تحتمل..! رجل لا يبيح لنفسه ان ينحرف قيد انملة عن المنهج الموضوع ، والخطة المرسومة ، وبعبارة واحدة : رجل طاعة ، وإيمان ، ومتابعة .!!!
ولكن العجب، ان نرى فى هذه الظاهرة أي عجب ..
فالذين يعرفون محمدا ودين محمد صلى الله عليه وسلم معرفة سوية عاقلة، يعرفون ان احترام النص ، لا يعني اهدار الرأي. وإن الطاعة المؤمنة لا تنفصل عن المعارضة الأمينة .. ثم إن عمر لم يكن بطبيعته رجل مسايرة. صحيح انه رجل إيمان وطاعة كما ذكرنا .. ولكنها الطاعة والإيمان والمتابعة التي يفرضها الاقتناع الوثيق.
وهو قد اقتنع بالرسول وامن به.. ومن ثم فهو يقفو اثره في غير تردد أو التفات. وانه ليناقش الأمور التي تحتاج إلى مناقشة ويسلم تسليما لقضايا لا يفهم ا حيانا حكمتها ، ولكنه مقتنع سلفا بالرسول الأمين الذي جاء بها .
يقبل الحجر الاسود فى الكعبة ، ثم يقول كانه يخاطبه : إنك حجر لا تضر ولا تنفع، والله لولاني رايت رسول الله يقبلك ما قبلتك .ا!
ويهرول كاشفا عن منكبيه ، ويقول : فيم هذا الرملان - الهرولة - والكشف عن المناكب، وقد اظهر الله الإسلام ونفى الكفر؟ ومع هذا لاندع شيئا كنا نفعله في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بلم إنه ليعمد إلى ميزاب في دار العباس فيقتلعه من مكانه إذ كان ماء المطر يسيل منه إلى فناء المسجد . ولكن لا يكاد العباس يخبره ان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي وضع هذا الميزاب مكانه، حتى يسارع عمر فيجيء بالميزاب، ويقسم على العباس ليقفن فوق منكبيه - منكبي عمر - ويعيد الميزاب إلى حيث وضعته يد الرسول من قبل..!!

وانه ليسأل عن تفسير الآية الكريمة: " وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا "1" فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا "2" " فيقول : الذاريات ذروا ، هي الريح.. ولولا اني سمعت رسول الله لا يقوله ما قلته، والحاملات وقرا ، هي السحب.. ولولا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته!

الى هذا الحد كان عمر وقافا عند النصوص والتعاليم، ملتزما التاسي والقدوة ومع هذا ، فقد آمن بالشورى إيمانا مماثلا لإيمانه بالنص والقدوة - والشورى واى معارضة. .

ولست اعرف شيئا يرفع من قدر الشورى في كل عصور التاريخ كما يرفع من قدرها إيمان عمر بها ،وأسلوبه فى تطبيقها.

ان تطور الحياة السياسية في المدينة لم يكن يومئذ قد إذن للمؤسات الديمقرا طية ان تظهر، من برلمان وغيره. . ومع هذا فقد ظفرت الديمقراطية من ذلك الرجل، وفي تلك البيئة وذلك العهد، بخير فرص التالق والازدهار.. لم يحاول عمر قط ان يفرض رايه، أو ان يملي مشيئته، ولم ينفرد ساعة من نهار بحكم الناس دون أن يشركهم معه في مسئولية هذا الحكم مشاركة فعالة صادقة..

والرائع الباهر فيه، انه لم يكن يفعل ذلك تواضعا أو تفضلا.. بل سجية، وفطرة، وواجبا.

اذ كانت القضية التي يريد عمر ان يفصل فيها لها في كتاب الله بيان، انجز عمر كلمة الله..

واذا كانت من المشاكل الطارئة والقضايا الجديدة التى ليس لها فى الكتاب تفصيل، لم يعتسف عمر ولم يتكلف ،ولم يضع الآية الكريمة: " ما فرطنا في الكتاب من شيء " فيغير موضعها . بل يعمد من فوره إلى الرأي والشورى، وتقليب وجوه النظر..

والرأي عنده، ليس التماسا للموافقة، بل التماسا للحقيقة، ولطالما كان يقول للناس:

لا تقولوا الرأي الذي تظنونه يوافق هواي . وقولوا الرأي الذي تحسبونه يوافق الحق ..ولنطالع هذا المشهد من مشاهد شوراه :

- حين حرر المسلمون بلاد العراق من حكم الفرس، ودخل أكثر أهلها في دين الله، رأى عمر الأ يقسم أرضها الزراعية بن المجاهدين ، وإن تظل كما هي بايدي أصحابها ، ثم ترد الضرائب الماخوذة عليها إلى بيت المال، فتقسم ببن الناس جميعا ، كل منهم ونصيبه المفروض.

وكان يرى ان تقسيم الأرض بين المجاهدين، سيقعد بهم عن الجهاد أولا ، وينقص غلة الأرض ، لضعف خبرة المجاهدين بالزراعة ثانيا ، ويخلق في الإسلام طبقة من الاقطاعيين والمحتكرين ثالثا ، كما ان سيدع الآخرين الذين لم يتملكوا ،ضائعين ، ويحرم الاجيال الوافدة من حقها ورزقها . وعارض رايه هذا نفر من الصحابة. وكانوا كلما علا صوتهم، واحتدت معارضتهم، قال عمر في هدوء: إنما اقول رايي الذي رايته". وانفض الجمع من غير اتفا ق على كلمة ..
وفي اجتماع آخر ، وكان عمر قد دعا فريقا من الأنصار المشهود لهم الحنكة ونضج التجربة .. فتح باب المناقشة، وخشي عمر ان يجامله أحد في رايه بوصفه أمير المؤمنين. فبدا الحديث قائلا:
اني دعوتكم لتشاركوني أمانة ما حملت من اموركم ، فاني واحد كاحدكم ، وانتم اليوم تقرون بالحق. خالفني من خالفني ، ووافقني من وافقني . ولست أريد أن تتبعوا هواي ، فمعكم من الله كتاب ينطق بالحق .. فوالله لان كنت نطقت بامر أريده ، فما اربد به الأ الحق.

***

والشورى والمعارضة عند أمير المؤمنين ، هما جناحا الحكم الصالح القويم ، وهما رئتا كل حكم سديد .
من أجل هذا ، لايكاد يلي الأمر ، ويتسمع همس الناس حول شدته وصرامته حتى يخلو بنفسه مفكرا ، ويدخل عليه حذيفة فيجده مهموم النفس ، باكي العين ، فيسأله: ماذا يا أميرالمؤمنين ؟
فيجيب عمر: اني اخاف ان اخطيئ فلا يردني أحد منكم تعظيما لي. ويقول حذيفة، فقلت له : والله لو رأيناك خرجت من الحق لرددناك اليه.
فيفرح عمر ويستبشر ويقول: الحمد لله الذي جعل لي أصحابا يقومونني إذا اعوججت ..
وان أعظم مظاهر التكريم للمعارضة ، نراها في مواقف هذا العاهل الفذ منها .. في ولائه الوثيق لها ، وتوفير كل فرص الطمانينة والامن، بل الاكبار لذويها .
يصعد المنبر يوما فيقول : يامعشر المسلمين، ماذاتقولون لوملت برأسي إلى الدنيا هكذا ..؟؟
فشق الصفوف رجل ويقول وهو يلوح بذراعه كانها حسام ممشوق: إذن نقول بالسيف هكذا .
فيسأله عمر: اياي تعني بقولك..؟؟
فيجيب الرجل :نعم إياك اعني بقولي!
فتضئ الفرحة وجه عمر وبقول: رحمك الله... والحمد له الذي جعل فيكم من يقوم عوجي ..!
لم يكن هذا الموقف من أميرالمؤمنين موقفا استعراضيا ، فعمرأكثر قوة وأمانة من أن يلجا لمثل هذه المواقف، إنما كان سلوكا صادقا ،ونهجا تلقائيا

مخلصا ، ينشد عمر من ورائه الوصول إلى الحق، والطمانينة إلى انه يحكم امة من الأ سود، لا قطيعا من النعاج..!!
ان عمر حريص على أن يمكن الناس - جميع الناس – من حقهم في ممارسة الأمر معه ، واخذ مكانهم إلى جانبه .
ولو انه بطش بالمعارضة ، ولو مرة ، إذن لباءت الشورى فى عنده بخذلان كبير ، لكنه فعل نقيض هذا تماما .. أقصى عنه أهل المجاملة والمداهنة ، ورفع مكانا عاليا أولئك الذين يناقشون، ويعارضون. يقولون: إلى اين.؟ ولماذا ؟ .
وكان فرحه بكلمة جريئة محقة يجابه بها أو يجابه بها أحد من ولاته - تفوق كل فرح آخر على وجه الأرض. .
ذات يوم يصعد المنبر ، ليحدث المسلمين في أمر جليل، فيبدا خطبته بعد حمد الله بقوله: اسمعوا يرحمكم له .
لكن أحد المسلمين ينهض قائما فيقول : والله لانسمع .. والله لانسمع
فيسأله عمر" في لهفة: ولم يا سلمان "؟!
فيجيب سلمان : ميزت نفسك علينا في الدنيا.. اعطيت كلا منا بردة واحدة، وأخذت انت بردتين..!!
فيجيل الخليفة بصره في صفوف الناس ثم يقول: - أين عبدالله بن عمر..؟
فينهض ابنه عبد الله: هانذا يا أميرالمؤمنين..
فيسأله عمر على الملا : من صاحب البردة الثانية..؟
فيجيب عبد الله: أنا يا أميرالمؤمنين...
ويخاطب عمر سلمان والناس معه فيقول : اننى كما تعلمون رجل طوال، ولقد جاءت بردتى قصيرة، فاعطانى عبد الله بردته، فاطلت بها بردتي.
فيقول سلمان وفي عينيه دموع الغبطة والثقة : الحمد لله..والآن قل نسمع ونطع يا أميرالمؤمنين!!..
ايبلغ الناس من حرية المعارضة ان يحددوا للحاكم عدد اثوابه وملابسه، وبهذه اللهجة الصارمة. .؟!
الا من كان يعرف لهذا نظيرا في التاريخ كله، فلياتنا به..!!

***

في يوم آخر ، وهو جالس مع اخوانه، يخترق الصفوف رجل ثائر، ملء قبضته شعر محلوق، ولايكاد يبلغ عمرحتى يقذف بالشعر في صدره في مرارة واحتجاج..
ويموج الناس بالغضب، ويهم به بعضهم، فيومئ إليهم عمر ، ثم يجمع الشعر بيده، ويشير للرجل، فيجلس، وينتظرعليه عمر حتى يهدا روعه، ثم يقول له:

- والآن، ما امرك.؟؟
فيجيب الرجل وقد عادت إليه ثورته:
- أما والله، لولا النار يا عمر...!!

فيقول عمر: صدقت والله .. لولا النار..!! ما امرك يا اخا العرب؟.
ويقص الرجل شكاته ، وفحواها ان ابا موسى الاشعري انزل به عقوبة لا يستحقها .. فجلده وحلق شعر رأسه بالموسى، فجمع الرجل شعررأسه وجاء به إلى عمر ..
فينظر عمر إلى وجوه أصحابه ويقول: لان يكون الناس كلهم في قوة هذا، احب الي من جميع ما افاء الله علينا..!! ثم يكتب لابي موسى يامره ان يمكن الرجل من القصاص منه - جلدا بجلد ، وحلقا بحلق.!!
هذا حاكم يهتز فرحا لكل احتجاج قوي ، أو معارضة شجاعة - وإن رجلا واحدا يطالب بحقه في غير حذر ، ويقول كلمته في غير جبن ، لاحب إليه - كما قال - من كل ما فتح له من الأرض ،ومن كل ما ورث عن كسرى وقيصر.!!
كان عمر واثقا بنفسه ، وباستقامة نهجه ، ومن ثم لم يكن يحاذر النقد ، أو يخاف المعارضة ، بل كان يبحث عنهما ، ويثيب عليهما ، ويثيرهما فى قلوب أمته وعقول شعبه ، ويتخذ منهما مشعلا يستضيء به، وحجة يستكمل بها صواب امره..
يخطب الناس يوما فيقول: لا تزيدوا مهور النسا ء على اربعين اوقية، فمن زاد القيت الزيادة في بيت المال..
فتنهض من صفوف النساء سيدة تقول: ما ذاك لك..
فيسألها: ولم..؟
فتجيبه: لان الله تعالى يقول: " ... واتيتم أحداهن قنطار فلا تأخذوامنه شيئا ، اتأخذونه بهتائا واثما مبينا ".
فيتهلل وجه عمر ،ويبتسم ويقول عبارته الماثورة: اصابت امراة، واخطا عمر" .
وحتى حين كانت تاتيه المعارضة غضبى لافحة، لم يكن يضجر منها ، أو يضيق بها .
بعد أن عزل خالد بن الوليد جمع الناس في المدينة وقال لهم :
" اني اعتذر إليكم من عزل خالد، فاني امرته ان يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطى ذوي الباس، وذوي الشرف، وذوي اللسان" ٠.
فنهض ابو عمرو بن حفص بن المغيرة وقال : والله ما اعذرت يا عمر ، ولقد نزعت فتى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم واغمدت سيفا سله رسول الله ، ووضعت أمرا رفعه رسول الله ، وقطعت رحما ، وحسدت بني العم ..!!
قطيعة رحم.. وحسد.. يتهم بهما أمير المؤمنين هكذا في غضب وعلى الملا..؟!
اجل، وما زاد عمر على أن ابتسم ابتسامة صافية ، وقال مخاطبا ابا عمرو: إنك قريب قرابة ، حديث السن ، تغضب في ابن عمك ..!
هذا ليس حاكما عادلا فحسب ٠ بل هو معلم كبير، وصاحب مهارة بالغة في صقل الجوهر الإنساني وبعث قواه.

فاي اثر باهر يتركه موقف كهذا فى افئدة الناس..؟؟ واي طمانينة غامرة يملا بها القلوب حاكم هذا سلوكه ..؟!
ولكن ، لم لا يفعل عمر هذا ، وأكثرمنه ، وهو تلميذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب أبي بكر خليفته..؟!
ولقد رأى بعينيه وسمع باذنيه اعرابيا من أهل البادية يتهجم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له وهو بين أصحابه: " اعطني، فليس المال مالك ولا مال ابيك" .
ويرى الرسول صلى الله عليه وسلم يبتسم، ويقول للرجل : صدقت انه مال لله .!!
ويستفز المشهد رجلا ، هو عمر نفسه ، فيهم بالاعرابي ليبطش به ، فيرده رسول الله صلى الله عليه وسلم في رفق، وابتسامته تعلو شفتيه كتهلل الربيع، ويقول له :
دعه ياعمر .. ان لصاحب الحق مقالا ..!!
اجل،على هذا النهج المستقيم يمضي عمرمقدرا كل نقد نافع، موقرا كل معارضة امينة. .
وان لجميع الناس الحق في أن يشيروا على أميرالمؤمنين، وفي أن يعارضوا ما لا يقنعهم من تصرفاته.
ولقد تركهم يفهمون تماما ان الشورى ليست ترف ، ولا ملء فراغ.. إنما هي نهوض الشعب بمسئولياته مع الحاكم يدا بيد ، ورايا براي ، ومشيئة بمشيئة ..
وكان إيمان الناس بأن أميرهم جاد في معرفة ارائهم، وتمحيص رايه. .
وكانت التجارب الكثيرة التي اثبتت حفاوته بالمعارضة، واحترامه للشورى ..
كان هذا وذاك على رأس الحوافز التي الهمت الناس - جميع الناس - الشجاعة في ابداء الرأي، المشا ركة في حمل تبعة المصير .
لقد كان عمر خبيرا بأولئك الذين يرصدون الريح ، ويستنبطون هوى الحاكم ، فيسبقونه بالرأي الذي يساير هواه..!!
كان خبيرا بهؤلاء ، فلا يقيم لهم وزنا..
وكان يقول لأحدهم إذا تقدم لتمثيل دوره يا عدو الله، والله ما اردت الله بهذا!! .
وكان هؤلاء قلة باهتة.
اما الأكثرون ، فقد كانوا من الطراز الرفيع الباهر الذي يقول كلمته واضحة ، صادحة ، صادقة ، نافعة ، يمليها عليهم إيمانهم بواجبهم وبحقهم معا ..
وبشجعهم عليها سلوك أمير المؤمنين تلقاء نصحائه ومعارضيه ..

وعظيم من عمر، انه كان يلتمس المشورة والرأي، كفرد عادي لا كحاكم وأمير للمؤمنين..

فهو إذ يطلب الرأي في امر، لا يبدي عن أي مظهر من مظاهر السلطة.. بل يشعر الآخرين بأنهم يسدون إليه خيرا جزيلا، وينقذونه من وطاة الحساب ، إذ يساعدونه بارائهم على تبين الصواب والحق..!!
وبهذه الروح نفسيا يتلقى - كما رأينا - كل معارضة له ، بل كل تنديد به .. كان يجتاز الطريق يوما ، ومعه الجارود العبدي ، فإذا امراة تناديه وتقول: رويدك يا عمر ، حتى اكلمك كلمات قليلة ..

الفصل الرابع ولا خير فينا إذا لم نسمعها

لم يكن أمير المؤمنين يحمل مسئولياته حملان رجل مفتون بنبوغه ، صلف بمكانه ،
مستعل بسلطانه.
بل كان يحملها بضمير الأمين على العهد، الباحث عن الحق، المستنهض وجود الآخرين وتفكيرهم لياخذوا مكانهم معه، وينضجوا بارائهم رايه، وبعاونوا برشدهم رشده.
ولقد اقتضاه هذا ، ان يقدس الشورى، ويحني رأسه العالي في خشوع وتهلل لكل معارضة شجاعة صادقة. .
فإذا بهرنا جلال المسئولية عند عمر "، وسموقها الصاعد في السماء ، فلنضع اعيننا على القاعدة التى استقر فوقها هذا البناء العملاق – الأ وهى الشورى والمعارضة.
وانه لامر عجب حقا ان يرفع لواء الرأي والمعارضة إلى المدى البعيد الذي سنراه ، رجل يؤمن بالنصوص إيمانا مطلقا.. رجل يخاف ان يفسر الآية من القرآن، خشية ان يحملها من رايه ما لا تحتمل..! رجل لا يبيح لنفسه ان ينحرف قيد انملة عن المنهج الموضوع ، والخطة المرسومة ، وبعبارة واحدة : رجل طاعة ، وإيمان ، ومتابعة .!!!
ولكن العجب، ان نرى فى هذه الظاهرة أي عجب ..
فالذين يعرفون محمدا ودين محمد صلى الله عليه وسلم معرفة سوية عاقلة، يعرفون ان احترام النص ، لا يعني اهدار الرأي. وإن الطاعة المؤمنة لا تنفصل عن المعارضة الأمينة .. ثم إن عمر لم يكن بطبيعته رجل مسايرة. صحيح انه رجل إيمان وطاعة كما ذكرنا .. ولكنها الطاعة والإيمان والمتابعة التي يفرضها الاقتناع الوثيق.
وهو قد اقتنع بالرسول وامن به.. ومن ثم فهو يقفو اثره في غير تردد أو التفات. وانه ليناقش الأمور التي تحتاج إلى مناقشة ويسلم تسليما لقضايا لا يفهم ا حيانا حكمتها ، ولكنه مقتنع سلفا بالرسول الأمين الذي جاء بها .
يقبل الحجر الاسود فى الكعبة ، ثم يقول كانه يخاطبه : إنك حجر لا تضر ولا تنفع، والله لولاني رايت رسول الله يقبلك ما قبلتك .!!
ويهرول كاشفا عن منكبيه ، ويقول : فيم هذا الرملان - الهرولة - والكشف عن المناكب، وقد اظهر الله الإسلام ونفى الكفر؟ ومع هذا لاندع شيئا كنا نفعله في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
بلم إنه ليعمد إلى ميزاب في دار العباس فيقتلعه من مكانه إذ كان ماء المطر يسيل منه إلى فناء المسجد . ولكن لا يكاد العباس يخبره ان الرسول صلى

الله عليه وسلم هو الذي وضع هذا الميزاب مكانه، حتى يسارع عمر فيجيء بالميزاب، ويقسم على العباس ليقفن فوق منكبيه - منكبي عمر - ويعيد الميزاب إلى حيث وضعته يد الرسول من قبل..!!
وانه ليسأل عن تفسير الآية الكريمة: " وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا "1" فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا "2" " فيقول : الذاريات ذروا ، هي الريح.. ولولا اني سمعت رسول الله لا يقوله ما قلته، والحاملات وقرا ، هي السحب.. ولولا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته!
الى هذا الحد كان عمر وقافا عند النصوص والتعاليم، ملتزما التاسي والقدوة ومع هذا ، فقد آمن بالشورى إيمانا مماثلا لإيمانه بالنص والقدوة - والشورى واى معارضة. .
ولست اعرف شيئا يرفع من قدر الشورى في كل عصور التاريخ كما يرفع من قدرها إيمان عمر بها ،وأسلوبه فى تطبيقها.
ان تطور الحياة السياسية في المدينة لم يكن يومئذ قد إذن للمؤسات الديمقرا طية ان تظهر، من برلمان وغيره. . ومع هذا فقد ظفرت الديمقراطية من ذلك الرجل، وفي تلك البيئة وذلك العهد، بخير فرص التالق والازدهار.. لم يحاول عمر قط ان يفرض رايه، أو ان يملي مشيئته، ولم ينفرد ساعة من نهار بحكم الناس دون أن يشركهم معه في مسئولية هذا الحكم مشاركة فعالة صادقة..
والرائع الباهر فيه، انه لم يكن يفعل ذلك تواضعا أو تفضلا.. بل سجية، وفطرة، وواجبا.
اذ كانت القضية التي يريد عمر ان يفصل فيها لها في كتاب الله بيان، انجز عمر كلمة الله..
واذا كانت من المشاكل الطارئة والقضايا الجديدة التى ليس لها فى الكتاب تفصيل، لم يعتسف عمر ولم يتكلف ،ولم يضع الآية الكريمة: " ما فرطنا في الكتاب من شيء " فيغير موضعها . بل يعمد من فوره إلى الرأي والشورى، وتقليب وجوه النظر..
والرأي عنده، ليس التماسا للموافقة، بل التماسا للحقيقة، ولطالما كان يقول للناس:
لا تقولوا الرأي الذي تظنونه يوافق هواي . وقولوا الرأي الذي تحسبونه يوافق الحق ..ولنطالع هذا المشهد من مشاهد شوراه :
- حين حرر المسلمون بلاد العراق من حكم الفرس، ودخل أكثر أهلها في دين الله، رأى عمر الأ يقسم أرضها الزراعية بن المجاهدين ، وإن تظل كما هي بايدي أصحابها ، ثم ترد الضرائب الماخوذة عليها إلى بيت المال، فتقسم بىن الناس جميعا ، كل منهم ونصيبه المفروض.
وكان يرى ان تقسيم الأرض بين المجاهدين، سيقعد بهم عن الجهاد أولا ، وينقص غلة الأرض ، لضعف خبرة المجاهدين بالزراعة ثانيا ، ويخلق في

الإسلام طبقة من الاقطاعيين والمحتكرين ثالثا ، كما ان سيدع الآخرين الذين لم يتملكوا ،ضائعين ، ويحرم الاجيال الوافدة من حقها ورزقها . وعارض رايه هذا نفر من الصحابة. وكانوا كلما علا صوتهم، واحتدت معارضتهم، قال عمر في هدوء: إنما اقول رايي الذي رايته". وانفض الجمع من غير اتفا ق على كلمة ..
وفي اجتماع آخر ، وكان عمر قد دعا فريقا من الأنصار المشهود لهم الحنكة ونضج التجربة .. فتح باب المناقشة، وخشي عمر ان يجامله أحد في رايه بوصفه أمير المؤمنين. فبدا الحديث قائلا:
اني دعوتكم لتشاركوني أمانة ما حملت من اموركم ، فاني واحد كاحدكم ، وانتم اليوم تقرون بالحق. خالفني من خالفني ، ووافقني من وافقني . ولست أريد أن تتبعوا هواي ، فمعكم من الله كتاب ينطق بالحق .. فوالله لان كنت نطقت بامر أريده ، فما اربد به الأ الحق.
***
والشورى والمعارضة عند أمير المؤمنين ، هما جناحا الحكم الصالح القويم ، وهما رئتا كل حكم سديد .
من أجل هذا ، لايكاد يلي الأمر ، ويتسمع همس الناس حول شدته وصرامته حتى يخلو بنفسه مفكرا ، ويدخل عليه حذيفة فيجده مهموم النفس ، باكي العين ، فيسأله: ماذا يا أميرالمؤمنين ؟
فيجيب عمر: اني اخاف ان اخطيئ فلا يردني أحد منكم تعظيما لي. ويقول حذيفة، فقلت له : والله لو رأيناك خرجت من الحق لرددناك اليه.
فيفرح عمر ويستبشر ويقول: الحمد لله الذي جعل لي أصحابا يقومونني إذا اعوججت ..
وان أعظم مظاهر التكريم للمعارضة ، نراها في مواقف هذا العاهل الفذ منها .. في ولائه الوثيق لها ، وتوفير كل فرص الطمانينة والامن، بل الاكبار لذويها .
يصعد المنبر يوما فيقول : يامعشر المسلمين، ماذاتقولون لوملت برأسي إلى الدنيا هكذا ..؟؟
فشق الصفوف رجل ويقول وهو يلوح بذراعه كانها حسام ممشوق: إذن نقول بالسيف هكذا .
فيسأله عمر: اياي تعني بقولك..؟؟
فيجيب الرجل :نعم إياك اعني بقولي!
فتضئ الفرحة وجه عمر ويقول: رحمك الله... والحمد له الذي جعل فيكم من يقوم عوجي ..!
لم يكن هذا الموقف من أميرالمؤمنين موقفا استعراضيا ، فعمرأكثر قوة وأمانة من أن يلجا لمثل هذه المواقف، إنما كان سلوكا صادقا ،ونهجا تلقائيا مخلصا ، ينشد عمر من ورائه الوصول إلى الحق، والطمانينة إلى انه يحكم امة من الأسود، لا قطيعا من النعاج..!!

ان عمر حريص على أن يمكن الناس - جميع الناس – من حقهم في ممارسة الأمر معه ، واخذ مكانهم إلى جانبه .
ولو انه بطش بالمعارضة ، ولو مرة ، إذن لباءت الشورى فى عنده بخذلان كبير ، لكنه فعل نقيض هذا تماما .. أقصى عنه أهل المجاملة والمداهنة ، ورفع مكانا عاليا أولئك الذين يناقشون، ويعارضون. يقولون: إلى اين.؟ ولماذا ؟ .
وكان فرحه بكلمة جريئة محقة يجابه بها أو يجابه بها أحد من ولاته - تفوق كل فرح آخر على وجه الأرض. .
ذات يوم يصعد المنبر ، ليحدث المسلمين في أمر جليل، فيبدا خطبته بعد حمد الله بقوله: اسمعوا يرحمكم له .
لكن أحد المسلمين ينهض قائما فيقول : والله لانسمع .. والله لانسمع
فيسأله عمر" في لهفة: ولم يا سلمان "؟!
فيجيب سلمان : ميزت نفسك علينا في الدنيا.. اعطيت كلا منا بردة واحدة، وأخذت انت بردتين..!!
فيجيل الخليفة بصره في صفوف الناس ثم يقول: - أين عبدالله بن عمر..؟
فينهض ابنه عبد الله: هانذا يا أميرالمؤمنين..
فيسأله عمر على الملا : من صاحب البردة الثانية..؟
فيجيب عبد الله: أنا يا أميرالمؤمنين...
ويخاطب عمر سلمان والناس معه فيقول : اننى كما تعلمون رجل طوال، ولقد جاءت بردتى قصيرة، فاعطانى عبد الله بردته، فاطلت بها بردتي.
فيقول سلمان وفي عينيه دموع الغبطة والثقة : الحمد لله..والآن قل نسمع ونطع يا أميرالمؤمنين!!..
ايبلغ الناس من حرية المعارضة ان يحددوا للحاكم عدد اثوابه وملابسه، وبهذه اللهجة الصارمة. .؟!
الا من كان يعرف لهذا نظيرا في التاريخ كله، فلياتنا به..!!

****

في يوم آخر ، وهو جالس مع اخوانه، يخترق الصفوف رجل ثائر، ملء قبضته شعر محلوق، ولايكاد يبلغ عمرحتى يقذف بالشعر في صدره في مرارة واحتجاج..
ويموج الناس بالغضب، ويهم به بعضهم، فيومئ إليهم عمر ، ثم يجمع الشعر بيده، ويشير للرجل، فيجلس، وينتظرعليه عمر حتى يهدا روعه، ثم يقول له:

- والآن، ما امرك.؟؟
فيجيب الرجل وقد عادت إليه ثورته:
- أما والله، لولا النار يا عمر...!!

فيقول عمر: صدقت والله .. لولا النار..!! ما امرك يا اخا العرب؟.
ويقص الرجل شكاته ، وفحواها ان ابا موسى الاشعري انزل به عقوبة لا يستحقها .. فجلده وحلق شعر رأسه بالموسى، فجمع الرجل شعررأسه وجاء به إلى عمر ..
فينظر عمر إلى وجوه أصحابه ويقول: لان يكون الناس كلهم في قوة هذا، احب الي من جميع ما افاء الله علينا..!! ثم يكتب لابي موسى يامره ان يمكن الرجل من القصاص منه - جلدا بجلد ، وحلقا بحلق.!!
هذا حاكم يهتز فرحا لكل احتجاج قوي ، أو معارضة شجاعة - وإن رجلا واحدا يطالب بحقه في غير حذر ، ويقول كلمته في غير جبن ، لاحب إليه - كما قال - من كل ما فتح له من الأرض ،ومن كل ما ورث عن كسرى وقيصر.!!
كان عمر واثقا بنفسه ، وباستقامة نهجه ، ومن ثم لم يكن يحاذر النقد ، أو يخاف المعارضة ، بل كان يبحث عنهما ، ويثيب عليهما ، ويثيرهما فى قلوب أمته وعقول شعبه ، ويتخذ منهما مشعلا يستضيء به، وحجة يستكمل بها صواب امره..
يخطب الناس يوما فيقول: لا تزيدوا مهور النسا ء على اربعين اوقية، فمن زاد القيت الزيادة في بيت المال..
فتنهض من صفوف النساء سيدة تقول: ما ذاك لك..
فيسألها: ولم..؟
فتجيبه: لان الله تعالى يقول: " ... واتيتم أحداهن قنطار فلا تأخذوامنه شيئا ، اتأخذونه بهتائا واثما مبينا ".
فيتهلل وجه عمر ،ويبتسم ويقول عبارته الماثورة: اصابت امراة، واخطا عمر" .
وحتى حين كانت تاتيه المعارضة غضبى لافحة، لم يكن يضجر منها ، أو يضيق بها .
بعد أن عزل خالد بن الوليد جمع الناس في المدينة وقال لهم :
" اني اعتذر إليكم من عزل خالد، فاني امرته ان يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطى ذوي الباس، وذوي الشرف، وذوي اللسان" ٠.
فنهض ابو عمرو بن حفص بن المغيرة وقال : والله ما اعذرت يا عمر ، ولقد نزعت فتى ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم واغمدت سيفا سله رسول الله ، ووضعت أمرا رفعه رسول الله ، وقطعت رحما ، وحسدت بني العم ..!!
قطيعة رحم.. وحسد.. يتهم بهما أمير المؤمنين هكذا في غضب وعلى الملا..؟!
اجل، وما زاد عمر على أن ابتسم ابتسامة صافية ، وقال مخاطبا ابا عمرو: إنك قريب قرابة ، حديث السن ، تغضب في ابن عمك ..!
هذا ليس حاكما عادلا فحسب ٠ بل هو معلم كبير، وصاحب مهارة بالغة في صقل الجوهر الإنساني وبعث قواه.

فاي اثر باهر يتركه موقف كهذا فى افئدة الناس..؟؟ واي طمانينة غامرة يملا بها القلوب حاكم هذا سلوكه ..؟!
ولكن ، لم لا يفعل عمر هذا ، وأكثرمنه ، وهو تلميذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب أبي بكر خليفته..؟!
ولقد رأى بعينيه وسمع باذنيه اعرابيا من أهل البادية يتهجم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له وهو بين أصحابه: " اعطني، فليس المال مالك ولا مال ابيك" .
ويرى الرسول صلى الله عليه وسلم يبتسم، ويقول للرجل : صدقت انه مال لله .!!
ويستفز المشهد رجلا ، هو عمر نفسه ، فيهم بالاعرابي ليبطش به ، فيرده رسول الله صلى الله عليه وسلم في رفق، وابتسامته تعلو شفتيه كتهلل الربيع، ويقول له :
دعه ياعمر .. ان لصاحب الحق مقالا ..!!
اجل،على هذا النهج المستقيم يمضي عمرمقدرا كل نقد نافع، موقرا كل معارضة امينة. .
وان لجميع الناس الحق في أن يشيروا على أميرالمؤمنين، وفي أن يعارضوا ما لا يقنعهم من تصرفاته.
ولقد تركهم يفهمون تماما ان الشورى ليست ترف ، ولا ملء فراغ.. إنما هي نهوض الشعب بمسئولياته مع الحاكم يدا بيد ، ورايا براي ، ومشيئة بمشيئة ..
وكان إيمان الناس بأن أميرهم جاد في معرفة ارائهم، وتمحيص رايه. .
وكانت التجارب الكثيرة التي اثبتت حفاوته بالمعارضة، واحترامه للشورى ..
كان هذا وذاك على رأس الحوافز التي الهمت الناس - جميع الناس - الشجاعة في ابداء الرأي، المشا ركة في حمل تبعة المصير .
لقد كان عمر خبيرا بأولئك الذين يرصدون الريح ، ويستنبطون هوى الحاكم ، فيسبقونه بالرأي الذي يساير هواه..!!
كان خبيرا بهؤلاء ، فلا يقيم لهم وزنا..
وكان يقول لأحدهم إذا تقدم لتمثيل دوره يا عدو الله، والله ما اردت الله بهذا!! .
وكان هؤلاء قلة باهتة.
اما الأكثرون ، فقد كانوا من الطراز الرفيع الباهر الذي يقول كلمته واضحة ، صادحة ، صادقة ، نافعة ، يمليها عليهم إيمانهم بواجبهم وبحقهم معا ..
وبشجعهم عليها سلوك أمير المؤمنين تلقاء نصحائه ومعارضيه ..

وعظيم من عمر، انه كان يلتمس المشورة والرآي، كفرد عادي لا كحاكم وآمير للمؤمنين..
فهو إذ يطلب الرأي في امر، لا يبدي عن أي مظهر من مظاهر السلطة.. بل يشعر الآخرين بأنهم يسدون إليه خيرا جزيلا، وينقذونه من وطاة الحساب ، إذ يساعدونه بارائهم على تبين الصواب والحق..!!
وبهذه الروح نفسيا يتلقى - كما رأينا - كل معارضة له ، بل كل تنديد به .. كان يجتاز الطريق يوما ، ومعه الجارود العبدي ، فإذا امراة تناديه وتقول: رويدك يا عمر ، حتى اكلمك كلمات قليلة ..

الفصل الثالث ثالث الخلفاء

ابى أمير المؤمنين عمر وهو يجود بانفاسه الطاهرة ان يستخلف أحدا .
وحين الح عليه بعض أصحابه كي يختار بنفسه من يخلفه ، استمسك بابائه ورفضه ، وقال لهم: " !!حمل امركم حيا وميتا . ؟ وددت ان يكون حظي منكم الكفاف، لا علي ولا لي..".
" الأ اني ان استخلف ، فقد استخلف من هو خيرمني - يعني أبا بكر - وإن اترك ، فقد ترك من هوخير منى- يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم - والله حافظ دينه" .
وولى روحه الضارعة شطر الله الرحيم العليم، يسأله ان يلهمه الرشد ، واسبل جفنيه واعمل فكره.. وعلى الفور لاح له من الله نور.. وكانما تذكر ذلك اليوم البعيد القريب، وقد ارهفوا السمع لرسولهم الكريم يعظهم ويناديهم قبل وفاته بأيام. .
"ايها الناس. ان أبا بكر لم يسؤني قط ، فاعرفوا له ذلك .. أيها الناس. اني راض عن عمر، وعلي، وعثمان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، والمهاجرين الأولين، فاعرفوا لهم ذلك".
علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن، ما اجلها من ذكرى تعود الآن في اوانها.
فليكن لهؤلاء الستة الذين منحهم الرسول كل هذا التكريم.عاقبة الأمر الذي يشغل الأميرالمحتضر وليضع في اعناقهم مجتمعين، الأمانة التي حملها طوال سنى خلافته فى مثل عزم المرسلين، وهكذا جمعهم حوله، ووجه إليهم الحديث : " اني نظرت فوجدتكم القادة، ولا يكون هذا الأمر الأ فيكم، وقد قبض رسول الله وهوعنكم راض، واني لا اخاف الناس عليكم، ما استقمتم.. فإذا انت مت فتشاوروا ثلاثة أيام،ولا ياتي اليوم الرابع الأ وعليكم أمير منكم.. وليحضر معكم عبد الله بن عمر مشيرا . ولا يكون له من الأمر شيء ... " .

***

كان "طلحة غائبا عن المدينة ، فاجتمع بقية الصحاب الذين وضع عمر الأمانة في اعناقهم قبل رحيله. واقترح عليهم عبد الرحمن بن عوف ان يخلع أحدهم نفسه ويتنازل عن حقه في الترشيح ليكون صوته مرجحا إذا قام خلاف.

ويادر فخلع نفسه. ثم تنازل الزبير عن حقه لعلي، وتنازل سعد بن أبي وقاص عن الترشيح أيضا. وهكذا انحصرالاختيار بين عثمان وعلي ،وفوض عبدالرحمن بن عوف في اختيار أحدهما .

كان على ابن عوف ان ينجزالمهمة في الأيام الثلاثة التي اوصاهم الخليفة الراحل الأ يجاوزوها. وكان عليه خلال هذه المهلة القصيرة ان يجري شورى واسعة واستفتاء عميما بين أصحاب الرسول جميعا .
وهكذا راح يذرع المدينة ويقرع ابواب دورها .. يقول ابن كثير : نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس ، وبجمع رأي المسلمين عامتهم وقادتهم جميعا واشتاتا ..مثنى وفرادى ومجتمعين.. سرا وجهرا ، حتى خلص إلى النساء المحجبات في بيوتهن ، وحتى سال الولدان في المكاتب ، وحتى سال الركبان الوافدين على المدينة.
ونواصل سيرنا مع ابن كثير لنرى معه كيف تم الأمر ، وكيف حمل عثمان أمانة الحكم وما افدحها من أمانة..!!
... ثم أرسل عبد الرحمن في طلب عثمان وعلي، فقدما عليه، فأقبل عليهما وقال لهما: اني سالت الناس عنكما ،فلم اجد أحدا يعدل بكما أحدا .. ثم أخذ العهد على كل منهما لئن ولاه ليعدلن، ولئن ولي عليه ليسمعن، وليطيعن.. ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عممه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقلد سيفا ، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودي في الناس كافة، الصلاة جامعة.. وتراص الناس حتى غص بهم المسجد، وحتى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه الأ في آخر يات الناس - وكان رجلا حييا - ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا دعاء طويلا ثم تكلم فقال : أيها الناس ، اني قد سالتكم سرا وجهرا ، فلم اجدكم تعدلون بعلي وعثمان أحدا .. فقم الي يا علي..فقام إليه واخذ عبد الرحمن يده وساله: هل انت مبايعى على كتاب الله وسنة نبيه، وفعل أبي بكر وعمر. .؟
قال علي: على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رايى.
ثم قال: قم الي يا عثمان فقام اليه، فاخذ بيده وقال له: هل انت مبايعي على كتاب الله وسنة رسوله، وفعل أبي بكر وعمر ..؟
قال عثمان : اللهم نعم.
فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد اللهم اني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان ..
وازدحم الناس على عثمان يبايعونه ٠٠٠ ٠

كانت أول يمين شدت بالبيعة على يمينه ، يمين علي بن أبي طالب.. وتتابع المسلمون جميعا يبايعون ..
وهكذا حمل عثمان اثقال الخلافة.. حملها وهو على وشك ان يستقبل السبعين من عمره ، ترى هل كان بها حفيا وعليها حريصا ..؟؟
فيما نعلم من طباع البشر ، فإن سن السبعين ليست السن المناسبة للطموح ، ولا السن التي تتفتح فيها الشهيات لمتاعب السلطان ، فكيف وصا حب هذه

السن رجل يسيطر الحياء على حياته . والحياء يدفع أصحابه دائما إلى الظلال.؟؟
ثم كيف، وصاحب هذه السن رجل يتلقى المسئولية على وقع نذير رهيب يتمثل في اغتيال خليفة تحدت الجريمة عدله وورعه وباسه ونفوذه العظيم الرحيب ..؟؟
اغلب الظن ان عثمان رضي الله عنه تلقى البيعة وهو يرتجف .
ولعلها تشير إلى هذا المعنى ، تلك الرواية لتى تحدثنا ان الخليفة بعد تلقيه البيعة من أهل الشورى توجه إلى المنبر وعلى محياه اكتئاب..
ولعل هذه الخشية لجلال المسئولية ، هى التى امسكت لسانه عن الافاضة فى أول خطبة القاها ،فاكتفى بأن حذر الناس من الدنيا وغرورها .ورغبهم في الآخرة وحبورها .
ولولا ضغط الموقف وثقل المسئولية لافاض .. فما كان رضي الله عنه عاجزا عن الحديث ولا عييا .
يروى عبد الرحمن بن حاطب عن ابيه قوله: "ما رايت أحدا كان إذا حدث اتم حديثا من عثمان، الأ انه كان رجلا يهاب الحديث" .
ومن الطبيعي ان يكون هيابا للحديث ،ما دام يتحكم فيه هذا القدر المفيض الهائل من الحياء.
فإذا انضاف إلى حيائه الشديد وطاة المسئولية الفادحة ، فإن خطبته السريعة العاجلة يوم ذاك تعطينا أول صورة من صور المجابهة المضنية التي ستقوم بين الخليفة الشيخ ، ومسئولياته الثقال الجسام .
***
على انه مهما تكن وطاة المسئولية ، فإن عثمان بما معه من إيمان وأمانة سيعطى المسئولية حقها ، وسيباشرعلى الفور تبعات البيعة التي اعطاها والبيعة التى تلقاها ..
لقد أعطى عهده وموثقه ان يسير على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ونهج صاحبيه أبي بكر وعمر. وهو حين أعطى ذلك العهد لم تكن نواياه منفصلة عن كلماته ، ولم يكن عزمه متخلفا عن نواياه ، لكنه مع ذلك كان يدرك ان قدرته محدودة ، وإن صاحبيه الراحلين لا يدرك شاوهما ، ولاينال مداهما ..
وانه الآن ليذكر ذلك آل يوم الذي اطل فيه من نافذة داره ، فابصر على البعد رجلا يجري في قيظ النهار وهجير الصحراء ، فظنه غريبا نزل به كرب عظيم ، ولبث مطلا من نافذته حتى يعود ذلك الرجل الملهوف فيدعو: إلى ظل داره ويغيثه من لهفته .
وكم كانت دهشته وعجبه حين اقترب الرجل ، فإذا هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ممسكا بخطام بعير يتهادى ورا ءه .
وساله عثمان: من أين يا أميرالمؤمنين.؟

واجابه عمر: من حيث ترى.. بعير من ابل الصدقة ند هاربا فاسرعت وراءه، ورجعت به
وعاد عثمان يسأل: ألم يكن هناك من يقوم بهذا العمل سواك؟.
واجابه عمر: ومن يقوم مقامي في الحساب يوم القيامة ..؟!
ودعاه عثمان إلى الراحة حتى تنكسرحدة الهجير ، فما زاد عمر على انه قال ودموعه الورعة تسيل من ماقيه : عد إلى ظلك يا عثمان ..
ومضى لسبيله، وعينا عثمان متعلقتان به حتى غاب عنهما. . راح عثمان يتمتم قائلا:
"لقد اتعبت الذين سيجيئون بعدك" !!
***
انه الآن وقد صار خليفة ، وشاء له القدر ان يكون أول رجل يجيء بعد عمر ليذكر هذه الوا قعة وعشرات الوقائع مثلها ، فياخذه الاشفاق على نفسه وعلى أمته . انه يجيء على اثر خليفتين ليس لهما نظير.
ويجي، بصفة خاصة بعد عشر سنوات عمرية فرض فيها الفاوق على المسلمين منهجه الصارم، وعدله المكين ، وحمل ولاته وعماله على مثل ما حمل عليه نفسه من زهد وتقشف وعناء .
كما يجيء والدولة تتسع رقعتها بغير حساب ، وتتلاطم تحت رايتها اجناس شتى ، متباينة الطبائع والغايات.
كذلك يجيء والدنيا قد فتحت على المسلمين فتحا عريضا ، بحيث أصبحت دخولهم من التجارة، وانصباؤهم المشروعة من الفيء ومن العطاء تزيد على احتياجاتهم زيادة تنقل الكثيرين منهم إلى عداد الاثرياء، وكبار الاثرياء.
كان عمر رضي الله عنه يرى اقبال الدنيا وهي في بدايتها فيرتجف اشفاقا على المصير.. وبقول : " ان للمال ضراوة كضراوة الخمر" !
ويذكر قول الرسول عليه السلام لأصحابه يوما : "والله، مالفقر اخشى عليكم، ولكني اخشى ان تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها" .
وهاهى ذي قد فتحت، وها هو ذا عثمان يدعى ليحمل المسئولية ويمسك الزمام. .
٠ذرى هل سيحسن استخدام الشكائم التي استخدمها سلفه العظيم عمر في مهارة تبهر الألباب؟؟!!
ان الرجل اللين الجانب، الهادئ السمت ، الوديع الطيب ليدرك ان العبء ثقيل ، وإن اثقل ما فيه هذه الدنيا التي اقبلت بكل اغرائها الخطر على المسلمين ، والتي زاد انفلاتها نحوهم وتطويقها لهم عندما انكسر السد المنيع الشاهق الذي كان يصدها وينئيها .
بل لا نكاد نشك في أن عثمان كانؤيدرك أيضا ان أكثرالذين رحبوا باختياره للخلافة دون علي كرم الله وجهه. إنما فعلوا رغبة منهم في الآن عتاق من تزمت الحياة وتقشف المعيشة اللذين طالت معاناة الناس لهما، واللذين كانا

سيفرضان عناءهما من جديد لو تسلم الأمر علي بن أبي طالب الذي كان بمنهجه الصارم وعدله المكين، وبورعه وبتقشفه، يمثل امتدادا واضحا واكيدا لصرامة عمر وعدله، وتقشفه، وورعه.
كل ذلك - فيما نحسب - لم يغب عن بال الخليفة الثالث عثمان .. ومن أجل ذلك لا نخاله الأ قد رأى في الدنيا المقبلة على المسلمين اعصى مشكلات عهده.
ومن أجل ذلك أيضا، كانت اولى كلماته إلى الناس في أول خطبة له ، التنبيه لهذا الخطر قبل ان يستفحل فلا يستطيع ولا يستطيع المسلمون له دفعا ..
وهكذا وقف بعد تمام البيعة يقول : " ان الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور" . " .. ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة ، فإن الله قد ضرب للدنيا مثلا فقال: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به تبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا . المال والبنون زينة الحياة الدنيا و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا " .
على أن موقف الخليفة الثالث من مشاكل الثراء ظل مختلفا في التقدير وفي النتائج عن موقف سلفه أمير المؤمنين .
فبينما الاثنان متفقان على أن الثراء المتفاقم يشكل خطرا على المسلمين الذين نذروا حياتهم للدعوة والجهاد ، والذين زين لهم دينهم ان يكون زاد أحدهم من الدنيا كزاد الراكب، نجد نهجيهما في مقاومة هذا الخطريختلفان..
فاما أميرالمؤمنين عمر فيركز على قمع الاستمتاع المشروع بهذا الثراء ، ويقاوم الاستسلام لطيبات الحياة الدنيا .. وهو يبدا هذا القمع وهذه المقاومة مع نفسه واهل بيته وعشيرته ، ثم مع ولاته وعماله ، فلا يكاد يسمع عن وال ترفه في ملبسه أو في مطعمه حتى يستدعيه إليه في المدينة وبزجره ويعنفه ،فان عاد إلى استسلامه للنعيم اقصاه وعزله.
ولقد كان يريد بهذا ان يجد عامة الناس في ولاتهم قدوة تعينهم على عدم الاستسلام لمغريات الثراءواطايب الحياة و ترف المعيشة .
هذا كان نهج عمر .
اما الخليفة الثالث عثمان فكأنما كان يرى ان المال إنما خلق لجعل الحياة موطاة الاكناف... وما دام الثراء حلالا ، والاستمتاع مشروعا ، فليكن للناس حظوظهم من طيبات الحياة ونعيمها، لا فرق بين الأمراء والولاة والعامة.. وهي وجهة نظر تتسق مع نشاته وسجاياه..
اجل لم يجد عثمان من حقه مثلا ان يعزل واليا رغد عيشه، وترفهت حياته، واغترف من طيبات الدنيا بكلتا يديه، ما دام في استمتاعه هذا لا يجترح منكرا ولا يقارف اثما .
ولم يضع الخليفة في حسابه ما وضعه عمر من قبل فيحسابه من أن للمال ضراوة كضراوة الخمر ، وإن للحلال أحيانا فتنة وخطرا كفتنة الحرام وخطره ،

وإن النفس البشرية طامعة دائما في المزيد . واذا لم يفرض عليها الفطام عن كثير من الطيبات المباحة ، سهل ابقائها وانفلاتها نحو المتاع المحظور .!!

***

على أي حال، فقد اختير عثمان للخلافة، وهوواثق من أمانته على دين الله، وعلى مقدرات الدولة والأمة اللتين حمل مسئولية الحفاظ عليهما .. وهو كخليفة ، له الحق في اختيار الأسلوب الذي يمارس به سلطته ، ما دام واضعا عينيه دائما على الاسس الرئيسة التى شرعها الله، وسارعليها رسوله صلى الله عليه وسلم وصاحباه.

وهكذا بدا في ظل تلك المبادئ الوثقى يباشر مهامه ومسئولياته في عزم وسداد.

وسنصحبه الآن في بعض انجازاه المتألقة . فنراه يبدا كما يحدثنا ابن كثير: بالكتابة إلى ولاة الأقاليم ، وأمراء الحرب ، والائمة على الصلوات، والامناء على بيوت المال ، يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحثهم على طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ويحضهم على اتباع السنة وترك الأحدا ث والابتداع.

ورأى بيت المال عامرا ممتلئا ، فزاد في عطاء الناس ، واتخذ في المسجد سماطا يقدم عليه بصورة دائمة الطعام الطيب للمعتكفين والمتعبدين وابناء السبيل.

بيد أنه لم يكد يستقر في منصبه ويتهيأ لانجاز ما كان يود انجازه من اصلاح، حتى فوجىء بالانتفاضات المسلحة تنقض على الدولة من كل مكان.

لقد نقضت دولة الروم عهودها السابقة، وكذلك فعلت بعض المقاطعات الفارسية.

لكانما كان مقتل عمر" رضي الله عنه أشارة البدء بين قوى التمرد ، فقامت قومة واحدة فى اذربيجان ، وارمينية ،واغار الروم باسطولهم على الاسكندرية و فلسطين ، وسرت النارمطوقة الدولة العريضة المترامية.

لم يكن التمرد من شعوب تلك البقاع ، فلقد كان فرحها بالإسلام عظيما يوم ذهب اليها وحررها من طغيان فارس والروم.

انما جاء التمرد من فلول القوى التى كانت تملك قبل الإسلام وتسود .. لكنها لم تكن فلولا قليلة ولا ضعيفة، ولقد زاد في قوتها ما اشاعوه بين الجماهير في بلادهم من أن الإسلام قد انتهى ، وإن خليفته القوي عمر قد اغتيل بيد مجوسي منهم، وإن الفوضى شبت في البلاد.

ولقد اغرى زعماء تلك الفتنة ما علموه من أن الخليفة الجديد رجل في سن السبعين.

ولم يكن لعثمان رضي رضي الله عنه بطولات مسموعة مثل خالد بن الوليد مثلا، أو سعد بن أبي وقاص ،اوعلي بن أبي طالب ، بل ان اسمه لم يكن يتردد

يين الاسماء الجهيرة خارج المدينة، لا لشيء الأ لان حياءه وهدوءه كانا يجنحان به دوما إلى الظلال.
كل ذلك اغرى المتمردين بالانقضاض .
ورأى ابن السبعين عاما نفسه مطالبا بأن يري هؤلاء الحمقى الخارجين ، ان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لا يقاس أقدارهم بضخامة الاجسام ، ولا بما يحملون فوق كوأهلهم من سنين واعوام.. بل ما وقر في قلوبهم من إيمان بالله وبوعده، وبرسوله وبدينه.
هنالك لم يضع لحظة في تفكير ..!! لم يتلفت ذات اليمين ولا ذات الشمال..! لم يسأل أحدا حتى مجرد سؤال ماذا يجب أن يصنع .؟ لقد حدد له ضميره المؤمن الطريق .
وعلى الفور اصدرأوامره باطفاء النار وقهر المرتدين.
ليس ذلك فحسب ، بل اصدرأوامره ان يجاوز الفتح تلك البقاع المتمردة إلى حدود أبعد ، حتى لا تبقى اطراف للدولة يسهل عليها التمرد كلما تشاء .
ولقد اختار بنفسه قواد الجيوش التي ستقوم بهذه المهام .
ومن عجب ان أحدا منهم لم يخسر معركة قط إذا استثنينا معركة واحدة.
لقد كان عثمان يومئذ يفكر ويقدر ، ويعزم ويحزم ، وكانما قد حل داخل اهابه شباب التاريخ..!!!
ان هذا الخليفة العظيم الكهل ليبهرنا بمضاء عزمه وروحه خلال تلك الأحداث ..
فحين رأى ان ضرورات القتال واحتياجات النصر تتطلب تجهيزات بحرية ،وانزال اعداد ضخمة من الجنود إلى البحرلم يتردد، مع انه يعلم أن عمر بن الخطاب ظل طوال خلافته يرفض هذه المخاطرة. ولقد رأى القواد والجنود يومئذ هذا الروح المتالق من خليفتهم الشيخ، فإزدادوا بدورهم مضاء ومقدرة واستبسالا .

***

بدا الخليفة مجابهة القوى المتمردة التي حملت السلاح ضد الإسلام ودولته ، فى اذربيجان وارمينية اللتين نقضتا العهد الذي كانتا قد ابرمتاه من قبل . فسير إليهما جيشا بقيادة الوليد بن عقبة فردهم إلى صوابهم ، ووقعوا معاهدة بالشروط نفسها التى كان قد انزلهم عليها من قبل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.
وبينما كان الوليد وجيشه راجعين إلى الكوفة، جاءتهم الآن باء بأن الروم تتحرش بالشام ، وجاءت هذه الآن باء مشفوعة بامر الخليفة للوليد ان يجهز عشرة الاف مقاتل تحت قيادة رجل أمين كريم شجاع .
ولننظر كيف تبزغ طياع الخليفة في هذه اللفتة ، فهو يامر الوليد ان يختار لقيادة هذا الجيش رجلا كريما .
ان ابا السخاء الذي لا يعرف سخاؤه حدودا ، يتفاءل بالسخاء ، ومن ثم يتفاءل بالقائد إذا كان سخيا جوادا ..!!

وانجز الوليد أمر الخليفة، فاختار الجيش ووضع على رآسه قائدا شجاعا سمحا ، هو حبيب بن مسلمة الفهري .
سار حبيب بجيشه الذي لا يجاوز عشرة الاف جندي ، بل لعله كان دون هذا العدد ، وأقبل الروم والترك في جيش قوامه ثمانون الفا . وكانت زوجة القالد حبيب بن مسلمة مجندة في جيش المسلمين. وقبل ان يبدا القتال سالته: أين القاك إذا حمي الوطيس وماجت الصفوف..؟
فاجابها الزوج والقائد: في خيمة قائد الروم.. أو في الجنة..! الله اكبر..!!
والتقى الجيشان، لتدور الدوائر آخر الأمر على جيش الروم والترك. ولم يقف حبيب عند هذه الجولة الظافرة ، بل سارمتوغلا في بلاد الروم ، يفتح الحصون الشاهقة حصنا وراء حصن ، ويفتح ابواب الإسلام والحرية أمام جماهير عريضة طالما انتظرت أيام الخلاص. ؟!

* **

وكانت مقاطعة الري" قد نقضت هي الأخرى عهدها وتمردت ، فزحفت عليها قوة بقيادة أبي موس الاشعري ردت المتمردين إلى الجادة، وانزلتهم مرة أخرى على العهد القديم الذي كان قد واثقهم عليه حذيفة بن اليمان .

***

والتفت الخليفة الرابض في المدينة عاصمة الإسلام صوب الاسكندرية التي جاءته انباؤها بأن الاسطول البحري للروم قد اغار عليها، كما ان اعدادا هائلة من المشاة والركبان يزحفون نحوها، فأرسل الخليفة باوامره إلى عمروبن العاص واليه على مصر، كي يسير بجيشه إلى الاسكندرية.. وهناك اصلى المغيربن سعيرا، وانزل بالمتمردين هزيمة استاصلت شافتهم إلى الأبد، وفي الوقت نفسه كان معاوية يفتح قنسرين ،وكان عثمان بن أبي العاص يقهر التمرد الناشب في اصطخر ويعيد فتحها من جديد.!!
والى الشمال الافريقي بعث الخليفة جيشا كبيرا بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وأرسل معه عبد الله بن عمر و عبد الله بن الزبير .
واقبلت جيوش البربر بقيادة ملكهم في اعداد ضخمة قدرها بعض المؤرخين بمائتي ألف مقاتل.
وكان لقاء رهيبا ، ابلى فيه المسلمون بلاء باهرا وراءعا ، ولا سيما عبد الله بن الزبير الذي شهدت منه هذه المعركة بسالة منقطعة النظير.
و كتب النصر المبين للمسلمين ، وعاد جيشهم الظافر بما لاحصر له من الاسرى ، ومن الغنا ئم، والأموال..!!

***

ورأى الخليفة عثمان رضي الله عنه وأرضاه ان الاسطول البحري للروم يتخذ من جزيرة قبرص منطلقا لعدوانه ، فقررغزوها .
ولكن كيف..؟ والمسلمون لم يمتطوا ثبج البحرمن قبل في قتال.

وأميرهم العظيم الراحل عمر كان، كما اسلفنا من قبل ضد كل مخاطرة من هذا القبيل.
لقد تدارس عثمان الأمر مع بعض أصحابه ومشيريه ، واقتنع بحتمية هذه المخاطرة .. ولأول مرة شهد التاريخ ميلاد البحرية الإسلامية .
اذن الخليفة لمعاوية بغزو قبرص ،فابحر اليها من الشام، وامده الخليفة بجيش آخر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح .
واطبقت القوتان العارمتان على الجزيرة فاستلمت ووقعت الصلح الذي فرضه المسلمون .
وفي هذه الغزوة تحققت نبوءة قديمة للرسول ٠ .. ذلك انه كان عليه السلام يقيل يوما في دار عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، ونهض من نومه وهو يضحك، فسالته أم حرام بنت ملحان عما اضحكه.. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: " ناس من امتي عرضوا علي يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الاسرة " .
فقالت : يا رسول الله ، ادع الله ان يجعلني منهم .
فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم : انت منهم .
ونام الرسول ثانية ، ثم استيقظ وهو يضحك .. ويقول : "ناس- آخر ون-من امتي عرضوا علي يركبون ثبج هذا البحر،مثل الملوك على الاسرة".
فقالت :" أم حرام ": يا رسول الله ، ادع الله ان يجعلني منهم :
فاجابها الرسول صلى الله عليه وسلم انت من الأولين .
كانت هذه الوا قعة ذائعة بين الصحابة أيام كان الرسول صلى الله عليه وسلم معهم لم يفارقهم بعد إلى الرفيق الاعلى ،وكانوا ينتظرون تاويلها ، ويعجبون كيف يركبون البحر مثل الملوك على الاسرة !!حتى جاءت غزوة قبرص هذه ، فركبوا ثبج البحر لأول مرة ، وكانوا فوق سفنهم الكبيرة الظافرة كالملوك فوق اسرتهم وعروشهم ..
وفي هذه الغزوة خرج مع الجيش" عبادة بن الصامت ومعه زوجه أم حرام بنت ملحان رضي الله عنهما وتحققت نبوءة الرسول الصادق الأمين لها حين قال لها: " انت منهم" .
ولعلكم تذكرون ان الرسول عندما استيقظ ضاحكا للمرة الثانية وهويقول : "ناس آخر ون من امتي يركبون ثبج هذا البحر".
وسالته أم حرام ان يسأل الله لها كي يجعلها منهم ، أجاب الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : "انت من الأولين".
وهنا تستكمل النبوءة صدقها الرائع وبهاءها الجليل، فإن أم حرام لم تعش حتى تركب البحرمع الآخرين .. لقد ماتت بعد انتهاء معركة قبرص ودفنت هناك، وعرف قبرها الطاهر فيما بعد باسم قبرالمراة الصالحة .. !

***

وجاءت غزوة الصواري لتؤكد صلابة الدولة المسلمة تحت خلافة عثمان بن عفان فقد جمع قسطنطين امبراطور الروم جيوشا لجبة لم يلتق المسلمون من قبل بمثل كثرتها عددا وعتادا .
خرج قسطنطين بجيشه الجرار هذا على ظهور خمسمائة سفينة ، زاحفا على بلاد المغرب ليلاقي بها عبداله بن سعد بن أبي سرح .
وجمع عبد الله جيشه ونزلوا بسفنهم إلى البحر. والتقى الجمعان في معركة تتحدى ضراوتها كل وصف،ودعاهم قائد المسلمين ليخرجوا إلى البر ، ويتقابل لجيشان فوق الأرض الصلبة، فابوا ذلك، عندئذ اسرعت فرقة من جيش المسلمين فربطت سفنهم بسفن الروم بعد أن ادنوها منها ، ثم راحوا يجتلدون بالسيوف والخناجر . كان ضحايا المسلمين وشهداؤهم من الكثرة إلى حد فادح، يبد ان قتلى الروم كانوا اضعاف اضعافهم، وانتصر المسلمون انتصارا حاسما ، وهرب قسطنطين بجسده الذي ادمته السيوف واثخنته الجراح.

***

وهكذا سارت جيوش الخليفة تحت راياتها المنتصرة إلى كل مكان. فمعاوية يوغل في بلاد الروم حتى يقرع ابواب القسطنطينية ذاتها.
والى فارس ، وكرمان ، وسجستان ، ومرو .. يزحف ابن عامر ، والاحنف بن قيس، والاقرع بن حابس، فيفتحون ويظفرون..
ومهدت الأرض لزحف المسلمين الجسور حتى بلغوا السودا ن والحبشة في الجنوب، والهند والصين في الشرق.
والخليفة الكهل الذي كانت سنه قد بلغت السابعة والسبعين رابض في المدينة ينعم بفتح الله عليه وعلى جيوشه . ومع الجيوش العائدة من معاركها بالنصر ، كانت الغنائم والأموال تتدفق على العاصمة ،وكانها ابواب السماء فتحت بماء منهمر .. !
لقد اخلفت كل الظنون، تلك السنوات العظيمة المتألقة، للخليفة الذي اساء أعداء الإسلام به الظنون !! ولم يشغله ذلك الجهاد الموصول، والغزوات المتلاحقة عن اهتمامه بالعمارة. فراح يجمل المدينة، ويزيد في بناياتها وعمارتها ، مبتدئا بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم٠ ، فوسع فيه وبناه بالحجارة المنقوشة، واتخذ عمده من الحجارة المرصعة.
ولئن بهرنا الحزم والتوفيق اللذان صاحبا الخليفة عثمان في مجابهته الحاسمة لقوى الشر الزاحفة على الإسلام تريد ان تطفىء نوره، فلسوف يبهرنا بصورة مماثلة أو تزيد ، انجازه الرائع العظيم في جمع المسلمين على مصحف واحد ، حفظ القرآن بين دفتيه إلى يوم الدين.

***

نحن نعلم ان القرآن كانت تتنزل آياته على الرسول الأمين مفرقة وفق ظروف وأسباب نزولها ، وكان من بعض أصحاب الرسول صلى الله عليه

وسلم نفر اختارهم ليكتبوا الآيات المنزلة آولا فاول.
وكان الصحابة يتناقلون الآيات المنزلة، يعتمد بعضهم على قوة ذاكرته فيحفظها ، ويسطرها بعض آخر حيث يحتفظ بها مكتوبة.
وفي عهد الخليفة الأول أبي بكرالصديق رضي الله عنه قرر بمشورة من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان يجمع القرآن – فعهد إلى الصحابي الجليل زيد بن ثابت بالاشراف على هذه المهمة المقدسة. وكان زيد اقدرالمسلمين على ما ندب اليه، اذكان يحفظ القرآن كله.. كما كان أكثر كتاب الوحي مل أزمة للرسول صلى الله عليه وسلم.
وجمع زيد القرآن باذلا من وعيه ويقظته وأمانته جهدا خارقا، مستعينا بعدد كبير من الصحابة الذين كان بعضهم يحفظ القرآن، وبعضهم يحتفظ به مسطورا .
وهكذا صارت الآيات التي كانت متفرقة في صدور الرجال أو على الواح الكتابة مصحفا واحدا مرتب السور والآيات، معروف البدء والمنتهى.
وحفظ المصحف عند أبي بكر ، ومن بعده انتقل إلى عمر .
خلال عهد عمر شرعت الفتوح الإسلامية -طوي البلاد طيا . وال إلى الإسلام كثير من الأرض التي كان يجثم فوقها طغيان فارس والروم.
وخلال عهد عثمان بلغت الفتوحات امادا ابعد، وافاقا ارحب.
ومع هذا الفتح العظيم في عهد عمر وعثمان كان الإسلام يستقبل شعوبا مختلفة اللسان. و نما المجتمع الإسلامي نموا هائلا ، انتظم بين موجاته تباين كبير.
وكانت اسرع مظاهر هذا التباين في الكشف عن نفسها وعن عواقبها - اللهجات.
ففي بعض الغزوات التي اشترك فيها الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان راعته الطرائق الكثرالتى يقرا بها القرآن.
صحيح ان عرب الجزيرة العربية أنفسهم كانت لهم لهجات مختلفة ، بيد أنهم لغة قريش التي نزل القرآن بها كانت قد استقطبت معظم تلك اللهجات وبوتقتها في لغة واحدة صارت اللغة الام ، وحتى حين كان يندر حدوث خلاف حول قراء0 بعض أي القرآن الكريم في أيام الوحي ،كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفصل في الأمر بإيثار قراءة واحدة حينا ، أو بإقرار القراءت المختلف حولها حينا آخر . أما بعد الفتح الكبير ، وبعد أن أصبح القرآن كتاب شعوب كثيرة ، لكل منها لهجته ولسانه ، فقد امسى الاختلاف في قراءته مصدر خطر عظيم ، وهو خطر يهدد وحدة الأمة الجديدة المنتشرة فى الأرض أكثر مما يهدد القرآن ذاته .. فالقرآن تكفل الله بحفظه حين قال سبحانه : " أنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " ولقد ظهرهذا الخطر في الواقعة التي شهدها حذيفة ،اذ نشب خلاف مفزع بين أهل الشام واهل العراق.
كان أهل الشام يقرءون على قراءة المقداد بن الاسود وابي الدرداء .

وكان آهل العراق يقرءون على قراءة عبد لله بن مسعود وابى موسى الاشعري.
وتعصب كل من الطائفتين لقراءته، وكاد الخلاف يمسي نزاعا ، فصداما .
ولم يكد حذيفة بن اليمان يفرغ من تلك الغزوة التي كان يشارك فيها بجهاده حتى امتطي راحلته ، يسابق الريح إلى المدينة ، وهناك وضع القضية بين يدي الخليفة الرأشد ، مختتما حديثه بقوله : "يا أمير المؤمنين. . أدرك هذه الأمة قبل ان تختلف في ك!!بها كما اختلف الذين من قبلهم في كنبهم" .
ولم يتوان الخليفة لحظة ، فقد أرسل من فوره إلى من كان بالمدينة من أصحاب الرسول ، وشاورهم في الأمر ، ثم قرر ان يكتب المصحف على حرف واحد ، وإن يجمع المسلمين في عصره وإلى الأبد على قراءة واحدة تكون هي القراءة الام ،حتى يدفع هذا الاختلاف المنذر بالسوء.
واستدعى إليه زيد بن ثابت الذي قام بجمع القرآن في عهد أبي بكر وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير .. وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وشرح لهم مهمتهم، واوصاهم إذا اختلفوا في شيء ان يكتبوه بلغة قريش..
وجاءهم الخليفة بالمصحف الأول ليكون دليلهم واساس عملهم ، وكان عمر قد اودعه قبل استشهاده عند ابنته حفصة رضي الله عنهما .
وعندما انجز الأصحاب عملهم الجليل ، أمر الخليفة ان ينسخ عدد من المصاحف ، وأرسل لكل اقليم من اقاليم الدولة مصحفا .
ومضى الكاتبون في كل اقليم ينسخون لأنفسهم ولغيرهم مصاحف آخر ي من هذا المصحف الجامع الذي سمي يومئذ ولايزال يسمى إلى يومنا هذا - مصحف عثمان .
على أن المشكلة لم تحل تماما بظهور مصحف عثمان إلى الوجود .. فقد بقي منها طرف كان أشد اطرافها حساسية وأكثرها احراجا..
فقبل ان يتم بزوغ هذا المصحف الجامع ، كانت هناك مصاحف أخرى لنفر من الصحابة ، وكان من بينها اختلاف فى بعض الآيات نطقا ورسما ، وكان الرسول عليه السلام قد اقر أكثر هذه القراءات حين قال: " انزل القرآن على سبعة احرف" .
الأمر الذي نتج عنه فيما بعد ظهور القراءات السبع لمعروفة ، وكان عثمان في أرادته حسم الخلاف والاختلاف ، وفي إيمانه المطلق بضرورة هذا الحسم ، لا يجد أمامه سوى اتجاه واحد ، هو جمع المسلمين جميعا على مصحف واحد ، هو هذا الذي انجزه واقره.
فماذا عساه يصنع بالمصاحف الأخرى ، وبالالواح التي كانت لا تزال موجودة عند بعض الصحابة حاملة عددا من الآيات؟
لقد جمعها جميعا وانهى مهمتها ، مفسحا مكانها للمصحف الواحد الجامع ، يلتقي المسلمون حول آياته المباركات عبر القرون تلو القرون .
***

هكذا أعطى عثمان عزمه الرشيد لمسئولياته الجسام.
وملا بصدقه وباقتداره وباقدامه فراغا كان يمكن ان يتحول إلى هوة فاغرة تشد إلى قيعانها الغائرة البعيدة كثيرا من مقدرات الدين ومصائرالمسلمبن.
ولكن ، هل كانت ريح الخلافة تجري رخاء خلال تلك السنوات التى ملا الخليفة فيها دنيا الإسلام فتحا وخيرا ..
لعلها كانت كذلك لوقت قصير ، قد لا يجاوز العامين أو الثلاثة . أما ما يقى بعد ذلك من سنوات الخلا فة الطوال ، فقد تحولت الريح الباردة الهادئة إلى عاصفة ، أخذت تتجمع شيئا فشيئا وينادي بعضها بعضا حتى تحولت إلى إعصار كتب على الخليفة الشيخ ان يواجهه وحده في محنة هبطت بها شرأسة المتآمرين إلى السفح .. وارتفع بها تسامح الخليفة إلى القمة .. !!
وقد ان لنا الآن ان نصحب التاريخ إلى تلك السنوات التي شهدت نشاة وتطور ونهاية الأحداث التي لا تزال ذكراها تفجع الآن فس وتروع الافئدة ، برغم احتجابها وراء اربعة عشر قرنا من الزمان!

الفصل الرابع السنوات الصعبة

ان التغيير الهائل الذي احدثه الإسلام في خريطة العالم المحيط به ، وفي عقانده ونظمه ونفسيته لم يكن ليمر دون أن يعكس اثاره بصورة أو بأخرى على الإسلام نفسه ، ممثلا في دولته وفي مجتمعه. وممثلا بصفة خاصة في القادة والرواد الذين حملوا أكثر من سواهم اعباء هذا التغييرالعظيم.
ولقد كان اغتيال الخليفة الرأشد العظيم أميرالمؤمنين عمربن الخطاب اولى ظواهر هذا الآن عكاس الخطير .
كان نذيرا واضحا بأن ردود الفعل لتلك الفتوحات الإسلامية الطامية ،قد بدات تنفذ قانونها وتفرض سلطانها .
لقد مزقت الفتوحات العريضة يومئذ ملك فارس والروم . ويقيت نقمة الفلول المتبقية من السلطات المنهارة نارا تشحذ ضرامها تحت الرماد .
وجاء الفتح بمشاكل الثراء الطارئ والدنيا الحافلة بالاغراء ، والاختلاط الهائل بين اجناس وامم وتقاليد.
كان لابد لهذا كله من أن يعكس على الفاتحين ظلاله.
ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يستشف من وراء الحجب تلك الآن عكاسات المنذرة.
يقول أسامة بن زيد رضي الله عنهما : " أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على اطم - أي مرتفع - من اطام المدينة وقال : هل ترون ما ارى..؟
قال أصحابه الذين كانوا معه: لا.
قال: فاني لارى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر"..
ويقول عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا مشت امتي المطيطاء أي الخيلاء وخدمتها ابناء الملوك، فارس والروم، سلط شرارها على خيارها"..
وهو بهذا، يشير إلى ردود الفعل المحتومة لفتحهم الواسع العظيم، ويهيى نفوسهم لتأخذ حذرها، ولتكون مستعدة لمواجهة الأحداث المقبلة بما سلحها الإسلام من فضائل وثبات.

***

والحق ان الفتن التي تعرض لها الإسلام والمسلمون في عهد لخليفة عثمان، والتي فرضتها حركة التاريخ عليه فرضا ، دون أن تكون له يد في ارجائها، ما كان في وسع أحد ان يدفعها.
صحيح انه ربما كان من الممكن تخفيف ضراوتها ، أو تاجيل هبوبها . أما دحضها بصورة شاملة فما نحسب ذلك كان في مستطاع أحد .

لقد كانت تلك الأحداث على جسامتها جزءا من حركة الزمن الإنساني والتطور التاريخي. وكانت مظهرا لسنة تاريخية فرضت نفسها على كل الحركات الكبرى عبر تاريخ الإنسان.
ولقد أرادت مقادير عثمان له ، ان يصطلي بمسئوليتها مرتين:
!!لأولى : عندما اختارته المقادير ليكون الخليفة الذي يشهد عهده وأيامه مقدم الفتن وانجاز المؤامرات.
والثانية : عندما حمل اوزار تلك الأحداث التاريخية واعتبر مسئولا عنها !!
ومن الظلم للخليفة ، وللحقيقة أيضا ، ان نرى في الخلاف الذي قام بينه وبين نفر من أصحابه ومن المسلمين الوافدين من بعض الاقطار جوهرالفتنة، وشكلها الوحيد.
فما كان هذا الخلاف، وما كانت الأخطاء التي أخذت على الخليفة يوم ذاك سبب الفتنة الضارية ،بل كانا - الخلاف والأخطاء - واحدة من نتائج كثيرة لمؤامرات بعيدة الغور ، احكمت تدبيرها قوى اجنبية ، مستعينة بعناصر عميلة دخلت الإسلام خلسة ، لتكيد له وتخرب فيه.
ولو أن الأخطاء التي عزيت إلى الخليفة عثمان كانت سبب الفتن الهوج التي يعرض لها الإسلام ، فما الأخطاء اذن- التي كانت سببا في اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .. ؟؟
لقد كان مقتل عمر كما قلنا الرصاصة !!لأولى التي اطلقتها في المعركة الخفية، قوى الشرالمتحالفة ضد الإسلام.
وما عرف الناس لأمير لمؤمنين عمر خطأ واحدا ، فضلا عن أخطاء تبرر اغتياله الاثيم!
ولسنا قادرين - مهما نتسامح - على أن نعتبر جريمة اغتياله جريمة فردية .
وحتى لو كانت كذلك ، فإن امتدادها لم يكن عملا فرديا ، بل صار عملا جماعيا ، شاركت فيه جميع القوى التي خضد الإسلام شوكتها .
فاليهود الذين اجلوا عن المدينة، وشتتهم غدرهم في البلاد.
والامبراطورية الرومانية التي فرط الإسلام عقدها ، وكنس نفوذها بعيدا عن البلاد التي كانت تحتلها وتستعمرها ، ودفعها داخل حدودها الضيقة .
والامبراطورية الفارسية التي صنع بها مثلما صنع بالروم، والتي خسرت كل مصالحها وكنوزها واساطين قادتها العسكريين.
كل هؤلاء لم تجف دماء احقادهم على الإسلام وعلى دولته الناهضة في شموخ عظيم. ولم يهدا نعيب الثأر في أنفسهم الأ ريثما تواتيه الفرصة، في يوم، راحوا يعدون له، ويتحينون.
ولقدجاءتهم الفرصة فى مقتل عمر أميرالمؤمنين.
من أجل ذلك رأينا التمرد المسلح يجتاح كثيرا من البلاد التي كانت الامبراطوريتان قد خسرتاها في حروبها السابقة مع الإسلام.

ولم يكن تمردا داخليا من أهل تلك البلاد الذين كانوا - كما اسلفنا من قبل - قد فرحوا بمقدم الإسلام إليهم فرحا عظيما ، حتى الذين لم يعتنقوه منهم .. إنما كان تحريضا من الروم والفرس لبعض العناصر التي افقدها الإسلام نفوذها وسلطانها ، كما كان في حالات أخرى هجوما مباشرا من جيوش الروم والفرس على تلك البلاد.
وكما تحرك هؤلاء من الخارج، فقد تحرك اليهود من الداخل .. ولم يكن عبثا ولا مصادفة ان يفد من اليمن إلى المدينة في عهد عثمان يهودي يقول : انه درس الإسلام واحبه ويريد أن يعلن اسلامه وياخذ مكانه في صفوف المؤمنين، ثم يلعب هذا اليهودي تحت قناع اسلامه ، اخطر وافدح دور في تمزيق وحدة المسلمين وتجهيز الفتنة المسلحة التي اودت بحياة الخليفة الشهيد - ذلكم الرجل هو : عبد الله بن سبأ ، الذي سنشهد طرفا من نشاطه المخرب عما قريب .
لم تكن - إذن - المأخذ التي جوبه بها الخليفة ، والتي سنناقشها فيما بعد ، سبب الفتنة ولا قوامها - إنما هي المؤامرة العابثة ضد الإسلام كانت تنسج خيوطها من بعيد ، حتى إذا واتتها الفرصة وساعدها الزمن ، قفزت فوق مسرح الأحداث لتلعب دورها جهرة وعلانية . ولكي تكتمل جوانب الصورة الصحيحة للقضية، علينا ان نعود بالحديث إلى عهد قديم.
هناك صورة غامضة وغير واعية تغشى ادراك كثيرين منا حينما نفكر ، أو حينما نتصور الجزيرة العربية فى ماضيها السحيق ، فنحسبها مجرد متاهة عريضة فى الصحراء ، يسكنها ناس معزلون عن عالمهم لا يهتمون باحد ،ولا يهتم بهم أحد .
ونتصورها - عندما جاءها الإسلام - مجرد قبائل متنائية ، وقرى متباعدة ، جاثية فوق الرمال، تتوسطها أم القرى مكة التي نغدو قوافل تجارتها وتروح، بينها وبين الشام، ثم هي بعد هذا لا تهتم باحد ، ولا يهتم بها أحد .. !!
وهذه الصورة فضلا عن مجانبتها للصواب ، فإنها تعزل ادراكنا وفهمنا عن المقدمات الهامة التي لانستطيع بدونها تفسير الأحداث الهائلة التي شهدتها جزيرة العرب قبل الإسلام ومع لاسلام.
ولكي ندرك الصورة الصحيحة ، لن نحتا ج إلى الايغال في الزمن البعيد ، حيث قامت في جنوب الجزيرة العربية حضارات المعينيين والحضرموتيين، والسبئيين، الذين جعلوا بلادهم جنانا عن يمين وشمال . . وحيث قامت في شمال الجزيرة مدينة البتراء تسيطر على طريق القوافل بين الشمال والجنوب ، وتتشامخ حصونها المنيعة ، حتى تدحر على ابوابها عام ٣١٢ قبل الميلاد جيش انتيجونوس أحد خلفا ء الاسكندر الأ كبر ، وتزدهر فيها حضارة عربية رائعة وباهرة.
وحيث قامت تدمر التي انشاتها في بلاد الشام بضع قبائل عربية، خرجت من: جزيرة العرب فنهضت بحضارة سامقة ، وشادت قوة عسكرية جبارة مكنتها

من أن تنزل بالفرس هزيمة منكرة، وتستولي منهم على سورية، وبلاد ما بين النهرين عام مائتين وستين بعد الميلاد . مما جعل امبراطور الروم آنئذ يتخذ من اذينة حاكم تدمر نائبا له فى سوريا ومصر وارمينية.. !!

وحيث خرج من اليمن في جنوب الجزيرة العربية نفرمن القحطانيين، فاسسوا مملكة اللخميين فى العراق. كما خرج منهم نفر آخر ون اسسوا مملكة الغساسنة في سوريا .

اقول : لن نحتاج إلى الايغال وراء ذلك التاريخ الذي يكشف عما كان لشبه الجزيرة العربية من حياة واهمية وخطر ، وما كان لها وللقبائل النازحة منها صوب العراق وسوريا من علاقات متكافئة في احايين كثيرة مع الامبراطوريتين الكبيرتين فارس، والروم.

وسيكون حسبنا القاء نظرة سريعة على شبه الجزيرة العربية وعلى مكانتها وعلاقاتها منذ بزوغ الإسلام،او قبل ذلك بقليل.

فقبيل الإسلام كانت الجزيرة العربية موضع اهتمام القريبين اليها والبعيدين منها ، على الرغم من عدم وجود أي سلطان سياسي لها يوم ذاك.

وعلى الرغم من أن مطامع الغزاة كانت تولي وجهها دائما شطر الجنوب حيث بلاد اليمن باستراتيجيتها وخيراتها ، فإن الشمال كان لا يغيب عن اهتمامهم كذلك ، فهناك مكة بثرواتها وازدهارها .وفى مكة الكعبة التى تهوي اليها أفئدة العرب من كل مكان، وتهيىء لمكة نفوذا روحيا لا يقاوم.. من أجل ذلك نرى أبرهة نائب امبراطور الحبشة يومئذ يقود جيشا لجبا لغزو مكة وهدم الكعبة ، وذلك بعد أن عجزت كنيسته التي بناها في صنعاء عن اجتذاب العرب اليها كما كان أبرهة يظن ويتوهم.

وكانت مكة طريقا للقوافل، وبتجارتها الواسعة مع الشام، يعيش أهلها في اهتمام متبادل مع العالم الخارجي.

ونمت هذه الاهتمامات المتبادلة مع ظهور الإسلام ، فنرى النبي عليه السلام يختار الحبشة دار هجرة لأصحابه الذين اضطهدتهم قريش.

كما نراه - عليه الصلاة والسلام - يكتب كتبه ، ويرسل مبعوثيه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

فبعث إلى قيصر الروم، وامبراطور الفرس، ونجاشي الحبشة، وعزيز مصر ، وإلى رؤساء عمان، والبحرين ، واليما مة ، والشام.

وحين اوقع الفرس بالرومان هزيمة منكرة، واستولوا على مستعمراتهم في اسيا ، كما دخلوا مصر ، وقرعوا ابواب القسطنطينية ، تغشى المسلمين في المدينة هم عظيم ، فقد كانوا حسبما علمهم دينهم يتعاطفون مع أهل الكتاب ، وكان الرومان نصارى ، فاحزن المسلمين ان ينتصر عليهم عباد النار من الفرس، ونزل الوحي يطمئنهم ويحمل لهم عزاء و بشرى في سورة سميت اسم سورة الروم .

"الم، غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصرالله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون " .
الى هذا المدى كان اهتمام المسلمين بالعالم الخارجي وتلاحمهم مع مشاكله وتطوراته.
ولقد صدقت آيات له وتحقق وعده ، فلم تمض سوى سنوات قليلة حتى انزلت جيوش الروم بجيوش الفرس هزيمة منكرة ، واستردت الامبراطورية الرومانية من فارس ما كانت قد استولت عليه فى حربها السابقة .
بيد أنهم قيصر الروم لم يلبث وقد اسكره انتصاره على الفرس ان تنمر للمسلمين ، وخشي على ملكه من قوتهم المتعاظمة، فجمع صفوف جيشه في الشام، وقرر الهجوم على الجزيرة العربية.
وهنا نلحظ المزيد من اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين بالعالم الخارجي ، ونشهد سلامة تقديره عليه السلام لكل موقف يزجيه ذلك الاهتمام.
وهكذا رأيناه يرفض التسامح تجاه هذا التهديد الموجه لامته وبلاده ، فيخرج في أيام بالغة القيظ والعسرة ليلاقي الروم بكتائب الإسلام - هناك عند حدود الشام في غزوة تبوك التي لم ينشب فيها القتال، إذ اثر قيصر الرومالسلامة، ورجع من حيث جاء .
كما نراه عليه السلام يوصي في مرض موته قائلا : " انفذوا بعث أسامة" ..
وكان أسامة قد وضعه الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس جيش وكلت إليه مهمة زجر أولئك المتربصين بحدود البلاد .
لم تكن الجزيرة العربية إذن تعيش في تيه ولا في خواء .. لا قبل الإسلام ولا بعد بزوغه ، بل كانت دائما في بؤرة اهتمام العالم الخارجي ، كما كان العالم الخارجي في مركز اهتمامها.
حتى إذا جاء عهد عمر وزحفت جيوش الإسلام حاملة رايات الحق والبذل والهدى والخير ، وتهاوت تحت سنابك خيلها امبراطوريتا الروم وا لفرس، كانت الجزبرة العربية التي أصبحت الوطن الام للإسلام قد فرضت اسمها والاهتمام بها على كل فم، وعلى كل سمع، وعلى كل فؤاد.. !!
صار المسلمون يومئذ - الزاحفون من مدينة الرسول إلى عالم الشرك والضلال في كل مكان - حديث العالم الخارجي باسره ، وموضوع اهتمامه الوحيد .
وعلى الرغم من أن القوة العسكرية والسياسية للروم كانت قد تحطمت أمام جيوش الإسلام ، فإن سعير الثأر لم يخمد ولم ينم في صدور الذين ظلوا احياء ، ممن كان لهم في ديارهم وبلادهم نفوذ وسلطان .

ففي فارس كما في الروم كان الكهنة ، والقناصلة ، واشراف البلاط ، والاقطاعيون مالكو الأرض، ومحتكرو التجارة والثروات .. كان هؤلاء جميعا يحملون للعرب والمسلمين حقدا يضاهى ما فقدوه من كنوز ، ونفوذ ، وسلطان..
وكان هناك في الجانب الآخر، يهود بني فينقاع وبني النضير الذين نفوا إلى الشام، فاتخذوا منها حتى بعد الفتح الإسلامي مركزا لصنع الفتنة وتصديرها إلى كل مكان تناله أيديهم ومكائدهم.
كانت مؤامرات هؤلاء وأولئك ضد الإسلام تتجمع كالسيل الطامي.
وكان عمر بكل يقظته ، والدولة المسلمة بكل عنفوانه ، يقفان سدا منيعا ، ورادعا .
فلما مالت شمس عمر للمغيب ، وجدت المؤامرات الضارية المسعورة لنفسه منفذا عريضا ، فكانت الحروب الملحة التي واجهت المسلمين في بقاع كثيرة أول خلافة عثمان ،والتي تحدثنا عنها من قريب.
حتى إذا أحسنت جيوش الإسلام تاديب المتآمرين وحطمت جيوشهم على غزارتها ، وخيبت إلى الأبد امالهم في تسور حدود الدولة المسلمة الشامخة ، القوا سلاحهم صاغرين مدحورين. بيد أنهم لم يلقوا ما في صدورهم من ضغن مسموم ، بل إزدادت اضغانهم سعارا ولهبا . وقرروا أمام اخفاق حملاتهم العسكرية ، ان يلجئوا إلى أسلوب آخر ، وهو الائتمار بالدولة من الداخل ، والتسلل بالفتنة إلى الصفوف !!لأولى بين قادة المسلمين من كبار أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم بين صفوف الجماهير في اقاليم الدولة البعيدة والقريبة .
ولقد كان ذلك العبء المبهظ الثقيل مدخرا للرجل الذي سيتلو عمر فى الخلافة.
وكان هذا الرجل عثمان رضي الله عنه وأرضاه . دفعته مقاديره ليحمل فوق كاهله مسئولية هذه السنوات الصعبة في تاريخ الإسلام كله.
وإنا لنعترف بأن في وصف تلك السنوات بالصعوبة وحسب ، تبسيطا كبيرا لخطرها .. فالحق إنها كانت أكثر من صعبة ، بل أكثر من رهيبة .
تنطوي البلاد المفتوحة دائما على مشاكل نؤرق الفاتحين .
وعلى الرغم من أن الإسلام كان ينشر رحمته وعدله على تلك البلاد فور فتحها . وعلى الرغم من أن فتحه لها كان تحريرا لشعوبها من طغيان مستعمرين عتاة ، فرسا كانوا
او رومانا .. فإن ذلك لم يقض على مشاكل الفتح كلها ، وإن كان قد قضى على الكثير منها.
يبد ان البقية الباقية من المشكلات أخذت تنمو وتتضخم مع مرور الأيام وتقادم العهد .

فمثلا ، بعد أن كانت شعوب البلاد المفتوحة تشرف وتسعد بأن يكون ولاتها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يختارهم أمير المؤمنين في المدينة ، ويوفدهم لحمل مسئولية الولاية ، أخذ بعض هذه الأقاليم يتساءل أهله أو بعض أهله : لماذا لا يكون ولاتنا منا انفسنا .. ؟ ولماذا من قريش أو من المدينة.. ؟!
وكان لبعض هؤلاء مناورات كاد يضج منها عمر نفسه برغم حزمه وصرامته .. وحسبنا واحدة منها تبعث الاسى بقدر ما تفجر الضحك .. يوم سال أهل الكوفة أمير المؤمنين عمر ان يعزل عنهم واليهم الذي كان من خيار الصحابة واجلائهم، مبررين طلبهم هذا بقولهم : "انه لا يحسن يصلي" !!!
وبعد أن كان أهل تلك الأقاليم في بهر عظيم بما افاءه الإسلام عليهم من عدالة وفضل، حتى راوا دولته المنتصرة تترك لكل زارع أرضه، ولكل تاجرمتجره، بل لقد حرمت على رجالها ان ياخذوا من ذمي شبرا من أرضه ، ولو كان ذلك شراء . وبعد أن بهرتهم الحماية والامن اللذان افاءهما عليهم الإسلام، نظير خراج عن املاكهم التي لم يمسسها سوء، عادوا اوعاد بعضهم يتساءل : ولماذا الخراج.. ؟!
وبعد أن كانت روح الإسلام تدثرهم جميعا ، كامة واحدة ، حتى الذين لم يسلموا واثروا البقاء على دينهم، وعاشوا في الدولة مواطنين تربطهم بها عهود وذمم.. حتى هؤلاء صهرتهم روح الإسلام، فلم يشكلوا بين وحدتها الجامعة الصاهرة سوءا ولا نشازا . تقول بعد أن كان ذلك كذلك ، عادت العصبية تذر قرنها ، والقبلية ترفع رأسها ، والشعوبية تقول : ها انذا !!
وبعد أن كانت سياسة أبي بكر وعمر تقوم على استبقاء زعماء الصحابة وكبارهم بالمدينة ، لا يغادرونها أبدا ، تغير المنهج في عهد عثمان .. فانتشر بعضهم في الأرض. وهكذا توزع مركزالثقل الذي كان موحدا بالمدينة، وفتن كل اقليم بزعيم.
وبعد أن كانت نعم الحياة وطيباتها خاضعة لارادة الترفع والزهد ، راحت أسباب كثيرة تعمل عملها في تطويع الآن فس لسلطان الدنيا واغراء الترف .. وعلى الرغم من أن صفوة كبيرة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ظلوا مستمسكين بعزوفهم وزهدهم ، فإن المجتمع الإسلامي وقد غمره الرخاء وغطاه الثراء، راح يتخطى كوابح الضمير المتصوف، اخذا من طيبات الحياة فوق حاجته ، وناهلا من مناعمها بغير حساب.. !!
هذه العوامل التي ذكرناها - تشكل ، أو قولوا : تصور المناخ الذي ستعيش فيه السنوات الصعبة بكل مشكلاتها وازماتها .
وهذه العوامل كلها كانت - برغم خطورة عواقبها - صورة لطبائع الأشياء ، فليس من شيم الحياة البشرية مهما سمت نوازعها وسيطر تقاها ان تظل على وتيرة واحدة ، ولا ان تتجمد في انماط واحدة.
ونستطيع ان نلخص كل هاتيك العوامل في وصف واحد، هو التوتر .

ولقد كانت هناك ظروف تاريخية ، واجتماعية ، ونفسية ، تجعل هذا التوتر محتوما .
كما انه كان من الممكن ان يتحول هذا التوتر إلى طاقة صاعدة ، ومخاض سديد ، تتحول خلالهما الأزمات المزعجة إلى حلول سعيدة ، وتلتقي مشيئة العصر بمشيئة التطور فى غير فتنة ومن غير سوء.
اجل ..كان ذلك ممكنا لو لم تتقدم القوى الشريرة بكل ما يملا افئدتها من حقد ، وبكل ما يفعم عزمها من تربص واصرار..
هذه القوى المتمثلة - كما ذكرنا من قبل - في الطوائف التي حطم الإسلام نفوذها الطاغي ، وسلبها امتيازاتها الظالمة .. ولم يكن يخلو من هؤلاء بلد ولا مكان. والمتمثلة كذلك في القبائل اليهودية التي لم تكف لحظة عن الكيد للإسلام منذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة .
لقد شحذت كل هذه القوى انيابها فى عهد عثمان وركزت جميعها على تغذية الشكوك ، وتوهين الولاء للدولة ، وتصعيد الأزمات، وتحويل التوتر من طاقة تتلمس الطريق نحو الأفضل والأمثل ، إلى قوة هدامة وفوضى مخربة ..!
في ذلك الحين، وفي ظروف مريبة، وفد على المدينة من اليمن يهودي اسمه - عبد الله بن سبأ - وكنيته- ابن السوداء - حيث انتحل الإسلام .. ثم انتحل الغيرة الشديدة على قيمه وحرماته . وفي المدينة ألقى سمعه المرهف لكل كلمة وكل نبأ .
سمع نقدا بريئا يوجهه الصحابة لبعض الأخطاء فراح يتتبعه ، ليجمع من شتاته صحيفة اتهام ! ومضى يدرس في صمت ودهاء كل جوانب الحياة في المدينة ، ويفحص مواطن الضعف والقوة ، وبتسمع أخبا ر الأقاليم والأمصار ، ويتبين اقدار الصحابة وحظ كل منهم من النفوذ والمكانة .
حتى إذا جمع مادته، وعرف طريقه، واتم رسم خطته، شرع على الفور في العمل والآنجاز.
وادرك - ابن سبأ - انه لكي ينشر الاضطراب في الدولة والأمة ، عليه أن يوجه مبادرته !!لأولى إلى الخليفة ذاته ، وإلى شرعية منصبه كخليفة للمسلمين ، ولكي يتيسر له ذلك ، لا بد من أن يرفع في وجه الخليفة شخصية من الصحابة تضاهي الخليفة في جلاله و أسبقيته .
هنالك بدأ نفثاته المسمومة بهذه العبارة : "ان لكل نبي وصيا ، وإن عليا وصي الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقد وثب عثمان على أمر هذه الأمة ، وأخذ الحق من صاحبه " .. !
ورا ح يزكي دعوته هذه، بطائفة من الأحاديث التي كان الرسول عليه الصلا ة والسلام قد اطرى بها عليا وزكاه.مثل قوله عليه السلام: " من كنت مولاه ، فعلي مولاه " .
ومثل دعائه عليه السلام بشأن علي : " اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه".

وعلى الرغم من أن الإمام عليا كرم الله وجهه لم يكد يسمع دعوة ابن سبأ ، حتى عنفه وسفهه ، وحذر المسلمين من خبث طويته ، وسوء تدبيره .
نقول على الرغم من ذلك - فإن - ابن سبأ - ظل سادرا في خطته . وانطلق كالريح السموم يشعل نيران الفتنة في أقطار الإسلام، فرحل إلى البصرة.. ثم إلى الكوفة.. ثم إلى الشام.. ثم إلى مصر التي استقر بها طويلا.
وخلال رحلاته تلك ، اصطفى من المفتونين به انصارا وحواريين ، اطلقهم هم الآخرين ليطوحوا بفتنته في الآفاق، ورسم لهم منهجهم في هذه الكلمات : " تظاهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس إليكم.. وابدءوا بالطعن في أمرائكم .. وقولوا للناس إن عثمان قد أخذ الخلافة بغير حق .. وإن عليا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا وردوا الحق إلى صاحبه" .. ا
ومن عجب أن الفتنة الضارية التي تمادت حتى مقتل عثمان رضي الله عنه، سارت وفق هذه الوصايا الثلاث.
فأولا: لبس المحرضون عليها والمسهمون فيها مسوح الرهبان ، ورفعوا في إيمانهم شعار الأمر بالمعروف وتغيير المنكر .. !!
وثانيا: راحوا يطعنون في الأمراء والولاة ، ويجسمون أخطائهم ويدحضون وجودهم.. !!
وثالثا: رفعت الفتنة رأسها ، لتواجه الخليفة مباشرة ، وتطال به بضرورة التنحي ٠٠والاعتزال..!
ولقد كانت هناك عوامل كثيرة أحسن ابن سبأ ودعاته استغلالها ، ومكنت لدعوته بين أعداد كبيرة من الناس في الكوفة، والبصرة، ومصر.وكان من بين تلك العوامل بل على رأسها ، سلوك بعض المسئولين والولاة من الأمويين.
وفي تقديرنا أن دور هؤلاء في مضاعفات الفتنة ، لا يتمثل في أخطائهم التي كان يمكن اصلاحها وتلافيها ، بقدرما يتمثل في تجأهلهم صيحات النذير، وفي استجابتهم لنداء الغرور المستعلي ، والكبرياء المتحدية ، ثم في مقامرتهم بمصير الخليفة ذاته في سبيل اهواء كان في استطاعتهم كبحها ،دون أن يعود عليهم هذا الكبح بخسران أي خسرا ن .
فموقف معاوية عامل الخليفة على الشام يومئذ من وفد المعارضة لم يكن في مستوى مسئولياته، ولا في مستوى ما عرف عنه من قدرة على الحلم والدهاء .
لقد نهرهم بكلمات شدت فيهم زناد الموجدة والغيظ ، حين قال لهم : "بلغني أنكم تنقمون قريشا ، وإن قريشا لولاها لعدتم كما كنتم أذلة. إن الله بنى هذا الملك على قريش، وجعل هذه الخلافة فيها ، ولايصلح ذلك الأ لها ". .
ثم تمادى- عفا اله عنه- في عصبيته هذه فقال : " وقد عرفت قريش أن ابا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها، الأ ما جعل الله لنبيه" ..!!

و سعيد بن العاص ،عامل الخليفة على الكوفة ، يجلس وسط الناس وقد أسكرته السلطة، ويلوح بيمناه صوب أرض العراق التي تهتز خضرة، و زرعا ، وغرأسا ، ثم يقول : - " إنما هذا السواد بستان لقريش" .. !!
قريش.قريش؟!! ٠, " ""
ماذا جرى،حتى أخذت كلمة قريش مكان كلمة الإسلام .. ؟!
إن استخدام هذه النغمة كان سابقة خطيرة .. فمزية الإسلام العظمى أنه هدم - وفي سنوات معدودة - قواعد عصبية ، كانت من أشد عصبيات التاريخ ضراوة وعتوا .
الان تعود العصبية فتطلق أهازيجها .. ؟ وعلى لسان حاكمين من حكام الدولة ومسئوليها .. ؟! على أن الآن صاف يقتضينا أن نذكر دور المتمردين يومئذ في بعث تلك النغمة الكريهة .
فلقد كانت أساليبهم في المعارضة تثير غيظ الحليم ، لكانما كانوا يضعون نصب اعينهم إثارة الدولة بكل رجالها ، استفزازها بمختلف الوسائل والمثيرات ، حتى يتصرف المسئولون فيها بأعصاب متوترة مشدودة!
ومثل واحد يغنينا بفظاظته وغلظته عن عشرات الأمثال يقدمه لنا - جبلة بن عمرو - أحد زعماء المتمردين يومئذ ، حين تصدى للخليفة نفسه أمام جمع كبير من المسلمين ليقول له : " - والله لاقتلنك يا نعثل.. ولاحملنك على قلوص جرباء " .. !!
نعثل..؟؟
أهذا وصف ينعت به، وفي وجهه، وأمام جموع المسلمين، ثالث خلفاء الإسلام، ومن لقبه الرسول صلى الله عليه وسلم ذي النورين وقال عنه: " ورفيقي في الجنة عثمان". .؟
وهل على قلوص جرباء ، يريد جبلة بن عمرو وعصابته ، ان يحملوا الخليفة الطاهر الذي جهز جيش العسرة بألف بعير وفرس،لم يكن فيها جرباء ولا عرجاء.. ؟!
إننا الآن ، وبعد ألف وأربعمائة عام، ولا تصلنا بتلك الوقائع سوى الكلمات المسطورة في كتب التاريخ ، ليأخذنا غيظ مرير من أمثال تلك المجابهة المتهورة .. فكيف إذن كانت مشاعر الذين يشهدون بأعينهم، ويسمعون بآذانهم، ويبصرون الخليفة في جلال مشيبه يتعرض لمثل تلك المحن والجهالات والشرور ؟ وكيف كانت مشاعر الخليفة ذاته؟
على أنه إذا كان في الواقعة التي ذكرناها ما يثير الغيظ والأسي، فلنعلم أنها كانت اخف ما تعرض له الخليفة يومئذ ، إذا هي قيست بوقائع أخرى كثيرة تحدى بها المغامرون سلطان الخلافة وكرامتها .
اجل، سلطان الخلافة وكرامتها.. فالخلافة لا الخليفة، والدولة لا رئيسها - كانت هي الهدف الذي عمل له المتآمرون طويلا ..

هذه السنوات الصعبة لم يكن عثمان رضي الله عنه هو الذي خلع عليها هذا الوصف.بل هي التي فرضت عليه وعلى الدولة كلها صعوبتها ،ومشاقها ،وأخطارها ، وذلك بما كان يدخر لها من فتن طال من قبل أمد تبيينها.
بيد أنهم ذلك كله لن يعفينا من هذا السؤال المحتوم.
- أين كان الخليفة عثمان من تلك الأخطاء التي أجاد المتآمرون استغلالها ؟؟
فى استطاعتنا أن نرد تلك المأخذ كلها إلى أربعة أصول :
أولها :عن الولاة.. فلقد اخذوا على الخليفة انه عزل نفرا من الصحابة ووضع مكانهم نفرا من أقربائه الذين لم تكن لهم أو لبعضهم على الأقل سابقة ترفعهم إلى مستوى الولاية على المسلمين.
ثانيها : عن الأموال العامة .. فقد قيل : إن الأمويين استغلوا صلتهم وقرابتهم ، فاستحوذوا على ما ليس لهم بحق.
ثالثها : عن موقفه من بعض فضلاء الصحابة .. وعن بعض الاجراءات العنيفة التي اتخذت ضد بعضهم.
رابعها : عن موقفه من بعض مسائل الدين إذ كان له في بعضها اجتهاد خاص.
فأما عن الولاة ، فمن حق الخليفة أن يختار الرجال الذين يعاونونه على حمل مسئوليات الحكم، مادام هذا الاختيار لا ينجم عن هوى يناقض أو يناهض القيم الرئيسة للدولة وللمجتمع، وهي هنا - كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .
على أن عثمان رضى الله عنه ، وإن يكن التغييرمن حقه ، لم يستعمل هذا الحق مبادئا ، إنما دفعته إليه ظروف الأقاليم التي غير ولاتها ، والحاح أهل تلك الأقاليم بضرورة التغيير.
وأول اقليم ناله التغيير ، كان اقليم الكوفة، وكان واليه المغيرة ين شعبة ،ولقد رغب أهل الكوفة فى تغييره. . فعزله عثمان وولى مكانه سعد بن أبي وقاص .
وظل ابن أبي وقاص حاكم اللكوفة حتى نشب خلاف كبير بينه وبين ابن مسعود
الذي كان خازنا لبيت المال فيها ، فعزل الخليفة سعدا ووضع مكانه الوليد بن عقبة .
وبقي الوليد بن عقبة واليا عليها .. وأبلى بلاء مبينا في غزو آذربيجان وأرمينية، ولكن حين نمى إلى الخليفة أنه يشرب الخمر .. استدعاه إلى المدينة على الفور ، فاقام عليه الحد وعزله، وولى مكانه سعيد بن العاص .
وأما البصرة ، فقد أرسل أهلها وفدا إلى المدينة يطلبون منه عزل واليهم أبي موسى الأشعري ، فاستجاب لهم.. وولى مكانه عبد الله بن عامر .
وأما مصر ، فقد تكرر إلحاح الوفود القادمة منها إلى المدينة طالبة تنحية عمرو بن العاص و تولية آخر مكانه .. فعزله الخليفة عن الحرب والخراج ، وابقاه على الصلاة، وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخراج والحرب. بيد

أنهم الخلاف لم يلبث حتى نشب بينهما ، فاستدعى الخليفة عمرو بن العاص إلى المدينة، وتفرد ابن أبي سرح بولاية مصر كلها .
هكذا كان موقف الخليفة من الولاة المعزولين .. استجابة سريعة لرغبات المواطنين
في تلك الأقاليم.
فإذا بقي من مأخذ يناقش فيها حول هذا الموضوع.؟ قيل : انه تخطى الصالحين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يولهم تلك المناصب الشاغرة، وادخرها لأقاربه. فعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ولاه مصر ، هو اخوه من الرضاعة .. وعبد الله بن عامر الذي ولاه البصرة ابن خاله.
ومعاوية الذي استبقاه على الشام، ابن عمه . ومروان بن الحكم ، الذي اعطا ه رئاسة الديوان، ابن عمه ..
فاما تخطية الصالحين الورعين الي غيرهم ، فقد أجاب الخليفة نفسه عن ذلك ، بأن أمير المؤمنين عمر كان.بفعل ذلك أحيانا ، لا إهمالا؛ لشأن الصلاح والورع ، ولكن نشدانا للصلاحية والكفاية. وضرب الأمثال بعض الذين اختارهم عمر للامارة، على حين كان معه فى المدينة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم من يفوقهم ورعا وتقوى..
وأما إيثاره أهله الأقربين ، فتلك مسألة لانتردد فى القول بأنه كان من الخير للخليفة أن ينتهج فيها منهجا آخر ، مهما تكن كفاية الأقربين وصلاحيتهم.
إن الخليفة - رضي الله عنه - ليذكر يوم ذهب العباس عم النبي عليه السلام يسأل النبى أن يوليه إمارة ، فقال له وهو يذوده عنها : "إنا والله يا عم ، لا نولي هذا الأمر أحدا يسأله ، اواحدا يحرص عليه " .
ثم أتبع قوله هذا بنصيحة غالية : " يا عباس، يا عم النبي محمد ، إياك والإمارة ، فإنها نعمت المرضعة . وبئست الفاطمة"..!
وفي تلك السنوات الصعبة بالذات ، حيث اشرأبت أعناق الفتنة ، وأخذت العصبية ترسل فحيحها ، كان من حق الناس على الخليفة أن يجنبهم كل تساؤل يدور حول الأمويين وحول ما يأخذونه لأنفسهم من امتيازا ت.. لكن هذه القضية لا تقترب من الآن صاف الأ بقدر ما نقترب نحن من الظروف التى كانت تشكل يومئذ وعاء للأحداث كلها .
والظروف كما قلنا من قبل ، كانت تشكل فتنة عارمة وجامحة تهدف في التحليل النهائي لأهدا فها إلى تقويض الدولة المسلمة التي قوضت في بضع سنوات أركان العالم القديم المحيط بها .
والآن وقد أعدت المؤامرة تماما ، فإنها تتلمس كل سبب لتوجيه ضربتها الأخيرة إلى معقل الدولة.. الخليفة ذاته. وليكن على رأس تلك الأسباب قضية الولاة.
ولقد كانت نزوة التشهير بالأمراء ديدنا قديما لبعض الأقاليم ، وكان أمير المؤمنين عمر وهو يدعم تجربة الحكم الإسلامي في سنواتها !!الأولى يؤثر

دائما أو غالبا أن يضع رغبات المحكومين موضع الاعتبار والتقدير - خصوصا فيما يتعلق بتغيير أمرائهم الذين يرغبون في تغييرهم ، ولقد رأينا كيف سار الخليفة عثمان على نهجه ، فغير أمراء البصرة ، والكوفة، ومصر ، نزولا على رغبا ت أهل تلك البلاد .
لكن المسألة سرعان ما تحولت إلى جزء من المخطط المرسوم لتخريب الدولة وتجريدها من سلطانها . ولم يعد الاستسلام لرغبات التشهير والتغيير سوى مظهر لعجز ، سيزيد المتآمرين إغراء وقوة . هنالك لم يكن بد من زجر تلك المحاولات المغرضة ، ولم يكن للدولة ين من أن تفيض على موقفها قدرا كبيرا من الحزم والحسم.
ولقد وقف الخليفة وقفته الرشيدة التي صورتها كلماته هذه للمتمردين.
"وأي شيء لي من الأمر، إذا كنت كلما كرهتم أميرا عزلته.. وكلما رضيتم عن أمير وليته"..؟؟!!
ان هذا الموقف ، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر ، يشكل في أيام الفتن والمؤامرات ، الضمان الأهم لحماية الدولة من التفسخ والضياع .
فإذا استطاع حفنات من المتمردين ، أن يصدروا أوامرهم للدولة ، ويسلبوها أخص حقوقها فما من سبيل آنئذ لاستبقاء كيانها وكرامتها سوى دحض المشيئة المتمردة والمتطفلة عليها .
***
وصحيح أن عثمان رضي الله عنه كان من أكثرالناس حبا لأهله، وصلة لرحمه.
ولابد ان هذا الحب المفرط للرحم ولذوي القربى ، كان واحدا من أسباب اختيار هؤلاء الأمراء .. بيد أنه لم يكن كل الأسباب.
فالفتنة التي نجحت يومئذ في زلزلة الثقة المتبادلة بين المسلمين وخليفتهم، وضعت الخليفة في مناخ نفسي حمله على التماس الثقة المفقودة ، عند أقرب الناس إليه واحناهم عليه.. فلنضع هذه من أسباب إيثاره أهله وذوي قرباه.
كذلك كان هناك التحدي الذي يستهدف شخصه ، ويتنكر فى دعوى المناداة بعزل الأمراء الأقربين.. كان هذا التحدي - بكل ما توسل به من تهجم على الخليفة وتمردعلى مقامه - سببا آخر من أسباب تشبثه باختياره.
ثم كانت هناك كفاية أولئك الأمراء .. فعلى أيديهم ، وبأمرتهم وقيادتهم ، سارت جيوش المسلمين لتقهر ذلك التمرد المنتشر كالنار في انحاء الدولة كلها ..
وباستبسال خيار الصحابة الذين اشتركوا في تلك المعارك عادت البلاد الهاربة إلى حظيرة الإسلام ، وتحطمت جيوش "بيزنطة وجيوش فارس ،وخفقت إلى الأبد رايات الإسلام في لك الديار..
من حق الخليفة إذن ان يعتز ببلائهم هذا ، ومن حقه الأ يجعلهم مضغة في أفواه المتمردين والمخربين من أعوان ابن سبأ حامل لواء الفتنة وناشر الظلام. .

***

**وهنا سؤال لابد من طرحه حتى نكون أمناء على الحقيقة التي نقتفي آثارها.
ذلكم هو : هل كان أولئك الأمراء الذين اختارهم الخليفة من ذوي قرباه ، هدفا لسخط المتآمرين المخربين وحدهم ؟ أم إنهم كانوا كذلك موضع سخط نفر من خيار الصحابة وفضلائهم.. ؟
وماذا كانت أسباب هذا السخط ودواعيه..؟ وماذا فعل الخليفة لتفاديه . ؟**

***

من المعروف أن عددا من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا - ومعهم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - يرون صا لح الأمة الدولة في تنحية الأمراء الأمويين، وتنحية مروان بن الحكم الذي كان يشرف على ديوان الخلافة.
وكانت وجهة نظرهم تتمثل في أن إيثار هؤلاء الأمراء الأمويين بالادارة يضفي على شكل الحكومة طابع الأثرة .. كما انهم - أي الأمراء - لم يكونوا في مستوى القدوة التي تفرضها وتتطلبها مناصبهم ، لا سيما في تلك الآونة التي لا يشد أزر الإسلام فيها شيء مثلما تشده التقوى والإخبات والورع ، وضرب الأمثال العالية من أولي الأمر في التفوق على مغريات الترف ، وزخرف الحياة.
أي اننا نستطيع القول انه كان هناك يومئذ مؤامرة .. ومعارضة ..
* مؤامرة : يتولاها ، ويعد لها الناقمون على الإسلام كله : الدين، والدولة، والأمة .. يهدفون بتامرهم المتفشي والمسعور ، إلى إنزال ضربات قاصمة بالدين ، وبالدولة ، وبالأمة.
*ومعارضة:يقوم بها نفر من خيار الصحابة رضوان الله عليهم يهدفون بها إلى تصحيح الخطأ ، وإقرار الصواب في حدود الكلمة الصادقة ، والنصح الأمين .
ولئن كانت نفس الخليفة قد امتلأت يقينا بسوء طوية المتآمرين السبئيين في تشهيرهم بولاته ، فلا نحسبه قد خالجه الشك لحظة في سلامة الباعث الذي حدا خيار الصحابة من أمثال علي، وعمار إلى اتخاذ موقفهم العدائي من أولئك الولاة.
بيد أنه كان يدير خواطره على القضية بطريقة أخرى ، فهو غير مقتنع بوجوب عزلهم لمجرد انهم من ذوي قرباه .. ولا لأنهم تفسحوا في مناعم الحياة .. وهو يريد أن يدانوا بأخطاء تستوجب عزلهم ، وانئذ يكون حقا عليه عزلهم بغير إبطاء .
من أجل ذلك نراه يبادر بإجراء سديد.
فلقد اختار نفرا من الصحابة الذين لا يختلف في نزاهتم ، ولا يختلف في أمانتهم وورعهم.. اثنا ن.
اختار محمد بن مسلمة الذي كان أمير المؤمنين عمر يأتمنه على محاسبة ولاته، والتفتيش على الأقاليم، وتقصي أحوال الناس في كل بلد.
واختار عبد الله بن عمر البقية الصالحة من آل الخطاب ، والإمام الورع الذي عرضت الإمارة عليه نفسها أكثرمن مرة، ورفضها في كل مرة..
واختار عمار بن ياسر المجاهد العظيم المبرور، بطل الأيام العصيبة في فجر الإسلام. .
واختار أسامة بن زيد الحب ابن الحب، الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتهيأ لقاء ربه وهو يقول : " انفذوا بعث أسامة " .

اختار هؤلاء على رأس جماعة عهد إليهم السفر إلى الأقاليم والتحقق من مسلك كل وأمير.
اليس عملا سديدا ومنهجا عادلا وحكيما .. ؟ بلى .. فماذا كان جواب أولئك السفراء المبعوثين .. ؟ لقد عادوا جميعا - عدا عمار بن ياسر - الذي كان قد أرسل لتقصي الحقيقة في مصر فطال بها مكثه.
عاد ابن مسلمة من الكوفة. وعاد عبدالله بن عمر من الشام. ورجع أسامة بن زيد من البصرة.. وقدموا للخليفة تقاريرهم وما شهدوه وما سمعوه ،فما كان هناك خطأ واحد يستوجب عزل أمير.!
ترى هل تعتبرشهادتهم هذه دحضا لموق الإمام علي وإخوانه من أولئك الأمراء. .؟
كلا . كما ان موقف الإمام وأصحابه لا يعتبر دحضا لموقف الخليفة عثمان .. ذلك أن الفريقين متفقان على رعاية حرمات الإسلام.
ولكنهما في هذه القضية ينظران اليها من زاويتين مختلفتين.
فالإمام وأصحابه يرون الأ حق للطلقاء في ولاية أمور المسلمين .. خصوصا أولئك
الذين كان لهم قبل إسلامهم وبعد إسلامهم انتكاسات لا تجعلهم للولاية أهلا .
و الطلقاء هم أولئكك الذين أسلموا يوم فتح مكة تحت بريق السيوف ،
وأشرف الرسول على جموعهم الضارعة المرتجفة وناداهم : " اذهبوا ، فأنتم الطلقاء " .
ومن هؤلاء ، كان أولئك الأمراء الأمويون الذين يدور حولهم الخلاف .. أما الخليفة عثمان فقد كان له في القضية رأي آخر .. هو أن الإسلام يجب ما قبله .. وإن التوبة تجب ما قبلها ..
فأخطاء هؤلاء قبل الإسلام، قد وضع الإسلام عنهم وزرها .
وأخطاؤهم، أو أخطاء بعضهم بعد الإسلام، قد وضعت التوبة عنهم وزرها .
وفي رأي الخليفة انه مالم يدن أحدهم باقتراف منكر أو ظلم لرعية ، فإن عزله عن الإمارة ، ولا سيما تحت ضغط الفتن المسلحة التي يقودها جماعة من الموتورين والمخربين ، يصبح أمرا فوق طاقة اقتناعه ، وضميره.
لقد كان الوليد بن عقبة أميرا للكوفة ، وحقق للدولة انتصارات كبيرة ، ثم هو في الوقت نفسه من ذوي قربى للخليفة .. ومع ذلك كله ، فانه حين ترامت إليه أنباء احتسائه الخمر لم يمهله يوما .. بل استدعاه إلى المدينة ، وعزله عن الإمارة .. واقام عليه الحد جهارا علنا ، وهذا هوما لن يتأخر عن صنعه تجاه الأمراء الآخرين من ذوي قرباه ، إذا أدين أحدهم بخطأ يستوجب عزلا أو عقابا .
ذلك في ايجاز ، كان رايه في أزمة الولاة ، وهو رأي إزداد به اقتناعا بعد عودة مبعوثيه إلى الأقاليم، معلنين في أمانة وصدق أنهم لم يروا منكرا، ولم يشهدوا ظلما .

ومع ذلك ، فقد بعث كتبه إلى الأقاليم جميعا يقول فيها : " بلغني ان اقواما منكم يشتمون ، واخرين يضربون ، فمن كانت له مظلمة فلياتنا في الموسم ، وليأخذ بحقه مني أو من عمالي عليكم" .

* **

وهناك حوار ينقله لنا ابن كثير في كتابه، قام بين الإمام علي، والخليفة عثمان يضع وجهتى نظرهما وجها لوجه، وبالتالى يغمرالقضية بضوء جديد .

ولقد جرى هذا الحوار يوم اختارالناس عليا كي ينقل إلى الخليفة ما في أنفسهم من شكاة ومضض ، وجلس الإمام إلى الخليفة وحدهما ، وبثه كل ما في نفسه ، ونقل إليه ما في أنفس الآخرين ، وكانت كلمات الإمام مترعة بحرصه الشديد والنبيل على خير الخليفة وخير الأمة.

وعقب عثمان على كلمات على قائلا: "أما والله لوكنت مكانى ما عنفتك، ولا أسلمتك، ولا عبت عليك..

أترانى جئت منكرا إذ وصلت رحما ، وسددت خلة ، وآويت ضائعا ، ووليت شبيها

بمن كان - عمر - يولي.. ؟؟

انأشدك الله يا علي.

هل تعلم أن المغيرة بن شعبة كان واليا لعمر . ؟

قال علي :نعم..

قال عثمان : فلم ألام إذ وليت ابن عامر في رحمه وقرابته ، وليس للمغيرة عليه كبير فضل..؟

قال علي : سأخبرك .. إن عمر كان إذا ولى أحدا فإنما يطأ على صماخيه ، فإن بلغه عنه شيء جاء به وبلغ في زجره أقصى الغاية . أما انت فلا تفعل ، فقد ضعفت ورفقت بأقربائك..

قال عثمان : هم أقرباؤك أيضا يا علي..

قال علي : نعم.. إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم..

قال عثمان : ألم تعلم أن - عمر - ولى معاوية طوال عهده وخلافته ، فهل ألام إن أنا وليته.. ؟

قال علي :فهل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفا غلام عمر.. ؟

قال عثمان : نعم ، كان كذلك..

قال علي : فها هوذا يقطع الأمور دونك ، وأنت لا تنهاه... ".

هذه الفقرة من الحوار ، تربنا كيف كان هناك اقتناعان يحركان الدولة ، والمعارضة - كلا فى اتجاه .. وحين نقول المعارضة فإنما نعني بها المجموعة الخيرة من الصحابة وعلى رأسهم علي بن أبي طالب ، دون أن نعني بحال تلك العصابات الأخرى التي كانت تعد للفتنة الجامحة ، في أقطار الدولة وأمصارها ، والتي لم تخب نارها حتى اغتالت الخليفة في وحشية بالغة..

وفي هذا الحوار نرى في وضوح تام تصور الخليفة للموقف. .
فهو يرى في موقف المعارضة - حتى برغم سلامته وسداده - معاضدة للآخرين الذين يبيتون له الشر ويتربصون به الدوائر ، فهو لهذا يقول للإمام علي : " لو كنت مكاني ما اسلمتك، ولا عنفتك". .
ثم هو يرى في إسناد الولاية إلى نفر من أقاربه ، نوعا من تآفهم والإحسان إليهم ، واستبقاء ولائهم للإسلام ، فضلا عما اظهروه من كفائة واقتدار في الإدارة وفي القتال. كذلك يرى انه في إيثاره ذوي الكفاءة والمقدرة على بعض ذوي الفضل والورع ، إنما يتأسى بما كان يصنعه - أحيانا - أمير المؤمنين عمر ..
وهكذا تشكل اقتناع الخليفة تجاه أزمة الولاة واتخذ فيها موقفا ثابتا صامدا ..
وكان للمعارضة اقتناعها الذي عبرت عن كلمات الإمام علي في حواره مع الخليفة ..
فالإمام يرى أن المطالبة بتنحية هؤلاء الأمراء قضية عادلة .
وإنه إذا وجد اناس يتخذون من التشيع للحق ستارا يخفون وراءه أغراضا باطلة - كما تفعل عصابات التمرد الفتنة - فليس معنى ذلك ان يسكت المخلصون للحق عن الجهر به والدعوة اليه.
كذلك يرى الإمام ان تقوى الأمير أهم من كفاءته .. وإخلاصه ارجح من ذكائه .
وانه إذا كان عمر قد آثر أحيانا ذوي الذكاء والدهاء والمقدرة، فلأنه كان يحكم قبضته على ولاته وأمرائه جميعا بصورة لا تمكن أحدهم من أن يغمض عينه عن الحق لحظة من ليل أو نهار. أما الآن الخليفة يدلف نحو الثمانين، ثم هو بطبيعة الحال طيب ، متسامح، هادئ الفورة ، مأمون الغضب ، فإن أولئك الأمراء يتصرفون تصرف من ليس وراءه معقب ، ولا عليه رقيب ..
لم يكن الخليفة يبرئ ولاته من الخطأ ، لكنه كان يريد أخطاء كبيرة تبرر عزلهم وإبعادهم..
وكان الإمام يرى ان نشأتهم وطباعهم وتكوينهم النفسي والعائلي ، لا يجعلهم انسب الناس للمناصب التي يتولونها ، وانهم بهذا ولهذا ، سيتمادون في الأخطاء ويستمرئونها حتى تبلغ بهم المنزلق الوعر، والهوة الفاغرة.
والحق ان الحوادث مضت نحو غايات مريرة كشفت عن صدق فراسة الإمام علي وعن سداد نظرته، وسلا مة وجهته."1"
وننتقل الآن إلى ثاني المأخذ . أو ثانية الأزمات التي ثارت ثائرتها حول الخبفة . وهى خاصة بالأموال العامة.
وبادئ ذي بدء ، نؤكد أن أحدا ما من خصومه لم يكن إذا خلا بنفسه ليدين ذمته بسوء حتى أولئك لذين أثاروا الفتنة لوجه الفتنة وائتمروا بدمه وحياته.
لقد كانت طهارة ذمته ، وعظمة نفسه ، وطهر أخلاقه موضع يقين لا يتطرق إليه شك ، ولا يقترب منه مغمز .
كل الذي قيل يومئذ وتولى المتآمرون تضخيمه ، هو أن الخليفة كان يختص ذوي قربا٥ بمزيد من الأعطيا تِ من بيت المال. . و لقد سرح بهم الخيال

السقيم إلى القول : إن الخليفة أقطع مروان بن الحكم خمس أفريقية مرة واحدة.. !
ورا ح المتآمرون ضد الإسلام وضد الخليفة يروجون الاشاعات الكاذبة الخبيثة حول التصرفات المالية للخليفة.

"١" راجع كتاب في رحاب علي للمؤلف.

فإذا زوج ابنه من ابنة الحارث بن الحكم، وزوج ابنته من ابن مروان بن الحكم، وجهزهما من خالص ماله الذي كان واسعا ووفيرا من الجا هلية إلى الإسلام قالوا : إنه جهزهما من بيت مال المسلمين .. !!
واذا اقنرض عبد الله بن خالد بن أسد بضعة آلاف من بيت المال - وكان من حق المسلمين يومئذ ان يقترضوامن بيت مالهم - قالوا :ان الخليفة منحه اياها بغير حق.. !!
*واذا توسع في المراعي التي كانت للدولة منذ عهد عمر تحميها لإبل الصدقة ولتنمية الثروة الحيوانية ، أرسل - ابن سبأ – وفدا من ثوا ر مصر ليتهم الخليفة بأنه إنما فعل ذلك كى يسمن إبله وماشيته
ولقد حدث أن ولى الخليفة الحارث بن الحكم أمانة سوق المدينة ، واستغل الحارث وظيفته، فراح يشتري النوى ويحتكره.. ولم يكدالخليفة يعلم بهذا حتى استدعاه إليه وسفهه ثم عزله من فوره. فهذه أيضا نسجوامنها اتهاما .. ا!
وكانت الأرض البوار التي لا تجد من يزرعها ويستثمرها ، تملأ فجاج الأمصار، لاسيما في سواد العراق، فراح الخليفة يقطعها نفرا من أثرياء الصحابة الذين يمكنهم ثراؤهم من الآن فاق عليها واستثمارها ،وكان هناك مبدأ إسلامي يشجع على هذا التعمير.
"من أحيا أرضا ميتة فهي له" . فهذه أيضا نسجوا منها إتهاما .. !
وكان أمين يت المال عبد الله بن أرقم قد تقدمت به السن ، كما وقع خلاف هادئ بينه وبين الخليفة، فرأى الخليفة أن يولي مكانه زيد بن ثابت .
هنالك أطلق المرجفون المتمردون قولتهم بأن الخليفة عزل ابن أرقم، لأنه عارض إسرافه وتصرفاته..
ترى لوكان ذلك كذلك، افما كان الأجدر بالخليفة ان يختار رجلا غير زيد بن ثابت .. ؟
إن زيدا هذاهو الذي ائتمنه أبو بكر، وعمر، وعثمان على جمع القرآن. .
وهو الصحابى الجليل الذي كان له في قلوب المسلمين كافة أعمق مشاعر الاحترام والثقة والتقدير .. وهو بدينه وبخلقه وبأمانته لا يمكن أن يتحمل أمام ربه مسئولية أي جنف اوتقصير.
هذاهو الرجل الذي ولاه الخليفة بيت المال.
ومع ذلك ، فقد نسجوا من هذه الواقعة اتهاما ..

بل لم يخجلوا من أن يزعموا أن الخليفة كان يأخذ من بيت مال المسلمين ليبني لنفسه ولأهله قصورا وينشئ ضياعا .. ا!

***

لقد اتخذ المرجفون في المدينة وفي الأمصار من المسائل المالية موضوعا خصبا لأخيلتهم التي راحت تنسج الأكاذيب، وتصنع البهتان.
ولربما يقال هنا : لا دخان بغير نار .. واذا كان أعداء الخليفة قد اتخذوا من تصرفاته المالية مادة ثرة للتجريح والإسا ءة ، افلا يشي ذلك بوجود أخطاء في تلك التصرفات، أجاد المرجفون والمتآمرون استغلالها .
والحق الذي نستخلصه من استكناه الوقائع التاريخية عن ذلك العهد ، أن خصوم الخليفة من أتباع ابن سبأ والمتآمرين معهم ،كانوا في حملة التشهير بالخليفة لا ينتظرون وجود أخطاء ينسجون منها بهتانهم.. فلقد كانوا مصممين على هذا التشهير وقادرين عليه ولو برئت تصرفات الخليفة المالية من الهفوات، لما رضوا أن يعدوا صفحتها بيضاء من غير سوء .
ولسنا ننفي أو نستبعد وقوع أخطاء .. إنما ننفي بيقين كامل أن تكون هذه الأخطاء ناجمة عن أدنى قصور في ذمة الخليفة العظيم وأمانته- الأمر الذي أراد المتآمرون أن يصلوا إليه.!
كل الذي حدث يومئذ ، وشكل بدوره مناخا صالحا لتفريخ الأراجيف ، أن الأموال قد درت لقاحها ، وكثرت في ايدي الناس جميعا ، وكثرت معها المناعم ، واستشرى الترف ، ولم يكن مع الأمراء الأمويين من الزهد ولا من الورع ما يصرفهم عن مشاركة الناس في ترفهم وتبذخهم، بل راحوا بحكم نشأتهم يبالغون في الترفه والاستمتاع.
وكان الخليفة عن اقتناع - لا عن استهانة - لا يرى بأسا في أن يستمتع الناس ما شاءوا بمناعم الحياة، ما دأموالا يأخذون المال من حرام، ولا ينفقونه في إثم.
ونحن نسلم بداهة أن الخليفة عثمان لو سارفي هذه المسألة على نهج سلفه عمر وكبح جماح الآن فس عن الإغراق في الطيبات المشروعة ، لكان ذلك أسلم ، ولا سيما بالنسبة للولاة والأمراء الذين يجب أن يظلوا دائما قدوة للآخرين في بساطة العيش والترفع عن اغراء النعيم.
لكن سؤالا يفرض نفسه علينا فرضا ..هو: هل كان ذلك ممكنا مع رياح التغيير والتطور التي هبت على الدولة الواسعة العريضة من الجهات الأربع ، حاملة أمما شتى .. وحاملة مع تلك !!الأمم والجماعات، تقاليد وعادات تضطرم في موج كالجبال. . ؟؟!!
تلك هى القضية .. وفى ضوء هذه الحقيقة قبل سواها يجب أن نبحث عن تفسير مأخذ الإسراف والترف التي أرادوا أن يحملوا الخليفة وحده مسئولياتها ..
الخليفة التي تبقى ذمته برغم كل شيء ، كاملة الطهر ، ناصعة النقاء " .

والآن ، إلى ثالثة الأزمات . تلك التي تمثل في الخلاف الذي شب أوازه بين المعارضة النزيهة البريئة التي قام بها نفرمن خيار الصحابة، وبين الخليفة عثمان رضي الله عنه وعنهم !!جمعين.
لقد أخذ على الخليفة انه كان له موقف اتسم بالعنف تجاه الصحابي الجليل - أبي زر الغفاري.. والصحابي الجليل - عمار بن ياسر.. والصحابي الجليل-عبد الله بن مسعود..
وإنا لنجانب الصواب إذا نحن درسنا هذا الخلاف بعيدا عن الإطار العام للأحداث والفتن التي كانت تحتاج الدولة والمجتمع يوم ذاك.
لقد كان قمينا بكل خلاف في الرأي يقع بين الخليفة وإخوانه من الصحابة الفضلاء السابقين ، أن يجد حله الموفق السعيد ، لولا ذلك الجو القاتم الذي كان المتآمرون المغرضون قد أفلحوا فى صنعه ..
لقد غطوا ضوء النها ر بفتنة مظلمة سوداء ، تدع الحليم حيران. . !
ولقد استغلوا ذلك الخلاف، الصادق البريء ، في تأجيج نارهم التي يوقدون..
وصارت النصيحة الأمينة الهادئة التي يقولها صحابي جليل ، تتحول على أفواه المشائين بنميم، إلى قذف وسباب. وكلمات العتاب التي يرسلها الخليفة في أناة ، تتحول على نفس تلك الشفاه المسمومة إلى وعيد وتهديد.
وليس أشد إيلاما لنفس الرجل الحيي المفرط الحياء ولا أدعى لغضبه، من أن يتخذ الناس حياءه سببا لاستضعافه وللتجرؤ عليه .
تلك قضية من قضايا النفس البشرية لا تحتاج إلى برهان.
ولقد كان عثمان رضى الله عنه مفرط الحياء .. وبدلا من أن يصد هذا الحياء تهور المتآمرين على وقار الخليفة ومكانته ، إذا هم تجدب نفوسهم من كل توقير لهذا الحياء..!؛
هنالك ملأت نفس الخليفة ألما ، وتأججت غضبا ، وقال للمتمردين قولته المأثورة.
" .. أما والله ، لقد عبتم علي بما أقررتم لابن الخطاب .. ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم ..
أما أنا .. فلنت لكم ، وأوطات لكم كنفي ، وكففت يدي ولساني عنكم ، فاجترأتم علي"..
إن هذه الكلمات المتفجعة ، تكشف عن الجرح الذي أدمى مشاعر الخليفة الحيي، المتسامح، والوديع!
ورجل مثل عثمان في أناته وهدوء سمته ، لا يتفجر غضبه في كلمات كهذه ، الأ إذا كان الجرح قد بلغ من نفسه أعماقها ، وإلا إذا كان شعوره باستخفاف المتآمرين قد جاوز القدرة على الصبر والا حتمال .
وفى جو نفسى كهذا ، فإن مس الصديق يدمي البنان.
ومن هنا لم تكن نفس الخليفة الممتلئة بالجراح ، مهياة للتجاوب مع المعارضة التي أثارها رفاقه في الدعوة وفي التضحية وفي صحبة سول الله صلى الله

عليه وسلم منذ الأيام البعيدة الباكرة في فجر الإسلام.
ولم يكن ذلك منه استنكافا لكلمة الحق ولا استعلاء عليها. إنما كان ذلك، لأنه رأى المتآمرين يتخذون من معارضة هؤلاء الأصحاب الكرام وقودا لفتنتهم المدمرة..
ولسنا نريد بهذا التوضيح أن نشجب حق الصحابة الأجلاء في نقد ما رأوه من خطأ ، فما كان لمثلهم أن يسكت على خطأ .. وإنما أردنا أن نبصر بعينين مفتوحتين طبيعة المناخ النفسي الذي كان يعكس نفسه لامحالة على مشاعر الخليفة وعلى تفكيرة.
والآن نتجه إلى وقائع الخلاف الذي قام بين الخليفة وأولئك الأصحاب . هذا الخلاف الذي استغله زعماء الفتنة المسلحة ، وشكلوامنه اتهاما برروا به مع غيره انتهاكهم حرمة الخلافة ، وحياة الخليفة ..
ونبدا بالخلاف بين الخليفة وأبى ذر، رضى الله عنهما ..
وأبو زر الغفاري واحد من أعظم الرواد الذين انجبهما الإسلام استخلص من روح الإسلام منهاجا في الزهد وفي توزيع الثروات، ثم راح يبشر به في تفان رهباني عظيم.
وهو بمنهجه هذا لم يختلف مع الخليفة وحده ، بل اختلف كذلك مع بعض الصحابة الآخرين الذين كان لهم من المال وفرة ومدخر..
ذلك أنه كان يرى في الأموال ودائع الله عند عباده ، استخلفهم فيها ، ولكل أن يأخذ منها حاجته وضرورته ثم لا يزيد ..
كذلك كان يرى أن محمدا وأصحابه إنما جاءوا الحياة، ليعطوا .. لا ليأخذوا ..
ولقد أعطى الرسول الحياة أثمن العطايا وأروعها بما نفحها من هدى ، وحقيقة ، ونور، ثم رفض طوال عمره أن يعلق بيديه شيء من زخرفها ونعيمها ، بل مات ودرعه مرهونة في حفنات شعير صنع منها خبزا يابسا له ولأهل بيته .. !
فأصحابه يجب أن يمضوا على ذات النهج حتى يلقوه..
ولقد مضى على النهج أبو بكر.. ومن بعده عمر..
والآن يريد أبو زر ان تكون خلافة عثمان امتدادا لأيام الوحي ، وأيام الصديق، وأيام الفاروق في زهدها ،وتقشفها ،ونبذها كل المغريات حتى المشروع منها والحلال.
ولقد عاش - كما تنبأ له الرسول صلى الله عليه وسلم - وحده.. ومات وحده.. وسيبعث وحده.. اما في الجانب الآخر ، فقد كان أكثر الصحابة لا يرون بأسا - أي بأس - فى
الا ستمتاع بطيبات الحياة .. فالقرآن يحدثهم : "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ". .

ويحدثهم: " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي آخر ج لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمنوا فِي الْحَيَاةِ الدنيا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ

يَعْلَمُونَ "32" " .
على أن أبا زر وإن جاز أن يتسامح تجاه الاستمتاع المعتدل بالطيبات ، فإنه لم يكن ليتسامح لحظة تجاه السرف ، والترف واحتكار الضياع ، واكتنا ز الأموال .
ومن ثم ، لم يتردد في أن يقطع الطريق وثبا إلى الشام حينما سمع أنباء ما تموج به من ترف ، وما يشق فضاءها من بروج وقصور ، ويغطي أرضها من ضياع وبساتين امتلكها وأخلد إلى نعيمها الأمراء ، وعلى رأسهم معاوية ونفر آخر من الصحابة الذين لم يخلقوا في رأي أبي زر للدعة ولا لنعم الدنيا الفانية.
.
وفي الشام رفع لواء معارضة كادت تعصف بمقعد معاوية .
راح يتلو على الجماهير هذه الآية ، فكأنما يسمعها الناس لأول مرة : " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقوتها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون " . وحاول معاوية أن يهدئ من ثورته دون جدوى . والحق إنه برغم إحساسه بخطر دعوته عليه ، فإن مسلكه تجاهه ظل متسما بإجلاله وتوقيره .
ولقد اكتفى بأن يكتب إلى الخليفة كتابا يقول فيه : - " إن أبا زر أفسد الناس بالشام "فجاءه رد الخليفة سريعا : -"ارسله الى".
وعاد أبو زر إلى المدينة - وجرى بينه وبين الخليفة حوار لم يقتنع أحدهما فيه بوجهة نظر الآخر. وهنا نلتقى بروايتين تاريخيتين ، أحداهما تقول : إن الخليفة قرر إبعاده إلى الربذة - مكان بعيد عن المدينة .. وأخرى تقول : إن أبا زر هو الذي طلب من الخليفة أن يأذن له بالخروج إلى الربذة حيث يقضي بها بقية أيامه. وسواء صحت هذه الرواية أو تلك، ليس ثمة شك في أن الخليفة كان حريصا على أن بظل أبو زر إلى جواره بالمدينة قائلا له :" ابق معنا ، تغدو عليك اللقا ح وتروح " .
لكن أبا زر ، كان يعرف نفسه جيدا ، ويعرف أنه سيظل مرتفع الصيحة ضد الأشياء التي لا يبدو أن الخليفة مستريح لطريقته في معارضتها .
وهكذا خرج الصحابي الجليل في هدوء إلى الربذة حيث عاش بها يعبد الله العلي الكبير ، حتى نادته ساعة الرحيل إلى الرفيق إلأعلى .
على أننا واجدون في واقعة هذا الخلاف يين الخليفة وأبي زر مشهدا يعطينا وحده الدليل الحق على أن الخلاف يين الدولة والمعارضة لم يكن - مهما يستفحل ويتفاقم - ليصل بالأحداث إلى ذلك المدى البغيض الاثيم الذي بلغه على أيدي المتآمرين المخربين..
فها هوذا أبو زر رضي الله عنه ، يزوره بالربذة بعض متآمري الكوفة ويعرضون عليه أن يتزعم ثورة مسلحة ضد الخليفة، فإذا هو يجيبهم بهذه الكلمات الزاجرة :

" والله ، لو أن عثمان صلبنى على أطول خشبة ، أو أطول جبل ، لسمعت وأطعت وصبرت وأحتسبت، ورأيت ذلك خيرا لي..
ولو سيرني ما بين الافق إلى الافق ، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ، ورأيت ذلك خيرا لي..
ولو ردني إلي منزلي ، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت، ورأيت ذلك خيرا لي"
هكذا كان نوع الخلاف بين الخليفة وبعض أصحابه، وهكذا كان مذاقه.
وإن استبعاد وجود خلاف على الإطلاق ، لأمر ضد طبائع الأشياء .
****
والآن نغادرواقعة الخلاف مع أبي ذر إلى مثيلتها مع عمار بن ياسر ..
و عمار "1" صحابي جليل ، استشهد ابواه علي خشبة التعذيب الذي أرادت قريش أن تطفى به نور الله ، وحمل عمار مع أبويه حظه الرهيب من العذاب ، كما تلقى معهما حظه من البشرى الرائعة التي زفها إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم حين ناداهم وهم يعذبون: " صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة" !
لقد اختلف عمار مع الخليفة حول بعض القضايا ،ولعله عالج الخلاف بطريقة أزعجت الخليفة .. ولا سيما في أواخر عهد عثمان ،حيث كان بعض الولاة الأمويين قد اسرفوا في قسوتهم على معارضيهم، غير مفرقين بين صحابي جليل يجهر بالحق لوجه الحق، وبين مغرض دخيل، يريدها فتنة عمياء .
ولقد كان من الممكن أن يظل الخلاف بين الخليفة وعمار محكوما بحقوق الصحبة الغالية التي جمعت بينهما في أيام العسرة وأيام الآن تصار .. بل لقد بقي كذلك فعلا برغم المضاعفات التي انتابته بفعل الغليان الذي كانت الآن فس تمور به مورا ،والذي كانت الأحداث والمؤامرات تزيده كل يوم اشتعالا .
ولقد رأينا الخليفة وهو يختار من بين خيار الصحابة من سيشكلون لجنة تقصي الحقائق.. ورأيناه لا ينسى عمارا .. بل يختاره برغم معارضته له، ويرسله إلى مصر.
ولما عاد مبعوثو الخليفة الأ عمارا الذي طال مكثه بمصر ، وتصادف ان كان بها فى ذلك الوقت عبد الله بن سبأ ،وجد الواشون فرصتهم ليوغروا صدر الخليفة على عمار ، زاعمين أنه كان يجتمع بابن سبأ ،ويصغي إليه .

"1" راجع كتاب رجال حول الرسول للمؤلف

ولقيت هذه الوشاية مع غيرها دورا في تصعيد الخلاف بين الخليفة وعمار ..
على أن واقعة الاعتداءعلى عمار كانت اقسى مظاهرهذا الخلاف، فهل اشترك الخليفة في هذا الاعتداء كما تزعم بعض الروايات.. ؟
إن الإمام الطبري ينفي ذلك ويدحضه ، ويسوق لنا النبأ على لسان الخليفة نفسه عندما عوتب في هذا الاعتداء الذي اقترفه بعض موظفي ديوان الخلافة.

قال الخليفة: "جاء عمار، وسعد بن آبي وقاص إلى المسجد ، وآرسلا إلى آن إتنا ، فإنا نريد أن نذاكرك فى أشياء فعلتها.
فأرسلت إليهما : إني عنكما اليوم مشغول، فعودا الي في يوم آخر ..
فانصرف سعد ، وأبى عمار أن ينصرف ، فأعدت إليه الرسول فأبى.. ثم أعدته فأبى .. فتناوله رسولى بالأذى بغير أمري.
ووالله ما أمرته، ولا رضيت بضربه، وهذه يدي لعمار، فليقتص مني ماشاء ".
وكما رأينا أبا زر من قبل، يرفض دعوة متمردي الكوفة ليقود ثورة ضد الخليفة.. نرى الآن لعمار موقفا مماثلا .. فعندما حاصر المتمردون المسلحون دارالخليفة ومنعوا عنه الماء ،غضب عمار وصاح فيهم : " يا سبحان الله .. اتمنعون الماء عمن اشترى بئر رومة ، ووهبها للمسلمين" ؟ !!
ث مسارعالى الإمام علي وأنبأه النبأ واقترح عليه ان يحمل بنفسه قربة الما ء إلى دا ر الخليفة ، فلعل الثوار لا يجرءون على اعترا ض سبيله .
إن هذا الموقف بدوره ، يعطينا الدليل على أن الخلاف بين الخليفة وذلك النفر الكريم من الصحابة، ما كان ليطغى على جلال الصحبة التي جمعتهم في الله إخوإنا .
علي ان الخلاف الذي شابه كثير من الجفوة ورأينا الخليفة يلجأ فيه - على غير عادته - إلى إجراء عنيف - كان الخلاف الذي شجر بينه وبين عبد الله بن مسعود و عبد الله "ا" صحابي رائع فى تضحياته ،واستبسل له ،وفي صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٠
ولقد تفاقم الخلاف بين الخليفة وبينه ، حتى قطع الخليفة عنه راتبه من بيت المال ٠٠ وعلى الرغم من أن إجراء كهذا لا يتسق بحال مع طيبة قلب الخليفة ، وسماحة نفسه ، فانه فيما أفضى إليه من موافق ، لم يعدم هذه الطيبة ، وهذه السماحة . ذلك أن الخليفة لا يكاد يعلم مرض ابن مسعود ذلك المرض الذي لقي فيه ربه ، حتى يغشى ضميره ندم عظيم . ويخرج إلى دار عبد الله متوكئا على شيخوخته المجهدة الوهنانة .. ثم يمعن في الاعتذار لابن مسعود ، ويرجوه في الحاح ان يغفر له ما كان منه ..

ثم يذهب إلى دار أم حبيبة رضي اله عنها ويرجوها ان تشفع له عند ابن مسعود كي يصفح عنه ويغفر له .
وبعد أن مات ابن مسعود ودفن دون أن يخبروا الخليفة بذلك خرج حزينا إلى قبره، ووقف عليه ، ورثاه قائلا ، ودموعه تنحدر من مآقيه : " دفنتم والله خير من بقي من أصحاب رشول الله صلى الله عليه وسلم " .. !
وكما حدث من أبي ذر وعمار بن ياسر حين رفضا أن يستغل المتمردون خلافهما مع الخليفة ، حدث موقف شبيه من عبد الله بن مسعود . ففي مرض موته عاده بعض أولئك ، وتهددوا الخليفة في حديثهم معه بالموت. فزجرهم ابن مسعود وقال: " أما انكم إن قتلتموه ، لن تصيبوا مثله " .

* **

هكذا كان الخلاف بينهم مهما تضطرم موجاته ، لا يلبث أن يقهر حدته ولاؤهم للصحبة الجليلة التي أنشأها بينهم دين الله وصحبة رسوله .. فالخليفة حين يخطىء في حق أحدهم يعتذر. وهم يرفضون أن تستغل خلافاتهم وقودا لأطماع المتآمرين.

ولو أن الولاة الأمويين تفوقوا يومئذ على دواعي الغلظة في أنفسهم وفي مسلكهم، لوفروا على الخليفة الكثيرمن المتاعب.. لكن كثيرا منهم كانوا يزيدون الناربقسوتهم ضراما ، ولا سيما في أواخر عهد عثمان، عندما رأوا نطاق الفتنة يتسع من حولهم وتوشك أن تلتهمهم نارها . وحينما كان ضغط الأحداث يضطرالخليفة لأن يتجهم لبعض الأصحاب ، فلأنه كان قد دخل مرحلة حرجة، صار شغله الشاغل فيها المحا فظة على هيبة الدولة فى أفئدة الناس. ولعله كان يرى في تجهمه لنفر من زعماء الصحابة وخيارهم زاجرا للآخرين الذين ليس لهم في ضمير الخليفة ولا في نفسه معشار ما للصحا بة من مودة واحترام.

ولعله كذلك حين طلب من الإمام علي كرم الله وجهه أن يغادر المدينة إلى مكان قريب منها ، إنما كان يهدف إلى إقرار هذا الأمر دون سوا٥، وإلا فما كان الخليفة يستغني قط عن مشورة الإمام ونجدته . ولقد كان كلما حزبته الأمور يستنجد به ، ويقاسمه أعباءها وأخطارها .

كذلك ، لابد من أن نذكر في هذا المقام حرص الخليفة الشديد على الأ ينشب بين المسلمين قتال يكون هو سببا له ، أو طرفا فيه.

ولقد مرت بنا كلمته للمغيرة بن شعبة حين أشار عليه بقتل المتمردين : " . لا والله ، لا أكون أول من يخلف الرسول فى أمته بسفك الدماء " .

فخليفة تتأجج من حوله الفتن والمؤامرات التي تحولت إلى عصيان مسلح خبيث
الأهداف ، وهو لا يريد ، مهما تكن العواقب ، أن يواجه هذا التمرد بقوة السيف مكتفيا بالزجر والتهديد .. ومع من ؟ مع أناس يسلقونه بالسنة حداد ، ويحرضون على خلع طاعته وقتله ، ويضمرون للإسلام كل شر وسوء .

أيعقل أن يقف مسلكه مع هؤلاء عند حدود الزجر والتأنيب ، ثم يسمح له ضميره وخلقه بالاساءة لصحابة أجلاء ، وناصحين أمناء ، من طراز علي ، وعمار ، وأبي زر ، وابن مسعود".. ؟؟

***

لم يكتف المتمردون الخوارج بتلك الاتهامات الباطلة التي راحوا يشغبون بها علي الخليفة ، والتي سردناها على الصفحات السالفة وفندناها ، فراحوا يرجفون بأن الخليفة يبتدع في الدين بدعا لم تكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ولا في عهد صاحبيه.

وهذا هو المأخذ الرابع والأخير في تلك المأخذ التي نناقشها..

لقد راحوا يتصيدون للخليفة الرآشد، ما حسبوه بسوء تدبيرهم وخيبة فألهم طعنا سينال من ورع الخليفة وحسن طاعته لله ولرسوله.
قالوا : إن الخليفة وحد المصاحف كلها في مصحف واحد، وجمع المصاحف الأخرى وأحرق أوراقها.. ولقد فصلنا هذا الأمر من قبل، وشرحنا أسبابه ودواعيه، ثم إنها خطوة باركها جميع الصحابة، حتى الذين كانوا على خلاف مع الخليفة في مسائل
، وقالوا : إن الخليفة أتم الصلاة" بمكة في أثناء حجه، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحباه يقصرون الصلاة.
وهذه وحدها كافية في الكشف عن حقيقة البواعث الشريرة الفاسدة التي كانت تحرك أولئك الخارجين، وكيف كانوا يتصيدون الوهم لينسجوا منه اتهاما يحملون العامة به على مهاجمة الخليفة والسلطة.. فقصر الصلاة في السفر رخصة لا واجب، واذا تخطى المسلم الرخصة إلى العزيمة، فلا تثريب عليه ولا حرج. وحتى حين ناخذ برأي الذين يوجبون القصر في السفر. فإن الإمام عليا كرم الله وجهه - فيما يروى عنه - قد أجاب عن هذا المأخذ المغرض، وهو يحاور المتمردين، فقال:" إن الخليفة كان قد تأهل بمكة ونوى الإقامة بها، فاتم صلاته".
وقالوا : إن الخليفة لم يقم حد القتل على عبيد الله بن عمر .. وكان عبيد الله قد انطلق فى ثورة غضبه لمقتل والده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقتل طفلة لأبي لؤلؤة.. لمجوسي المجرم الذي اغتال أميرالمؤمنين، كما قتل الهرمزان بعد أن شاع نبأ تامره مع أبي لؤلؤة..
وصحيح أن الشريعة الإسلامية كانت توجب القصاص، لكن الخليفة اجتهد في القضية اجتهادا كان مبعثه تقديره للظروف التي دفعت ابن أمير المؤمنين عمر للثأر لأبيه، وللإسلام..كما إنه لم يشأ أن يجمع على آل الخطاب حزنين وكارثتين - !!لأولى: مقتل عمر غدرا .. والثانية : قتل ولده قصاصا .. ثم إنه لم يطلق سراح عبيد الله مهدرا بذلك الدم الذي أراقه .. بل استبدل الدية بالقصاص ، ودفع لأولياء الدم دية سخية ، و كبيرة .
*وقالوا : إن الخليفة رد إلى المدينة الحكم بن أبي العاص، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد نفاه منها ..
ولقد أجاب الخليفة عن هذا ، بأنه كان قد شفع له عند رسول الله ووعده الرسول صلى الله عليه وسلم بالعفو عنه بعد حين ..ثم إن الخليفة لم يرده إلى المدينة الأ بعد أن زالت أسباب نفيه ، إذ كان قد اقلع وتاب عما كان استحق من أجله عقوبة النفي. .
وقالوا .. ثم قالوا .. ولم يشبعوا قولا ، ولم يعدموا كذبأ ولا بهتانا ، ينسجون منه خيوط مؤامراتهم الوبيلة . منتهزين فرصة أي معارضة نزيهة يقوم بها صحابي ناصح أمين ، ليضخموها بوسائلهم ، وليتوسلوا بها إلى باطلهم ..
***

على أن الخليفة رضي الله عنه أمام المعارضة الشريفة التي واجه بها أصحابه بعض قراراته ، لم يقف موقف المستعلي على الرأي، ولا المستنكف عن الحق ، بل وقف على ملأ من المسلمين في يوم الجمعة ، يعترف بالأخطأء التي وقعت ، وبرفع ضراعته إلى الله مستغفرا وتائبا ..باكيا ومبكيا جميع الذين كانوا هناك يستمعون إليه وينصتون. .

***

وأمام موقفه هذاتبددت الموجة !!لأولى من الهجوم على المدينة . ذلك الهجوم الذي كان المتمردون قد انطلقوا به من مصر ، حيث كان ابن سبأ قابعا ومقيما ، يفرخ ويبيض .. !! .

الفصل الخامس ضيف الجنة الشهيد

سارت المعارضة في طريقها تلح على التغيير والتحول نحو ما تراه أفضل وأمثل. . متوسلة بالحوار الدائب مع الخليفة - هذا الحوار الذي كان يروح بين الرفق والحدة ، ولكنه لا يفسد للإيمان ولا للصحبة قضية .
وسارت المؤامرة في طريقها ،تريد تقويض الدين والدولة، وتتسع لكل الأهواء، وتستغل الظروف كافة، وتدفع في طريقها بكل القوى المناوئة للخليفة ، متوسلة بالفرية والتآمر.
* **
والخليفة عثمان رضي الله عنه ، وقد بلغ الثمانين من عمره ، لا تزال خصاله وفضائله غضة فتية ، تقوده على طريق اقتنا عه ومبادئه .
فهو يكره سفك الدماء ، وينأى عن القسوة، ومن ثم، راح يحاول ثم يحاول أن يحسر المد المتآمر بالرفق تارة وبالزجر تارة أخرى.. فلا الرفق أغنى، ولا الزجر أفاد.!!
هنالك، سيطرعلى روع الخليفة واجب ، بدا له يومئذ أنه أهم الواجبات وأقدسها .. ذلكم هو: المحافظة الكاملة على هيبة الدولة وسلطانها .. وعندما نطالع أنباء تلك الأيام الأخيرة في حيا ة الخليفة نكا د نسمع صوت تفكيره وخواطره وهو يدرس القضية والا زمة في ضوء هذا السؤال: لمن يجب أن تكون السيادة: للدولة أم للفوضى ..؟؟
وعندما تواجه دولة ما بفتنة مخربة، وتمرد آبق، يهدفان إلى هدم كيانها، ودحر قيمها ، فإن اعتصام هذه الدولة بكبريائها ،وسلطانها ،يصبح واجبها الأول ومسئوليتها المقدسة.
ولقد أدرك الخليفة ذلك ببصر ثاقب ، وحمل مسئوليته بعزم مجيد ا!
لقدكانت تترامى إليه أنباء عبد الله بن سبأ وتحركاته ..كذلك أنباء الذي يعدون لثورة مسلحة ضد الخليفة ، في مصر .. وفي البصرة .. وفي الكوفة . هؤلاء الذين كانت طريقتهم في التحرش بالدولة تفضح نواياهم، وتشي باغراضهم المريبة والبعيدة.. أبعد كثيرا مما كانوا يتظاهرون به ويدورون حوله . ومع ذلك فقد بقي الخليفة مستمسكا بعرى مبادئه ، وفضائله ، ومزاياه.
ولم يكن ثمة مظهرلهذا الاستمساك أجل ولا أروع ولا أبهى من تصميمه المطلق على الأ يستخدم القوة في دحر الفتنة ، واذا كان لا بد لدم من أن يسفك في ذلك النزاع ، فليكن دمه هو .. دون غيره من المسلمين..
هذه صورة باهرة، ما أكبرما تغيب عن بال الذين يتدارسون تاريخ الخليفة العظيم.!!!

لكأنها صورة مسيح آخر .. ممجد وجليل . يرى الثوار يحاصرون داره ، شاهرين سيوفهم العاوية . وتواتيه فرص قتالهم وقتلهم، فيرفضها ، قائلا كلمته الخالدة : ما أحب أن ألقى الله وفي عنقي قطرة دم لامرئ مسلم"1" ثم تواتيه فرص الخروج من الدارالمحاصرة، والنجاة من القتلة المتربصين، فيرفضها معلنا : إنه على موعد في الجنة، مع الرسول وصاحبيه.. وإنه يتهيأ الآن للسفر إلى موعده!!

ألا من شاء أن يبصرالشخصية الباطنة لعثمان بن عفان بكل ما تزخر به من حقيقة وعظمة ، فحسبه هذا الموقف وحده ، دونما حاجة إلى سواه ..

ولكن، ما لنا نتعجل الحديث. ونطوي الأحداث. .؟ فلنعد إلى وراء قليلا ..

***

قلنا إن جماعة من المتمردين ، كانوا قد غادروا مصر إلى المدينة ، كما خف اليها وفد من الكوفة ووفد من البصرة.

وهناك تقدموا للخليفة بمطالبهم ، وجرى يينه وبينهم حوار عنيف ، انتهى بوساطة الإمام علي ،وبوعد من الخليفة أن يستجيب لما هو صواب من مطالبهم، ثم بعهد منهم أن يعودوا إلى بلادهم وأمصارهم في طاعة وهدوء. بعد ذلك ، أرسل الخليفة إلى ولاته على الأمصار حيث شاورهم في الأمر . ولو أنهم اخلصوا يومئذ فى معاونته على أمره ، لوضعوا استقالاتهم جميعا بين يديه ، ولكن موقفهم كان مغايرا ،مما جعل الخليفة يتردد فيعزلهم ، وبخاصة وهو يرى نار الفتنة يزداد من حواليه ضرامها .

كان هذا الزحف الأول على عاصمة الخلافة نذيرا رهيبا ، وزئيرا عاليا لاعاصير زاحفة.

ولكن الخليفة وطن نفسه ، ووطد عزمه على الصمود أمام الأخطار.

لقد اقتنع بأن ال أزمة تفاقمت إلى حد ، لم يعد من حقه أن يتنازل عن ذرة من هيبة الدولة وسلطانها . ومهما يكن هناك من مأخذ وأخطار ، فإن إقرار هذا السلطان هو الواجب الأول والأهم أمام الفوضى الجارفة التي تتمثل في التهجم على شخص الخليفة ، ومجابهته بهجر القول وفاحش السباب فحسب ، بل تمثلت في تهديد الدولة بقوة السلاح.

وتزدحم امامنا صور الثبات الباهر للخليفة .. نختار منها هذه الصورة :

فعندما انتهت اجتماعاته بأمراء الأمصار ، وتأهبوا للعودة إلى أمصارهم ، عرض معاوية على الخليفة أن يصحبه إلى الشام حتى تستقرالأمور . فرفض الخليفة قائلا :

لا اختار بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم جوارا سواه .

وعاد معاوية ، يعرض عليه أن يرسل جيشا من الشام يرابط بالمدينة ، ويحافظ على حياة الخليفة.

فرفض الخليفة قائلا: اخشى ان يزحموا المدينة، وتضيق بهم على أصحاب الرسول من المهاجرين والأنصار.

وعاد معاوية يقول للخليفة : إذا سيغتالونك ..
وكان جواب الخليفة العظيم : حسبي الله، ونعم الوكيل .
ثبات عجيب على مبادئه، وولاء فذ لاقتناعه!! وتمضي الأحداث سريعة ، لا ترحم الناس ولو بقليل من البطء ..
فإن زعما ء الأحزاب في مصر ، وفي البصرة ، وفي الكوفة تكاتبوا واتفقوا على أن تخرج فيالقهم المسلحة إلى المدينة ، حيث يلتقون هناك ليعزلوا الخليفة بقوة السلاح..
واستيقظت المدينة يوما على مثل هزيم الرعد ، وعلى منظر رهيب من آلاف الثوار المسلحين. احتشدوا هناك عند مشارف المدينة، وأرسلوا وفدا منهم للقاء الإمام علي الذي لم يكد يعرف نبأهم، ويرى حشودهم حتى صاح فيهم بكل عزمه وبكل إخلاصه : ارجعوا إلى بلادكم، لا صبحكم الله ا!
لكن الثوار المتمردين ظلوا في مواقعهم ، وعلى رأسهم زعماؤهم من الأمصار الثلاثة .. والخليفة في داره يتساءل : ماذا يريدون..؟!
أن أعزل أمراء الأمصار..؟ وماذا ستكون العاقبة، إذا كانوا كلما كرهوا أميرا عزل ٠٠؟!
أن أسلمهم مروان بن الحكم ؟! وكيف أسلمهم أياه : ليقتلوه؟ اجل.. ليقتلوه ..
ثم ماذا سيكون مصير الدولة بكل سلطانها ، وهيبتها ، وكرامتها ، إذا هي عنت اليوم وركعت أمام هؤلاء الثائرين المتمردين..؟؟
بيد أنهم الموقف كان يتطور في سرعة رهيبة ، حملت الخليفة على أن يستنجد بالإمام علي كرم الله وجهه ، ليفاوض الثوار، وليحملهم على إلقاء السلاح والرحيل عن مدينة رسول الله وعاصمة الإسلام.. لقد كانت كرامة الدولة تشغل باله إلى أبعد مدى.
ولكى يحافظ على هذه الكرامة ، اشترط لتسوية ال أزمة أن يرحل الثوار أولا ..
وبعدما يعودون إلى بلادهم، يقوم بعزل مروان رئيس ديوان الخلافة، وعزل أمراء الأمصار الذين تلاحقهم شكوى الثائرين .
وأعطى عليا وعدا صادقا ، وعهدا وثيقا بذلك.
ومن فوره ، خرج الإمام على إلى خيام المتمردين ومعه محمد بن مسلمة وسعد بن أبي وقاص ،واستطاع الإمام أن يقنعهم بالعودة والرحيل باذلا في هذا السبيل جهدا خارقا ونبيلا.

***

ومضت أيام قليلة ، واذا بالمدينة تروع ذات صباح بالثوار الذين عادوا أدراجهم ، زاحفين على المدينة ليحتلوا شوارعها ،وليفرضوا حول دار الخليفة حصارا رجيما ..!
ماذا حدث. .؟ وماذا دهى الثوار..؟!

لقد خرج إليهم رسول السلام،علي بن أبي طالب يسألهم: لماذا نكسوا العهد وعادوا .؟؟
فنشر زعماء ثوار مصر أمامه كتابا وقالوا: اعتقلنا فى الطريق رجلا أرسله مروان بهذا الكتاب الممهوربخاتم الخليفة ، وفيه أمر لوالي مصربقتلنا وصلبنا ..
وعاد الإمام يسأل ثوار الكوفة والبصرة : وأنتم، ما الذي جاء بكم..؟
قالوا :جئنا لنصرة إخواننا المصريين.
وسألهم الإمام: لكنكم ذهبتم من طريق، وهم من طريق.. فأنى لكم علم بهذا الكتاب.؟؟
لكن الوقت لم يكن وقت مناقشة وحوار: إنها الفتنة ، قد شد زنادها إلى أقصاخ ، تنتظر لمسة بنان، فتقع الكارثة ، وتحل الفاجعة. .!! ترى، ماذا كانت حقيقة ذلك الكتاب الذي قالوا إنهم ضبطوه. .؟
إما أن يكون الخليفة هوالذي كتبه، أو أملاه، أوعلم به، فأمر أبعد من المستحيل..
لقد اقسم بالله وهو صادق ، أنه ما كتبه ولا أشار بكتابته، ولا علم من ، أمره شيئا ..
ومن غير أن يقسم- رضوان الله عليه - فما ذلك بخلق رجل تحمل ألوان الأذى والوقاحات في سبيل الأ تراق قطرة دم من مسلم، حتى لو يكون هذا المسلم أحد أولئك الذين ثلموا إسلامهم بالتآمروالعصيان ا!
إذن، من الذي يحمل وزر هذا الكتاب ؟
انه أحد اثنين : إما نفر من زعماء الثوار. وإما مروان .
اما الأولون، فلإن لهم سابقة في مثل هذا التزوير، فحين عزموا أمرهم على الخروج من مصر ومن الكوفة، ومن البصرة إلى المدينة، دبر بعض زعمائهم حيلة يحملون بها أكبر عدد من المسلمين على الخروج معهم - فزوروا كتبا على لسان أم المؤمنين عائشة ، وعل لسان " طلحة و الزبير ،يدعون المسلمين يها إلى الزحف على المدينة لقتال عثمان -
ولم تعرف حقيقة هذه الخدعة الكاذبة الخاطئة ، الأ بعد وقوع الواقعة واغتيال الخليفة.
وهكذا ، لا يبدو غريبا على الظن ان يكون مزورو تلك الكتب ، هم الذين افتعلوا هذه الأكذوبة الجديدة ، واتقنوا آخر اجها .
فان لم يكونوا ..فهو إذن مروان .
ومروان - كما يعرفنا به التاريخ - لم يكن له من دينه ولامن خلقه ، ما يردعه عن اقتراف مثل ذلك العمل الموزور.
ولقد طالب الثوار بتسليمه على الفور . ولكن الخليفة الرحيم كان يرى مصيره المحتوم ان هووقع في أيديهم.. فرفض تسليمه.

لم يفعل الخليفة ذلك رضا بما فعل مروان .. وانما هي طبيعة رجل لا يطيق أبدا أن يسلم بيديه إنسانا إلى ساحة القتل والإعدام.!!
أليس هوالذي رفض من قبل إعدام عبيد الله بن عمر وكان قصاصا مشروعا ، وتحمل أمام الله مسئولية استبدال الدية بالقصاص ..؟!
إن رحمته بالآخرين ، وجزعه من رؤية الدم المسفوك ، لا يدعانه حتى في هذه الساعات الرهيبة ينجو بحياته ، ويخلص بمصيره ..!!

***

وأخرج الثوار ورقنهم الأخيرة ، ورفعوا عقائرهم في جراة ضارية : إما اعتزال عثمان، وإما قتله .
وفي ثبات مذهل، رفض الخليفة أن يعتزل. لماذا .؟ أحرصا على مجد المنصب وجاهه.؟ .
ألا فلنسأل طبائع البشر ، مذ وجد أبو البشر آدم حتى يومنا هذا . أيمكن لرجل جاوز الثمانين، أن يستبد به طموح تحيط به الأخطار والمهالك على هذا النحو المزلزل الرهيب.؟؟
لقدرفضي عثمان" إذن أن يعتزل، إنه رجل مسئوليات من طراز فريد.
وهذا خلق كان مخبوءا تحت ستار تواضعه وحيائه ، وما كنا سنراه متالقا كرائعة النهار، الا فى أزمة كهذه.. ومحنة كهذه.. وموقف كهذا الموقف الزاخر العظيم.! لقد ذكر وصية كان الرسول قد أوصاه بها : "ياعثمان.. إذا الله كساك يوما سربالا، وأرادك المنافقون على خلعه، فلا تخلعه لظالم". ولقد كساه له سربال الخلافة ..
وهاهم أولاء المتمردون الظالمون ، يريدون بقوة السلاح الأثيم في أيديهم ، أن يكرهوه على خلعه .. أفيرضخ لهم..؟؟
أفيسلم مصائر الإسلام ، وكرامة الدولة ، لعصابة مفتونة ..؟؟لا.
ولكي يستوثق من سلامة موقفه وسداده، أرسل إلى رجل من خيار أصحاب الرسول يستشيره، ذلكم هو. عبد الله بن عمر رضي الله عنه...
ولنصغ لنافع مولى ابن عمر ،ينقل إلينا الحوار الذي دار بين الخليفة وعبد الله:
الخليفة : إن هؤلاء القوم يريدون خلعي ، فإن أجبتهم تركوني، وإن ابيت قتلوني،
فماذا ترى..؟
ابن عمر : أرايت إن خلعت نفسك ، تبقى في الدنيا مخلدا ..؟
الخليفة: لا.
ابن عمر: أرايت ان لم تخلع نفسك ، هل يزيدون على قتلك شيئا ..؟؟ هل يملكون الجنة والنار..؟
الخليفة: لا..
ابن عمر: إذن، فلا تسن هذه السنة في الإسلام، ولا تخلع قميصا البسكه الله.

وإنا لنكاد نرى الفرحة تترقرق في محيا الخليفة ، وهو يستمع لهذه الكلمات ، يشد أزره بها صحابى جليل مثل عبد الله بن عمر ..!
ولكنه إذا كان قد وطد عزمه على التضحية بحياته في سبيل كرامة الدولة وكيانها ، فانه لم يتقاعس عن بذل كل جهد مستطاع لاقناع المتمردين بالقاء سلاحهم، والتخلي عن اباقهم.
وفي ذلك، كان يلجأ إلى الإمام علي كرم الله وجهه كثيرا ، بل دائما ..
والحق أن الإمام تحمل في تلك الفتن فوق طاقته .. وكانت الرياح الهوجاء التي يثيرها المتمردون من جانب ، ومروان من جانب آخر ، تتحدى زورقه المستبسل الوديع ، وتعصف بمحاولاته النبيلة ..بيد أنه لم ييأس، وظل يغالب العاصفة ، ويغطي بحواره المقنع زئيرها ، لكن الفتنة كانت قد جاوزت كل حدود التعقل ، واحتلت أعصابا متوترة إلى أقصى درجات التوتر،فلم يعد لحكمة ولا للاقناع مكان.
وحين يبلغ القلق العصبي ذروته القصوى ، فإن أصحابه يتخففون من أعبائه المرهقة بمواجهة إلأخطار التي اثارته وكانت سببا له . وهذا هو الذي حدث في نهاية المطاف..
لقد أحكم المتمردون حصارهم القاسي حول دار الخليفة ، فمنعوه زوارة .. ومنعوه الماء .. الماء الذي تفجره بئر رومة التي اشتراها من خالص ماله في أوائل أيام الهجرة إلى المدينة وجعلها هدية منه للمسلمين !!! .
ولم يكف بعض زعماء الفتنة ما انزلوه بالخليفة من أحزان ، حين توقحوا عليه بشتائم بذيئة على ملأ من الناس. .!!.
ولم بكفهم تهجم أحدهم عليه، وهو فوق منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهيأ لإلقاء خطبة الجمعة. لقد غرهم حلمه ، وأغرتهم مصابرته.
ظنوا - وكان ظن السوء- أن وراء هذا الحلم وهذه المصابرة ، حرص الخليفة على الخلافة ، وعلى الحياة..
ولم يعلموا - أو لعلهم علموا وتجاهلوا - أن وراء حلمه ومصابرته ، إدراكه الثاقب للمصير الفاجع الذي سيحيق بالأمة وبالدولة، إذا هم تسوروا حرمات السلطة، واغتالوا حياة الخليفة..!!
ولقد قال لهم ذلك من قبل: ..ان الناس قد أسرعوا إلى لفتنة وطال عليهم عمري. .
أما والله لئن فارقتهم ليتمنون لو أن عمري طال فيهم كل يوم بسنة.. وذلك مما يرون من الدماء المسفوكة .!
كان إدراكه الثاقب لهذا المصير الذي تحققت عنه نبوءته ، هو الذي يحمله على المصابرة ..بل على التوسل، كي يتخلى الثوارعن فتنتهم، لكن زعماء الفتنة الذين عملوا لها طويلا لم يكن يرضيهم الأ تفجير الأحقاد الناسفة، لتسقط الدولة كلها كسفا .

والآن وقد أحكموا قبضتهم على زمام الموقف ، فإنهم راحوا يتهيئون للضربة الأخيرة ، فحاصروا دارالخليفة استعدادا لإنزالها .
وطال الحصار ،ثم طال . حتى صار أهل المدينة من طول ايلافهم له يروحون ويغدون ويحيون حياتهم العادية في رتابتها المألوفة .
كانوا جميعا أقرب إلى اليقين بأن شيئا ما سوف يحدث، فتنجلى الأزمة ويرحل الثوار.
لم يكن أحد يتوقع - برغم ضراوة التمرد –ان يدا ستمتد إلى حياة الخليفة فتغتالها .
*إنه شيخ في الثمانين من عمره، بل جاوز الثمانين.
*وإنه من المؤمنين الأوائل المبكرين.
*وانه صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم..
*وخليفته.
*والمبشر بالجنة ..
*ومجهزجيش العسرة.
*والباذل ماله بغير حساب في سبيل الله ، ورسوله ، ودينه ..
فمن ذا الذي لا يرعى كل هذه الحرمات، ومهما يختلف مع الخليفة في أمر أو في أمور.؟؟
من ذا الذي يحمل في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ثم يجد التهور الذي يدفعه لموا جهة عثمان بسلاح قاتل رجيم. .؟
الحق أن اغتيال الخليفة رضوان الله عليه ، كشف تماما عن حقيقة المؤامرة ، وحقيقة بعض زعمائها الواغلين .. كما كشف عن تلك الكثرة المخدوعة من الناس الذين لم تكن النوايا الحسنة تنقصهم ، بيد أنهم خدعوا ، وغرر بهم ، فساروا وراء حفنة من المتربصين بالإسلام سوءا ،وأي سوء .. .!!
قلنا: إن القلق العصبي حين بلغ ذروته القصوى لا يجد أصحابه سبيلا للتخلص منه ، سوى موا جهة المخاوف التي سببته ..
ولقد سارت المجابهة القاسية حتى بلغت هذا المدى ، ولم يعد بد من أن يتهيأ المسرح لمشهد الختام .
***
*في دارالخليفة كان يقبع مروان مع نفرمن أتباعه المسلحين.
*وعلى أبوابها ، ثلة كريمة من الصحابة ، خفوا بسلاحهم لافتداء الخليفة .. فيهم الحسن والحسبن ابنا علي ، أرسلهما أبوهما العظيم ليحرسا منافذ الدار ..
وفيهم عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وآخرون..
وخارج الدار ، وحواليها من كل جانب، صفوف عريضة من الثوارالمدججين، تؤزهم أزا عنيفا تلك الآن باء التي جاءتهم بأن معاوية أرسل قوة من جيش الشام. وهي على مقربة من المدينة في الطريق إليها .!!

أما الخليفة، فقد طلع عليه صبا ح ذلك اليوم وهو في عالم آخر ، لا يكاد يعنيه شيء من كل هذه الدنيا القائمة حوله والقاعدة. .
لقد تلقى دعوة إلى الجنة.. وهو اليوم في شغل بها عن كل شيء عداها..!
ففي الأمسية السالفة، وبعد ان صلى من الليل ما صلى.. وقرأ من القرآن ما قرأ .. وألقى نفسه بين يدي ربه ضارعا مبتهلا ، آوى إلى فراشه ونام.. وفى منامه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له: افطرعندنا غدا ، يا عثمان ا!
ما أبهجها من كلمات ، بعثته في خلق جديدا!
وإنها لرؤيا حق. و عثمان أكثرالناس يقينا بصدقها .
وإذن ، فليس أمامه سوى وقت قصير لكي يتهيأ لموعد المصطفى ورحلة الخلود .
سيترك للناس دنياهم .. .
وسيدع للثوار تلك الجدران الأربعة التي يحاصرونها ، منطلقا في عرسه العظيم إلى رحاب الله ، وجوار محمد ..!
أصبح ذلك اليوم صائما . فقد كان منذ أسلم يقضي اكثر أيمه في صيام،وكل لياليه فى قيام.
ودعا جميع الذين في داره ، وأمامها ، ممن يحملون السلاح دفاعا عنه ، أن يلقوا سلاحهم، ويغادروا الدارمشكورين، وفي رعاية الله.
لكنهم أبوا جميعا أن يتركوا مواقعهم حوله ومعه ، ولا سيما الحسن ، والحسين ، وابن الزبير، وابن عمر.
بيد أنهم أمرالخليفة وإلحاحه ، ظلا يهيبان بكل حامل سلاح أن يلقي سلاحه :
" إن أعظمكم عني غناء، رجل كف نفسه ، وسلاحه" .
انأشدكم الله، الأ تهرقوا بسببي دما .
وترامى إلى سمعه هرج شديد خارج الدار، فقد أقبل من أهل المدينة ناس كثيرون اشتبكوا مع المتمردين ، وراحوا يحاولون إبعادهم عن دار الخليفة ..
وأطل الخليفة على الجمع الحأشد من شرفة داره ، ونادى المتمردين بكلما ت أخيرة ، أراد ان يبرىء بها ذمته :
"ايها الناس، لا تقتلوني.. فوالله ، لئن قتلتمونى، لا تتحابون بعدي أبدا .. ولا تصلون جميعا بعدي أبدا .. "
وعاد إلى حجرته ، فصلى ركعتين.. ثم حمل مصحفه بيديه ، وراح يقرا .. ويقرأ، متانقا بين آياته المحكمات ، وروضاته اليانعات ..!!
***
وضاقت الصدور المكبوتة تحت ضلوع زعماء الفتنة ، وخشوا أن تدور عليهم الدائرة ، فامروا بمهاجمة الدار ..
لكن الثلة الطاهرة بإمرة الحسن، والحسين، وابن الزبير، وابن عمر.. ابلت في صدهم بلاء معجزا ، حتى ردتهم عن الأبواب صاغرين.

هنالك إزداد حقدهم ضراما .. وركبتهم كل شياطين الجريمة ، فنظروا ، فإذا دار مجاورة لدارالخليفة قريبة المنال، فقرروا ان يتسوروها ،ويتسللوا إلى مكان الخليفة منها ..
واختاروا من بينهم نفرا يقوم بالمهمة على عجل،ونادوا محمد بن أبي بكر ليصحبهم..
وما هي الأ دقائق معدودة ، حتى كانت الخطة قد أنجزت ، وفجاة رأى الخليفة أمامه أولئك المتسورين ، ورأى محمد بن أبي بكر يتقدمهم ، ويمسك لحية الخليفة بيده ويهزها متوعدا .. وفي هدوء القديسين ناداه الخليفة: "يابن أخي..!!
دع لحيتي ، فوالله لقد كان أبوك يكرمها .. ولو رآك في مكانك هذا لاستحيا مما تصنع .. " !!
ودارت الأرض بمحمد .. وارتدت يده في خشوع وندم..!!
وانطلق مسرعا خارج الدار يسوق أمامه أولئك الذين كانوا قد تسوروها معه . وعلى بابها الفسيح ، وقف يزود المهاجمين..!!
وجن جنون ذلك النفرمن زعماء الفتنة ، وهزهم موقف محمد هذا ، كما لم يهزهم موقف آخر .. وتراءى لهم مصيرهم الأسود ، فشدوا على الدار المجاورة شدة واحدة ، ومن فوق سورها القريب قفزوا كالذئاب الجائعة المسعورة ، واقتحموا على الخليفة خلوته:
وكان آنئذ قد بلغ في تلاوته ، هذه الآية الكريمة:
"الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ".
لم يبال بهم ، ولعله لم يحس بتقحمهم ، فقد كانت غبطة روحه ، وأنسه بآيات ربه ، وفرحته بمأدبة الجنة التي دعي إليها .
كان كل ذلك يحجب عنه أشبا ح الشياطين ..
واستمرفي قراءته.. على حين اندفع الجناة نحوه ليقترفوا جريمتهم البشعة النكراء .. لم يقاوم، ولم يتحرك من مجلسه، ولم يتخل عن مصحفه..
ولم يزد على ان قال حين أصابت إحدى ضرباتهم إلآثمة كفه فاصابتها في صميمها :
والله انها لأول يد خطت المفصل.. وكتبت أي القرآن ..!
وحين رأى دماءه تتفجر ، فتضمخ أوراق المصحف ، طواه حتى لا تطمس الدماء بعض آياته، ثم ضمه - وهو يسلم الروح - إلى صدره.
وحين تمدد جثمانه الطهور ساكنا سكون الموت، كان كتاب الله لصيقه.. وصديقه..!
ومن أولى بذلك منه..؟؟
أليس هو الذي وحده ، وحفظه ، وافتداه ..؟!
كان الاغتيال الخاطف لحياته قد تم بين العصر والأصيل

وإذن ، فأمام روحه وقت كاف لبلوغ موعدها على مائدة الافطار ، في الجنة ، عند الغروب.!!
فلتعرج إلى بارئها ..ولتذهب إلى ضيافته في حبور عظيم. .
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك ينتظر على شوق.. وينتظر معه صاحباه، الصديق، والفاروق..
لقد تعب عثمان طويلا ، اثنتي عشرة سنة قضاها في الخلافة حاملا أعباءها ولواءها ..
ولقد كان همه الأ تسقط الراية من يمينه .. وألا يلقى الله حين يلقاه ، وعلى يديه قطرة واحدة من دماء مسلمة .
أوَ قد ظفر بمبتغاه ..؟؟
أجل .. كان الظفر حظه ، والفوز نصيبه ..
فليبق للأرض جسده ، مثخنا داميا .. أو سليما معافى ..
ذلك أمر لا يعنيه .. ما دامت روحه الطاهرة قد فازت بمستقبلها عند الله ..

في رحاب علي

" قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا الأ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى "

مقدمة

إنها لمحاولة صعبة.. محاولة تلخيص حياة الإمام وسيرته بين دفتي كتاب .. !!
والحق أقول لكم : لقد حاذرت هذه المحاولة من قبل ، وهربت منها .
فبعد أن قدمت كتابي: وجاء أبو بكر .. و بين يدي عمر .. استقبلت سيرة الإمام على لأحظى بشرف تصويرها وتقديمها ،بيد أني لم أكد أفعل حتى غشيني تهيب شديد لم يخف علي سببه.
فحياة الإمام - لا سيما في مرحلتها الأخيرة ، التي بدأت باستخلافه وانتهت باستشهاده - لم تكن حياة عادية .
إنها حياة أخرى ، تتطلب مواجهة تاريخها المكتوب مستوى غير عادي من يقظة الذهن، وجلد الأعصاب.
لقد كانت حياة تتفجر عظمة ، وجلالا ، وإعجازا .. ولكنها - أيضا - تموج بالاسى والهول موجا .!
حياة التقى فيها النصر والهزيمة .. المقدرة والورع .. البأساء والضراء .. البطولة والالم. العظمة والمأساة..لقاء بلغ في جيشانه واحتدامه ذروة خطر فريد يجعل مواجهته - ولوفي صورة كلام مسطور- أمرا صعبا ومهيبا .. من أجل ذلك تهيبت الموضوع كله.
كما تهيبت رؤية البطل في أيامها العصيبة حيث المؤامرات والفتن والحروب تقعد له بكل مرصد .. !!
كما تهيبت الصراع الرهيب ينشب بين المسلمين، ويقدم بعضهم بعضا حنطة لرحاه .. !!

***

هنالك غير زورقى اتجاهه، واستقبلت نفرا كبيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،حيث قدمتهم في كتابي: رجال حول الرسول .
وخلال لقائي المتساوق مع أولئك الأصحاب الكبار ، أخذت أعتاد شيئا فشيئا مواجهة القضية التي أجفلت بالأمس من موا جهتها ،وانثال على روعي كثير من الطمأنينة والفهم، حيث واتتني القدرة على تلبية أشواقي إلى رحاب الأمام.

***

بيد آني لم آكد آفعل حتى فاجآني إشكال جديد ، ذلك آني بما آكتب من سير وتراجم، لا أريد أن أقدم كتب تاريخ ذات نهج مدرسي، إنما يعنيني روح التاريخ.. اجل.. إني لا أؤرخ للوقائع.. وإنما أؤرخ للعظمة الإنسانية المستكنة في الوقائع والأحداث..
وطريقتى أن اصحب التاريخ في كل تفاصيله، بل ومتاهاته، ثم أعود من رحلتي هذه ، لأصوغ رؤيتي التاريخية في شىء أشبه باللوحة يتألق عليها جوهر الشخصية ، وحظها المتفرد من التفوق والعظمة.
وفي سيرة الإمام علي تزدحم التفاصيل والوقائع ازدحاما لا يؤذن بانتهاء.. حتى لقد خشيت أن أزيغ عن نهجي في زحمة تلك الأحداث الرهيبة، والوقالع التي تملأ الزما ن والمكان.
لكنني لم أكد أمضي على الطريق حتى صادفني يسر عجيب، جعلني أهتف من أعماق روح شاكرة: - الأ حيا الله بركات الإمام.. ا!
وهكذا ، لا تجىء هذه العبا رة: " فى رحا ب الإمام" مجرد عنوان الكتاب.. انما هي تعبير متواضع عن ذلك الذخر المفيض الذي يجده الميممون وجوههم صوب علي - الحواري العظيم للرسول صلى الله عليه وسلم .. والابن البار للإسلام!
فمن عظمة نفسه، ونبل شمائله، وإعجاز بيانه وبلائه، تنداح رحاب ليس لها أبعاد، تتلألأ عليها بطولات وتضحيات، عظائم وأمجاد ، تكاد تحسبها - لولا صدق التاريخ - أحلاما و أساطير.!!

***

ولكم وددت لو يطول في هذه المقدمة حديثي .. فما أجمل القول عندما يكون موضوعه رجلا من طراز على ، بيد أنه ليس من حقي، وقد دعتنا مقاديرنا السعيدة لقاء الإمام على هذه الصفحات، أن أطيل وقفتكم على الباب.
فلأفسح لكم الطريق لتفضوا إلى رحاب ما أثراها ، وما أبرها من رحاب..!
يا أبا السبطين ... يا أبا الحسنين..
اذا كنا نجاوز قدرنا بهذا اللقاء ، فإن عظمة نفسك الراضية الزاكية تعطينا حق الرجاء ، في أن تتقبلنا ضيوفا على سيرتك الوضيئة الجليلة . وضيوفا على رحابك المفيئة الجزيلة.
صلى الله عليك ...

خالد

الفصل الأول الابن والحفيد

وورث فرع المجد من آل هاشم   وجاء كريما من كرام أماثل !

جلس الفتى مبهور الآن فاس، مشدود المشاعر، وسط القوم الذين احاطوا بوالده، وهو يحتضر... كان احتضار ابيه يشغله ويحزنه.
لكنه مع ذلك، وربما فوق ذلك، كان يشغله ويستغرق وعيه وفطنته، ولعه الشديد بأن يرى: كيف يلتقي الاثنان وجها لوجه، البطولة والموت..!!
ألا انها لفرصة فريدة للفتى المشغوف بالمعرفة، فإن ممثل البطولة في زمانه يتهيأ الآن للرحيل، ويقترب الموت منه في حفاوة صديق!
فلينتظرالفتى - ما شاء- كيف يواجه الأبطال الموت.
* **
وتململ الشيخ المحتضر في فراشه، وأشار إلى الذين حوله لينهضوه قليلا ، حتى إذا اقاموا ظهره ورفعوا رأسه،عانقتهم من عينيه نظرات حانية، امتدت واتسعت حتى وجدوا بردها في صدورهم! ثم راح يوجه إليهم كلمات، أراد ان تكون آخر عهده بهم، وبالدنيا ا!
يامعشر قريش... أوصيكم بتعظيم هذا البيت - الكعبة - فإن فيه مرضاة الرب، وقواع العيش... صلوا ارحامكم، ولاتقطعوا، فان صلة الرحم منسأة في الأجل.. اتركوا البغي، فقد أهلك القرون من قبلكم...
يا معشر قريش..
اجيبوا الداعي، واعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة وشرف الممات..
وعليكم بصدق الحديث.. وأداء الأمانة..
ألا واني أوصيكم بمحمد خيرا ، فانه الأمين في قريش، والصادق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به..
ولقد جاءنا بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن...
وأيم الله لكأنى أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الأطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت...
ولكأني به وقد محضته العرب ودادها، وأعطته قيادها...
والله، لا يسلك أحد سبيله الأ رشد، ولا يهتدي بهديه الأ سعد.
" ولو كان في العمر بقية، لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي ".
ثم وضع عينيه على أهله ل ا قربين منبني ها شم، وا ختصهم بوصية ا خرى.
... وانتم يا معشر بنيهاشم.
" اجيبوا محمدا وصدقوه ، تفلحوا وترشدوا " ا! .
وأومأ إليهم، ليعيدوه إلى ضجعته !!لأولى ، واستوى تحت غطائه..
وعبرت لحظات ، تغشته بعدها سكينة الموت !!
لقد أدى الراحل المسجى ، آخر الامانات لديه .. أمانة كان يحاذر ان تعجزه رهبة الموت عن أدائها !!
ومال رأسه المثقل بالخوف ، على صدره المثقل بالإشفا ق ..
ولكن..الخوف ممن.؟ والاشفاق على من..؟

الخوف من قريش .. والاشفاق على ابن اخيه الذي حشدت قريش له كل كيدها وبأسها ، لانه يهتف فيهم : - أن لا الله الأ الله ..!!
أعرفتم الآن عمن نتحدث.. ؟
اجل - انه هو ..أبو طالب ، شيخ قريش ، وسيد جيله ..
وأما الفتى الذي كان يجلس مبهور الآن فاس ، مشدود المشاعر ، فهو ابنه وفتاه :
علي بن أبي طالب! انظروا..
هاهو ذا ، يقبل جبين أبيه، ثم يسجيه، ثم ينهض في ثبات ليدبر أمره...
إن غبطة ظاهرة تزاحم في نفسه كل مشاعر الحزن والفجيعة إذ رأى أباه يموت - حين يموت - لا صامتا ، ولا مخذولا .. بل خطيبا ، يلخص في كلمات سواطع كل فضائل حياته التي عاشها فوق الأرض وبين الناس ، ويواصل في الحاح نبيل وقفته إلى جانب تلك الفضائل ، وإلى جانب الممثل الجديد والمجيد لها ..الداعى إلى الله بإذنه ..
محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم !.
اجل .. فبقدر ما أحزن الابن فقد والده ، كانت غبطته إذ تلقى في لحظة الختام هذه أصدق عظات الحياة وأروعها : عظموا الكعبة .. صلوا الرحم. . اتركوا البغي.. اجيبوا الداعي.. كونوا صا دقين .. عيشوا أمناء.
وأولا واخيرا : انصروا محمدا .. فإنه الهادي إلى سواء السبيل.!.
***
من صلب هذا الوالد جاء علي .
لقد كانت قريش كلها تنظر إلى أبي طالب نظرتها إلى زعيم.
الكل يحبه ، ويهابه ، ويحترمه ، لا لمكانته في قريش فحسب ، بل قبل هذا وذاك ، لما يحمله من نفس كريمة ، وخصال عظيمة ، وشخصية عادلة فاضلة ، تبهر الناس بقوتها واستقامتها ، وشموخها وإنه ليكفينا في التعرف إلى شخصية هذا البطل لمسات من مواقفه تجاه الإسلام، وقريش..
لقد وقع على كاهله دون أعمام النبي جميعا ، ودون أهله وعشيرته كلهم ، عبء منا صرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومقاومة قريش ..
وثبت الرجل ثباتا باهرا أمام مناورات ومؤامرات تهد الجبال !!
ذلك أنه كان أوسع رجال قريش أفقا وأذكاهم قلبا ، وأوفرهم جسارة وعزما .
***
في الأيام !!لأولى لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، رأى أبو طالب ولده - عليا يصلى خفية وراء الرسول ، وكانت هذه أول مرة يعلم أن ابنه الصغير السن ، قد اتبع محمدا .
وما اضطرب الطفل حين رأى أباه يبصره مصليا .
ولما أتم صلاته ذهب للقاء والده ، وقال له فى صراحة وثبات ليسا بطارئين عليه : "يا أبت .. لقد آمنت بالله ، وبرسوله ، وصدقت ما جاء به ، واتبعته ..

فاجابه أبو طالب :
" أما انه لا يدعوك الأ إلى الخير فالزمه".
ليس ذلك فحسب .. بلم إنه رأى النبي يوما يصلي، وقد وقف علي إلى يمينه.
ولمح من بعيد ولده جعفرا فناداه، حتى إذا أقترب منه قال له :
" صل جناح ابن عمك صل عن يساره " ..
سعة افق ، وذكاء قلب يحملان صاحبهما على إفساح الطريق للحقيقة الجديدة حتى تأخذ فرصتها وتثبت صدقها وأحقيتها .
ولو أن إنسانا آخر غير محمد عصلى الله عليه وسلم هو الذي جاء بهذه الدعوة ، ما تخلف أبو طالب عن نصرته .
فهو - كما نراه فى أخباره وسيرته - من أولئك الأذكياء المنصفين الذين لا يتورطون
في حماقة تجميد الزمن والحجر على المستقبل..
وهو - كما رأينا في وصيته عند موته - من المؤمنين بقوة الفضيلة والخير ولقد عاش حياته يناصركل دعوة وكل داعية في هذا السبيل.
***
وأبو طالب بعد هذا ،أعلم الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم فهو عمه ، وكافله ، ومربيه ..
انه يعرفه إنسانا كاملا .. صا دقا ، لم يعهد عليه كذبا قط ... أمينا ، لم تشب أمانته شائبة . طاهرا ، لم تعلق به شبهة . ولطالما رآه يتفجر شوقا إلى رؤية الحقيقة..
ولطالما رآه يضطرم هما وأسى على أهله وقومه الذين ألغوا عقولهم ووجودهم أمام حجارة مركومة زعموها آلهة وأربابا .. ا! فهل يتخلى عنه هو الذي لم يكن سيتخلى عن أي غريب آخر جاء يحمل رايته ويعلن دعوته ؟! لقد كان أبو طالب عظيما بشخصيته ، وبمواهبه ، وبسجاياه ..
ولقد وقف إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإسلام الناشئ الموقف الذي تمليه عليه رجولته وعظمة نفسه.
***
لقد صمد لقريش ، وأحبط كل مكائدها ، حتى لم تجد آخر الأمر بدا من أن تلجأ إلى عمل تأباه تقاليد العرب وأخلاقهم. وذلك حين يئست من ثنى الرسول عن دعوته، ومن ثني ابي طالب عن مناصرته، فقرر زعماؤها مقاطعة بني هاشم و بني المطلب .
وفعلا ، انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، واقاموا معه في شعبهم .. ولبثوا داخل هذا الحصار الرهيب قرابة أعوام ثلاثة ، حتى أكلوا ورق الشجر اليابس ليدرءوا به غوائل الجوع.
وأبو طالب كالطود شموخا ورسوخا ، يرفض كل مساومة تحاولها قريش ، ويسلط عليهم موهبته الشعرية فينفحهم بالقصيد تلو القصيد ..

افيقوا افيقوا قبلان يحفرالثرى ويصبح من لم يجن ذنبا كذي الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا أواصرنا بعد المودة والقرب
فلسنا ورب البيت نسلم أحمدا لضراء من عض الزمان ولاكرب
ولما تبن منا ومنكم سوالف وايد أترت بالقساسية الشهب
إن أبا طالب إذا آمن بشيء ، كان إيمانه قويا صلبا ..
نفس الصلابة والقوة اللتين ورثهما عنه ولده على ، بل بنوه أجمعون..
ولقد آمن أبو طالب بحق الرسول ٠ في أن يقول كلمته ، ويبلغ دعوته، فإن كانت حقا ، فمن حق الحق أن ينتصر ويسود . وإن كانت باطلا ،فان الباطل سيذهب جفاء ..
من أجل هذا قاوم قريشا عندما رأها تفرض الصمت على الرسول صلى الله عليه وسلم ..
اجل. انه لا يقف مع محمد ابن أخيه...
وإنما يقف مع محمد الداعي إلى الحق، وإلى الخير. . محمد الصادق والأمين ...
ولو شك أبو طالب في صدق أبن أخيه ما ناصره ولا ظاهره.
فهو إنما يناصرفيه الحق ، لا القرابة.. !
و ليس ادل علي ذلك من موقفه يوم أنبأه الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة التي كانت قريش قد سطرت فيها عهدها بمقاطعة بني هاشم وبني المطلب، وعلقتها فى جوف الكعبة. أنبأه الرسول ان الله قد سلط عليها الأرضة فأكلتها ، ولم تبق منها الأ اسم الله.
هنالك ذهب أبو طالب إلى قريش في ناديهم وقال لهم : أيامعشرقريش. إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا ، فهلم صحيفتكم، فإن تك كما قال محمد فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها .. وإن يك كاذبا .. دفعته إليكم ! ...
ورضى زعما ء قريش هذا .. وقاموا على الكعبة ، وجاءوا بالصحيفة من مكانها ، فإذا الأمر كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام. وسقط في أيديهم، وخرج الناس من عهد المقاطعة، وباءت المؤامرة بالهزيمة والفشل.
إن أبا طالب هنا يحتكم إلى حق الصدق في أن يحمى .. لا إلى حق القرابة في أن تشايع..!
فهو يقول لقريش : - إذا تبين صدق محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الواقعة التي يمكن التثبت منها في يسر، فله عليكم الحجة .
وإذا تبين كذبه، فأنا لا أحمى الكاذبين.. وحاشا رسون الله صلى الله عليه وسلم الأ يكون صادقا .. ا!
ومن قبل هذا،عندما ذهب وفد قريش إلى أبي طالب قائلين له: إن لك فينا سنا، وشرفا ، ومنزلة.. وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ..
وإنا لانصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وعيب آلهتنا ، وتسفيه أحلامنا ..
" فاما أن تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك منا أحد الفريقين " ..

حين قالوا له ذلك ، وحين جاءه رد الرسول : " لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يساري،ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله، أوأهلك دونه".
إزداد الطود شموخا ، والعزم مضاء ، وراح البطل أبو طالب يلفح قريشا بصلابته وإصراره ويقول:
ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا
والله، لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
مرةأخرى :هذا هوالرجل الذي من صلبه جاء علي ...
***
كان يجلس ذات يوم في سقيفة له، عندما أقبل عليه الرسول صلى الله عليه وسلم حزينا آسفا ...
وتحراه الأمر .. فعلم أن قريشا أغرت به سفيها من سفهائها فألقى عليه روثا ودما وهو ساجد فى الكعبة يناجى ربه ، وخالقه .. !!
فنهض من فوره ، حاملا سيفه بيمينه ، متأبطا ذراع النبي بيساره حتى إذا وقف على المتآمرين، ورآهم يتململون حين بصروا به مقبلا ، وصاح فيهم : "والذي يؤمن به محمد ، لئن قا م منكم أحد ، لاعاجلنه بسيفي " .
ورا ح يمسح الروث والدم بيده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقذف به على وجوهم جميعا .. وجوه أشراف قريش الذين تحولوا أمام البطل إلى جرذان..!
ولقد أدركت قريش آخر الأمر ، أنها لن تنال من الرسول منالا وأبو طالب إلى جواره ، يذود عنه ويحميه .
***
لقد أحب أبو طالب في ابن اخيه كل الفضائل التي كان يعشقها ويقدسها ، والتي رأى الرسول يرفع لواءها في ولاء منقطع النظير...
ولقد عبر عن حبه ذاك بإرادته الصلبة في تلك المواقف التي رأينا طرفا منها .. كما
عبر عنها بموهبته الفنية في شعره البليغ :
لقد علموا ان ابننا لا مكذب لدينا   ، ولا يعنى بقول الاباطل
حليم، رشيد، عادل غير طائش   يوالي إلها، ليس عنه بغافل
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى، عصمة للارامل
***
ومات أبو طالب.. مات ، وملء فؤاده ميل عام إلى الدين الجديد ، وحنان مفيض ، على رسوله المجيد .
واشتد أذى قريش للرسول صلى الله عليه وسلم ...
وذات يوم وقد اشتدت عليه وطاة المشركين واذاهم، وجه لعمه تحية يستحقها حين قال :
" ما نالت مني قريش شيئا أكرهه ، حتى مات أبو طالب " !!

ثم هز رأسه العظيم في أسى وقال: "ياعم.. ما أسرع ما وجدت فقدك ".
هل كان علي ابن هذا البطل فحسب. ؟
لا .. بل كان حفيد بطل آخر ، عظيم أي عظيم !! ذلكم هو : عبد المطلب ...
وبوقفة سريعة نقفها مع فضائل عبد المطلب ، وسجاياه العظيمة، يتبين لنا أن عليا لم يرث عن أبيه فضائل طارئة .. بل ورث فضائل أصيلة وعريقة ، سارت مسير النور عبر أصلاب نقية شامخة ...
فمن يكون ذلك السيد الماجد -عبد المطلب .. ؟
انه الرجل الذي بلغ في قريش وفي العرب جميعا منزلة لم يكد يبلغها أحد.
وعندما يزدحم الحجيج حول زمزم في مواسم الحج كل عام، فإن عليهم ان يذكروا بالخيروالإجلال، الرجل الذي حفرها وتفجرت على يديه البرتين مياهها .
ومن عساه يكون غير عبد المطلب.. ؟
لقد استقبلت روحه الصافية ذات ليلة وهو نائم هاتفا هتف به في رؤيا حق، يقول له : احفر طيبة . واستيقظ من نومه، لا يدري ما تعبير رؤياء.
بيد أنهم الهاتف زاره في الليلة التالية، وقال له: احفر برة. واستيقظ كذلك دون أن يدري ماذا يراد منه، وماذا يراد له.
وفي الليلة الثا لثة نودي مرة أخرى في منامه : احفر زمزم..
- قال: وما زمزم .. ؟؟
اجابها الهاتف : لاتنزف أبدا ، ولا تذم. تسقي الحجيج الأعظم!!
ودل على مكانها..
ولم يكد يطلع النهارحتى اصطحب ابنه الحارث وذهبا حيث راحا يغوصان في الأرض بمعاولهما ، ففجرت مياه النبع المبارك الخالد الذي كانت الأقدار الرحيمة قد منحته اسماعيل و أمه وسط الصحراء اللاهبة في الدهر البعيد ، ثم طمرته الصخور والرمال! .
إن عبد المطلب، أو شيبة كما كان اسمه الحقيقي، لرجل فذ ، من طراز باهر، بقدر ماهو نادر... وهل يكون الجد الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الجد الأول لعلي بن أبي طالب الأ رجلا تصنعه الأقدار على عينها .. ؟
لقد كان ذكره يملأ صحراء العرب من شمالها إلى جنوبها شذى وعبيرا ..
ومن كثرة محامده دعاه الناس .. شيبة الحمد .. وكانوا يصفونه بأنه : الرجل الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش في الجبال.
وكان غزير الحكمة ، عميق الإيمان ..
عندما غزا أبرهة مكة ليهدم الكعبة .وجاء في جيش لجب لا طاقة لقريش بمقاومته، فزعت قريش إلى شيخها وزعيمها - عبد المطلب - تسأله الرأي ..
فأمرهم عبد المطلب - وقد أدرك عجز قومه عن مجابهة الجيش الزاحف - ان يحملوا نساءهم وأطفالهم ، ومتاعهم ، ويغادروا مكة إلى شعاف الجبال ، تاركين البلد الحرام مدينة مفتوحة يتولى رب البيت حراستها ...

اما إذا حاول الجيش المقتحم ان يتسور الجبال وراءهم ليعتدي على أعراضهم ، فليسقطوا جميعا صعى قبل أن تمس أعراضهم بسوء..
ونفس الموقف وقفه من أبرهة عندما طلب أن يتحدث إلى زعيم قريش ، فذهب إليه عبد المطلب . وهنا ألقى على مسامعه كلمته الماثورة : " أما الابل، فهي لي.. وأما البيت، فله رب يحميه " .

***

لم باخذ شيبة الحمد هذا الموقف الأ بدافع إيمانه الوثيق القوي بالله وبقدرته.
من أجل ذلك،لا يكاد يرجع من لقائه لأبرهة حتى يتجه من فوره إلى البيت الحرام.
وهناك يأخذ بحلقتى باب الكعبة ، ويمضى يناجى الله فى إيمان الواثق بنصره...
" لا هم إن المرء يمنع رحله ، فامنع رحالك " .
ولكن، ماذا لوتركت ألاقدار أبرهة يهدم البيت ،وأين يذهب عنئذ إيمان عبد المطلب بالله .؟
هنا يبزغ عمق إيمانه ، وأصالة حكمته ، وهو يستكمل مناجاة الله قائلا : " إن كنت تاركهم وكعبتنا ، فامر ما بدا لك " ؟
أجل .. فحتى إذا وقع ما يخشاه عبد المطلب ، وما يحاذره من أبرهة وجيشه ، وهدمهم بيت الله الحرام..
حتى ان حدث ذلك، فإن إيمان عبد المطلب بالله لن يزل ولن يخبو . وسيحدث ما يحدث إنفإذا لحكمة يعلمها الله ... !!
هذا إيمان رجل الهي ، تموج الأرض من حوله بالوثنيية لا في جزيرة العرب وحدها .. بل في بلاد الحضارة نفسها في فارس و الروم في حين يسيطرعلى وجدانه شعور خفي بأن هناك إلها أسمي، وأجل، وأعظم. ..
إن إيمان عبد المطلب يبدو نقيا ، تقيا في مناجاته تلك التي مرت بنا الآن
لقد كان يقبع حول الكعبة أكثرمن ثلاثمائة صنم، لم يدعها عبد المطلب لتحمي الكعبة...
لم يناد "هبل" ولا "اللات" ولا "العزى" !
ولم يناد شيئا من تلك الأوثان والأصنام التي لا يفصلها عن الكعبة بعد أو مسافة...
انما نادى الله .. وضرع إلى الله العلي الأعلى ، الذي كان شعوره الكامن في أعماقه يدل عليه.. ويشير به إليه . فقال مناجيا له وضارعا : " لا هم ، ان المرء يمنع رحله ، فامنع رحالك ؛ !! .

* **

ولقد وجد إيمان عبد المطلب مثوبته العاجلة ، فى الضربة الماحقة التى وجهها القدر العظيم لأبرهة وجيشه .. إذ سلط عليهم الله أضعف جنده .. طيرا أبابيل ، حملت إليهم المنايا ،وخلفتهم صرعى وأحاديث!
كان عبد المطلب يمن قومه وبركتهم.

وكأي من مرة حجبت السماء عنهم غيثها ، وكاد القحط يقتلهم ، فيذهبون إلى شيخهم عبد المطلب الذي يخرج بهم صفوفا ضارعة خاشعة إلى قنن الجبال، حيث يضرع إلى الله كي ينزل المطر ، مبتهلا بهذه الكلمات : اللهم هؤلاء عبيدك وأبناء عبيدك ، وقد نزل بنا ما ترى ، فاذهب عنا الجدب ، وآتنا بالمطر والخصب " .. ا! فلا يلبثون الأ قليلا .. ثم تجيء الأمطار الكريمة رحيمة، تنبت، وتحيي، و تنعش..

****

الحق إنه إيمان عجيب.. إيمان هذا الرجل الفريد فى عصر كانت الوثنية دينه وصلاته.. !!
إن عبد المطلب، ليرى الله فى كل نعمة يؤتاها ، وفى كل خطوة يخطوها ..
عندما بشر بمولد حفيده محمد بن عبدالله – صلى الله عليه وعلى الله وصحبه وسلم - حمل الوليد فوق ذراعيه وصدره ، وذهب به مسرعا إلى الكعبة حيث صلى صلاة شكر وحمد ..وراح يقول:
الحمدلله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالله ذي الأركان
حتى أراه بالغ البنيان
ولقد دلته شفافية روحه على ما سيكون لهذا الوليد من شأن عظيم .. فأحبه حبا ما أحب مثله أحدا .. وراح يعامله في طفولته معاملة صديق! وفى كل مناسبة ، كان يأخذ يد ابنه أبي طالب ويضعها في يد حفيده محمد عليه الصلاة وا لسلام، ويقول لأبي طالب في إحساس من يكاد يرى الغيب المقبل رأي العين : "يا أباطالب سيكون لابني هذا شأن فاحفظه ، ولا تدع مكروها يصل إليه " !
ولقد حفظ أبو طالب العهد ، ورعى ابن أخيه ، ووصية أبيه ، رعاية تليق برجولته ، وبأرومته ٠ وبعظمة سجاياه ...
وحينما خلت الديار من الجد ، ومن الأب ، كان علي الابن والحفيد .. ابن أبي طالب ، وحفيد عبد المطلب يحمل منهما ميراث السجايا الفاضلة ، والعظمة المفردة ...
كان يحمل منهما نبالة الخلق .. ونبالة الدم معا ..
فبنو هاشم في ميزان المجتمع ، سادته ، وقادته ، و أشرافه ..
وبنو هاشم في ميزان القيم ، أجود الناس كفا .. وأوفاهم ذمة .. وأنداهم عطاء .. وأكثرهم في سبيل الخير بلاء .. واحما هم للذمار.. واحفظهم للجار.
وبكلمة واحدة: هم في قومهم وزمانهم، ضمير أولئك القوم، وذلك الزمان.. !
****
ولعلنا الآن قادرون على أن نعرف ماذا أخذ الابن عن أبيه ، والحفيد عن جده ؟ ماذا تلقى علي من أبي طالب، ومن عبد المطلب.. ؟ ماذا أخذ عنهما ، وماذا ورث ؟
لقد أخذ الفضائل كلها ،وورث المكرمات جميعها .. ورث عنهما مضاء البذل و مضاء العزم و مضاء العقيدة !!
أجل .. هذه هي السمة المميزة لهذا الميراث الجليل .. المضاء الذي يجعل فضائل هؤلاء القوم مهيأة دائما للنجدة والعمل ا!
كل قوى الخير فيهم مشحوذة ماضية، لا تعرف الوهن، ولا التردد ، ولا الاسترخاء .

وسوف نرى ذلك واضحا أكثر ما يكون الوضوح في علي الابن والحفيد .. ولا سيما بعد أن تدخل هذه الفضائل الموروثة في مختبرات الدين القيم ، والإسلام الحنيف ، فتخرج خبئها النفيس، ويزداد القها الفريد.
وثمة أمر آخر سنراه واضحا في حياة علي ، كما هو واضح في خصال جده عبد المطلب.. ذلكم هو التفويض الذي يكاد يكون مطلقا ...
لقد رأينا عبد المطلب حينما نزل به وبقومه ما لا طاقة لهم به يفوض الأمر إلى الله في بساطة عجيبة ، بل قولوا فى مثل براءة الأطفال!!
ذلك لأنه لم يكن تفويض العاجزين الواهنين، بل تفويض مؤمن بأن الله هناك. . وراء كل حركة وكل عمل.. وإن ما تعجز قوى الخير من البشر عن انجازه، يتولى هو أمره وحسابه ... تفويض حلو ، ورائع .. ورثه فتانا فيما ورث .
ولسوف نرى عليا في مقبل حياته وأيامه حين تنزل به الشدائد الثقال، يفوض الأمر إلى ربه في فن عظيم.
وسنرى وراء هذا التفويض حين نلقاه إيمان الأبرار ، لا استسلام العجزة.
وسنراه وهو يفوض الأمر إلى عالم الغيب والشهادة لا تشغله نتائج الموقف وعواقبه .
ذلك أن ابن أبي طالب، في حياته ، وفي صراعه، لم يكن يعنيه إحراز أي انتصار لشخصه ، أو غلبة لذاته .. إنما كان يعنيه ، ويأسر لبه ، ويستغرق وعيه وجهده - فوز المبادئ التي آمن بها ، وحمل أمام الله مسئولياتها ... وعلى رأس هذه المبادئ كلها الإيمان بالله، وحسن الاعتماد عليه...

***

لقد رأى ولاء أبيه لما كان يراه حقا وورث ولاء جده عبد المطلب، ومن قبل جده هاشم لما كانا يريانه حقا ...
لقد جاء من أصلاب قوم عرفوا بأنهم حماة العقيدة وحماة الفضائل ، وسدنة الخير..
على الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة الإله الذي إليه يلجئون ، وعليه يتوكلون ، فإن ولاءهم لقوته القاهرة وفضله الرحيم كان على الدوام مشحوذا .. فكيف بولاء على وقدعرف حقيقة الله واهتدى اليه.؟! ولكن : كيف عرف.. وكيف اهتدى.. ؟! تعالوا لنرى...

* **

أتبصرون هذه الدار البسيطة ، والجليلة . إن الفتى الذي نقفو أثره ، هناك ... انه مع ابن عمه .. محمد بن عبد الله رسول رب العالمين .
ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد استأذن عمه أبا طالب منذ عهد بعيد ، وقبل موته ببضع سنين كي يترك له عليا، يعيش معه في داره ودار خديجة زوجه، فأذن له.
وانه الآن في تلك الدار التي يرسم الوحي داخل جدرانها خارطة عالم جديد مقبل، وبشرية جديدة وافدة.. !

يا له من فتى مبارك، محظوظ!!
إن وراثاته المجيدة تزدهر الآن بين يدي أستاذ قدير.. هو ابن عمه، وواصله بربه، وهاديه إلى صراط مستقيم ...
فإلى هذه الدارالمباركة ، لنصحب عليا فى رحلة حياته المجيدة..
اليها تعالوا نمضي خاشعين. .

الفصل الثاني الربيب والسابق

من كنت مولاء .. فعلى مولاه   (الرسول صلى الله عليه وسلم"

ها نحن أولاء ، نقترب .. ها نحن أولاء ،على إلأبواب. ماذا..؟ الأ تسمعون..؟
إن رنينا عذبا يجيء من داخل.. إن قرآنا عجبا يتلى .. إن أهل الدار يصلون. ترى من هناك؟
لا أحد - طبعا سوى الرسول صلى الله عليه وسلم يؤم وراءه في الصلاة ابن عمه عليا وزوجه خديجة وخادمه زيد بن حارثة . يا لجلال المشهد .
ويا لروعة الآيات التي ينبعث من داخل الدار عبيرها الشهي ، ورنينها القوي .. فلنصغ في خشوع وتقوى.
بسم الله الرحمن الرحيم
" حم (1" تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2" إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3" وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيات لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4" وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أنزل الله مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5" تِلْكَ آيات اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6" وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7""
***
لقد سكن الصوت .. لعلهم الآن يركعون، ويسجدون.. ! لعلهم يسبحون ، ويستغفرون ا!
لعلهم يتدبرون، ويتأملون ا! فلنبق مكاننا مواصلين خشوعنا وإصغاءنا .. ان الرنين العذب يعود.. وهاهو ذا يعلو في جماله وجلاله ، فاستمعوا يا صحاب .
" ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18" إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19" هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20" أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (21" وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (22" أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ

يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23" وَقَالُوا مَا هِيَ الأ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا الأ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ الأ يَظُنُّونَ (24" وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ الأ أن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25" قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26"

***

هنا يعيش علي ويحيا ..
أجل ،هنا مذ كان محمد عليه السلام عابدا يبحث عن الحق ،ويتعبد في غار حراء ، ويقلب وجهه في السماء ، وكأنه على موعد يترقبه ويتعجله. وهو هنا يعيش بعد أن أوحي إلى الرسول ودعته السماء ليقول كلمتها ، ويبلغ رسالتها . وعندما بدأت أيام الرسالة !!الأولى .. بل عندما بدات أولى ساعاتها ولحظاتها - كان هناك ثلاثة يلحظون التغير الهائل الذي أخذ يرسم سيماه على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم: هم : خديجة - زوجته . وعلي- ابن عمه. وزيد - خادمه . ولقد أسلموا بهذا الترتيب أيضا .
سأله علي وهوابن عشر سنين لاغير:
- ماذا أراك تصنع .. ؟
وأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم:
- إني أصلي لله رب العالمين.
وسأل على: - ومن يكون رب العالمين.. ؟
وعلمه الرسول وهدا : - إنه الله واحد .. لا شريك له .. له الخلق .. وبيد٥ الأمر .. يحيي ويميت .. وهو على كل شيء قدير.
ولم يتردد الغلام المبارك ، فاسلم .. وكان أول المسلمين .. في حين كانت خديجة رضى الله عنها اولى المسلمات . ومن ذلك اليوم، وهو مع النبي لا يفارقه، يصلي معه، ويصلي اليه، ويراه وهو يتهيأ لتلقي الوحي.. وكم من آية ، وآيات ، كان هو أول من يسمعها وهي لا تزال حديثة العهد بمنزلها وموحيها. وأخذ الذين اصطفتهم السماء لصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم يقبلون عليه مؤمنين:
أبو بكر الصديق.. فعثمان، والزبير، وطلحة، وابن عوف، وسعد بن أبي وقاص.. فابو عبيدة، وابو سلمة، والأرقم، وابناء مظعون، وخباب، وسعيد بن زيد ، وعما ر، وعمير، وابن مسعود الذين كتب لهم حظ السبق إلى الإسلام.
وصارت دارالأرقم على الصفا مكان لقائهم، يلتقون فيه خفية وسرا ، فيتلوعليهم الرسول ما يتنزل به الوحي على قلبه، ويصلي بهم، ويبارك إيمانهم.

***

لم يغب على عن دارالأرقم قط ولم يفته من مشاهدها الخالدة مشهد واحد..

وتحت سقفها...وكذلك تحت سقف الدار التي يسكنها النبي،ويقيم علي معه
فيها طالما سمع آيات الله تتلى. وطالما غمرته أنوارالنبوة تغسل حوبه وذنبه..
ماذا.؟!
!!قول تغسل حوبه وذنبه... ؟! ولكن متى كان له حوب أو ذنب..؟
متى، وهو الذي ولد في الإيمان، والعبادة، والهدى... ؟
إنه وهو في السادسة من عمره بدأ يعيش مع محمد الصادق الأمين، يتأدب
على يديه، ويتأثر بطهره، وعظمة نفسه، وتقى ضميره وسلوكه.. وحين بلغ
العاشرة، كان الوحي قد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم: بالدعوة.وكان هو
سابق المسلمين!!
وسارت حياته من ذلك اليوم إلى ان يجي، اليوم الذي سيلقى فيه ربه.. تطبيقا
كاملا وأمينا لمنهج الرسول وتعاليم القرآن . الأ بوركت هذه الحياة!! حياة لم
تكن لها قط، صبوة، ولا شبوة، ولا هفوة!! حياة، ولد صا حبها، وتبعات الرجال
فوق كاهله!!
حتى لهو إلأطفال، لم يكن لحيا ة ابن أبي طالب فيه حظ ولانصيب..
فلا مزاميرالبادية، ولا أغاني السمار، شبع منها سمع الطفل، ووجدان الشاب..
لكأن المقادير كانت تدخر سمعه ووجدانه ، لكلمات آخرى ستغير وجه الأرض ،
ووجه الحياة! اجل .. لقد ادخر سمع الفتى وقلبه ، ليتلقى بهما كما لم يتلق أحد
مثله آيات الله العلي الكبير.
أرأيتم الآيات التي سمعناها من قبل . ؟
فلنتصور عليا وهو يسمعها طازجة ، مشرقة ، متألقة ، حديثة العهد بربها ، يرتله
رسول رب العالمين .. !!
ولكن :لا.. فلن نستطيع ان نتصور، أو حتى نتخيل!
وحسبنا ونحن نطالع هذه الحياة ان نقدر على متابعة الكلمات التي تروي
أنباءها وعجائبها .. !

* **

وفى نورهذه الآيات المنزلة، والتى كان الوحى يجىءبها تباعا، قضى على بن
أبي طالب بواكير حياته النضرة ، يبهره نورها .. وبهزه هديرها .
يسمع آية الجنة يتلوها الرسول ويؤب ، فكأنما الغلام الرشيد يراها رأي العين ،
حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من مباهجها وأعنابها !
ويسمع آية النار ، فيرتعد كالعصفور دهمه إعصار .. ولولا جلال الصلاة وحرمتها
لولى هاربا من لفح النار الذي يكاد يحسه ويراه !
أما إذا سمع آية تصف الله في عظمته ، وجلاله ، أو آية تعاتب الناس على
إشراكهم بالله ما ليس لهم به علم ، وجحودهم فضله ونعمته .. فعندئذ يتحول
الغلام الرأشد إلى دوب تقى وحياء ! لقد أشرب قلبه جمال القرآن ، وجلاله ،
وأسراره ... هذا الذي كان يشهد نزوله آية ، آية حتى صار جديرا بأن يقول وهو

صادق :" سلوني، وسلونى، وسلوني عن كتاب الله ما شئتم... فوالله مامن آية من آياته الأ وأنا أعلم أنزلت في ليل، أم في نهار " !
وحتى كان كما وصفه الحسن البصري رضي الله عنه : "أعطى القرآن عزائمه، وعلمه، وعمله.. فكان منه في رياض مونقة، واعلام بينة" !!
***
هذا،هو :علي بن أبي طالب.
هذا ،هوالذي نرجو الأ يكون مغالين إذا وصفناه بأنه: ربيب الوحي !!
فطوال السنوات !!لأولى لنزول الوحى ، كان فتانا هناك ، يشهد نزوله ، ويسبق غيره فى تلقيه من رسول رب العالمين ، ويلقى سمعه ، وقلبه لأسراره وأنواره ٠
ولطالما شهدته شعاب مكة وهو ثانى اثنين – الرسول عليه السلام ، وعلى كرم الله وجهه - يصليان معا ، بعيدا عن أعين القرشيين وأذاهم..
وهناك في رحاب الصحراء الواسعة ، حيث لا يرتد البصر أمام حدود أو سدود ، وحيث تتنزل على النفس أسرار الكون العظيم ، عاكسة على الشعور جلاله ومجده ،كان على يتلقى من فم الرسول ٦صلى الله عليه وسلم كلمات القرآن وآياته - نفسه مرهفة، وعزمه متهلل.. قلبه جميع، وروحه حر..
وشخصيته بكل خصائصها الموروثة والمكتسبة، تتلقى تأثيرا لا يقاوم .. وتستسلم في غبطة مطلقة لهذه الآيات التي آمن بها وحيا ، ودينا . وآمن بقارئها وتاليها نبيا ورسولا..!!
من أجل هذا،لانعجب، إذا رأينا عليا طوال حياته يعطي القرآن ولاء مطلقا. ولا يقبل أدنى ميل عنه، ولا يغفر أقل تقريط فيه.
إنه ربيب الوحي والتلميذ الأول للقرآن وانه سابق المسلمين ..
الم يسمع القرآن يتساءل في هدير ورهبة: " تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون " ..
بأي حديث..؟!
إن الفتى الأواب ليرتجف من هول التساؤل، وجلال الخطاب، ويجيب في صيحة مكظومة:
- لا بحديث غير حديثك نؤمن، يا رب كل شيء !!.
ومن هذه الآية، ومثلها معها من آيات القرآن العظيم، أشرب قلب علي ولاء للقرآن ليس له نظير.. !
الم يسمع القرآن يحدد للرسول طريقه المستقيم فيقول: " ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تنبع أهواء الذين لا يعلمون"..
انه - أيضا –م هذه الآية، ومثلها من آيات القرآن وتعاليم السماء ، ليستمد عزما خارقا على أن يسير فوق صراط الحق بخطى ثابتة راسخة أكيدة، متخطيا أهواء الذين لا يعلمون في استقامة قديس، وشموخ مقتدر...! لك الله، أبا الحسن !

أكنت تدري، أي معارك ضارية ستخوضها غدا ضد أهواء الذين لا يعلمون ؟
***
من ولانه الوثيق للقرآن، وشهوده فجرالوحي وضحاه- كان علي ربيب الوحى.
ومن ولائه الوثيق للإسلام، وسبقه إليه قبل غيره من رجال المسلمين - كان علي سابق المسلمين.. و سابق المسلمين - لقب لا يستحقه علي لمجرد سبقه إلى الإسلام.
فعلي، هو الذي علم الناس فيما بعد، أنه: ليس الطريق لمن سبق.. بل لمن صدق..
انما يستحقه لأنه حاز كلتا الحسنيين: السبق.. والصدق..
وحين نتتبع مظاهر إسلامه نرى عجبا ..
وحين نستقبل شمائل إيمانه ، نستقبل روضات يانعات نتأنق فيهن ، ويشملنا عبيرها ، وطهرها ، وتقاها !
والآن ما بالكم برجل اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم من بين أصحابه جميعا ليكون في يوم المؤاخاة أخاه؟ كيف كانت أبعاد إيمانه وأعماقه حتى آثره الرسول بهذه المكرمة والمزية .. ؟
عندما تمت هجرة النبي والمسلمين إلى المدينة آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار وجعل لكل أنصاري أخا من المهاجرين حتى إذا فرغ عليه السلام من دمجهم في هذا كالإخاء العظيم رنا بصره تلقاء شاب عالي الجبهة ريان النفس مشرق الضمير ، وأشار الرسول إليه فأقبل عليه .. وبين الأبصار المشدودة إلى هذا المشهد الجليل أجلس النبي عليا إلى جواره وربت على كتفه وضمه إليه وهو يقول: " ..وهذا اخى "
لقد كان الصديق أبو بكر ،وكان الفاروق عمر آنئذ هناك .. فهل من حقنا أن نتساءل : لماذا لم يختص الرسول أحدهما بهذا الذي اختص به عليا .. ؟
ان تساؤلا كهذا ، يفسد جلال المشهد ، ويفوت علينا رواءه ..
والمسلم الذي ينشد الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه - يحني هامته اجلالا لهذا الرعيل الأول والأسبق من أصحابه على حد سواء .
***
اختار الرسول إذن عليا ليكون في هذه المؤاخاء أخاه . .
وكل شرف كان الإسلام يضفيه على ابن أبي طالب - كان يزيد إحساسه بمسئولياته الدينية شحذا ، و قوة ..
ولم يكن في طول الدنيا وعرضها مايراه ابن أبي طالب كفؤا لأن يكون مثوبة على إسلامه وأجرا.
إن الإمام كرم الله وجهه كان يعرف تماما قيمة الذي هداه ربه إليه . وكان من الذين يؤمنون بأن الخير مثوبة نفسه فالذي يوفق للخير وللحق يكون جاهلا بقيمة الحق والخير ، إذا هو طلب من الدنيا مثوبة وأجرا نظير فعله الخير وحمله را ية الحق .

وهكذا حمل علي إسلامه بين جنبيه ، وتحت ضلوعه ، وفي أعماق روحه ، ومضى يستصغر شأن لدنيا بكل فنونها وزينتها ..
وكلما تراءت له مباهجها صدها بعبارته المأثورة : أيا دنيا، اليك عني.. يا دنيا، غري غيري.

***

وعلي في إسلامه،نموذج عظيم مكتمل للشكل والجوهر.
فإذا كان الإسلام عبادة ونسكا .. جهادا وبذلا .. ترفعا وزهدا .. فطنة وورعا .. سيادة وتواضعا .. قوة ورحمة .. عدالة وفضلا .. استقامة وعلما .. بساطة وتمكنا .. ولاء وفهما ..
اذا كان الإسلام ذلك كله ، فإن سابق المسلمين عليا كرم الله وجهه كان أحد النماذج الباهرة والنادرة لهذا الإسلام .. !! ومن شاء أن يتعرف إلى حياة الإمام وسلوكه ، فليقرأ كلماته .. ذلك أنه لم يكن بين مقاله وفعاله ، تفاوت أو تناقض .
أجل .. لم يكن بين ما يقول وما يفعل بعد ولا مسافة ، ولا فراغ .. !
فإذا حث الناس على الزهد ، فلأنه أسبقهم إليه .. وإذا حثهم على البذل ، فلأنه أقدرهم عليه ..
واذا حثهم على الطاعة – اي طاعة - فلأنه يمارسها في أعلى مستوياتها ..
صلى الفجر يوما بأصحابه في الكوفة ، وهو أمير للمؤمنين ، فلما فرغ من صلاته جلس ساهما حزينا .. ولبث في مكانه ومجلسه ، والناس من حوله يحترمون صمته فلا يتحركون حتى طلعت الشمس ، واستقر شعاعها العريض على حائط المسجد من داخل ، فنهض الإمام علي وصلى ركعتين .. ثم هز رأسه في أسى ، وقلب يده وقال : " والله ، لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فما أرى اليوم شيئا يشبههم .
لقد كانوا يصبحون وبين أعينهم آثار ليل باتوا فيه سجدا لله ، يتلون كتابه ، ويتراوحون بين جباههم وأقدامهم .. وإذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح .. وهملت أعينهم حتى تبتل ثيابهم. هذه صورة الماضي العظيم .. صورة الأيام الجليلة الرائعة - أيام الوحي والرسالة - يعيش فيها على العابد دوما وأبدا ..ولايستطيع الزمن مهما توغل في البعد أيامه وأعوامه أن ينتزع الإمام العابد منها ، فهي منسكه ومحرابه .. !

***

وإنه ليحدث المسلمين عن الإسلام الذي آمن به ، وجعله كتاب حياته ، فيقول: " تعلموا العلم ، تعرفوا به .. واعملوا ، تكونوا من أهله ..
ألا وإن الدنيا قد ارتحدت مدبرة .وإن الآخرة قد أتت مقبلة .. ولكل واحدة منهما بنون .
فكونوامن أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا .

ألا وإن الزاهدين بالدنيا قد اتخذوا الأرض بساطا ، والتراب فراشا ،والماء طيبا .
الا وإن من اشتاق إلى الآخرة ، سلا عن الشهوات. ومن أشفق من النار، رجع عن المحرمات.. ومن طلب الجنة، سارع إلى الطاعات. . ومن زهد في الدنيا ، هانت عليه مصائبها .. الأ ، وإن لله عبادا - شرورهم م!!مونة.. وقلوبهم محزونة.. أنفسهم عفيفة.. وحوائجهم خفيفة.. صبروا أياما قليلة لعقبى راحة طويلة. إذا رأيتهم في الليل، رأيتهم صافين أقدامهم.. تجري دموعهم على خدودهم.. يجأرون إلى الله في فكاك رقابهم.
وأما نهارهم كالماء ، حلماء ، بررة أتقياء ، كأنهم القداح ..
ينظراليهم الناظر فيقول: مرضى. وما بهم من مرض، ولكنه الأمرالعظيم. ا! " الأمر العظيم. .! ذلك هو شغله الشاغل.. ينام على هديره.. ويصحو على زئيره.. !!
دين الله الذي حمل أمانته ، وقرأ كتابه .. ويوم الله ، الذي سيقف فيه بين يديه غدا ، لينظر جزاءه وحسابه. !! ومن أجل هذا ، لاينام علي ولا يستريح.؟
اجل.. من أجل هذا ، يقضي ليله ونهاره في عبادة تضنى جسمه الايد الوثيق.
ومن أجل هذا ، يدع الدنيا وراءه ظهريا ، فيأبى وهو خليفة للمسلمين، أن ينزل قصر الإمارة الكوفة ، ويؤثر عليه الأرض الخلاء ،والدار المهجورة .. !!
ويلحون عليه كى ينزل قصر الإمارة هذا ، فيجيبهم : لا.. قصرالخبال لا أنزله أبدا"!
ومن أجل هذا ، يلبس الثوب الخشن ، فيسأله أصحابه أن يعطي نفسه ومنصبه بعض حقهما ، فيقول : " هذا الثوب.. يصرف عني الزهو . ويساعدنى على الخشوع في صلاتي . وهوقدوة صالحة للناس ، كي لا يسرفوا ويتبذخوا ..
ثم يتلو آية القرآن العظيم: " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادب والعاقبة للمتقين "
إنه لا يركن إلى الدنيا لحظة من نهار.
إنها بالنسبة له ، قد أدبرت وأذنت بوداع .. فلماذا إذن يعطيها ولاءه وبلاءه ؟
إن الآخرة عند الإمام.. هي الدار .. هي الأبد .. وما أهل الدنيا في مختلف العصور والدهور الأ سائرون فوق جسر .. كلما انتهى من عبوره قوم وجدوا أنفسهم أمام الأبدية ، حيث الجنة ، أو النار. . الأ فلنصغ لحديثه : " ان المضمار اليوم ، وغدا السباق . الأ وإنكم في أيام أمل، من ورائه أجل.
فمن قصر فى !!مله قبل حضور أجله فقد خاب عمله .. الأ فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة .. الأ واني لم أر كالجنة نام طالبها! ولم أر كالنار نام هاربها !
ألا وإن من لم ينفعه الحق ، ضره الباطل.. ومن لم يستقم به الهد ى ، حا د به الضلال.

ألا وإن الدنيا عرض حاضر ، يأكل منها البر والفاجر .. وإن الآخرة وعد صادق ، يحكم فيها ملك قادر. وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الامل... فإن اتباع الهوى، يصد عن الحق.. وان طول الامل، ينسي الآخرة"
فلتأت الأحداث والأهوال عاصفة ، تقتلع الجبال من حول الإمام ، فانه لن يتبع الهوى أبدا . "فان اتباع الهوى يصد عن الحق" !!
ولتبذل الدنيا له كل نفسها وزينتها ، وبهجتها ، وإغرائها ، فانه لن يربطها به أمل ولا رجاء . افان طول الامل، ينسي الآخرة" !
وهو - رضي الله عنه لا يريد أن يتوه عن الحق، ولا يريد أن ينسى الآخرة. فالحق حياته .. والآخرة داره..
على أن زهد ابن أبي طالب في الدنيا، وعزوفه عنها ليس زهد الهاربين من تبعات
الوجود ومسئوليا ت الحياة . إنما هو زهد يشكله إسلامه ، الذي يجعل المسئولية العادلة دينا ، ويجعل العمل الصالح الدائب عبادة وقربى . هنا نلقي عليا يصحح المعايير والموازين ، إذ لا يكاد يسمع رجلا يذم الدنيا مذمة العاجزالمتوا كل حتى يقول : " الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غني وزاد لمن تزود منها .. مهبط وحي الله.. ومسجد أنبيائه .. ومتجر أوليائه. ربحوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنة " .
أجل.. هذه هي دنيا المسلم، كما يفهمها ربيب الوحي ، وسابق المسلمين.. دارعمل، لا لهو . يكدح فيها الإنسان لينشئ لنفسه مصيرا سعيدا يوم يقوم الناس لرب العالمين. وهي دار صدق، لمن عاش فيها صادقا مع مسئولياته وتبعاته. ودار نجاة ، لمن سار فيها على درب النجاة ..

***

وبهذا الفهم السديد للدنيا ربحها علي وربح بها مصيره وآخراه . فهي بالنسبة له، لم تكن دار لعب ولهو قط.
منذ طفولته الباكرة، حمل الإسلام في قلبه، وحمل معه كل أعباء الرجال.
ولقد قطع حياته وقضى أيا مه على الأرض في كفا ح موصول، ونضال لم يعرف الراحة يوما .. ا! وعاش كما وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام :
" مخشوشن في سبيل الله .
مقت الترف من كل نفسه، وناى عنه بكل قؤته وعزمه.
ذلك انه فهم الإسلام وعاشه، وتعلم منهانا لترف مشغلة الفارغين العاطلين.
والإنسان الذي يعيش مع مسئوليات كبار كلك التي يفرضها الإسلام الحق على ابنائه الحقيقيين وأهله ، إنما يكون حظه من الصدق والتوفيق مضاهيا حظه من البساطة والتخشن.
وهكذا كان الإمام. وهكذا أراد للناس أن يكونوا ..
عندما قدم مكة من اليمن ، ورسول الله يومئذ يحج بها حجة الوداع ، تعجل هو إلى لقاء النبي يل ،تاركا جنوده الذين عادوا معه على مشارف مكة بعد ان أمر عليهم أحدهم ، وبدا لهذا الأميرالمستخلف أن يلبس الجند حللا جديدة زاهية من تلك التى عادوا بها من اليمن ، حتى يدخلوا مكة وهم في زينتهم يسرمنظرهم الأعين. وأمرهم ، فأخرجوا من أوعيتهم حللا جدبدة ارتدوها ، واستانفوا سيرهم إلى مكة . وعاد علي بعد لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليصحب جنده القادمين .
وعلى أبواب مكة رآهم مقبلين في حللهم الزاهية. واسرع نحوهم ، وسأل أميرهم : ويلك .. ما هذا ؟
قال : لقد كسوت الجند ليتجملوا إذا قدموا على إخوانهم في مكة ..
وصاح به "علي": - ويلك..انزع قبل ان تنتهي بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فخلعوا حللهم جميعا ، وكظموا في أنفسهم مرارة ما صنع بهم علي الورع ، الزاهد ، الأواب.
ولما دخلوا مكة، ولقوا الرسول صلى الله عليه وسلم ،شكا إليه بعضهم عليا ،وقصوا عليه نبأه معهم. فاستقبل الرسول القوم وقال : "أيها الناس. لا تشكوا عليا.. فوالله، إنه لأخشن في سبيل الله من أن يُشكى " !!
***
وهو ب!!سلامه وفي إسلامه لا يتغير - طفلا ، وشابا ، وشيخا .. جنديا ، وقائد ، وخليفة للمسلمين ..
إن تقوى الله تأخذ عليه لبه .. وهو لا يعامل الناس بذكائه، ولا بحسبه ونسبه ، بل بإخلاصه و تقواه .. ثم هو لا يريد منهم، بل لا يقبل منهم أن يعاملوه بغير الصدق والتقوى.

من أجل هذا سنراه حين يقع الصدام بينه وبين معاوية يؤثرالهزيمة مع الإخلاص والتقوى على انتصار يتحقق بالمكر والمراوغة .
ويقول له ابن عمه عبد الله بن عباس - وهو الصالح الورع : خادعهم ، فإن الحرب خدعة
فيجيبه الإمام الطاهر : " لا والله.. لا أبيع ديني بدنياهم أبدا " ا! مسلم عظيم.. يفجر الدنيا من حواليه ذمة ، واستقامة ، وطهرا ..

***

وكذلك نراه وهو يخطب أصحابه في أول جمعة له بالكوفة ، وهو أمير المؤمنين ، لا يخطب خطبة خليفة ولا أمير ولا حا كم..
لا يصدر قرارات ، ولا يرسم سياسة .. على كثرة ما كانت الظروف تتطلب من قرارات ، وسياسة .. بل لا يجعل خطابه الأول هذا استجابة لحماس أصحابه ، وشد زناد الحمية فى أنفسهم استعدادا للمعركة التي سيخوضونها مع جيش الشام المقاتل ، المدرب ، الصعب المراس. لا شيء من ذلك كله يضمنه الخليفة والإمام خطابه . إنما هي الدعوة الخالصة لتقوى الله وحسن عبادته وطاعته :
اسمعوا. .. أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباده ، وأقرب الاعمال لرضوانه ، وأفضلها في عواقب الأمور عنده .. وبتقوى الله أمرتم ، وللإحسان خلقتم.. فاحذروا من الله ما حذركم من نفسه ، فإنه حذر بأسا شديدا ..
واخشوا الله خشية ليست بتعذير . واعملوا من غير رياء ولا سمعة، فان من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل؛ ومن عمل مخلصا له تولاه الله ، وأعطاه فضل نيته .. واشفقوا من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عبثا ولم يترك شيئا من أمركم سدى.. قد سمى آثاركم ، وعلم أسراركم ، وأحصى أعمالكم ، وكتب آجالكم ، فلا تغرنكم الدنيا ، فإنها غرارة لأهلها ، والمغرور من اغتر بها. وإن الآخرة لهي دار القرار.ا
أهذا خطاب رئيس دولة . ؟ كلا .. إنما هو خطاب ناسك .. !!
خطاب مسلم ومؤمن وجه وجهه وقلبه وحياته للذي فطر السماوات والأرض، لا يعنيه الأ أن يحيا في مرضاته تقيا ، وأن يحيا الذين من حوله أتقياء ، أتقياء .

***

كذلك نراه ونرى إسلامه الوثيق حين لم يعد له بد من لقاء معاوية في معركة صفين ، يستقبل جيشه ليلة المعركة خطيبا ، فلا يعدهم ولا يمنيهم ، ولا يرفع أمامهم مباهج الدنيا ونعيمها ثمنا للنصر إذا هم ظفروا به .. إنما بحدثهم حديثا يختلف عن كل الأحاديث التي تطلبها أمثال هذه المناسبة.
انظروا..
" .. الأ إنكم ملاقو القوم غدا .. فأطيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم ، وأكثروا تلاوة القرآن، وسلو الله الصبرِ والعفو والعافية ".

في أوقات السلم، وفي أوقات الحرب..
فوق ثبج النصر، وتحت وقع الهزيمة.. في سرائه، وفي ضرائه لا يستولي على تفكيره وعلى ضميره وعلى شعوره سوى تقوى الله سبحانه . !
حتى وهو يكتب إلى عمرو بن العاص الذي انحاز إلى صف معاوية، وبات يشكل خطرا حقيقيا على جبهة الإمام ، لانلقي الإمام يمني عمرا بدنيا ، ولا يستميله إلى هوى - نفس السلاح الذي كان معاوية يكسب به الأنصار .. بل نبصره يصدع عمرا بالحق في غير مساومة ، ولا مجاملة .
انه ينأشده تقوى الله لا غير .. هذه التقوى التي تجري من ابن أبي طالب مجرى الدم ، فيقول له في كتاب إليه:
" من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص.. أما بعد ، فإن الدنيا مشغلة عن غيرها .. وصاحبها مقبور فيها ومنهوم عليها .. لم يصب منها شيئا قط الأ فتحت له حرصا ، وإلا أدخلت عليه مئونة تزيده رغبة فيها .. ولن يستغنى صاحبها بما ناله عما لم يبلغه ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع ، والسعيد من وعظ بغيره ، فلا تخبط أجرك ابا عبد الله ، ولا تجارين معاوية في باطله ، فإن معاوية غمد الناس، وسفه الحق "
***
إنه يرفض أن تحدد علاقات الناس به ، أو علاقاته بهم منفعة أو غرض .
حتى في أحرج ساعات حياته، يمعن في الرفض وفي الاستغناء. إنه يؤمن أن الحق مقدس وإنه أجل من كل ثمن. ولا شيء على وجه الأرض يمثل الحق في يقينه مثلما يمثله الإسلام . من أجل ذلك نذر حياته لقضية الإسلام منذ عمره الباكر . وعاش عمره المسلم يتنفس النقاء ، والصدق ، والاستقامة . ليس في حياته كلها وقفة واحدة مع المساومة أو المداجاة، أو الالتواء .. ولعله لو شاء لكان داهية لا يشق له غبار .. فحدة ذكائه ، واتقاد بصيرته يعطيانه من الدهاء ما يريد . لكنه تخلى عن كل مواهب الرجل الداهية وأحل مكانها كل مواهب الرجل الورع".!
إن فهمه لحقيقة الإسلام ، وإن ولاءه الوثيق له .. قد حملا حياته من الأعباء فوق ما تطيق. ولقد كان بعض جهاده وبلائه كفيلا بأن يبوئه مكانه العالى بين الأخيار الصادقين .
ولكن الرجل الذي وصفه الرسول انه مخشوشن في سبيل الله قد أخذ نفسه بعزائم الأمور ، وناط قدرته وطاقته بالمستحيل ، ونذر للإسلام حياة استقلها ، فراح يحملها أعباء مائة حياة.. !!

***

ومع أيامه المجيدة التي عاشها في دنيا الناس هذه حقق الإسلام فيه معجزة الصياغة .. تلك المعجزة المتمثلة في قدرة هذا الدين على صياغة العظمة الإنسانية في أحسن تقويم!

إن ابن أبي طالب فى كل مجالات حياته لواحد من أولئك الذين تجلى فيهم إعجاز الإسلام ، فلنواصل سيرنا معه ، لنرى كيف تكون العظمة الإنسانية .. وكيف يكون العظماء !

الفصل الثالث البطل والرجل

" لأعطين الراية غدا...". "الرسول صلى الله عليه وسلم"
ذات يوم ، والرسول بالمدينة ، نزل عليه الوحي بآية جديدة من القرآن ، وراح الرسول يتلوها على أصحابه ، وهم منصتون .
" وما محمد الأ رسول قذد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين " .
وأحدثت الآية في افئدة الصحابة رد فعل قويا ، وظن بعضهم أنها تنعي إليهم نبيهم عليه الصلاة والسلام .
وصاح علي بن أبي طالب : والله لاننقلب على اعقابنا بعد أن هدانا الله .. ولئن مات أو قتل ، لاقاتلن على ما قاتل عليه حتى الموت ا!
وطوال عمر علي في حياة الرسول وبعد وفاته، وهذه الآية لا تبارح ذاكرته، وإنها لتلح على وجدانه الحاحا دائبا وعجيبا.. ا!
فهودائما يذكرها فيتلوها ، ونتيع تلاوته لها بكلماته التي سمعناها الآن : والله لاننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله .. ولئن مات أو قتل ، لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى الموت .
***
ولكن لماذا اختار القتال سبيلا للتعبير عن ولائه للدين ، وإصراره على متابعة طريق الرسول ؟ .
لماذا لم يقل: ولئن مات أو قتل لأواصلن السيرعلى نهجه، والاهتداء بسنته وهديه ؟
إن طبيعة المقاتل تحتل كل ذرة في كيانه، فإذا أعطى العهد على مواصلة السير تحت الراية التي يرفعها بيمينه ، فإنه يصوغ عهده من الكلمات التي تتسق مع طبيعته ، وتعبر عنها فى أمانة وصدق.
وأي كلمة تعبرعن طبيعة المقاتل سوى كلمة سأقاتل ؟
صحيح إن الآية نزلت في معركة دائرة، وقتال مشبوب - في غزوة أحد أو بعدها ، والمشركون يومئذ يرجفون بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قتل.. فنزلت الآية تسفه أحلامهم، وتشد عزم المسلمين ، وتخبرهم بأنه حتى لومات الرسول صلى الله عليه وسلم أو استشهد ، فإن رايته لن تسقط ، ودينه لن يتقهقر، وجنده لن يضعوا السلاح!!
فلئن كانت طبيعة المناسبة ، تجعل الرد على تساؤل الآية : سنقاتل.. فإن طبيعة المقاتل هي التي جعلت كلمة ساقاتل شعارحياة بأسرها ،وليست شعار مناسبة بذاتها .

وهكذا رأينا الإمام طوال حياته المديدة والمجيدة ، لا يفتأ يذكر الآية الكريمة فيتلوها ، ثم يعقب عليها بنشيده ذاك: ..ولئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت !!!

***

قلنا : إن عليا يحمل بين جنبيه طبيعة المقاتل وسجاياه. فهل هذه منقبة توضع في ميزا ن فضائله ، ومزاياه. ؟ وبتعبير آخر : هل وجود طبيعة المقاتل في إنسان أمر يشرف ذلك الإنسا ن. . ؟؟ أما بالنسبة لابن أبي طالب ، فنعم..
إن كون طبيعة المقاتل فى أعماقه ، لمما يزيده شرفا ، ورفعة ، وكمالا .
ذلك أن طبيعة المقاتل فيه قد بلغت من الاستقامة ، ومن العدالة ، ومن المروءة المدى الذي أفاءه عليه القران، والرسول، والإسلام.
فهي - عند الإمام - لا تمثل عدوإنا .. ولا تشكل بهتانا .. ولا تنطلق وقودا لأغراض دنيا ، و أطماع نفس ..
وهي بهذا ،ولهذا ،تجاوز نفسها إلى أعلى مستويات البطولة. كما أن البطولة عنده وظيفة لحمل أسمى تبعات الرجولة .
و الرجولة عنده ليست اندفاعا عرمرما تزجيه طاقاته الجبارة، إنما هي إلتزام يكاد يكون مطلقا لمنهج الرسول , الذي آمن به ، والدين الذي حمل رايته .
وهكذا نرى البطل و الرجل و المسلم يلتقون في شخصية الإمام علي أصدق لقاء.
أجل..لمينفصمالبطلعنالرجل،عنالمسلم،بحياة علي قظ..
فان رأيناه يبارز خصما مثلا ، فليس البطل المتمكن هو وحده الذي يبارز . لأن رجولة الرجل، وورع المسلم هما ، الذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وآدابها . ! انظروا..
في غزوة أحد .. يخرج من صفوف المشركين أحد مبارزيهم الأشداء ،هو: أبو سعد بن أبي طلحة ، وينادي عليا ليبارزه .. ويخرج علي إليه ويتلاقيان في مبارزة ضارية حامية. .
ويتمكن منه بسيف علي بضربة تطرحه أرضا . وهو يتلوى من الألم.
وبينما علي يتهيأ ليجهز عليه بضربة قاضية ينحسر جلباب الرجل فتنكشف عورته ، فيغمض علي عينيه،ويغض بصره ويثني إليه سيفه، ويعودالى مكانه في الصف. .
ويسأله المسلمون : لماذا لم تجهزعليه .. ؟
ويجيبهم: " لقد استقبلني بعورته ، فعطفتني عنه الرحم " !!!
إن شرف المقاتل خلق لا ينساه على أمام النصر ، وأمجاد الظفر .
ولقد عرف عنه ذلك دائما ، فراح اعداؤه يلمسون منه هذا الوتر كلما ر!!وا المنايا تهوي عليهم من سيفه الوثيق!!

***

إن الأبطال الأصلاء العظماء، لا ينشدون النصر - مجرد النصر .

إنما هم ينشدون النصر عفا ، شريفا ، عادلا .. فإذا لم يأتهم النصر موشى بهذه الفضائل ، فلا خفقت راياته ، ولا دقت طبوله !!
وسنرى ونحن نتتبع مشاهد البطولة في حياة الإمام ، كيف كان حرصه الشديد على شرف المقاتل اثر وأبقى من كل غلبة ومن كل انتصار.
ومن المفارقات العجيبة لشخصيته أن براعة المقاتل فيه، كانت تزلزل خصومه خوفا وهلعا في حين شرف المقاتل فيه ،كان يملأ نفوسهم طمانينة وأمنا .!
اجل ؛ لطالما تحولت نقمته على أعدائه إلى رحمة بهم بسبب إيمانه الحق بأن القتال الشريف ، النبيل ، العادل ، هو وحده سبيل الرجال ، إذا أضطروا لقتال .

***

بعد أن تحقق له النصر في موقعه الجمل، وقبل أن تبدأ موقعة صفين وكان لايزال يرجو أن يفئ معاوية إلى الحق، على الرغم من كل الشواهد التي كانت تنبىء بإصراره على موقفه وإعداده العريض للحرب والقتال؛ يومئذ علم الإمام أن اثنين من كبارأنصاره يجهران بشتم معاوية ولعن أهل الشام، هما : حجربن عدي، وعمر بن الحمق، فأرسل إليهما أمرا أن يكفا عن هذا الشتم وهذا اللعن.. فقدما عليه، وسألاه: - يا أميرالمؤمنين، ألسنا على الحق، وهم على الباطل.؟
اجابهما الإمام : - بلى، ورب الكعبة.
قالا . فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم.. ؟
قال الإمام: كرهت لكما أن تكونا شتامين لعانين ...
ولكن قولا : اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي من لج به.."!
إنه شرف المقاتل أيضا .. وإنها البطولة التى تزجيها الرجولة . والرجولة التي صاغها الإسلام في أحسن تقويم.

***

ولكن ، لماذا عجلنا ، وتخطينا الزمن ، ورحنا ننشد الأمثلة على بطولة الإمام من أخريات أيامه. .؟
ألا يحسن بنا أن نستشرف هذه البطولة فى بداياتها الرائعة ..؟
بلى.. فلنرجع مع الزمن إلى وراء ، حيث الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة يتهيأ للهجرة إلى المدينة التي سبقه اليها أصحابه .
إن خطة الهجرة كما رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانت تتطلب أن يأخذ مكانه في البيت رجل تشغل حركته داخل الدار أنظار المحاصرين لها من مشركي قريش، وتخدعهم بعض الوقت عن مخرج الرسول عليه السلام ، حتى يكون وصاحبه أبو بكر قد جاوزا منطقة الخطر ، وخلفا وراءهما من متاهات الصحراء مسافة تتشتت فيها مطاردة قريش إذا هي خرجت في طلبهما .

ولكن : ما مصير هذا الذي سيخلف الرسول في داره ، ويخدع قريشا كلها عن مخرجه..؟
ما مصيره حين تكتشف قريش الحيلة ، وترى كيدها الذي عبأت فيه كل قواها يرتد ، لا هزيمة ماحقة فحسب .. بل سخرية .
ثضحك منها ولدانها ، وخزيا يجثم فوق جبينها ..؟
إن مصيره مفروغ منه.. إنه القتل ، إذا لم تجد قريش ما هو أشد من القتل تشفيا وفتكا !!
والحق إنها ستكون نهاية موحشة . فالرجل الذي سيكتب عليه أن يحمل هذه التضحية، لن يقتل فحسب..بل هو سيقتل فى بلد موحش، قد خلا من كل أصحابه الذين كانوا بالأمس يملئون فجاجه دويا بالقرآن كدوي النحل.
فى هذا البلد الموحش سيقتل وحيدا .. دون أن يجد من إخوانه من يشجعه ولو من بعيد بنظرة تثبيت.. أو يودعه - ولو من بعيد أيضا - بنظرة عطف ومحبة.. أو يتسلل في جنح الظلام إلى قبره فيقف عليه مسلما ..! لاشىء من ذلك سيكون ..
ولاشئ من ذلك سيخفف من وقع النهاية التي ستختارها قريش لمن يمثل دورالرسول صلى الله عليه وسلم عليها حتى يخدعها عنه، وحتى يرد كيدها العاتي ترابا في تراب!
فمن أي طراز ، سيكون هذا الفدائي العظيم ؟ ! ومن أي ناحية سيجيء البطل..؟!
انه من بيت النبوة يجيء . إنه سليل بني هاشم .. وتلميذ محمد صلى الله عليه وسلم .
انه ربيب الوحى..وسابق المسلمين.
اه علي يفاجىء قريشا. فليسؤ على يديه صباحها.. كما ساء بخروج النبي ممساها!!

****

على أن مهمة علي رضي الله عنه، لم تكن مقصورة على المبيت مكان الرسول صلى الله عليه وسلم والمكر بقريش حتى يغادر الرسول مكة.. بل كان لها جانب آخر يتطلب نفس القدر من الفدائية والبذل والتضحية.. ذلك هو قيامه برد الأمانات والودائع التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحتفظ بها لذويها من أهل مكة.
لقد تلقى علي من الرسول كل هذه الودائع وتلقى منه أسماء أصحابها. . وكان عليه أن يذهب إليهم دارا دارا .. وفردا فردا .. ويعطي كل إنسان أمانته، دون أن ينيل، قريشا منه فرصة تحول بينه وبين إنجا ز مهمته كلها.
ولقد قام البطل والرجل بالمهمة على خير وجه، وحفظه الله ورعاه، وصدق وعد الرسول له حين قال وهو يودعه : لن يخلص اليك شيء تكرهه منهم .

وبعد أيام ثلاثة ، قضاها الفتى الوثيق بمكة ، يرد الأمانات إلى ذويها ، ركب الصحراء مهاجرا إلى الله ورسوله.
وحده، خرج مجتازا نفس الطريق الذي خرجت عليه قوات قريش تطارد الرسول والصديق، وتطلبهما بكل جهد وثمن..
وحده، خرج علي في رباطة جأش تجل عن النظير.. وفي إيمان مطلق جعل عزمه يتألق مضاء وتهللا!
وبعد أيام وليال، كان هناك في قباء ينزل مع الرسول في نفس الدارالتي أعدت له عليه السلام، دا ر كلثوم بن هدم، أخي بني عمرو بن عوف.
وبعد أيام ينتقل مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة..دار الهجرة.. وعاصمة العالم الجديد الذي جاء محمد يئشئه ويبنيه على دعائم الإيمان، والحق، والعدل، والرحمة والسلام .

***

وتجيء غزوة بدر.
ويواجه الإسلام الوثنية في أول لقاء ينشب بينهما. ويظهر علي بن أبي طالب، وعمه حمزة رضي الله عنهما من المقدرة والجلد والبطولة ما يبهر الألباب.
ثم تجيء غزوة أحد ، حيث حشدت قريش كل بأسها وقوتها وخرجت لتثأرلقتلاها في يوم بدر ، وتنضو عن نفسها عار الهزيمة الماحقة التي أصابتها في ذلك اليوم المشهود .. وبملأ علي أرض المعركة ببطولته وبضحاياه، ويسقط اللواء من يد مصعب بن عمير .
يسقط بعد أن يبدي بطولة خارقة (١".
ويدعو الرسول صلى الله عليه وسلم عليا ليحمل اللواء .
ويحمل اللواء بيد وبده الأخرى قابضة على سيفه ذي الفقار ،هذا السيف الوثيق الذي قال الرسول صلى الله عليه وسلم عنه وعن صاحبه : لاسيف الأ ذو الفقار، ولا فتى الأ على ا!!
ولايكاد ابن أبي طالب يحمل اللواء ويشرئب في يده عاليا ،عزيزا ، خفاقا حتى يبصره حامل لواء المشركين، فيصيح، الأ هل من مبارز ؟
ولا يجيبه من المسلمين أحد ، فقد كانوا في شغل عنه بالمعركة التي بلغت أقصى عنفوانها، وشدتها، وضراوتها.
وتتكسر السيوف على السيوف، والنصال على النصال.
ويرسل حامل لواء المشركين نعيقه مرة آخري فينادي: الستم تزعمون أن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار..؟ الأ فليخرج الي أحدكم".
ولم يطق "علي صبرا ،فصاح به: أنا قادم اليك يا أبا سعد بن أبي طلحة.. فابرز يا عدو الله والتقيا بين الصفوف الملتحمة تحت وقع السيوف وتبارزا .. فاختلفا ضربتين .. ضربه على ضربة واحدة .. فسقط على الأرض يعالج مصرعه ومنيته .. وهم علي أن يضربه الثانية ليجهزعليه، فتكشفت عورته أمام علي فاستحيا وغض بصره وانصرف عنه، على النحوالذي اشرنا إليه من قبل. وبعد انتهاء

القتال تقدمت النساء المسلمات يداوين الجرحى . ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم عليا وسط مجموعة منهن تكاد تعييهن جراحه الكثيرة، حتى قلن لرسول الله حين رأينه : - يا رسول الله : لانعالج منه جرحا ، الأ انفتق جرح !
فاقترب الرسول صلى الله عليه وسلم من جسده المثخن، والشجاع، وراح يسهم في تضميده ويقول: إن رجلا لقي هذا كله في سبيل الله، لقد أبلى وأعذر .

***

وانتهت معركة أحد بهزيمة المسلمين بعد أن حققوا على أرضها نصرا عظيما في بدايتها .

(1" راجع مصعب بن عميرفي كتاب رجال حول الرسول للمؤلف .

وكنب السيروالتاريخ تجمع على أن الهزيمة لم تكن نتيجة لتفوق المشركين في قتالهم أو في بلائهم، إنما كانت نتيجة خطأ ارتكبه فريق من المؤمنين - أولئك هم الرماة الذين وكل إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم مهمة حماية المؤخرة من فوق قمة الجبل ، وأمرهم الأ يغادروا مواقعهم مهما يكن الأمرحتى يأمرهم -هو- بمغادرتها .. بيد أنهم ما كادوا يبصرون قريشا تنهزم.. وتنسحب قواتها من المعركة مخلفة أسلابها وغنائمها ، حتى غادروا مواقعهم .. ونزلوا إلى أرض القتال يجمعون الغنائم والأسلاب..
هنالك ، جمع الجيش المنسحب فلوله ، وعاد حثيثا إلى المسلمين وقد انكشفت مؤخرتهم، وفاجأهم بهجوم مباغت وعنيد.

***

وهكذا تحول النصر إلى هزيمة.. ووعى الدرس كله، والعبرة جميعها حامل لواء المسلمين آنئذ, علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. لقد إزداد ساعتئذ علما بما كان علمه من قبل: وهو إن دين الله لا ينبغى ان يكون طريقا إلى دنيا.. وإن الذين يتقدمون ليحملوا كلمة الله ورايته ، يجب الأ يشغلهم عنهما أسلاب،ولاغنائم، ولا أطماع ولامناصب.. فإن هم فعلوا وكلهم الله إلى أنفسهم، وما أعجز الأنفس حين تفقد رعاية الله وتوفيقه..!!
حذق على هذا الدرس جيدا ، كما حذقه يومئذ أكثر الأصحاب . وعاش علي عمره كله لا ينساه ، فغدا عندما تأتيه الخلافة في فتن كقطع الليل المظلم ، ثم عندما تفرض عليه تلك الصدمات المروعة مع معاوية ، ومع الخوارج ، لن ينسى درس أحد أبدا.
لن يضع دين الله موضع مساومة، ولا مزايدة.. كل مغريات السلطان ومباهج الدنيا ، لن تظفر منه بنظرة واحدة ..
ستظل كلتا عينيه على دين الله، لا تتحولان عنه ، ولا تغمضان دونه .. لن يشتري سخط الله برضاء الدنيا بمن فيها .. ولكنه يتقبل سخط الدنيا كلها

والناس أجمعين بلحظة واحدة من رضاء الله رب العالمين..!!
والآن نتابع البطل في خيبر.
فأمام حصنها المنيع ارتدت - أول يوم - كتيبة قوية يقودها أبو بكر الصديق ..
ثم ارتدت - في اليوم الثا ني - كتيبة أخرى ، يقودها عمر بن الخطاب ..
لم يجزع الرسول صلى الله عليه وسلم، فما كان هو بالجازع قط ، و إنما ألقى على الصفوف الحافلة بأصحابه وبجيشه نظرة متفائلة وقال :
لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه .
يقول عمر بن الخطاب رضي لله عنه: ما تمنيت الإمارة قط الأ ذلك اليوم، رجاء أن أكون من يحبه الله ورسوله .

***

أصبح الصباح، وأقبل المسلمون إلى حيث يلتقون برسولهم صلى الله عليه وسلم.. وكلهم شوق إلى معرفة الرجل الذي سيعطيه الرسول الراية، والذي سيتم على يديه فتح ذلك الحصن الرهيب. وا كتملت أعدادهم ، واستوت صفوفهم ، واشرأبت الأعناق متمنية راجية .. وشق السكون صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
أين علي بن أبي طالب ؟
كان علي هناك وسط الزحام. . لم يخطر بباله يومئذ أن يكون هو الرجل الذي وعد الرسول أصحابه ، وجعله بشرى الفتح القريب . لم يخطر هذا الاختيار بباله لسبب يسير ، هو أنه في ذلك اليوم كان يشكو رمدا في عينيه ، لا يمكنه من العمل الصعب الذي تتطلبه مهمة ذلك اليوم المشهود .
ولكنه لبى نداء الرسول صلى الله عليه وسلم من فوره : - هانذا يا رسول الله ..
وأشار الرسول إليه بيمينه ليتقدم منه، فتقدم البطل... ورأى الرسول ما بعينه من وجع واهتياج ، فبلل اناملە المضيئة بريقه الطهور ، ومس بها عين البطل .. ثم دعا بالراية فامسكها ورفعها إلى أعلى، وهزها ثلاثا ، ثم غرسها في يمين علي، وقال : خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك ..ا!
دقائق، لعلها لا تجاوز خمسا .. ولكنها تمثل حياة كاملة لا منتهى لأبعادها ، ولا غاية لأمجادها!!

***

حمل البطل اراية ، وتقدم كتيبته يهرول هرولة .. وأمام باب الحصن نادى : أنا على بن أبى طالب . أجل .. فإنه ليعرف تماما ما لهذا الاسم في أفئدة أعداء دينه من رهبة ، وما يثيره فيهم من فزع وخذلان!.
وتلقى علي ضربة قوية لم تصبه بسوء ، لكنها أطارت ترسه من يده. ورأى نفسه يواجه فرقة مسلحة من حرس الحصن ، فصاح: والذي نفسى بيده، لأذوقن ما ذاق "حمزة" أو ليفتحن الله لي .!

رآى سليل بني هاشم نفسه ، ولا درع معه.. فاندفع نحو باب من أبواب الحصن .. ولا يدري الناس عندها ماذا حدث ؟ . كل ما يذكرون : أن عليا صاح الله أكبر ثم التفت نحوهم وباب الحصن بين يديه. .!!
يقول أبو را فع مولى رسول الله ، وقد كان ضمن كتيبة علي : لقدهممت أنا وسبعة معى أن نحرك هذا الباب من مكانه على الأرض فما استطعنا ..!!
وهجمت كتيبة الإسلام بقيادة بطلها علي ... وفي وقت وجيز ، كانت القوة المنتصرة تردد من شرفات الحصن الذي سقط بكل مافيه، هتاف النصر..
"الله اكبر،خربت خيبر".
وصدقت نبوءة الرسول التى قالها لابن عمه : خذ هذه الراية ، فامض بها حتى يفتح الله عليك ..!
اجل .. لقد فتح الله عليه ، ومنحه النصر المرتجى.
***
والآن، مع البطل في يوم الخندق ، حيث هوجمت المدينة بأربعة وعشرين ألف مقاتل بقيادة أبي سفيان، وعيينة بن حصن..
وكان الرسول عليه الصلاة والسلام حين علم بخروجهم وتحركهم صوب المدينة ، قد استجاب لرأي سلمان الفارسي بحفر خندق حولها. وحفر الخندق، وفوجئ به جيش الشرك. وانطلق من معسكر قريش - التي اضناها اقتحام الخندق- نفرمن مقاتليها ، على رأسهم عمرو بن عبد ود ، وتيمموا لأنفسهم ثغرة في الخندق ينفذون منها ، وفعلا وجدوا مكانا ضيقا تقحمته خيولهم.
ووقف هو ومن معه من فرسان قريش، أمام المسلمين، وصاح: من يبارز..؟
وفي مثل ومض البرق وجد أمامه البطل. إذ وقف علي أمامه وجها لوجه.
وقال: يا عمرو، إنك كنت عاهدت الله الأ يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين الأ أخذتها منه.
فاجابه عمرو: أجل ..
قال علي: فإني ادعوك إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام.
قال عمرو: لا حاجة لي إلى ذلك .
قال علي: - إذن، فأنا ادعوك إلى النزال.
قال عمرو:لم يابن أخي ، فواللات ما أحب أن اقتلك .
قال على: - لكني والله أحب أن أقتلك..!!
فغضب عمرو ، وأخذته حمية الجاهلية ، واقتحم عن فرسه وعقره ، ثم هجم على علي الذي تلقاه بعنفوان أشد ، وخاضا مع نزالا رهيبا ، لم تطل لحظاته حتى رفع علي سيفه المنتصر ، في حين كان خصمه عمرو بن عبد ود مجندلا على الأرض صريعا.
وعاد علي إلى صفوف المسلمين ، تستقبله تحيات شاعرهم :
نصرالحجارة من سفاهة رأيه   ونصرت رب محمد بصواب
لا تحسبن الله خاذل دينه   ورسوله، يامعشرالأحزاب

***

وقبل أن نستطرد مع مشاهد بطولته الخارقة ، يحسن بنا ان نتذكر ما قلناه من قبل - الأ وهو أن بظولة علي كانت تزدان بكل شرف الرجولة، ولم تكن قط في خدمة هوى أو زهو، إنما كانت في خدمة تلك المبادئ العلا التي هداه الله إليها ،والتي آمن بها علي أوثق إيمان.

من أجل هذا لا نعثر على مشهد واحد من مشاهد بطولته، يمثل، عدوإنا ،أو بهتانا.

وبطولته على الرغم من شموخها واقتدارها ، كانت بطولة مسالمة عاقلة ، وعادلة.

ففى هذه البطولة التقت شدة الباس ولين الجانب لقاء موفقا !!

من أجل هذا نجد الرسول عليه السلام يندبه في مهام الحرب والقتال لتلك التي تتطلب حظا وافرا من ضبط النفس ولين الجانب. وفي هذا تزكية لبطولته وإطراء.

***

في ذلك اليوم المشهود- يوم فتح مكة - كان الزعيم الأنصاري سعد بن عبادة يحمل الراية على كتيبة كبيرة من المسلمين.

ولم تكد تتراءى له مشاهد مكة، حتى استجاشته ذكريا ت عداء قريش للرسول ولصحبه.

فصاح قائلا وسط نشوة الظفر التي تستخف الأحلام : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الكعبة .

قالوا : وسمعه بعض الصحابة فروعهم هذا النداء.

وسارع عمربن الخطاب إلى النبي عليه السلام ونقل إليه كلمات سعد،وقال معقبا عليها:

- يا رسول الله، ما نأمن أن يكون لسعد فى قريش صولة.

وعلى الفور نادى الرسول عليا ، وقال له : أدرك سعدا ، وخذ الراية منه، فكن أنت الذي تدخل بها .

على الذي شهد كل الأذى الذى صبته قريش على ابن عمه ورسوله صلى الله عليه وسلم .. على الذي بحمل طاقة زاخرة فوارة تحرك الجبال.. علي وهذا يومه ،حيث يتوقع منه بأس المقاتل ، وزهو المنتصر . يختاره أعرف الناس به لمهمة قهر الزهو ، ونسيان الثأر . مهمة دخول مكة المفتوحة ، في تواضع وإخبات، وسلام.

ومشهد آخر ، يعرفنا بجمال هذه البطولة ، وإنسانيتها ، وما كانت تتمتع به من أناة، ومعدلة .

فبعد فتح مكة، أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى من حولها من القبائل سرايا تدعوها إلى الله في غير قتل لها، أو حرب معها.

وكان خالد بن الوليد على رأس إحدى هذه السرايا أمره الرسول صلى الله عليه وسلم ان يسير باسفل تهامة داعيا، لامقاتلا..
وعند قبيلة بني خذيمة بن عامر، تصرف أحد رجالها تصرفا تسرع تجاهه خالد فاعمل فيهم السيف.. ونمى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغضب وحزن، وبرئ إلى الله مما صنع خالد بن الوليد، ثم رأى-عليه السلام - أن بادر إرسال رسول سلام ، وكان ابن أبي طالب هوالرسول المختار. دعاه رسول الله إليه، وقال له: "ياعلي.. اخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك"..
وأعطاه الرسول من المال ما يكفي لدية القتلى، وتعويض أهلهم عن كل خسارة حاقت بهم، وقام علي بالمهمة خير قيام.
وهكذا، حيث تضرى البطولات، وتستعلي الآناة والحكمة يكون علي هوالرجل وهو البطل الذي يختاره الرسول صلى الله عليه وسلم ليقيم الميزان بالقسط، ويمزج القصاص بالعدل، والقوة بالرحمة، ويضع الشجاعة تحت إمرة السداد والآناة والحكمة!!

****

واذا كان الفضل ما يشهد به الأعداء ، فلنستمع في هذا المقام لشهادة أبي سفيان أيام شركه ووثنيته.. فعندما نقضت قريش عهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستخار النبي ربه في الخروج إلى مكة لفتحها، نمى الخبر إلى قريش فسقط في يدها، وأرسلت ابا سفيان إلى المدينة ليعتذر إلي الرسول، وليسأله الموافقة على المعاهدة التي كانت بينهما، والتي أبرمت يوم الحديبية .
ونزل أبو سفيان المدينة.. وقابل زعماء المسلمين راجيا ان يزكوا مهمته عند الرسول صلى الله عليه وسلم .. فكلهم رفض.
بل إن ابنته أم حبيبة - وكانت إحدى زوجات النبي - أبت ان تجلسه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وكان مبسوطا في فناء حجرتها ساعة دخوله عليها ، فطوته عنه .. ولما عاتبها فى صنيعها هذا أجابته قائلة : إنك مشرك.. وفراش رسول الله لا يطؤه مشركون .
ولما عاد إلى مكة خائب المسعى، جلس يحدث قريشا عن محاولته، فقال فيما قال: - .. وجئت ابن أبي قحافة - يعني أبا بكر - فلم اجد منه عونا.. وجئت ابن الخطاب ، فوجدته أعدى العدو .. لقد قال لي: !!شفع لكم عند رسول الله؟ والله لو لم أجد الأ الذر لجاهدتكم به ..وجئت عليا فوجدته ألين القوم".!!
أجل .. فى هذه المناسبة بالذات ، حيث لا يتوقع من علي كرم الله وجهه سوى بأس المقاتل، وتشفي صاحب الثأر، نجد لين الجانب ورحمة الغالي يسمان موقفه وتصرفه..!!
وبشهادة من ..؟ بشهادة خصمه أبي سفيان زعيم قريش يومئذ وقائد جيوشها ، وحامل لواء وثنيتها! ذلكم هو نوع البطولة التي أفاءتها مقادير علي عليه

.بطولة يقودها العقل لا العاطفة . بطولة ، تحكمها أخلاقياتها النبيلة السامية ، فلا تستعلي على الرحمة .. ولا تزيغ عن الحق .. ولا تتنكب طريق الأناة والحكمة . وبهذه البطولة الشهمة العادلة ، قاتل المشركين ، فما تخلف عن غزاة ولا عن مشهد قط ، الأ غزاة واحدة أمره الرسول بعدم الخروج اليها ليكون خليفته في المدينة على أهله .
ولما تململت روح البطل ازاء هذا التخلف، أرضاه الرسول بقول على ملأ من أصحابه : " أما يرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسي، الأ إنه لا نبي بعدي ا؟!
وبهذه البطولة الشهمة العادلة ، سيخوض قتاله مع معاوية ومع الخوارج .
وسيواجه الفتن الحالكة التي تدع الحليم حيران، باخلاقه الطاهرة، قبل أن يواجهها بمقدرته القاهرة.
لن يجد بأسا - أي بأس - في أن يخسر ألف معركة ، ولكنه لن يسمح للظروف مهما تبلغ ضراوتها وشدتها أن تسلبه فضيلة واحدة من فضائل نفسه وفضائل دينه .
والحق ان معارك - الحروب الأهلية - التي اضطر الإمام لخوضها كانت أعظم مجالي عظمته ، ورجولته ، ونبله !! ف،لي هناك لنرى بعض مشاهدها .
إن "منصة الأستاذية قد رفعت فوق المشقة والهول، وقد علاها البطل والمعلم ليري الدنيا - على الطبيعة - كيف تعمل البطولات العظيمة في نبل، واستقامة، وشرف.

الفصل الرابع الخليفة والقدوة

" إنما أعطيكم ما تُرزءون لا ما تَرزءون.." ,,الرسول صلى الله عليه وسلم"

كلما تعاظمت مسئولياته، تألقت فضائله ومزاياه .
وتلك أصدق دلائل العظمة الإنسانية، و أوثق براهينها... فحيث تثقل المسئوليات كالجبال.. وحيث تفرض خلال احتدامها وجيشانها توترا قاسيا على الإرادة والفكر، تجد الفضائل الطارئة فرصتها للانكماش والتقهقر. أما الفضائل الأصلية الجليلة فلا شيء يشحذ تفوقها واقتدارها مثل هذا المجال!.

***

ولقد كُتب على ابن أبي طالب أن تكون حياته موكبا موصولا من المسئوليات الجسام.
أكانت أقداره تحابيه بهذا، لتجعل حياته عرضا مستمرا لفضائله المتألقة، وعظمته السامقة.؟
إن إحساسه وإن إيمانه بالمسئولية لعجيبان!
لكن العجب يفقد مكانه ما دامت الأقدار قد جعلت منه ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصهره وتلميذه الأول. فمن يك مكانه من الرسول هذا المكان، فإن عليه أن يعطي، ولا يأخذ.. وأن يغرم، ولا يغنم... عليه أن يهيئ نفسه لشظف العيش، ولأواء الحياة..
أما مناعمها، ومباهجها، بل مجرد الراحة فيها، فأشياء لا تنبغي لمحمد، ولا لآل محمد صلى الله عليه وسلم..!! تلك قضية وعاها علي جيدا، فيما وعى..
وابن عم الرسول وتلميذه، خير من يضع ارا دته وسلوكه في خدمة الحق الذي يعيه.
إنه بغير تكلف، وبغير إعمال أو محاولة، يجد طاقاته جميعا تبلغ أوج احتشادها واكتمالها، كلما بلغت الأخطار والتبعات ذروة تجمعها وتحدياتها.
وإنه بغير تكلف، وبغير إعمال أو محاولة كذلك، يجد فضائله جميعا تحلق فى ذرا جلالها وسموها عند الخطر، لترسم لمقدرته ولبطولته أسلوب العمل ا!
هكذا تعلم من محمد ابن عمه وكافله.. وهكذا تعلم من الرسول معلمه وهاديه..
فلقد رآه عندما بلغ الخطر به وبعمه أبي طا لب غايته الماحقة، تتقدم فضيلة الصمود فى جلالها المنيب فتقهرالخطر ، وتعبرعن نفسها فى هذه الكلمات :
"والله، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر في يساري، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه " ••!!
ثم رآه يوم الفتح، وقد تعلقت مصائرقريش كلها بكلمة واحدة تنفرج عنها ثناياه، فإذا فضيلة الصفح تتقدم في أنسها الرحيب وحنانها الرطيب، لتقول

للقتلة الذين جوعوا آهله، وقتلوا آصحابه، ومضغوا كبد عمه بعد آن مثلوا بجثمانه الطهور أبشع تمثيل.
اذهبوا ، فائتم الطلقاء " ٠٠ ا!
ليس هناك خطر مهما عظم، يستطيع أن يقاعس الفضائل الرفيعة عن دورها في توجيه الكفاية والبطولة. وليس هناك في كل مفاتن الدنيا ما يستطيع أن يفتن الرجل العظيم العادل عن مسئوليا ته العظيمة العادلة. هذا هوالدرس الذي حذقه على عن الرسول ووعاه..
يضاف اليه، بوصفه من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ما ذكرنا من قبل، وهو: أن يباشر مسؤولياته، ويحيا جميع حياته وسط دائرة صارمة من الزهادة، والشظف...
ليس له في طيباتها المشروعة، ولا في مناعمها الحلال حظ أو نصيب .
عرف ذلك من قول الرسول صلى الله عليه وسلم ومن علمه وسلوكه معرفة لا تحتاج إلى مزيد. عرفه حين كان يراه يضن على نفسه بشربة لبن.. ثم يرسلها لفقيرمن المسلمين..!!
وعرفه، يوم أرسلت إليه زوجته فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم تسأله حقا يسيرا ناله جميع المسلمين،فإذا هو يجيبها ودموع الوالد الحنون تملأ عينيه : " لا، يا فاطمة..
لا أعطيك وأدع فقراء المسلمين "! وعرفه، حين رأى عمه العباس يسأل الرسول ولاية، هو لها أهل بها جدير، فإذا الرسول صلى الله عليه وسلم يجيبه فى أسف: "إنا والله يا عم، لا نولي هذا الأمر أحدا يسأله، أو أحدا يحرص عليه "!
وعرفه أكثر وأكثر، يوم فتح مكة، حين حمل علي مفتاح الكعبة، وتوجه تلقاء الرسول وهو جالس وسط أصحا به في المسجد الحرام وقال له : "يا رسول الله..
اجعل لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك.
فإذا الرسول يبسط إليه يمينه، ويأخذ منه مفتاح الكعبة ثم ينادي: أين عثمان بن طلحة ؟ و كانت وظيفة حجابة البيت الحرا م معه ومع أسرته من قبل..
حتى إذا نهض. عثمان بن طلحة قائما ، أدناه الرسول صلى الله عليه وسلم منه، ووضع مفتاح الكعبة في يده وقال له : " هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء.. ".
ثم يلتفت صوب ابن عمه علي ويقول له : " إنما أعطيكم ما تُرزءون لا ما تَرزءون ..!!
عليه - إذن - أن يحمل مسئولياته كلها فوق كاهله الشجاع ، ويمضي ... وعليه - إذن - الأ ينتظر من الدنيا جزاء ولا ينتظر منها شكورا .. فليس لآل محمد صلى الله عليه وسلم سوى أن يعطوا .. أما ان يأخذوا فلا ..

إن الدنيا لأهون على الله من أن تكون لهم مثوبة وجزاء .. وليس هناك من آل بيت النبي من أدرك هذه الحقيقة وآمن بها مثل الإمام علي.. بل لقد أدرك أيضا ، أن طيبات الحياة التى يجد فيها الآخرون أفراحا ومسرات .. تتحول حين تلقيها المقادير على آل البيت إلى رزء ومشقة !!
ذلك لأنهما يبحثون خلال هذه الطيبات عن المنفعة والمتعة، بل عن الواجب والتبعة.
ومن آل البيت كذلك، لا نجد أحدا يفوق عليا رضي الله عنه في السير بحياته وفق هذا الإدراك.. فحين جاءته الخلافة .. خلافة أعظم دول الأرض يومئذ نفوذا وسيادة .. كانت هذه الخلافة التي يسيل لتبوئها لعاب الملوك، رزءا اصاب الإمام.. ولو شاء لجعلها مصدر نعيم لا ينتهي ، ومسرات لا تسكت طبولها .. ولكن، لانها تحولت بين يديه إلى مسئولية يمارسها ضميربلغ الكمال في ورعه واستقامته ، وفي تقواه وصرامته .. آنئذ لم تعد الخلافة مع الإمام العظيم أكثر من رزء، يحمله في جلد الصابرين الغارمين، لا في نشوة الفرحين الغانمين..!!.

***

ان المسئولية وحدها هي التي تعنيه .. وموضوع المسئولية - آية مسئولية - هو الحق ، ولا شىء سواه .. فإذا رأى الحق، حمل مسئوليته عنه من فوره ، واذا حمل مسؤولية ما فان العوا قب لا تدخل في حسابها أبدا. . وهذا يفسر لنا موقفه من الخلافة منذ انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى إلى أن لحق هو بهذا الرفيق.
فعندما بويع الصديق أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة استأخرت يمين الإمام علي كرم الله وجهه عن البيعة. .
لماذا..؟ لقد أعطى هو السبب في وضوح خلال حواره مع الصحابة ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر فقال : " انكم تدفعون آل محمد عن مقامه ومقامهم في الناس، وتنكرون عليهم حقهم. أما والله لنحن أحق منكم الأمرما دام فينا القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله .. العالم بسنن رسول الله ... المضطلع بامر الرعية .. القاسم بينهم بالسوية " ..
فهو -اذن- يرى ، بل يعتقد انه ما دام الرسول عليه السلام لم يعهد بالخلافة لأحد بذاته ، فإن البيت الذي اختارته السماء ليكون منه النبي المصطفى ,٠ ، هو البيت الذي يختار منه المسلمون خليفتهم ،ما دام في رجال هذا البيت من يتمتع بالكفاية الكاملة لشغل منصب الخلافة .
اجل ، فليس الإنتماء لبيت النبوة هو وحده مبررهذا الترشيح ، بل لا بد قبل ذلك من الكفاءة الكاملة التي تتمثل في الطاعة المطلقة لله ولكتابه ، ولرسوله ، وفي الاضطلاع القويم بامر المسلمين..
هكذا قال الإمام: " ما دام فينا القارئ لكتاب الله.. الفقيه في دين لله.. العالم بسنن رسول الله .. المضطلع بأمر الرعية .. القاسم بينهم بالسوية .. " .

***

ولسناهنا بصدد مناقشة رأي الإمام في خلافة الصديق رضي الله عنهما.
ولكننا نقرر عن يقين، أن الإمام في موقفه ذاك لم يكن مدفوعا برغبته الشخصية في منصب الخلافة، ولم يكن ينفس على أبي بكر هذا المنصب. إنما كان يدافع عن حق رآه واعتقده .. ولم يكن بالنسبة له موضع ريب أو شك.
فعندما اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة ، ورأى الأنصار أن يكون الخليفة منهم.. في حين رأى المهاجرون أنهم أحق وأولى، كان بعض منطق المهاجرين الذين رجح كفتهم، قولهم للأنصار : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منا نحن المهاجرين، فلتبق الخلافة في أهل الهجرة! فهذه الحجة نفسها كانت بعض منطق الإمام. .
فإذا استحق المهاجرون منصب الخلافة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم.. فإن بيت النبي أحق بها ، لأن النبي منهم. هكذا فكرالإمام.. ولكن من الخير لنا الأ يفتننا الشكل الخارجي لهذا الخلاف عن جوهره وحقيقته.
فأصحاب النبي الكبار بإيمانهم وبتقواهم من أمثال أبي بكر، وعمر، وعلي، وعثمان ، لا يتنافسون مغنما من مغانم الدنيا مهما عظم ، ولا سيما في ذلك الوقت حيث كانت فجيعتهم بموت نبيهم صلى الله عليه وسلم لا تترك في أنفسهم المفعمة بالأسى مكانا لأي من رغبات الحياة .. وإنما يرجع استمساك كل منهم بموقفه إلى أن كلا منهم وقف إلى جانب اقتناعه، وما اعتقد أنه الحق.
ثم إن الخلافة ، وإن تكن في شكلها الخارجي تشكل سلطة سياسية ، ومنصبا دنيويا ، الأ أنها في أفئدتهم وفي إدراكهم الحقيقي لها ، لم تكن سوى وظيفة من أسمى وظائف الهداية ، والقدوة.. وفى مثل هذا لا جرم أن يتنافس المتنافسون.
إن كل وقائع التاريخ وحقائقه تؤكد في غير لبس أن أبا بكر ، وعمر ، وعليا ، هؤلاء الثلاثة بالذات ، لم يكونوا يرون في منصب الخلافة سوى عبء فادح مبهظ ، ولولا أن الهروب منه خيانة لله ولرسوله وللمسلمين، لجعلوا بينهم وبينه بعد المشرقين...
فلا الطموح الشخصي ولا الرغبة في النفوذ والسلطة ، كان لهما أو لأحدهما مكان بين دوافع ذلك الخلاف.
كان الفريق الذي آثر اختيار أبي بكر ، ينظر إلى سابقته في الإسلام ، وإلى سنه وحكمته وخبرته ، وإلى ذلك الإيمان المعجز الذي حمله قلب رجل جعل شعار حياته كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن كان قال، فقد صدق " !
كانت المزايا التى تدعوها لاختيار أبي بكر تملأ الأفق ألقا ، ومجدا ،وعبيرا.
وهي مزايا لم ينكرها الإمام العظيم علي لحظة من نهار. لقد جهر بها ، وهو يبايع الصديق فيما بعد فقال : "يا أبا بكر.. انه لم يمنعنا من أن نبايعك إنكار لفضلك ، ولا نفاسة عليك لخير ساقه الله اليك.. و لكنا كنا نرى أن لنا في هذا

الأمر حقا أخذتموه" . كما عبرعن هذه المزايا تعبيرا اجمل وأروع حين وقف يرثي أبا بكر بعد وفاته، فيقول: "رحمك الله أبا بكر .. كنت والله أول القوم إسلاما . و أخلصهم إيمانا .. وأشدهم يقينا .. صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس .. وواسيته حين بخلوا .. وقمت معه حين قعدوا .. كنت والله للإسلام حصنا. وللكافرين ناكبا. لم تهن حجتك.. ولم تضعف بصيرتك .. ولم تجبن نفسك.. كنت والله كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ضعيفا في بدنك .. قويا في دينك.. متواضعا في نفسك.. فلا حرمنا الله أجرك.. ولا أضلنا بعدك"..!

أجل ، كان الرجلان أللذان تحرك بينهما بندول الاختيار بعيد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من طراز رفيع، رفيع، رفيع. وكان الرجل الثالث الذي لعب الدور الأول في اختيار أبي بكر في نفس المقا م من الرفعة والعظمة ... ويكفي ان يذكراسم أي منهم أبو بكر أو عمر .. أو علي ..حتى تتفتح الأبواب عن عالم من الفضائل والرفعة والتقي، ليس له نظير!!

ولقد سعى أبو سفيان إلى الإمام علي أكثرمن مرة يحضه على الاستمساك بحقه فى الخلافة ويقول : إن شت لاملأنها عليهم خيلا ورجلا ، ولأسدنها عليهم من أقطارها .

لكن الإمام الزاهد ،الورع،الفاهم، يرده في كل مرة ويدحضه : "يا أبا حنظلة. إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا ولا من شيمنا .. ولقد سددت دونها بابا ، وطويت عنها كشحا " .

اجل. فاختلاف وجهات نظر الأبرار حول الحق لا يخرج الأبرار من دائرة الحق والفضل، والأمانة. إن خلافهم ليس على دنيا يتنافسونها ، ومن ثم تبقى آفات الدنيا بعيدة عن إيمانهم وعن أخلاقهم ، وتبقى بعيدة عما يختلفون فيه ، بعدها عما يتفقون عليه . !!

وهكذا طوى - الإمام - عنها كشحا ، وأغلق دونها بابا ، وتفرغ لعبادة الله وتفقيه المسلمين ، وإسداء المشورة والنصح لولي الأمر .. فالمشكلات كلها ،والمعضلات جميعها لم يكن لها الأ علي .. ولطالما كان الخليفة أبو بكر يسعى إليه ويقول له: أفتنا يا أبا الحسن".!

ولطالما كان الخليفة عمر يستنجد بفقهه و بذكائه وببصيرته ، ثم يقول : اولا علي لهلك عمر".!

ولطالما كان الخليفة عثمان يأرز إليه ، ويستعين به ويستنصحه ، لكن عندما أوغلت الحاشية المحيطة به في الأمر، استطاعت للأسف أن تفسد ذات بينهما ، فلم يقدر لنصح الإمام ولمشوراته الأمينة العادلة ان تبلغ من اهتمام الخليفة ما تستحقه .

وباستشهاد الخليفة عثمان دعي الإمام علي ليتسلم الرزء الكبير منصب الخلافة . وهكذا جاءته أخيرا .. مثخنة بالجراح ، مثقلة بالمتاعب ، معباة بالعواصف .. حقا ، إن آل محمد ليس لهم من حظوظ الدنيا الأ ما يُرزءون . .

***

في أواخر عهد عثمان رضى الله عنه ، لعبت أهواء نفر من بنى أمية بمصائر الدولة وبمقاديرها لعبا أفضى آخر الأمر إلى فتنة مسلحة تنادى لها أصحابها من مختلف أقطار الإسلام ، واستغلها على نطاق واسع أعداء الدين الجديد الذين هدم عالمهم القديم كله، وقضى على مصالحهم وضلالهم.. وبلغت الفتنة في جولتها الأولى غاية احتدامها وظلامها مقتل الخليفة عثمان ..

ولسنا الآن بصدد الحديث عن وقائع تلك الأحداث الرهيبة ، فقد تناولنا ذلك بالتفصيل في كتابنا عن عثمان رضى الله عنه وعن أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم اجمعين.

أما هنا ، فسنكتفي برؤية الظروف الحالكة التي حمل فبها أميرالمؤمنين علي كرم الله وجهه تبعة الحكم ، ومسئولية الخلافة .

لقد قصده الثوار اثر فراغهم من اقتراف جريمتهم النكراء .

قصدوه وأيديهم لم يجف منها دم الخليفة الشهيد الذي اغتالوه في بشاعة مفزعة.

ورفض الإمام بعد أن القى عليهم من تقريعه ووعيده ماجعلهم وهم في بأسهم المتقد يتقامئون، ويتخاذلون، وينصرفون عنه فى خزي وهوان. ! ذهبوا إلى طلحة فرفض، وإلى الزبير فرفض.. وإلى عبد الله بن عمر فرفض، وإلى سعد بن ابي وقاص فرفض.. ومن ذا الذي يقبلها ،وقد رفضها الإمام علي ؟ والحق أن رفض علي لها هوالذي حتم عليه آخر الأمر قبولها .. ذلك أنه برفضه هذا ، ذاد عنها كل الرجال، حتى الطامعين فيها ، ولم يجرؤ أحد - وقد رأوا ابن أبي طالب يرفضها احتجاجا على اغتيال الخليفة الشرعي عثمان نقول : لم يجرؤ أحد ان يتقدم منها أو يتلقى مسئولياتها .

ولكن لابد للدولة من حاكم وخليفة ، وكل دقيقة تمر والمكان شاغر ، تشكل خطرا قد يودي بمصيرالأمة كلها والإسلام كله.

ولقد أدرك ذلك سريعا جميع الناس بالمدينة - أهلها .. والثوار الطارئون عليها .. الساخطون على مقتل عثمان والمشتركون فيه.

كلهم ادركوا الخطر الماحق المزلزل الذي سيحل الأمة في اقطارها القريبة والنائية إذا لم يمسك بالزمام على الفور ، رجل مقتدر يستطيع أن يوقف جموح الفتنة ، وبرأب ذلك الصدع العريض..

وهكذا عاد الثوار إلى الإمام يلحون ويرجون. . وقبل الثوار ، تقدم الرأشدون من أهل المدينة يبايعون عليا على الخلافة .

وبهذه البيعة التي كانت - يومئذ - الطربقة التي يختار بها الخليفة ، صار الإمام علي خليفة للمسلمين .

***

لم يكن بين أصحاب رسول الله الأحياء يومئذ ، من يفوق الإمام في كفاياته الهائلة التى تجعله جديرا بمكانه فِى الخلافة .. ولم تكن الخلافة عندما عُرضت

على الإمام وعندما قبلها ، نشكل أي مغنم من مغا نم الحياة.. بل كانت تشكل عبئا ، لحامله الويل كل الويل ، ان لم يعنه الله. وكان الواجب الكبير الذي ينتظر كل مؤمن وكل مسلم يومئذ ، بذل العون المستطاع لوقف امتداد الفتنة ، وذلك بالوقوف في ولاء وصدق وإيثار وراء "المنقذ الذي تقدم ليحمل مسئولية الموقف كله وليدرا عن الإسلام ودولته وأمته أخطارا لو قدر لها أن تبلغ مداها ، أتت على البناء كله من قواعد٥ .. لكن ذلك لم يكن.. بل كان نقيضه تماما ..

***

إن رجولة الإمام، وبطولته ، وعظمة مبادئه وسلوكه ، تتجلى الآن في أبهى صورها ، وقد صار خليفة وسط الأهوال... تتجلى في الدرس الذي تركته حياته للدنيا بأسرها . الأ وهو أن الولاء السديد للحق، يتمثل في الوقوف الصامد إلى جانبه، وليس في الدوران حوله، لأن الوقوف إلى جانبه مهما يصاحب ذلك من هزائم ومصاعب ، هو وحده الذي يزيد في نفوذ الحق ، ويجعل انتصاره النهائى أمرا محققا .

بروح هذا الإدراك لقيمة الحق ، وبوثاقة هذا الولاء له ، بدأ ابن أبي طالب مهام منصبه كخليفة . لقد بدأ يرد طريقة العطاء من بيت المال إلى النهج الذي يكاد يسير عليه الخليفة الأول أبو بكرالصديق ... وكان الصديق رضي الله عنه ، يعطي جميع الصحابة والمسلمين السوية دون تفريق بين من سبق إلى الإسلام، ومن جاء متأخرا .

فلما ولي الخلافة عمر رضي الله عنه نهج نهجا آخر ، فجعل للسابقين الأولين، أكثر مما يأخذ الذين تأخر إسلامهم .. وقال في ذلك قولته المأثورة .

" لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه...

يشيربهذا إلى انه لا يسوي في العطاءيين الذين التفوا حول الرسول مبكرين، وقاتلوا معه من أول يوم، والذين طالما قاتلوه وهم كفار، ثم صاروا فيما بعد من المسلمين..

وكان الإمام علي أميل إلى نهج أبي بكر ، مفسرا رأيه ، بأن الدولة لا تعطي المسلمين مثوبة دينهم ، وثمن إيمانهم ، فمثوبة الدين والإيمان عند الله ... إنما تعطيهم حاجتهم ليعيشوا ،ومن ثم فلا داعي للتمييز بينهم أو التفضيل.

كما إن التفاوت في العطاء من شانه ان يخلق فرص تراكم الثروات لدى بعض الأفراد .. مما يشكل مع الزمن فتنة في الدين وفسادا في الدنيا ...

***

وفى خلافة أمير المؤمنين عمر ، لم تدع صرامته ويقظته أي مجال لترا كم الثورة ، فقد كان حسبه أن يعلم أن فلانا من ولاته قد فاضت نعماؤه وكثر ثراؤه ، حتى يرسل إليه فيقاسمه كل ما يملك ويرده جميعا إلى بيت مال المسلمين .

***

ولكن في خلاقة عثمان ، وكان المسلمون قد بلغوامن الجهد أقصاه ، بسبب ذلك الشظف وذلك الزهد اللذين فرضهما عليهما في جلال باهر أميرهم العظيم عمر بن الخطاب .
كما وجدوا في الخليفة الجديد عثمان من الطيبة التسامح ، ما أغراهم بأن ينالوا من طيبات الحياة كل ما يستطيعون. هنالك انفتحت أبواب الدنيا بغير حساب ، ولئن وجدت من أصحاب الرسول من يعتصم دونها بورعه وبزهده وتقاه ، فقد وجدت من بعض المسلمين - ولا سيما الذين أسلموا بعد الفتح ، والذين أسلموا بعد وفاة الرسول - ناسا كثيرين، استسلموا لعرض الحياة الدنيا ، وفتنتها ، وعجزوا عن النهوض إلى مستوى الحياة التى يرسمها الإسلام للمسلم ، وخصوصا في أيامها الأولى.
ولقد صار لكثير منهم ضياع ، وتجارة عريضة ، ثروات وقصور وبذخ ، ولا سيما ذلك النفر من الأمويين، الذين استغلوا ظروفا معينة، ليجعلوا من أنفسهم طبقة متميزة بثرائها وبنفوذها .
***
جاء الإمام علي فقرران يرد العطاء إلى نهج أبي بكر. وهوعلم علم اليقين أن ذلك سيغضب منه بعض الصحابة الكبار الذين أيدوه، ولا يزال في حاجة أكيدة لاستمرار تأييدهم .
لكن ابن عم الرسول الذي لا يعرف المساومة في الحق ، فليقف إلى جانب الحق ، وليكن ما يكون.. ! هذه واحدة. .
والثانية التي نادت إليه المتاعب ، وفعلها في ولاء للحق وثيق ، هي أن نفرا من ولاة الخليفة الراحل عثمان لم يكونوا في رأي علي أهلا لهذه الولاية..ولقد كانوا السبب المباشرفي الفتنة الرهيبة لتي أودت بحياة الخليفة عثمان .لذلك بدأ الإمام في الساعات !!لأولى لخلافته يصدرأوامره بعزل هؤلاء ، واضعا مكانهم فريقا من الأصحاب الذين معهم من الدين ، ومن الاستقامة ، ومن المقدرة ما يجعلهم موضع ثقة الخليفة ، وملاذ المسلمين..
عزل أولئك، وولى هؤلاء .. وكان ضمن المعزولين معاوية الذي كان يومئذ واليا على الشام بأسرها.
وكان معاوية قد طال بالشام مكثه ، وكان يعد لطموحه البعيد كل احتياجات الغد المرتقب، ومن ثم اتم هناك بناء جيش قوي. وتبلف الناس بالأموال وبالدهاء حتى صارت الشام حصنه المغلق ، المنيع ..
كان أمير المؤمنين علي يعرف هذا جيدا .. كما كان يعرفه بعض أصحابه الذين ذهبوا إليه يرجونه متوسلين أن يرجى عزل ولاة عثمان" ، وخصوصا معاوية، حتى يعطوه البيعة ، وحتى تستقر الاوضاع المضطربة ، وحتى يمكن الخليفة لسلطانه ، ثم بعدها يعزلهم كيف شاء .. لكن ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وتلميذه الصدوق لايعرف المساومة في الحق، فهويرفض أن يبقى واحد من هؤلاء فى مكانه .بوما واحدا . ويذهب إليه ابن عمه عبد الله بن عباس

يرجوه أن يرجىء أمر معاوية بعض الوقت، وستأتى قريبا فرصة عزله.. لكن الإمام الراشد يرفض - برغم كل العواقب- أن يتحمل أمام الله مسئولية إبقاء معاوية في مكانه واليا للمسلمين ، ولو ساعة واحدة من نهار ، قائلا عبارته المأثورة :
" لا والله، لن يرانى الله متخذ المضلين عضدا " .. ! وأمام ولائه الباهر لمسئولياته ، لم يضيع وقنه هدرا .. فقد نهض على الفور فأرسل عماله الجدد إلى الأمصار :
عثمان بن حنيف ،الى البصرة.. وعمارة بن حسان، إلى الكوفة.. وعبد الله بن عباس، إلى اليمن. وقيس بن سعد بن عبادة، إلى مصر.. وسهيل بن حنيف، إلى الشام.
ولقد تسلم الولاة عملهم في سلام، الأ سهيل بن حنيف، والي الشام الذي عين مكان معاوية ، فانه لم يكد يصل أرض تبوك المتاخمة للشام حتى استقبلته كتيبة من جيش معاوية حالت دون دخوله البلاد .
ولما رجع إلى المدينة ، حاملا هذا النبأ إلى الإمام ، لم يفاجأ بما سمع فقد كان يتوقع من معاوية مثل هذا التمرد غير المشروع.

***

طوال حياته العظيمة، لم يتعود علي قط أن يكون هناك خيار بين مبادئه ، ومصالحه ..
وذلك لسبب يسير ، هو أنه لم تكن له مصالح قط .. كانت حياته رسالة .. وكان عمله وسلوكه تعبيرا وافيا عن هذه الرسالة . وإنه الآن لقادر بقليل من الدهاء والمسايرة أن يطوي معاوية حتى يقتلعه من مكانه في هدوء .
ولكنه يتساءل دوما : ماحاجة الحق إلى أن يساوم..وإذا ساوم الحق فما مزيته على الباطل..؟؟
وهاهو ذا يتصرف الآن وفق هذا الإدراك لقيمة الحق ولقداسته.
لقد عزل واليا لا براه أهلا لمكانه، ورفض هذا الوالي تنفيذ أمر خليفته، ورئيس دولته.
إذن ، فليتحمل مسئولية موقفه وتمرده ..
هناك كتب إليه الإمام: " ... أما بعد ، فقد بلغك الذي كان من مصاب عثمان ، واجتماع المسلمين علي ومبايعتهم لي، فادخل في السلم أو ائذن بحرب" .
كان يرجو أن تردع هذه الكلمات معاوية ،لكن رد معاوية كان عجيبا .. فقد قال لرسول الخليفة : "عد انت إلى حيث جئت ، وسأرسل بجوابي مع رسول من عندي" .
وفعلا ، أرسل جوابه مع رجل من بني عبس قطع الطريق إلى المدينة حاملا رسالة
حاكم الشام ... ,.
وما كاد الإمام علي يفض الرسالة ليقرأها ،حتى ملأت الدهشة محياه.

لقد كانت الرسالة ورقة طويلة وعريضة ، ليس فيها من كلام مسطور سوى هذا السطر الواحد: - من معاوية بن أبي سفيان، إلى على بن أبى طالب. !
وارتسمت على شفتي الخليفة ابتسامة مريرة ، والتفت صوب مبعوث معاوية الذي كان قد نهض وراح يتكلم قائلا : - أيها الناس، اسمعوا منى وافهموا عنى.. " اني قد خلفت بالشام خمسين ألفا ، خاضبي لحاهم بدموع أعينهم تحت قميص عثمان ، رافعيه على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله الأ يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتكته أو تلحق ارواحهم بالله".. هذه إذن : رسالة معاوية . وهذه خطته المرسومة لمناهضة الخليفة الجديد . قميص عثمان.. !!
نحن هنا ، وفي كتبنا المماثلة (1" لا نؤرخ للوقائع ، إنما نؤرخ للعظمة .. أجل.. العظمة الإنسانية التي بلغت في الذين نؤرخ لهم ذراها السامقة، وغاياتها البعيدة..
من أجل هذا لا ندع -الآن- ضجيج الحوادث وأفواج الوقائع ، تصرفنا عن تتبع العظمة التي يرسمها لنا الإمام ...وبمواقفه تجاه الوقائع والأحداث.
لقد سارت الأحداث على النحو الذي ساعد معاوية ، في حين زاد الأمور صعوبة وتعقيدا أمام الإمام" .. فالسيدة عانشة رضى الله عنها ،وكانت قد خرجت إلى مكة معتمرة قبل مقتل عثمان قد جزعت لمقتله أشد الجزع . و الزبير و طلحة من كبار أصحاب رسول الله ، وقد تركهما الإمام يغادران المدينة إلى مكة عندما طلبا ذلك. على الرغم من نصيحة بعض أصحاب الإمام له كي يحتفظ بهما إلى جانبه حتى يأمن أمرهما .
عا ئشة أم المؤمنين ، والزبير ، وطلحة ، صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ساروا على رأس حشد كبيرمن المسلمين إلى البصرة، ليحرضوا المسلمين بالعراق على الثأر من قتلة عثمان.
وكان الإمام علي قد غادر المدينة إلى العراق عندما جاءته رسالة معاوية التي مر بنا ذكرها، وقال الإمام : " إن لأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريبا منها " .. ولكنه ، وهو في طريقه إلى العراق، جاءته الأنباء بمسيرة عائشة ، وطلحة ، والزبير إلى البصرة. أي رزء هذا، وأي ابتلاء ؟!
ألا يترك ثأر عثمان للدولة تقوم به، وتقتص له في الوقت المناسب والفرصة الملائمة. .؟
لم يكن لدى الإمام ريب في اقتناع السيدة عاشة . طلحة و الزبير ببراءته الكاملة من دم عثمان.. ففيم إذن خروجهم.. ؟
إن النبأ الساري يقول : انهم خرجوا ليتعقبوا قتلة عثمان في البصرة ، وليستعينوا بصالحي البصرة وبقية أهل العراق ممن آسفهم قتل الخليفة ، على أولئك الذين ائتمروا على حياته وخاضوا في دمه..

(١" كتاب محمد والمسيح ،و وجاء أبو بكر ،و بين يدي عمر ،ورجال حول الرسول .

ولكن هناك دولة على رأسها رجل مسئول لم تكن ذمته ، ولا أمانته، ولا ورعه ، ولا شدته في الحق حتى على نفسه . لم يكن ذلك كله موضع تساؤل أو اتهام منذ رأى نور الحياة وليدا إلى يومه هذا.. أفلا تترك الدولة وعلى رأسها حاكم هذا طرازه الرفيع الأمثل ، تسوي هي ، ويسوي حاكمها مسألة عثمان .. ؟
واذا وقف فريق في الأمة يطالب بدم عثمان ، وفريق آخر يدحض ويقاوم هؤلاء المطالبين ، واشتبك الفريقان في معارك مسلحة فأين الدولة آنئذ .. أتجلس في شرفة الملعب لتتفرج على المذبحة .. ؟ وما مصير الإسلام كدين .. ؟ وما مصير المسلمين كأمة .. ؟
دارت على ذلك كله خواطر الخليفة واتخذ قراره سريعا ،فأمرموكبه الهادرمن المدينة أن يلوي زمامه شطرالبصرة. . وعندما شارفوا تخومها نزلوا هناك بمكان يسمى ذا قار ..

***

وسرعان ما تحققت ظنونه وصدق حدسه ، فإن موكب السيدة عائشة لم يكد يستقر في البصرة حتى وقع صدام مروع بينه وبين حشود كبيرة من أهل البصرة أبوا أن يسلموا أقرباءهم وذويهم ممن اشتركوا في مقتل عثمان. إنها إذن الحرب الأهلية التي حاذرها الإمام.. وإنه وحده المسئول الأول والأخير عنها .. أليس هو رئيس الدولة ؟ فأما أن يكون كفئا لفرض احترام القانون والدولة، وأما ان يدع مكانه لآخر من الأكفاء. وليس هناك يومئذ أكفأ من أبي الحسن ،وإن العظالم كفؤها العظماء .

***

لقد اعتاد الإمام دائما أن يتصرف تصرف القدوة .. فهو في كل حركاته ، وقراراته ، وأعماله يلتزم واجبات القدوة..
إن كلماته ، وخطواته ، لتشكل طريقا عاما للاجيال المقبلة على طول الزمن وعرضه ، ومن ثم فإن الشعور بتبعات القدوة أكثر الأشياء إملاء عليه و إيحا ء إليه !!
في طفولته ، كان يسلك مسلك القدوة فلا يلعب لعب الأتراب، ولايلهو مع الصبية وفى شبابه ، كان يسلك مسلك القدوة ، فقضاه شبابا طاهرا ، وحمله مسئوليات الرجال مبكرا..
وفي رجولته، وخلافته، أعطى كل عزمه وكل نفسه لما تطلبه القدوة من تبتل وصمود وهو الآن وقد واجهته الفتن في موج كالجبال ، لن يلقاها بمسئوليات الخليفة فحسب .. بل سيلقاها قبل ذلك بمسئوليات القدوة !!
أجل . بمسئوليات القدوة الذي ستصبح اتجاهاته وقراراته طريقا عاما ،وقانونا عاما لعصور مقبلة ، وأجيال وافدة..
ولن نجد في حياة علي بكل عظمتها وعطائها ، أروع ولا أجزل من مواقفه في تلك الفتن المظلمة الرهيبة التى واكبت خلافته من أول ساعة إلى أن لقى

ربه..
هنا نلتقي بمعلم كبير ، ليس من طرازه سواه .. معلم لم يكن يعنيه النصر على خصومه ، ولا تامين خلافته وحكمه وسلطانه .
إنما كان يعنيه - لا غير - أن يعطي من حياته ومسلكه صورة مشرفة من الرعيل الأول، سمع دوي الوحي، وصلى وراء محمد صلى الله عليه وسلم٠٠ !!
أجل .. صورة مشرفة لمسلم رباه القرآن ، وقدوة صالحة لمواكب المسلمين القادمة مع الغيب القريب والبعيد ..!!
هذا هوالذي كان يعنيه .. وبعد ذلك ، ليكن ما يكون .. نصر ، أم هزيمة .. خلافة ، أم عزل .. حيا ة ، أم موت .. لا شيء بعد القدوة الصالحة ، ترنو له النفس ، أو تحوم حوله الرغبة !!! وهكذا تلقي الخليفة يتصرف تصرف القدوة .. الآن ، وكل آن .. اليوم ، وهو يواجه جيشا تقوده أم المؤمنين والزبير و طلحة ،وغدا وهو يواجه جيوش معاوية . وبعد غد.. وهو يواجه الخوارج.. !!
***
عندما جاءته أنباء الصدام في البصرة، بعث إلى أهل الكوفة يدعوهم لنصرته ، وفدوا عليه ،زلزلوا الافق بصياحهم ، وملئوه بسيوفهم المشرعة ، وراحوا يتعجلون الإمام ليواجه بهم جيش البصرة بقيادة طلحة والزبير.
وهنا تجلت فطنة الإمام ونور بصيرته ، فلقد استبان من الحماس المشبوب لأهل الكوفة ، إنهم كانوا على وشك ان يخرجوا بأنفسهم مسلحين إلى البصرة ، لينضموا إلى المقاومة المسلحة التي هبت هناك في وجه طلحة والزبير .
ذلك أنه إذا كان من أهل البصرة من اشترك في الثورة على الخليفة الراحل عثمان فإن فى أهل الكوفة من اشترك أيضا ،والآن وقد رأوا أنفسهم في مهب العواصف ، فقد تنادوا بالنصرة ، وتلاقوا على الحمية ..
فوضع هذه القوات الثائرة تحت سلطة القانون والدولة كان عملا حكيما وحصيفا ..
***
رأى أميرالمؤمنين حماس أهل الكوفة ، فأراد أن يهديهم سواء السبيل ، وراح يعلمهم أن الحق يدرك بأسباب كثيرة ، آخرها امتشاق الحسام . وإنهم إذا فرض عليهم أن يخوضوا قنالا، فلابد من أن يكون مشروعا وعادلا .. وهو لا يكون كذلك حتى يستفرغ الجهد فى إحقاق الحق عن طريق الاقناع والسلام..
هناك دعا القعقاع بن عمرو - وأرسله بغصن الزيتون الى أم المؤمنين، وطلحة، والزير.
وفي البصرة بدأ القعقاع بمحادثة أم المؤمنين ، ثم جاء طلحة و الزبير فعقدوا اجتماعا طال فيه الحوار .
وندع ابن كثير المؤرخ الكبير، ينقل إلينا بعض فقرات هذا الحوار.
القعقاع : يا أم المؤمنين ، ما جاء بك إلى هذا البلد ؟
أم المؤمنين: الإصلاح بين الناس.

القعقاع : وأنتما - طلحة والزبير - ماجاء بكما ؟
طلحة والزبير : الإصلاح بين الناس؟
القعقاع : فاخبروني كيف يكون هذا الإصلاح ؟
طلحة والزبير : يكون بالثأر لعثمان، وقتل قاتليه..
القعقاع : لقد قتلتما قتلته من أهل البصرة، وأنتما قبل قتلهم أصوب نهجا منكم بعد قتلهم ، لأنكم قتلتم ستمائة ، فغضب لهم ستة آلاف.
وها أنتم أولاء تطلبون أحد القتلة وهو - حرقوص بن زهير - فلا تقدرون على إدراكه ، لأن ستة الاف يشايعونه ويحمونه .. أفلا تعذرون - أمير المؤمنين عليا - إذا هو أخر قتل قتلة -عثما ن - إلى أن يتمكن منهم ؟
إن الكلمة في جميع أقطار الإسلام مختلفة ، وإن خلقا كثيرين من ربيعة ومضر . قد تجمعوا ليشعلوها حربا ضروسا .. ا!
ام المؤمنين: وما ترى يا قعقاع ؟
القعقاع : أرى ان تؤثروا العافية ، وتعطوا البيعة ، وإن تكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولا ، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له!!
وانتهى الحوار- كما يحدثنا ابن كثير- باقتناعهم بمنطق القعقاع، واتفاقهم على أن بجيء الإمام علي إلى البصرة ليتم لقاء السلام . .
عندما رجع القعقاع إلى الخليفة وأنبأه ما كان ، طا ر فؤاده فرحا ،ولم يكن على وجه الأرض ساعتئذ أسعد منه ولا اهنأ ..
لقد حفظت دماء المسلمين فلن تراق. . وليس مثل ذلك شيء يفيء على روح الإمام
السعادة والغبطة.
وخطبته التي ألقاها على جنده ساعتئذ ، تنقل الينا أفراح نفسه ، وحبور ضميره..
لقد راح يستعرض لهم الجاهلية بخصوماتها العاتية وحروبها الضارة ، حتى جاء الإسلام فألف بين القلوب ، وآخى بين البشر ، وجعل الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي الأ بالتقوى.
وذكرهم بتلك الوحدة الباهرة التي جمعت المسلمين من كل مكان بإمرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ثم بأمره خليفته من بعده ابي بكرالصديق ،ثم بإمرة أميرالمؤمنين عمر ثم بإمرة خليفة المسلمين ,عثمان وختم حديثه قائلا ،وكانما كانت عيناه آذذاك على معاوية. .
" ... ثم حدث هذا الذي جرى على الأمة .. اقوام طلبوا الدنيا وأرادوا للإسلام أن يرجع القهقرى.. ولكن الله بالغ أمره.. الأ إني مرتحل غدا ، فارتحلوا معي.. ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان ولو بشطر كلمة" !ا
انه الرجل القدوة هوالذي يتحدث وإنه ليتخذ ، من الكلمات ومن المواقف ما يزيد الحق نفوذا، والعدل رسوخا ، والفضيلة ازدهارا .
***

ورحل أميرالمؤمنين إلى البصرة بمن معه من صحبه وجنده.. وحطوا رحالهم هناك حيث أخذ كل فريق يتهيأ لاجراء الصلح..
ولكن كانت هناك عيون لا تنام، ومؤامرات لا تغفو.. والله وحده يعلم حقيقة القوى المخبوءة التي حرضت تلك العيون ونسجت تلك المؤامرات، وغيرت اتجاه الرياح!
التاريخ يحدثنا - فيما يحدث - أن قتلة عثمان حزموا أمرهم على إفساد هذا الصلح، معتقدين أنه سيتم على حساب رءوسهم ودمائهم، فهل كان ذلك كذلك فحسب.. ؟ أو كانت هناك قوى غير منظورة لها فى اشتعال النار هوى ومصلحة..؟
على أية حال، فإن فجر اليوم الذي ضرب موعدا لبدء المصالحة لم يكد يبزغ حتى كان ألفا رجل من قتلة عثمان يقتحمون خيام جيش البصرة الذي يقوده طلحة والزبير، ويعملون سيوفهم فيهم وهم نائمون.. ونهض الجميع إلى سيوفهم.. ولم يكن هناك مجال لازالة اللبس وتفنيد المؤامرة، ووقف الفتنة، فقد ظن أهل البصرة أن حديث الصلح كان خدعة.
وهكذا التقى الجيشان في موقعة الجمل ،على الرغم من كل ماحاول الإمام أن ينقذ به الإسلام!

****

مضى القتال حاميا عنيدا .. ومع كلي رآس يميل، آو معصم تبتر، آو ساق تقطع،
بل مع كل قطرة دم تسيل، كان قلب الإمام ينخلع ويذوب. لقد كان يسكره
الكر والفر في صراعه مع المشركين. أما اليوم،والقا تل والمقتول أبنا ء دين
واحد، وهو الخليفة المسئول عن هذه ألأمة بكل دمائها وأرواحها، فمن يجيره
من هذا الموقف ؟ من يجيره ؟
لكنه حتى وهذه الأهوال كلها تحيط به، أيفقد شرف البطولة وعظمة النفس.. !
ففيم تقتتل هذه الألوف من المسلمين ؟
اليس بعضهم يقاتل من أجل" علي ،وبعضهم الآخرمع طلحة والزبير .. ؟
اذن ليبرز طلحة والزبير وعلي معا.. حيث يسوون مع أنفسهم وحدها الحساب
على أي صورة، فيقف جريان تلك الدماء الغالية.
هناك دفع جواده وسط صفوف الجيش المقاتل له ، ونادى : - الي يا
طلحة..الي يا زبير!
وخرجا إليه. وتوسط الثلاثة الصفوف المتلاحمة كالطوفان.
وصاح في طلحة صيحة احتشد فيها كل ما ورثه آباؤه من شرف ونخوة : " يا
طلحة أخبأت عرسك فى البيت وجئت بعرس رسول الله تقاتل بها " .. ؟!!
وزأر الاسد زئيرا هز أرجاء الأفق، وسقط المطر فجاة .. وكأنما هي دموع
السماء هزتها روعة الكدمات وأساها .. !!
ثم التفت صوب الزبير : ".وأنت يا زبير..
أتذكر يوم - كذا -عندما رأيتني مقبلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم:
فضحكت لي. .
فسالك الرسول : أتحبه يا زبير ؟ فقلت : نعم ..
فقال لك : أما إنك لتقاتلنه وأنت له ظالم ..
كانت الكلما ت تحتشد في فمه ثم تنفرج عنها ثنايا : في مثل الق الشمس
وعنفوان القدر .
وصاح الزبير : "اجل .. ولقد ذكرتني بما كنت قد نسيت " .
وألقى سيفه إلى الأرض، وراح يختلج بين الصفوف ودموعه تبلل الأرض
أمامه..
وعاد علي الى صفوف جنده. . وغادر طلحة أرض القتال.. وغادرها الزبير ..
غادرا ها بعد ان سمعا من الإمام ماسمعا .. وبعد أن علما أن عمار بن ياسر
يقاتل في جبهة الإمام علي ، وتذكرا ما كان الرسول قد قاله ذات يوم لعمار :
"- تقتلك الفئة الباغية" ا!
بيد أنهم الاضغان العربية لم تدعهما ليذهبا في سلام، فاما الزبير فقد تربصت
به في الطربق عصابة آثمة قتلته.. !!
وأما طلحة، فلما يكد مروان بن الحكم - الأموي - يعلم بعزمه على الانسحاب
من القتال حتى تربص به ورماه بسهم أنهى حياته!
***

لم يبق لجيش البصرة من قائديه أحد.
لقد ذهب عنه طلحة، والزبير..بل لقد ذهبا عن الدنيا كلها إلى ربهم الغفور الرحيم.
هنالك لم يجد الراغبون في استمرار القتال سوى أم المؤمنين في هودجها ، فوق ظهر الجمل الذي كانت تمتطيه مشرفة على القتال .. ورأى الإمام أن خصومه قد اتخذوا من الجمل كعبة أحاطوا بها .
وبدا له أن نهاية المعركة ووقف الدماء المهراقة ، منوطان بنهاية هذا الجمل.
واشير عليه، أو أشار هو على نفسه أن يرمى الجمل بسهم يجهز عليه. وأوصى بعض أصحابه وجنده، ان يكونوا على أقرب قرب مستطاع من الجمل، حتى إذا عقر وسقط ، سارعوا هم إلى هودج السيدة عائشة فأحاطوه بأرواحهم، وتلقوه قبل ان يسقط على الأرض فيصيبها سوء .
رجل .. وبطل .. وقدوة.. فماذا ينتظرمنه غيرهذا الصنيع .. ؟! ونفذت الخطة بنجاح ..
وانتهت المعركة ، ووقف القتال.
ودعا إليه محمد بن أبي بكر ، فأمره ان يصحب أخته أم المؤمنين عانشة إلى دار أعدت لاستقبالها ريثما تتهيا لها وسائل العودة إلى مكة فالمدينة في أمن، وإكرام، وسلام.
ثم وقف الإمام بنفسه وسط جنده و أصحابه ليتلو عليهم قراره الجديد :
" لا تتبعوا موليا .. و تجهزوا على جريح.. ولا تنتهبوا مالا .. ومن ألقى سلاحه فهو آمن.. ومن أغلق بابه فهو !!من"..
يقول المؤرخون : (١"
" فكان أتباع الإمام يمرون بالذهب والفضة ، فلا يعرض لهما احد" ..
لقد نفذوا امرالإمام في مرارة وضيق . أوهكذا كان شأن بعضهم على الأقل .
مما جعلهم يسألون الإمام :
- كيف حل لنا قتالهم، ولم يحل لنا سبيهم وأموالهم ؟
فاجابهم الإمام: " ليس على الموحدين المؤمنين سبي ولا يغنم من أموالهم الأ ما قاتلوا به وعليه. " .
كان الخليفة يعلم أن نهيه هذا سيؤلب ضده بعض مؤيديه من ضعاف الوازع ..
ولكن لينفض عنه الناس أجمعون إذا كان إيثاره الحق سيظل قصده وسبيله !!
* **
وانتهت هذه الجولة بانتصار أمير المؤمنين.
ولم يكن الانتصارالعسكري يمثل سوى الحظ الأدنى في هذا الانتصار الكبير .. أما

(١" الاخبار ، الطوال، لابي حنيفة الدينوري .

الحظ الأوفى فيه ، فكان انتصار حقه ، ومبادئه .
فانسحاب طلحة والزبير من القتال في أوج احتدامه جاء اعترافا منهما بأن عليا مع الحق.
وندم أم المؤمنين فيما بعدعلى الزج بنفسها في هذا الموقف يشكل اعترافا بأن "عليا" على الحق. وهذا هو النصر الأهم الذي ينشرح له صدر الإمام .
إن كل ما يرجوه ويطمح إليه ، أن يقف بجانب الحق ، وأن يفهم الناس عنه ذلك ، ليكونوا له عونا على تقديس الحق وإن كل ما يرجوه ويطمح إليه ، أن يظل أمينا على واجبات القدوة والتزاماتها ، وأن يفهم الناس عنه ذلك أيضا ، لينفعوا بهذه القدوة في تشكيل حياتهم. ولقد واجه الموجة !!الأولى من موجات الفتنة الضارية بجأش البطل ، وأناة الحكيم، وورع القدوة. لننظر هذا المشهد الأخير من مشاهد موقعة الجمل .
لقد كان يجلس في داره بعد انفضاض المعركة ومعه أصحابه ، حين دخل عليه أحد اتباعه يقول : عمرو بن جرموز قاتل الزبير بالباب يستأذن في الدخول.
وأذن الإمام بدخوله. .
ودخل القاتل مزهوا فخورا ، يظن أن الخليفة سيهش له ، ويستقبله استقبال الأبطال.
لكنه لم يكد يواجه الإمام حتى صرخ في وجهه : أهذا الذي تحمله سيف الزبير .. ؟
قال وقد هزمت غروره صرخة الإمام: نعم هو .. سلبته منه بعد أن قتلته !!
فأخذه منه الإمام بيمينه ..ثم أمسكه بكلتا يديه ورفعه في خشوع إلى فمه. . ثم قبله في حنان وحزن، وقال ودموعه تسيل على وجنتيه : " سيف طالما - والله - فرج به صاحبه الكرب عن رسول الله " ! ثم صوب إلى القاتل نظرات ملتهبة وقال له:
"أما انت، فابشريا قاتل ابن صفية بالنار ". .
وخرج عمرو بن جرموز يتعثر في خزيه، وخيبة أمله، ويقول : " عجبا لكم .. نقتل أعداءكم ، وتبشروننا بالنار ا!".
تلك عظمة ربيب الوحى ، وسابق المسلمين .. تلك عظمة الرجل ، والبطل .. تلك عظمة الخليفة ، والقدوة ، وإنها لعظمة لن تكف عن توكيد ذاته ،ما دام صاحبها حيا يمارس العظائم ، ويصوغ المكرمات ..
فإلى مشاهد آخرى لنرى من أمرها عجبا.
تذكرون تلك الرسالة وذلك الرسول اللذين أرسلهما معاوية إلى أمير المؤمنين.
الرسالة ورقة بيضاء فيها سطر واحد مكتوب ، وهو : " من معاوية بن أبي سفيان، إلى علي بن أبي طالب" هكذا " علي بن ابي طالب" لا غير ... دون أي ذكر للقبه ... فلا خليفة المسلمين ، ولا أمير المؤمنين !!

بل إن وضع اسمه واسم أمير المؤمنين في مقابلة كهذه تومىء إلى التنابز القبلي والجاهلي في هذا الخطاب ..
فكانه يقول له : انا ابن أبي سفيان .. وأنت ابن أبي طالب وسننظر أي الابنين اعلى مقاما ، وأشد ساعدا .. ا!
غفر الله لمعاوية : ما كان أغناه عن هذا الذي لج فيه ، وتهالك عليه .
لقد رفع في الشام - كما قال رسوله لعلي - قميص عثمان، حيث حشد تحته خمسين ألف مقاتل خاضبي لحاهم بدموع أعينهم ، رافعيه على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله الأ يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلة عثمان، أو تلحق أرواحهم بالله..! فيم كل هذا؟ ولم ؟
حقا إن قتل الخليفة الشهيد عثمان كان أبشع جريمة أرتكبت في تاريخ المسلمين حتى ذلك اليوم. ولا تتمثل الجريمة في اغتيال الخليفة الشرعي فحسب ، وإن يك ذلك كافيا لدمغها بالجريمة وبالبشاعة .. إنما تتمثل أكثر وأكثر في الطريقة التي تم بها الاغتيال .
تلك جريمة لا مكان للحديث عنها الآن .. وقد وجدت مكانها فى كتابنا عن عثمان ، أما هنا ، فحسبنا أن نسأل : فيم هذا الصراخ كله في وجه علي – أين دم عثمان. ؟
إننا لا نلوم ، بل نحيي كل صوت صادق نزيه ارتفع مطالبا بدم عثمان !
وإن الطريقة التي اعتدي. بها على حياة الخليفة ، وعلى كرامة الدولة في شخصه ، لتجعل الحجرالأصم ينطق ويصيح : اقتلوا قتلة عثمان .. ولكن هل كان نهج معاوية هوالنهج الصحيح الأمثل لإنزال القصاص بأولئك القتلة.؟
اكان طريق القصاص أن يمتنع أولا عن البيعة للخليفة الجديد ، الذي اختاره المهاجرون والأنصار في المدينة، ثم دخل المسلمون في بيعته أفواجا من كل الأمصار والأقطا ر.. ؟
أكان طريق الثأر لعثمان أن يمتنع معاوية عن البيعة ويتمرد على الدولة في تلك الظروف المزلزلة التي لا تتطلب شيئا كما تتطلب رأب الصدع وجمع الكلمة .. ؟
أكان طريق الثأر لعثمان ، أن يطوف بقميصه بلاد الشام كلها ، غارسا في قلوب الناس أن عليا هو الذي أعان على قتل عثمان بالأمس.. وهوالذي يؤوي قاتليه اليوم. .
أكانت آية ولائه وحبه لعثمان ، أن يجعل من قميصه المضمخ بدمه - راية - يبعث تحتها كل غرائزالجاهلية، ويديرتحتها أتعس حرب أهلية تزلزل الإسلام وتفني المسلمين. . ؟
مرة أخرى، يغفرالله لمعاوية. فما كان أغناه عن هذا المنزلق الوعر ، والهوة الفاغرة!

***

إن جميع المسلمين الراشدين وقفوا بعد مقتل الخليفة يطالبون باحترام دمه، والقصاص له.. ان ذلك كان يمثل أيضا احترام الدولة والقصاص لحرمتها وهيبتها . الإمام علي نفسه كان يطالب بدم عثمان ولكنه - وقد صار على رأس الدولة - فإنه لم يعد مجرد مطالب بالدم. بل صارالسلطة التي عليها أن تنزل القصاص .
ولما كان المشتركون فى قتل عثمان والمحرضون عليه ، ألوفا ،وليسوا عشرات، أو أحادا .. ولما كانت فتنتهم المسلحة لا تزال قائمة ونامية - فضلا عن المضاعفات الجديدة الخطيرة التي طرأت على الدولة ممثلة في معركة الجمل، وفي تمرد معاوية وأهل الشام - فإنه لم يكن ثمة فرصة لإنزال هذا القصاص الأ بإجادة التوقيت المحكم لفرض كلمة القانون وسط هذا الجوالمضطرب وتلك الفوضى.
و عبد الله بن عباس ابن عم الإمام علي، واحد قواده في حروبه كلها ،طالب أيضا بدم عثمان ، بل قال في ذلك كلمة تغني عن كل مقال في ذلك المجال. قال رضي الله عنه: " لو لم يطالب الناس بدم عثمان لأمطرت السماء عليهم حجارة" !
ففيم اذن كل هذا الاتهام لأميرالمؤمنين علي ؟ وفيم كل هذا التحربض على عصيانه وقتاله. ؟
هاهو ذا - معاوية - بالشام لا يضيع لحظة من وقته في التجهيز لمعركة كبرى . ها هو ذا يثير الجموع ضد الإمام ، فأين الإمام الآن؟ انظروا ..ها هو ذا قد رحل عن البصرة ، وسار بأصحابه حتى نزل الكوفة . لم تشغله المفاجآت الجديدة ولا الأخطار الماثلة عن فضائله ، فراح يما رسها بطربقته الفردية.
بدأ ببيت المال فأخرج كل ما كان تحت سقفه من أموال ، وقسمها على مستحقيها ..
ويقترح عليه بعض مرا فقيه أن يستأني في الأمر ، وأن يستبقي من المال ما سيحتاج إليه ليتألف به رؤساء العشائر والجماعات ، فيرفض. ثم يمعن في غايته حتى إذا فرغ بيت المال ، يأمر الإمام أن تنضح أرضه وتغسل بالماء ، حتى إذا تم ذلك ، قام فصلى فوق أرضه المغسولة ركعتين!!
كانت هذه الصلاة في بيت المال بعد نضح أرضه بالماء رمزالمعنى جليل . كان إيذانا بعهد جديد تسيطر فيه الآخرة على الدنيا ، ويسترد الورع والتقى نفوذهما على الدولة ، وعلى المجتمع ، وعلى الآنفس والأفئدة جميعا !!
ثم دعي لينزل قصر الإمارة .. قصر كبير ترتفع هامته في شموخ وفتنة - فلا يكاد يبصره
حتى يولي مدبرا وهو يقول: "قصر الخبال هذا ،لا أسكنه أبدا " !
ويلح عليه أهل الكوفة ان ينزل به ، فهو أرحب ، وأنسب ، فيصر على رفضه ويقول: " لا حاجة لي فيه :إ عمر بن الخطاب كان يكرهه" .

ويمشى فى أسواق الكوفة، وهو خليفة المسلمين، فيرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقي بالشيخ المسن الكهل، فيحمل عنه حاجته، ويتحرج أصحابه مما يرون، فيقتربون منه : يا أمير المؤمنين. ولكنه لا يدعهم يتمون حديثهم، بل يتلو عليهم قول الله تعالى:" تلك الدار الآخرة تجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ".
ويشتري حاجات أهله وبيته ، ويحملها بيديه ، فإذا اقترب منه بعض مرافقيه ليحملوها عنه أبى وقال وهو يبتسم لهم: " أبو العيال أحق بحمله " !!

***

ويرتدي الخليفة جلبابا اشتراه من السوق بثلاثة دراهم .. ويركب حمارا ، وقد تدلت على جانبيه ساقاه، وكانه واحد من فقراء البادية.. ويعزم عليه أصحابه أن يجعل وسيلته للتنقل جوادا يليق بأميرالمؤمنين.. فيجيبهم قائلا : "دعوني أهن هذه الدنيا " !

***

أجل .. ذلك كان طريقه . أن يقهر كل إغراء الدنيا ومباذخ السلطان وأن يعيش كما كان رسوله ومعلمه يعيش في تواضع النبوة، لا في بهرجة الملك.. وفي انتظار الآخرة، لا في الركون إلى الدنيا. ولقد أحسن و صفه عمربن عبدالعزيز رضي الله عنه حين قال: " ازهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب".
كما وصفه الحسن البصري رضي الله عنه حين قال : " رحم الله عليا كان رهباني هذه الأمة ".

***

رهباني هذه الأمة ، مقيم هناك بالكوفة ، يعيش عيشة البسطاء الودعاء ، ويعبد ربه عبادة القديسين الأولياء ،ويحمل مسئوليات دولته وأمته في مثل عزم الأنبياء .
ولقد دخلت جميع الأقطار المسلمة في بيعته ، عدا الشام ، فقد كانت بها دنيا هائلة من المؤامرات تتحرك ضده ، وتتهيا لفرض القتال عليه .. !
معاوية بالشام ، يحض الناس على سب الإمام وشتمه .. والإمام با لكوفة، ينهى في حسم وقوة عن شتم معاوية، ويقول لأصحابه :
" .. قولوا : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم" .. !!
معاوية بالشام، بين القصور الباذخة، والمطاعم الرافهة، والأموال التي تأتي بغير حساب ، وتنفق في خدمة طموحه بغير حساب . و علي بالكوفة ، يلبس قميصا بثلاثة دراهم ، ويأكل الطعام الجشب اليابس ، ويوزع أموال المسلمين على المسلمين في عدالة لا تعرف الميل، وفي ورع لا يعرف الهوى ا!

***

وأخذت وفود المسلمين تغدو وتروح بين الامام في العراق، ومعاوية في الشام.

منهم من يبحث عن الحق ليهتدي إليه ويقف إلى جانبه.. ومنهم من يبحث عن المغنم الأكثر، والفرصة الأحسن.
كانت الشا م تسخو بالأما ني والوعود ، كما كانت تسخو بالأموال والعطايا ..
وكان العراق يهتف بكلمة واحد ة :
" فمن اهتدي فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها " .
وبعد هذا ،لا أماني ولا وعود .. لا رشوة .. ولا مغامرة بأموال الأمة- كما يفعل خصومه - مهما تكن المخاطروالعواقب.
وحين يقترب من الإمام بعض أصحابه ، يرجونه أن يتألف ببعض المال هؤلاء الذين يستهويهم معاوية بأعطياته الغامرة ، يصيح بهم الإمام: " أتامرونني أن أطلب النصر بالجور" ؟
إه يا تلميذ محمد !! إيه يا بن عم لرسول!
من سواك في هذا المقام يستطيع أن يأخذ موقفك هذا ،ويقول كلماتك هذه ؟!
ويقف - معاوية - وسط الوفود الزائرة - يخطبهم تحت قميص عثمان ، فيتهم الإمام التحريض على قتله وايواء قتلته.
ويقف الإمام في العراق يخطب الوفود الزائرة فيلخص الفتنة كلها في كلما ت تناهت في الصدق والوضوح وعفة المقال : " أما بعد ، فإن الله بعث نبيه صلى الله عليه وسلم ، فانقذ به من الضلالة ، وحفظ به من الهلكة ، وجمع به بعد الفرقة، ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه.. ثم استخلف الناس أبا بكر .. ثم استخلف أبو بكر عمر .. ولقد أحسنا السيرة ، وعدلا في الأمة. وقد وجدنا عليهما أن توليا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحق بالأمر ، ولكنا غفرنا ذلك لهما.. ثم ولي أمر الناس عثمان ، فعمل بأشيا ء عابها الناس عليه ، فسار إليه ناس فقتلوه ، ثم جاءني الناس وإنا معتزل أمرهم ،فقالوا لي : بايع، فأبيت عليهم.. ثم عادوا فقالوا لي : بايع ، فإن الأمة لا ترضى الأ بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس، فبايعتهم. فلم يرعني الأ شقاق رجلين قد بايعاني- يقصد طلحة والزبير. وخلاف معاوية إياي .. هذا الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ، ولا سلف صدق في الإسلام..
طليق ابن طليق.. دخلا في الإسلام كارهين مكرهين. -يعنى معاوية وأبا سفيان- إني أدعوكم إلى كتاب الله، وسنة نبيكم.. اقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم" .. !!

* **

هذه هي القضية ، يعرضها الإمام في وضوح. فلقد افلت الزمام فعلا من يد الخليفة الراحل عثمان ، بسبب ثقته المفرطة في بعض أقربائه من بني أمية الذين لم يحسنوا قط الارتفاع إلى مستوى مسئولياتهم كبطانة للخليفة ورعاة للأمة. ولطالما نصحه الإمام وحذره العواقب .. ولما وقعت الواقعة كان أكثر الناس هما وكربا ..
وراح يهتف ويصيح: " اللهم اني أبرأ إليك من دم عثمان.

اللهم إني لم أقتل، ولم أمالئ. اللهم العن قتلة عثمان".

***

لكن أهل الشام - ومعظمهم يومئذ من المسلمين الجدد الذين لم يروا عليا ولا يعرفونه -رانت على أفئدتهم دعوى معاوية .. ولم يجدوا هنالك من ينبئهم بحقائق الأمور.

لم يجدوا من يقول لهم: إن قتل عثمان جريمة لا تصدر عن دين علي ولا عن خلقه.

لم يجدوا من يقول لهم : إن عليا كان محدد الإقامة في المدينة ،وأن الثوار جاءوا من بلاد شتى ونائية.. فمتى اجتمع بهم في بلادهم ؟ ومتى أخرجهم منها للثورة.. ؟ و متى حرضهم على القتل.. ؟

لم يجدوا من يقول لهم : إن عليا لم يكن يملك أي قوة يستطيع بها مواجهة عشرة آلاف ثائر، رابطوا في المدينة وحاصروها . وبرغم ذلك ، فقد استعان عليهم بمنطقه الأخاذ ، وحجته المقنعة ، حتى استجابوا لنصحه بمغادرة المدينة والرجوع إلى بلادهم . ولقد غادروا المدينة فعلا عائدين إلى أمصارهم ، لولا أن صادفوا في الطريق رسولا يحمل كتابا زوره مروان بن الحكم على الخليفة ، ومهره بخاتمه من غير أن يعلم ..وكان الكتاب أمرا بقتل زعماء الثوار جميعا .. وكان - مروان - آنئذ بمثابة رئيس ديوان الخلافة ، فعاد الثوار إلى المدينة أشد غيظا وعدوإنا !

أجل.. لم يجد أهل الشام من يقول لهم ذلك ، ولا من يقول لهم : إنه عندما أحكم الثوار الحصار حول دار عثمان ومنعوا عنه الماء ذهب علي بنفسه يحمل قربة ماء على كاهله ، ولما حاولوا منعه صرخ فيهم قائلا : "والله إن الكفار من فارس والروم لا يفعلون فعلكم..

إنهم ليأسرون أعداءهم، فيطعمونهم، ويسقونهم" .. !!

وناوشهم وناوشوه ، حتى سقطت عمامته على الأرض ، وهو لا يبالي الأ بأن يبلغ بالماء عثمان ولقد فعل وأوصل قربة الماء إليه.

لم يجد أهل الشام من يقول لهم : إن الإمام دعا ولديه وقرة عينيه - الحسن والحسين - وأعطى كلا منهما سيفه - وامرهما أن يقفا حول سرير الخليفة عثمان وهو يرى الحصار الرهيب حول الدار، ويدرك أنه يقدم ولديه للموت لا محالة . !!

لم يجدوا من يقول لهم : إنه عندما عاد الحسن والحسين يخبرانه بمقتل الخليفة فعل بهما مالم بفعل بهما طوال حياته ، إذ عنفهما تعنيفا شديدا ، وعجب لهما : كيف قتل عثمان وهما لايزالان يحملان رأسيهما على أكتافهما : " إذا لم تستطيعا أن تمنعا عنه ، فكان عليكما أن تموتا دونه " .. ا!

لم يجد أهل الشام من يقول لهم : إن عليا كان يرى الأخطاء الجسيمة . وكان يؤلمه ويفزعه تسامح الخليفة تجاهها .. ولكنه لم يكن ليري اغتيال الخليفة علاجا - أيا كان هذا الخليفة - فما بالكم والخليفة المقتول أخوه في الله ،

وزميله في الغزوات والمشاهد ، مجهز جيش العسرة بخالص ماله ، وصهره - عديله - إذ كان كل منهما - على وعثمان - زوجا لبعض بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم
لم يجد أهل الشام من يقول لهم ذلك ، ولا شيئا من ذلك .
لم يجدوا الأ قميص عثمان ، وكان بعض المسلمين قد حصل عليه ، وحمله إلى معاوية بالشام ، حيث رفعه عاليا ، وحشد تحته خمسين ألفا يلوحون بسيوفهم ورماحهم ، ويصيحون :يا لثارات عثمان !!
***
ترى لو لم يتبؤا علي منصب الخلافة ، أكان معاوية سيحمله دم عثمان. .؟
كلا ..وإنما كان سيتجه باتهامه إلى الخليفة الآخر ، الأ إذا كان ممن يرضى عنهم معاوية ويطمع في طيهم تحت جناحيه. لقد كان معاوية من الذكاء بحيث أدرك مصيره مع علي وقد اصبح خليفة للمسلمين. من أجل هذا قرر ان يخوض معركة المصير .. مصيره هو .. لا مصير حق ضائع ، ولا مصير عدالة مغموطة ، ولا مصير دم مطلول .. !
ومرة ثالثة ، يغفر الله لمعاوية ، فما كان ينبغي لهأ يستخف بمصائر الإسلام وبمقاديره إلى هذا المدى ، وإلى تلك الغاية .
قلت لكم : إنتا نؤرخ للعظمة الإنسانية في نماذجها الباهرة .
وهانتم أولاء تشاهدون عظمة علي في غمرة ذلك الصراع.
رأيتموها من غير أن أقول لكم : انظروها .. !!
ورأيتم نضاله النبيل والمستميت ليدرأ الخطر عن حياة ، كان يراها حياته .. وعن مصير ، كان يراه مصيره .. فلنتابع رؤية بعض مشاهد عظمته إن لم نستطع متابعتها جميعا .
***
لقد كان يعرف حقيقة دوافع معاوية وحوافره .. ولقد وصف هتافه بدم عثمان وصفا بليغا وجامعا فقال : "كلمة حق، أريد بها باطل".
ومع علمه بتلك الدوافع المريبة ، لم يأل جهدا في تجنيب المسلمين ويلات الحرب الأهلية ، فرضي ، وهو يعلم حقيقة دوافع معاوية ، أن يناقشه ويجري معه حوارا طويلا لعله يتوب وبرجع.
أرسل إليه ينبهه أن دم عثمان لن يذهب هدرا ، وسيتم القصاص الذي تفرضه الشريعة في وقته المعلوم.. ذلك لأن مقتل الخليفة ، لم يتمثل في تسلل اثنين ، أو ثلاثة ، أو عشرة ، حيث اغتالوه خفية وهربوا .. بل وقع الإعتداء على حياته وسط ثورة مسلحة اشترك فيها عشرة آلاف ظلوا محتلين المدينة ومحاصريها أربعة اشهر ، لم يستطع معاوية خلالها أن يرسل من جيشه الكبير المنظم فرقة أو فرقتين لتزجر الثوار، وتنقذ الخليفة.
وهؤلاء الآلاف العشرة من الثوار لايزالون يحملون السلاح .

فكيف يقدر الإمام أن يمسك بهؤلاء جميعا ليحاكمهم .. ومتى ؟ في تلك الظروف التي مكنت للفوضى وللدماء شر تمكين .
فهلا أعطاه معاوية الفرصة ، فبايعه ووقف الى جانبه بجيشه اللجب ليتمكن من انتزاع القتلة الحقيقيين من بين هذه الآلاف العشرة الذين كانوا يحمونهم ويمنعونهم ؟!
لو فعل معاوية ذلك .. ثم قصر الإمام وأغمض عن القتلة عينيه ، لأدان ساعتئذ نفسه ولأدانه المسلمون.
لكن معاوية ، لأمر في نفسه ، راح يرفض كل محاولة للتفاهم والصلح ، معلقا ذلك على تسليم قنلة عثمان .. وهو يعلم نبأ تلك الواقعة المشهورة .. عندما توسط بعض أهل الخير عند علي ، لتسليم قتلة عثمان ، وبينما هم يتفاوضون معه إذا عشرة الاف مقاتل يحاصرون المكان الذي كان الحديث يجري فيه بين الإمام والوسطا ء . وإذا هذه الآلاف العشرة تزلزل الأفق بصياحها " كلنا قتلة عثمان" !!
عشرة الاف - سيوفهم بأيديهم، وحناجرهم تدمدم " كلنا قتلة عثمان" .
ثم يقول معاوية للإمام:لا صلح الأ بعد أن تسلمني قتلة عثما ن !
ولماذا يتسلم هو قتلة عثمان ؟
أهو ولي الدم .. ؟ كلا ، فأبناء عثمان أحق منه بهذه الولاية ؟
وحتى لوكان ولي الدم، أيظن نفسه لايزال يعيش في النظام القبلي، يقتل القتيل، فتأخذ قبيلته الثأر أو الدية. . ؟ او لا يعلم - أمير الشام - انه يعيش في دولة عظمى، وهي وحدها المسئولة عن فرض كلمة القانون .. ؟
الواضح أن معاوية بصياحه ذاك لم يكن يريد سوى إحراج الإمام وتأليب الثوارعليه. .
لم يكفه منهم أنهم قتلة عثمان.. فحاول أن يجعل منهم قتلة علي أيضا "
لكن الرجل العظيم عليا سيظل يتصرف وفق فضائله .. وها هو ذا ينشد السلام مرة أخرى، بل مرات ومرات..
أرسل إلى معاوية جري بن عبدالله بكتاب منه.
وسافر جرير إلى الشام ، واجتمع بمعاوية ، وبعض أصحابه حوله ، سأله معاوية : ما وراءك ؟
فقال جرير : " لقد اجتمع لعلي أهل الحرمين - مكة والمدينة - وأهل المصرين - البصرة والكوفة – وأهل الحجاز، وأهلاليمن،وأهل مصر،وأهل عمان،وأهل البحرين واليمامة.

ولم يبق الأ أهل هذه الحصون التي أنت فيها - الشام - لو سال عليها سيل من أوديته لأغرقها.. وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك ويهديك" .
ودفع إليه كتاب الإمام، فانظروا ماذا قال في كتابه الرجل الذي ينشد السلام بكل طاقته وعزمه : بسم الله الرحمن لرحيم
"اما بعد ، فإن بيعتي بالمدينة، لزمتك وأنت بالشام، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب ان يرد .. وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما ،كان ذلك لله رضا .
فإن خرج من أمرهم خارج بطعن، أو رغبة، ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبي قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين...
وإن طلحة والزبير بايعاني ، ثم نقضا بيعتي ، وكان نقضها كردهما ، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله.. فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب !!لأمور الي فيك العافية !! الأ أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك.
وقد أكثرت في قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه المسلمون ،ثم حاكم القوم الي أحملك وإياهم على كتاب الله. أما تلك التى تريدها فخدعة الصبي عن اللبن.. !! ولعمري ، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان ..
واعلم إنك من الطلقاء الذين لا يتبوءون الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى. وقد أرسلت اليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايع.. ولا قوة الأ بالله" !!

***

هذاهوكتاب الإمام، كما ينقله لنا نصر بن مزاحم في كتابه وقعة صفين ..
فهل ثمة منطق أعدل ، وأمثل من هذا المنطق ؟.
لننظر قوله لمعاوية : " إن أحب الأمور الي فيك العافية" .
ولننظر قوله له : " وأما قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون - أي البيعة للإمام-ثم حاكم القوم إلي، أحملك وإياهم على كناب الله". .!
إن معاوية برغم تمرده ، ونكوصه عن البيعة ، وتأليبه الناس على الخليفة ، ودعوتهم لحربه .
معاوية، برغم هذا كله، يعرض عليه الإمام أن يكون المدعى العام فيقضية عثمان. . !
أفوراء ذلك نصفة ومعدلة.. ؟ أو بعد ذلك تنازل وتسامح .. ؟
لكن معاوية كان قد بيت الأمر مع معاونيه، فكان رده على هذه الرسالة إمعانا في

" ١ " الطلقاء هم كفار قريش الذي خلى رسول الله سبيلهم يوم فتح مكة قائلا لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . ثم أسلموا ومها وبعدها

اتهام الخليفة بقتل عثمان ، وإيغالا في جمع الحشود المسلحة من أهل الشا م تحت قميص عثمان.. !
كان بالمدينة جماعة من المهاجربن والأنصار آثروا الحياد ..وكان على رأسهم نفر من أئمة الصحابة ، أمثال عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد . وسعد بن أبي وقاص . ومحمد بن مسلمة . وعندما هم الإمام بالخروج إلى البصرة قبل موقعة الجمل التي إليها دعاهم للخروج معه ، فاعتذروا .. وكانت حجتهم أن الله أمرهم بقتال المشركين ، أما والقتال اليوم سيدور بين مسلم ومسلم، فإنهم فيه لا يشتركون.
وألم هذا الموقف بعض أصحاب علي ، فطلبوا منه أن يحملهم على الخروج معه بالقوة ، لكنه أبى، وا حترم حيادهم وقال: دعوهم وما اختاروا لأنفسهم .
لم يكن امتناع هؤلاء الصفوة عن غمط لحق علي أو لفضله..وإنما كان للسبب الذي قدمنا -
قال سعد بن أبي وقاص : " اعطني سيفا إن ضربت به المشرك قطع ، وإن ضربت به المسلم رجع ، وأنا اقاتل معلك"" .
وقال عبد الله بن عمر : "إنى عاهدت ربى الأ أقاتل من يشهد أن لا إله الأ الله، وأن محمدا رسول الله ".
وقال أسا مة بن زيد : " والله يا أمير المؤمنين ، لو كنت في شدق الأسد ، لأحببت أن أكون معك فيه ، ولكنى لا أحب أن ألقى بسيفى مسلما أبدا ".
احترم الخليفة حياد إخوانه هؤلاء ، ولم يحل بينهم وبين ما اختاوه لأنفسهم من مسلك ومقام. لكن "معاوية في الشام ، لم يكفه ما أعد هناك من قوة ، فطمع في أن يكسب هؤلاء إلى صفه، وحسب أنهم قعدوا عن نصرة الإمام استرابة منهم في حقه أو في سلامة قصده. فأرسل إليهم رسله يغريهم بالوقوف بجانبه، ويقوله لهم: أنتم احق بالخلافة من علي.. !!
أرسل إلى سعد ، وإلى عبد الله بن عمر، وإلى محمد بن مسلمة.
وسرعان ما تلقى معاوية منهم لطمات جعلته يندم على ما فعل.
أما عبد الله بن عمر فقد أرسل إليه يقول: أما بعد ، فإن الرأي الذي أطمعك في ،هو الذي صيرك إلى ما صيرك إليه. إنى ما تخلفت عن - على - لطعن منى عليه . فلعمري ما أنا كعلى فى الإيمان والهجرة، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونكايته بالمشركين.. ولكن حدث أمر لم يكن لي فيه من رسول الله عهد . ففزعت فيه إلى الحيدة ، فاكفف عنا نفسك " !
وأما سعد بن أبي وقاص فقد رد عليه قائلا : " .. وإن هذا أمر قد كرهنا أوله .. وكرهنا آخره .. وأما طلحة والزبير ، فلو لزما بيوتهما لكان خيرا لهما - والله

يغفرلأم المؤمنين ما أتت.. وما كنت لأقاتل عليا ، وقد سمعت رسول الله ٠
يقول له : انت مني بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لانبي بعدي" .
وأما محمد بن مسلمة فقد كتب الى معاوية يقول : " .. وأما انت ، فلعمري ما
طلبت الأ الدنيا ، ولا اتبعت الأ الهوى .. فإن تنصر عثمان ميتا فقد خذلته حيا ..
ولئن كنت أبصرت في الأمر خلاف ما تريد ، فما خرجت بذلك من نعمة ، ولا
صرت إلى شك.. واني لأدرى بالصواب منك" ا!

***

كان من الخير لمعاوية أن يفيق على أصوات هؤلاء الثلاثة الكبار من أصحا ب
رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولكنه أخفى رسائلهم هذه ومضى في
الطريق الذي اختار ، والذي رفع فوق ناصيته قميص عثمان !!

***

أدرك الإمام علي أن معاوية مزهو بجيشه ، وبقوة أهل الشام الملتفين حوله ،
كما إنه لا يقدر قوة الإمام قدرها . ورأى الإمام أنه إذا أنزل بمعاوية بعض بأسه
، وأراه بعض قوته ، فقد يحمله ذلك على الطاعة.. ومن ثم رأى أن يزحف إلى
الشام، ويصبح معاوية بصيحة عابرة، لكنها زاجرة.. ثم يستأنف الإمام بعدها
دعوتة إلى الصلح وإلى السلام.
غادر الإمام معسكرالنخيلة بالكوفة.. وغادرمعاوية الشام، التقى الجمعان في
صفين .
وتفاجئنا الساعات !!لأولى لهذا اللقا ء بمشهد باهر من مشاهد ابن أبي طالب
.. مشاهد عظمة نفسه وبطولة أخلاقه.
فعندما بلغ معاوية وجيشه صفين شرقي الفرات ، بادروا إلى الطريق الوحيد
الذي يفضي إلى نهر الفرات فاحتلوه ، وأقاموا علية عشرة آلاف حارس ،
ليمنعوا جيش الإمام من الوصول إلى الماء!!!
وأرسل الإمام لمعاوية ، يذكره بشرف القتال .. ويدعوه أن يترك طريق الماء
مفتوحا أمام الظامئين .. لكن معاوية ومن أشاروا عليه رفضوا .
وقضى أصحاب الإمام يوما وليلة بلا ماء ، وجفت حلوقهم، وأشرف الضعاف
منهم على الموت . وفي الصباح تحركت قوة من جيش أمير المؤمنين ، يقودها
الأشعث بن قيس ، والأشتر ، فكنست قوات معاوية كنسا من طريق الماء ،
واحتلته كله .. وأصبح مفتوحا أمام جيش الإمام، ومغلقا تماما أمام جيش
معاوية.. !!
ولنصغ لهذا الحوارالذي داربين معاوية وعمرو بن العاص بعد طرد قواتهما عن
طريق الماء:
عمرو : ما ظنك بالقوم اليوم - يا معاوية - إن منعوك الماء كما منعتهم
بالأمس.. ؟!
معاوية : دع عنك ما كان يا عمرو ولكن أتظن عليا يصنعها .. ؟

عمرو : ما اظن عليا يستحل منك ما استحللت منه ، فانه لم يات ليظمئك بل جاء لغير ذلك.

***

حسب أمير المؤمنين ذلك الحوار يجري بين خصومه . حسبه ذلك الرأي في رجولته، وعظمته ورفعة مسلكه من الذين يتهمونه بدم عثمان!!
ولقد كان أول أمر أصدره الخليفة علي فور احتلال قواته طريق الماء لا يذاد عنه ذاهب ، ولا يمنع عنه شارب .. وهكذا لم يذق جيش معاوية حرقة الظما لحظة واحدة ، لأن علي بعظمته وبرجولته كان هناك .. !!

* **

بعد هذه الزجرة الرادعة ، حاول الإمام أن يلوي زمام معاوية عن الحرب، ويهيى له فرصة كريمة للمصالحة ، فندب للقائه اربعة من رجاله توجهوا إلى معسكر معاوية ، وتحدثوا إليه قائلين له: " إن صا حبنا لمن قد عرفت وعرف المسلمون فضله ، ولا نظنه يخفى عليك . إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي عليه السلام، ولن يفاضلوا بينك وبينه، فاتق الله يا معاوية ، ولا تخالف - عليا - فإننا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى.. ولا أزهد في الدنيا .. ولا أجمع لخصال الخير كلها منه " ..
أفلا يلين قلب معاوية بعد هذا كله . ؟ انظروا ماذا كان جوابه : " إن صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرق جماعتنا ،وآوى ثأرنا وقتلتنا .. وصاحبكم يزعم انه لم يقتله.. ونحن لانرد عليه. فليدفع إلينا قتلة عثمان فنقتلهم به. ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة" .
عاد الوفد إلى الإمام يحملون إليه كلمات معاوية ، فتلقاها الإمام في أسى . ثم تلا قول الله تعالى: " إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين · وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون " ..
وإذا كانوا يومئذ في شهر المحرم - وهو من الأشهر الحرم التي لا يحل فيها القتال فقد انتظر أمير المؤمنين حتى أهل شهر صفر، فاتخذ قراره بخوض القتال..
وكان بعض المقاتلين معه يريد أن يدهم جيش معاوية بقوات كبيرة تأخذهم على حين غفلة، فأبى البطل، والرجل. وعند غروب شمس ذلك اليوم أمر جماعة من أصحابه أن يقفوا على معسكر معاوية ، وينادوا بان القتال غدا .
ودعا مرثد بن الحارث وأمره أن يعلو أقرب ربوة من معسكر معاوية ، ويسمعهم هذه الكلمات: "يا أهل الشام.. إن أمير المؤمنين يقول لكم : إني قد استدمتكم واستانيت بكم لتراجعوا الحق وتثيبوا إليه ، واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه، فلم تتناهوا عن طغيان، ولم تجيبوا الى حق.
وإني قد نبذت إليكم علي سواء ، إن الله لا يحب الخائنين" . !

آبى آن يأخذهم على غرة ، وآن يوجه إليهم ضربة خاطفة ، كانت ستوفر كثيرا من الوقت والجهد في كسب المعركة. أبى ذلك، لانه كان يرجو ويطمع في السلام إلى آخر لحظة، فهو لهذا يرجو ويطمع إذا آذنهم بقتال أن يثوبوا إلى الرشد ،ويرجعوا عن العصيان. وأباه أيضا ،لان أخلاقه ترفض هذا النوع من الغلب والنصرمهما يكن سريعا وحاسما .
ولسوف نراءه يمارس الصراع كله مع معاوية على هذا النسق من الخلق الرفيع. لايتخلى عن مثله ولا عن دينه مهما تكن العواقب..
ولم تكن جبهة خصومه مجتمعة ، بأقدر منه ذكا ء وفطنة لكنه - رضي الله عنه - رفض دائما أن يضع الذكاء مكان الإخلاص والورع .. ولقد أخبر - وكان صادقا - بأنه إذا انتصر عليه معاوية فانه لن ينتصر بمقدرته ، ولا بشجاعته ولا بذكائه..
إنما سينتصر بورع الإمام نفسه ..
أجل .. فإن ترفعه عن الوسائل التي يرفضها دينه وخلقه ، هيأ لمعاوية الكثير من أسباب إنتصاره.

***

آذنهم الإمام بالقتال إذن ،على النحو لذي أسلفنا ،وعاد يعبىء قواته ، وأصدر إليها توجيهاته فى القتال: " لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم، فإنكم بحمد الله على حجة ..
وترككم اياهم حتى يبدءوكم حجة آخرى لكم عليهم..
فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم، فلا تقتلوا مدبرا ،ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ..
فإذا وصلتم الى رحالهم، فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دارا الأ بإذن، ولا تأخذوا من أموالهم شيئا. ولا تقربوا النساء بأذى ، وإن شتمنكم وشتمن أمراءكم وصلحاءكم . "واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ".. .

***

والتقى الجيشان في وقعة صفين ودارت المعارك مثيرة وطالت واستطالت حتى عجت الأرض بالدماء ،وغطتها جثث الضحايا .
وجزع الإمام لكثرة الضحايا . وفي سبيل أن يحسم الأمر ، ويصون الدم، تقدم فوق جواده من صفوف معاوية وناداه ، ليخرج إليه فما خرج .. فلما فرغ من قتال ذلك اليوم كتب إليه كتابا بعث به إليه : يا معاوية. لم تقتل الناس بيني وبينك؟. .
ابرز الي، فأينا قتل صاحبه تولي الأمر من بعده" .
واستشار معاوية صديقه عمرو فقال له : - لقد أنصفك الرجل فابرز إليه .
فاغضبته مشورة عمرو ووجد فيها إحدى مكائد: للتخلص منه، لأنه يعلم أن عليا ما بارز أحدا الأ صرعه !!
ولكي يبعد عمرو هذا الخاطرالمزعج عن معاوية ، قال له : "إني خارج إلى علي غدا فمبارزه.

وفي اليوم التالي، وقد تأهب كلا الجيشين لاستئناف القتال ، وقف عمرو ونادى الإمام عليا لمبارزة .. وخرج الإمام إليه ،وتبارزا وهما فوق فرسيهما ،وبينما الإمام يهوي بسيفه على عمرو ليجلله به ، قذف عمرو بنفسه على الأرض، وتمدد عليها في استسلام ، وفزع ، وضراعة . فالقى عليه الإمام نظرة الظافرالكريم ، ورجع عنه لم يصنع به شيئا ..

* **

ولو حفظ عمرو للامام هذا الصنيع الجليل ، وتخلى عن شغفه البالغ بالإمارة ، لأخذت مسيرة الصراع وجهة أخرى ، لكنه لم يفعل .. وحين أنهك القتال جيش الشام ، وبات النصر مؤكدا لجيش الإمام .. وصار واضحا أنه لم يبق سوى ساعة أو بعض ساعة ، ثم ينتهي إلى الأبد تمرد معاوية ومن معه.. عندئذ ومعاوية يقرع سن نادم، ويحدق في وجه عمرو يستجديه الرأي والحيلة، فتح ابن العاص جعبته ليخرج منها جديدا .

قال لمعاوية : " لقد أعددت بحيلتي أمرا ادخرته لهذا اليوم.

ترفع المصاحف . وتدعو إلى تحكيم القرآن . فان قبلوا التحكيم اختلفوا ..وان ردوه اختلفوا أيضا " !

أجل . فإن التحكيم بهذه الطريقة وفي تلك الظروف ، لا يثير خلافا في صفوف المنهزمين، لانه - على الأقل- يعطيهم فرصة لجمع صفوفهم وبناء قوتهم من جديد.. أما بين المنتصرين الذين لا يفصل بينهم وبين النصر سوى ساعة زمان، فإن يثير اختلافا كبيرا.

وهذا هو الذي حدث تماما .. فما كادت طلائع معاوية ترفع المصاحف ، وتسير بها صوب معسكر العراق ، حتى نشب الخلاف. لقد أدرك الإمام من فوره انها خدعة ، فحذر قومه منها .. لكن - الاشعث بن قيس – ونفرا من القراء راحوا يقنعون الناس بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله.

قال الإمام: "انا أحق من يجيب إلى كتاب الله، ولكني أعرف بهم منكم..

انها كلمة حق يراد بها باطل.. وإني ما قاتلتهم الأ ليدينوا بحكم القرآن، فكيف أرفض اليوم حكمه .. ؟

إن القوم لم يرفعوا المصاحف لأنهم يريدون حكم القرآن. انما هى الخديعة ، والوهن والمكيدة.

فأعيروني سواعدكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه " !!

لكن المعارضة بلغت اوجها في سرعة مريبة ، وتولى الأشعث كبرها .

كان الاشتر بكتيبته وبقواته هناك على مقربة من معسكر الشام المتداعي .

وكان يستعد للصيحة الأخيرة عليه ، ولم يكن يفصل بينه وبينهم سوى عدوة فرس - على حد تعبيره - فطلب الأشعث ومن معه من الإمام أن يرسل لاستدعائه . وأرسل الإمام يستدعيه ، فجن جنون الأشتر وقال للرسول :

"ارجع وأنبئهم إنها لحظات، وينتهي كل شيء ، فكيف أعود" ؟

ولم يكد يسمع أنصار التحكيم رد الاشتر هذا حتى هددوا بعمل مسلح ضد الإمام نفسه إذا لم يعد الاشتر على الفور ! ماذا دعى هؤلاء فجاة.. ؟ وماذا دهى الاشعث بخاصة؟ هل انهكته الحرب.. ؟ هل كان يعمل لحساب نفسه ، أم لحساب غيره ، وفق أغراض بعيدة عن القضية التي يقاتل دونها الإمام.. ؟
هل كان ينفس على الأشتر ويضمرله في نفسه الحسد ، فعز عليه أن يكون بطل الضربة الأخيرة ، وطليعة الفتح ، و بشير النصر ؟
أو تراه كان يرى أن الحرب لن تنتهي بهذه السرعة المظنونة ،وأن الصلح المعروض فرصة لا ينبغي أن تفلت. ؟
بعض ذلك جائز .. وكل ذلك جائز .. وعلى آية حال فقد فرضوا رأيهم بقبول التحكيم ، وعاد الاشتر تاركا أبواب معسكر الشام التي كان يقف عليها متهيأ لإنزال الضربة الأخيرة بمن وراءها ..عاد يتضرم غيظا وثورة!!

***

كتبت وثيقة التحكيم، وأعلن معاوية أن ممثله في الحكم هو عمرو بن العاص .. !!
فمن يمثل جبهة الإمام.؟
هنا برز الاشعث وجماعة آخرى يقترحون أبا موسى الاشعري وعارض الإمام ، مقترحا عبد الله بن عباس .
لم يكن دين أبي موسى موضع شك لدى أميرالمؤمنين علي ،برغم مآخذ يأخذها علي موقفه من ذلك النزاع بينه وبين معاوية .. إنما كان الموقف في تقديرالإمام يتطلب مندوبا يكون في دهاء وسعة حيلته، ويقظته، كفئا للداهية عمرو بن العاص.
و ابن عباس كما يعرفه الناس جميعا ، هو ذلك الكفء المطلوب.
انه مع ورعه وتقاه أبعد منالا،وأبعد غورا من كل ما لدى ابن العاص من حيلة ودهاء.
لكن الأشعث وجماعته أصروا على أبى موسى الأشعري " . وحتى يتجنب الإمام وقوع الفتنة في صفوفه قبل رأيهم اليوم في أمر المندوب، كما قبله أمس في أمر التحكيم.. !!

***

وسارت الأمور سيرها المعروف.. فقد اتفق أبو موسى وعمرو بعد حوار طويل بينهما على أن يخلعا معا ، الإمام ، ومعاوية ، ويعود الأمر شورى بين المسلمين يختارون هم إمامهم وخليفتهم: ودعا عمرو أبا موسى لكى يبدأ الحديث. وبدأ ابوموسي" وخلع عليا ، ومعاوية. ثم تلاه عمرو فقال : " إن أبا موسى خلع صاحبه كما رأيتم ، وإني اخلعه كما خلعه - و أثبت معاوية ، فهو أمير المؤمنين والمطالب بدم عثمان فبايعوه" .. !!
وثار أبو موسى لهذه الخدعة المكشوفة ، وانتهى التحكيم بهذه المهزلة ، ليعود القتال، من جديد ! ولكن ضد من سيعود.. ؟

"١" راجع للمؤلف : أبوموسى الأشعري في كتاب رجال حول الرسول .

إن عظمة هذا الرجل - علي بن أبي طالب - لعظمة فريدة. لكأنما كان يحركه من أعماقه ولع شديد بأن يذهب عن الحياة - يوم يذهب - شهيد مثله ، ومبادئه ، وإيمانه .. شهيد استقامة المسلك ، واستقامة القصد ، واستقامة الضمير .
لقد واتته الفرصة لدحض خدعة التحكيم قبل اجتماع الحكمين .
وذلك حين راح الاشعث بن قيس .. يمر على جماعات الجيش المبثوثة هناك تاليا عليها وثيقة التحكيم ،فإذا جماعة منها تلقاه بصياح النكير .. قائلة : " لقد أخطانا بقبولنا التحكيم. وها نحن نرجع عن الخطأ ، لا حكم الاالله".
ولو تقدم الإمام فتبنى - مجرد التبني هذه المعارضة الجديدة للتحكيم ، لأمكن تغيير الاتجاه ، ولكنه قال عندما بلغه النبأ.. " .. أوبعد أن أعطينا العهد والميثاق .. ؟! "
لك الله أبا الحسن!
اتراك قد كتب عليك أن تقاتل بشرف ، في معركة كان الشرف عنها غائبا ، وفيها غريبا. ؟! رفض ان ينقض ميثاقا أعطاه .. والغدر يحيط به من كل جانب .. وجاءت خاتمة التحكيم كما أراد لها وكما تنبأ بها عمرو بن العاص.
فقد مزق الخلاف أصحاب الإمام . وفي سرعة غريبة أيضا تحولوا إلى شيع يقاتل بعضها بعضا ..بل تقاتل الإمام نفسه وتواجهه بألأم عصيان ا!

****

وقف الإمام وسط البقية من أصحابه الذين لم يفتنوا عن الولاء للحق , .
لم يكن لديه وقت للعتاب ، ولا لاجترار الندم ، إنما كان الوقت كله – ان كان هناك وقت - والفرصة كلها – إن كان ثمة فرصة - لتعبئة أصحا به و!!لسير إلى الشام.
مع من تمضي الى الشام يا أميرالمؤمنين.. ؟ ولماذا..؟
مع المؤمنين بالحق وإن قلوا .. لإتمام الجهاد الذي بدأه في سبيل الحق ذاته!
انه صارم في تحمل مسئولياته ..وإنه حين خاض القتال الذي فرضه عليه الجانب الآخر لم يخضه لينتصر في حرب ، أو ليدعم مكانه في الخلافة ، إنما خاضه لأن مسئولياته فرضت عليه أن يخوضه .. ولما فرض أصحابه عليه قبول التحكيم ، كف عن القتال .. ولما فشل التحكيم وتحول إلى خدعة وضلالة ، فإن مسئولياته تفرض عليه القتال من جديد .
صحيح إن الموقف تغير تغيرا شاملا ، ففريق كبير من أصحابه انقلب عليه وحمل السيف ضده بحجة إنه قبل التحكيم.. ؟ التحكيم الذي فرضوه هم عليه فرضا .. !
وفريق آخر ، اعتزل وتقاعس عن القتال.

لكن ذلك كله وأضعافه معه لا يهن من عزم الإمام .. ذلك لانه يعتقد انه يقاتل في
معركة حق. وما كانت معارك الحق قط معارك كثرة وأعداد . إن عليه أن يمضي مع مسئولياته ، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا .. وهكذا عبأ قواته ، وبدأ مسيرته إلى الشام ، بيد أنه لم يكد يتحرك مسافرا حتى جاءته الأنباء مثيرة مزعجة .
أنباء الخوارج الذين انطلقوا هائمين في البلاد والقرى يقتلون كل من يخالفهم الرأي.
إنهم يلقون الواحد من المسلمين فيسألونه : ألم يكن قبول التحكيم كفرا .. ؟
ألم يأثم علي بقبول التحكيم..؟
ألسنا في حل من طاعته وبيعته حتى يقر بإثمه ويتوب منه.. ؟
فإذا أجاب المسئول بنعم تركوه ينجو .. وإن أجاب بلا سفكوا دمه وأزهقوا حياته..!!
جاءت أخبارهم إلى الإمام . وأرسل الناس من كل مكان يستغيثون به ..
ويتوسلون إليه الأ يذهب إلى الشام قبل أن يؤمنهم من هذا الوباء الماحق الذي استشرى فجاة وبغير حساب.. !!
أيعرف الناس في التاريخ محنة مرت ببطل ، مثل هذه المحنة .. لكن أبا حسن لها .. ولن يتخلى عن واجبه وإن بدلت الأرض غيرالأرض، وإن تحولت رمال الصحراء إلى جيوش تقاتله، وإن تحولت بحار الأرض إلى لهب،ونار.
لتذهب عنه كل الألقاب والأوصاف - الخليفة.. والامام.. الداهية.. والمنتصر.
وليبق له ومعه لقب واحد ووضع واحد هو : المؤمن.. !!
إن الحياة في يقينه قضية إيمان . فمن خسر إيمانه خسر حياته ، وإن عاش فيها ألف عام. . ومن ربح إيمانه ربح حياته، وإن عاش فيها بضعة أعوام. ا!
وهو اليوم - وليس حوله سوى المهالك والأخطار - غير نادم على خطوة خطاها . لقد اقترب منه ابنه الحسن رضى الله عنه، يقول له فى نبرة عتاب : يا ابي..
أشرت عليك حين حوصر عثمان أن تخرج من المدينة : فإن قتل قتل وأنت غائب عنها .
وأشرت عليك حين قتل عثمان وراح الناس إليك وغدوا ، وسألوك أن تقوم بالأمر الأ تقبله حتى تأتيك البيعة من جميع الآفاق.
وأشرت عليك حين بلغك خروج الزبير وطلحة بأم المؤمنين عائشة إلى البصرة أن ترجع إلي المدينة وتقيم في بيتك..
فلم تقبل رأيي في شيء من ذلك".

***

كان الحسن قلقا من أجل أبيه.. فراح يراجع مع الماضي الحساب.
لكن أباه كان مطمئن النفس، قرير العين بما كان وبما سيكون، لأنه لم يكن في رحلة حياته كلها عبد هوى ، ولا طالب مجد ، بل كان جنديا في معركة الولاء

للحق ..
هنالك أجاب ابنه الحسن قائلا : أما خروجي حين حوصر عثمان، فما كان ذلك ممكنا ، فقد كان الناس أحاطوابي ، كما أحاطوا بعثمان ..
وأما انتظاري طاعة جميع الناس من جميع الآفاق ، فإن البيعة لا تكون الأ لمن حضرالحرمين من المهاجرين والأنصار، فإذا رضوا وبايعوا حق على جميع المسلمين الرضا والبيعة. .
وأما رجوعي إلى بيتي والقعود فيه ، فإنني لو قبلت لكان ذلك غدرا بالأمة وخيانة لها
هذه هي مواقفه - واضحة مسفرة.. وهذه هي بواعثه - نظيفة طاهرة .. لا يأسى على وقفته مع حق، قصرت عن إدراكه الأسباب. ولا يجزع من قدر، سبق به الكتاب.. !

***

وخلال حياته بصفة عامة. ثم خلال هذا الصراع وهذه الفتن ، بصفة خاصة ، حرص البطل دوما على تحري الصواب، والسير تحت راية الحق . أجل .. الصواب كان هوايته ،وكان طريقه. الصواب جميعه - صواب الفكر ، وصواب الشعور، وصواب الإرادة، وصواب العمل. وحتى إذا أخطأ اجتهاده في أمر ما ، فإن خطأه هذا لا يجيء انعكاسا لرغبة في الاستعلاء على الحق أو تحديه .. ولا لتقصير منه في نشدان الصواب وتحريه .. إنما يكون بسبب مبالغته في الولاء للصواب ، وللحق .. وبسبب مغالبته الظروف العسيرة المظلمة التي كتب عليه أن يسترد من خلالها حقيقة الإسلام، ووحدة المسلمين.

الفصل الخامس الراحل والمقيم

"أتركهم لدنياهم وأختار الله ورسوله" على

ضاعت الفرص من نفسها ، وما ضاعت من علي .
ضاعت من الدولة المسلمة الراشدة التي كانت الإمام يريد أن يعيدها الى جادتها ، ويمضي بها على صراطها الأول القويم. ضاعت من مقادير الإسلام التي كادت تصبح على موعد مع خليفة آخر من طراز عمر فى صرامته، وعدله، فى استقامته وورعه.. فى ترفعه، وتواضعه وزهده.. والخليفة المتقشف الذي تجبى إليه الأموال حلالا طيبة من أقطار الأرض ، ثم هو يلبس قميصا بثلاثة دراهم!
الخطيب الذي تهتز الدنيا لكلماته ، وهي تخرج من وراء شفتيه ناضرة قاهرة !!
الفقيه العالم الذي تتفجر الحكمة من نفسه، وعقله. ويجري الحق على لسانه وقلبه !!
العابد ، الورع ، التقي ، الذي تفوق على إغراء الدنيا ، وأطماع البشر !! تلميذ الرسول الأول، والأمثل! ربيب الوحي،وسابق المسلمين!! كل هذا في طريقه الآن إلى الرحيل.. ليحتل مكانه ملك عضوض ؟ يقوم إيوانه وعرشه في الشا م ، حيث ترتفع رايات الزهو والآنانية .. وحيث تدق طبول المجد الفارغ والطموح المتألى!.

***

الآن تقترب الأمور من نهاياتها . ويقف البطل بين فتنتين عارمتين. .
أولاهما : في الشام تصيح : " يا لثارات عثمان" ا!
وثانيتهما :في العراق تصيح : "لا حكم الأ لله" !!
ولئن كانت الأولى أعتى وأوسع، فإن الثانية أمض وأوجع. ذلك أن ذويها ومشعليها الذين كانوا بالأمس لا غير أتباعه وجنده.. وهم الذين أصروا أو أصر أكثرهم علي قبول التحكيم حين كان يحذرهم منه ويدعوهم إلى رفضه.
وهم الذين أصروا ، أو أصرأكثرهم على اختيار أبي موسى الأشعري حين كان هو يدعوهم في إلحاح إلى اختيار عبد الله بن عباس لأنه القادرعلى فل دهاء عمرو ودحض مناوراته.
هم أولئك بالأمس.. هؤلاء الذين يحملون السلاح اليوم ليحكموا به وفق هواهم، وهم الذين ينشرون الذعر والرعب والفزع في أفئدة الآمنين، وهم - أخيرا - الذين يضطرونه ليحمل السلاح في وجوههم..!
لقد حاول أن يصايرهم ، ويحملهم بمنطقه على الرجعى ولكن الفتنة والضلال كانا قد أحكما الخناق على عقولهم وألبابهم.. ولقد فقد الإمام كل أمل في هدايتهم حين بلغه نبأ مقتل عبد الله بن خباب وزوجه، والطريقة التي قتلوهما

بها . إن عبد الله ابن صحابى جليل .. كان إسلامه ، وكانت حياته روعة وبهاء .. هو – خباب بن الأرت"١".
ولقد لقيه الخوارج هو وزوجته في طريق سفرهما فاعتقلوهما ،وسألوا عبد الله أن يحدثهم ببعض ما سمعه من أبيه من أحاديث رسول الله ، قال لهم:
"سمعت أبي يقول ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خيرمن الماشي، والماشي خيرمن الساعي".
وسألوه عن الإمام علي فقال فيه خيرا فاقتادوه وزوجته.
والآن، لننظر هذه المفارقة المضحكة المفجعة..
فبينما هم ماضون بهما ، سقطت ثمرة من نخلة ، فتلقاها أحد الخوارج بفمه ، وقبل أن يمضغها صاح به زميل له: كيف تستحلها بغير إذن من صاحب النخلة ، وقبل أن تدفع ثمنها ؟ فالقاها من فمه وراح يندم ويستغفر..! وبعد خطوات فى سيرهما – تقدموا من عبد الله بن خباب فذبحوه.!
ثم التفتوا بوحشيتهم صوب زوجته، فصاحت من الفزع: إني حبلى، فاتقوا الله في".
ولكنهم ذبحوها هي الأخرى، وبقروا بطنها عن جنينها..؟
أولئك من الذين كانوا يقاتلون مع الإمام بالأمس.. قد علم الله ما في قلوبهم ، فطهره من صحبتهم تطهيرا..!

لم يكد مقتل عبد الله بن خباب يبلغ مسامع الإمام حتى تراءى أمامه مصير الأبرياء لو ترك هؤلاء الهائمون المتوحشون يعيثون في أرض الناس فسادا ، فلوى زمام جيشه عن الشام إلى النهروان ، حيث لقي الخوارج في معركة فاصلة أباد فيها جمعهم ، وشتت شملهم ، وطوح رءوس قادتهم وزعمائهم.
أفما آن له أن يستريح ..؟ الأ ينفض يديه من ذلك الظلام ، ويخرج من تلك المتاهات إلى حيث يعبد الله بقلبه السليم ، وينفع المسلمين بعلمه العميم؟ .

"1" راجع خباب بن الأرت في رجال حول الرسول".

ربما كان ذلك بعض أمانيه .. ولكنها مسئولياته وتبعاته ..؟ من يحملها سواه .! إنها فوق كاهله. لن يضعها عنه سوى الموت. فأين هو ومتى يجيء ؟
انه ليحس أن قد آن أوانه. فان أهل الكوفة الذين دعاهم إلى السير معه صوب الشام للقاء معاوية قد تقاعسوا وراحوا يتسللون الواحد بعد الآخر من معسكرهم بالنخيلة . حتى تلفت الإمام ذات صباح فلم يجد حوله منهم سوى ألف لا يزيدون
انتهى دوره إذن.. ففيم البقاء؟

لقد كانت حياته في دورها الأخير هذا وقفا على قضية كبرى .. أن يعيد للإسلام حقيقته ، وللمسلمين وحدتهم ، وللدولة الإسلامية تماسكها ، وشرعتها ، واستقامتها ..
أجل .. كانت القضية التي نذر لها حياته هي: أن يرد الإسلام إلى حقيقته ..وأن يرد المسلمين إلى المسلمين
ولم يترك سلما ، ولا حربا ، يبلغان به غايته النبيلة الأ توسل بهما في عدالة ، وشرف.
ولقد كانت قضيته واضحة المحيا ، مشرقة الجبين.. ناصعة الحجة ، طاهرة الضمير .
وإن عظمتها لتتجلى عندما جاء ذلك اليوم الذي وقف فيه معاوية يأخذ البيعة بحد السيف لابنه يزيد . يزيد..؟ نعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.. ؟ ؟
انه لو كان يأخذها لواحد من صلحاء بني أمية وفضلائهم ، ما جاز له حمل المسلمين عليها بالرهبة والقوة. فكيف وهي ليزيد .. يزيد.. وكفى؟!!
لقد كشف هذا العمل من معاوية عن أحد وجوه القضية الجليلة التي كان الإمام يقاتل دونها.
هذا الوجه المتمثل في الأ تصيرخلافة المسلمين إلى طلقاء بني أمية أبدا. وإن تظل في الصالحين الأولين من المهاجرين والأنصار.
أجل .. يومئذ تكشف هذا الوجه من القضية الكبرى التي نذر البطل لها حياته ، فألقى ضوءه على وجوه القضية كلها.. ولم يبق من المسلمين أحد ، الأ بح صوته ترحما على الإمام علي. ووقف واحد من كبار الصحابة يومها يقول: ما أجدني آسي على شيء فاتني في حياتي،إلا على اني لم اقاتل مع علي الفئة الباغية ..
أجل ..قال ذلك والدموع تبلل لحيته ، الصحابي الجليل ، الطيب ابن الطيب عبد الله بن عمر! وأحس المسلمون في كل مكان. . وفي العراق بخاصة أنهم ضالعون فيا لإثم، شركاء في الوزر ، يوم تخلوا عن البطل وتركوه وحده في الفضاء الموحش بين الوحوش والذئاب!
وراحوا يبكون، ويولولون.. لقد احسوا فجاة بالفراغ القاتل الذي خلفه لهم غياب أبيهم الحنون والطيب ، العادل، الرحيم. وراحوا يترحمون عليه من كل افئدتهم الصادعة الضارعة .
اقول: يترحمون. اجل ، فقد نسيت ان اقول لكم : انه مات . قتل غيلة .
استشهد البطل والخليفة والإمام.. وهويقترب من باب مسجد الكوفة، وقيل: بل وهويصلي، اويتهيأ للصلاة - بعد أن عبر شوارعها يوقظ أهلها لصلاة الفجر.. ويناديهم بصوته الجليل: " الصلاة، أيها الناس، الصلاة، يرحمكم الله " .
اقترب منه في لجة الظلام واحد من الخوارج اسمه - عبد الرحمن بن ملجم كان قد ائتمر مع اثنين آخرين ليتخلصوا من الإمام بالعراق، ومن معاوية بالشام، ومن عمرو بن العاص بمصر .

كان الإمام بلا حرس.
فكان اغتياله عملا من أيسر ألاعمال. لم تكن الجريمة تتطلب أي جلد ، أو قوة، أو بطولة .
كانت تتطلب لا غير ضميرا ميتا وتفكيرا ضالا، وقلبا أعمى،وإرادة ممسوخة..!!
فلما وجدت هذه جميعا ، في صورة آدمي، وسلحت بسيف مسموم، و قيل لها : اطعني هذا الهدى وهذا الجلال.. تم كل شيء في لحظات !! وحققت الأقدار للبطل أمنيته الأخيرة.
فقبل استشهاده بأيام، نادى أهل الكوفة من كتاب كتبه ، ووقف أحد أصحابه يتلوه عليهم بعد صلاة الجمعة : ". أما والله لوددت أن الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من ينكم.. ولوددت أني لم أركم ولم أعرفكم.. فقد ، والله ملأتم صدري غيظا ، وجرعتموني الأمرين أنفاسا ، وأفسدتم علي رايي بالعصيان والخذلان ..
حتى قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لاعلم له بالحرب.. لله أبوهم!! هل كان فيهم رجل أشد لها مراسا ،وأطول مقاساة مني "؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين . وهانذا اليوم قد عدوت الستين.. ولكن، لا رأي لمن لا يطاع !!"..
اجل: يا أميرالمؤمنين، لارأي لمن ايطاع. ولقد سارع القدر إلى رجائك، فأخرجك الله من بين أظهرهم، وقبضك إلى رحمته تقيا .. نقيا .. بارا .. ولقد حملك إلى الرفيق الاعلى ، زورفك الآمن الوديع الذي طالما قهرت به أمواج الفتن حتى اجتزتها جميعا في سلام..
زؤرقك الذي لذت به طوال حياتك، وكنت أشد بها التياذا وأوثق رحما ،كلما ذكرت الحوار الذي دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبينك ذات يوم بعيد.
يوم سألك - يا أمير المؤمنين - قائلا: "ياعلى. كيف أنت إذا زهد الناس فى الآخرة، ورغبوا فى الدنيا، وأكلوا التراث أكلا لما .. وأحبوا المال حبا جما. واتخذوا دين الله دغلا ومالوا دولا .."؟
فاجبته- يا أميرالمؤمنين - قائلا: " إذن . أتركهم لدنياهم ، وأذرهم وما اختاوا .. وأختار الله ، ورسوله ، والدار الآخرة..واصبر على ذلك حتى ألحق بكم" ..!
لقد اخترت - يا أبا الحسن - فأحسنت الاختيار .. واصطبرت - يا أبا الحسين -فأحسنت الاصطبار . ولحقت بمن تحب من المرسلين .. والشهداء، والأبرار !!
***
لقي الإمام ربه - اخيرا - مصابا بضربة سيف مسموم .. كما لقية من قبل عمر الفاروق، مصابا بضربة خنجر محموم!
وتابى عظمة البطل الأ أن يكون آخر مشهد في حياته جديرا بها أكثر ما تكون الجدارة، ودالا على حقيقته أصدق ما تكون لدلالة..! فإنه لم يكد يتلقى ضربة القدر في رأسه حتى حمل إلى داره. واذ هو في لحظات الكارثة هذه ، يأمر حامليه والحافين حوله أن يذهبوا إلى المسجد ، ليدركوا صلاة الفجرقبل أن

تؤذن بفوات .. هذه الصلاة التي كان يتهيأ لها حين حال الاغتيال الأثيم بينه وبين بلوغها اوإتمامها.. وحين يفرغون من صلاتهم. . ويعودون إليه. كما يعود في نفس الوقت ، بعض الرجال ممسكين بالقاتل عبد الرحمن ابن ملجم - يفتح الإمام عينيه، فتقعان عليه، فيهز رأسه فيأسى حين يعرفه ويقول : أهو انت ..؟ لطالما أحسنت اليك !! ويلقي البطل العظيم على وجوه بنيه وأصحابه نظرة ، فيراها تتفجرغيظا ، وتضطرم نقمة، ويحس برد الموت يسري في أوصاله، ويكاد يرى المصيرالذي سيحيق بابن ملجم . يكاد يرى الانتقام المروع الذي سيثأر له به أولاده ، فيتقدم هو في اصرار ليحمى قاتله من أي مجاوزة أو تخط لحدود القصاص المشروع.

وهكذا ناداهم إليه ، وخرجت الكلمات من فمه مبحوحة متقطعة لترسم في العظمة الإنسانية التي افاءها القرآن على علي لوحة باهرة.

قال لبنيه ولأهله: " أحسنوا نزله . واكرموا مثواه. فإن أعش، فأنا أولى بدمه قصاصا أوعفوا . وإن أمت ، فن لحقوه بي ، أخاصمه عند رب العالمين ..

ولا تقتلوا بى سواه .. إن الله لا يحب المعتدين " ..

لندع هذا المشهد بغيرتعليق، فلن نجد كلمات ترتفع إلى مستواه!!

ولننتقل إلى مشهد آخر أو إلى وجه آخر من مشهد الختام في حياة الإمام..!!

***

ففي لحظات نهايته، زاره وفد من أصحابه، وسألوه أن يستخلف عليهم ابنه الحسن من بعده فأبى ذلك وقال: لا آمركم، ولا أنهاكم.. انتم بأموركم أبصر".. وأرادوا ان يحملوه على ما يريدون، فوضعوا اناملهم على الوترالذي يعرفون أنه يهز ابن أبي طالب من أعماقه، وقالوا له: وماذا تقول لربك - إن لقيته دون أن تستخلف علينا..؟

فاجابهم: اقول له : تركتهم دون أن أستخلف عليهم، كما ترك رسولك المسلمين دون أن يستخلف عليهم " .!

ثم دعا بنيه،وعلى رأسهم الحسن رضي الله عنهم أجمعين، وراح يملي عليه وصيته: "..أوصيكم بتقوى الله ربكم، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون.

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن صلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصيام .

*الله، الله في القرآن، لا يسبقنكم إلى العمل سابق. الله، الله في الفقراء والمسا كين اشركوهم في معاشكم.

*لا تخافن في الله لومة لائم، يكفكم من أرادكم وبغى عليكم.

لا تدعوا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وقولوا للناس حسنا كما أمركم الله تعالى.

عليكم بالتواصل وإياكم والتدابر، وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان..".

***

وقع الاعتداء على حياة الإمام فجر يوم الجمعة الثامن عشر من رمضان عام أربعين من الهجرة، وفاضت روحه الطاهرة المطهرة مع غروب يوم السبت التاسع عشر من رمضان.
وهكذا ، آب المسا فر إلى وطنه، وعاد الى منزله.!
ورحل ابن أبي طالب عن الدنيا . لكن حياته والأيام التي عاشها على الأرض تحولت إلى شمس أخذت مكانها العالي في حياة البشرية وتاريخها ، وراحت تجذب إلى مدارها قيم الحق ، والبطولة ، والإيمان ، والخير والشرف .
وهكذا رحل الإمام، وما رحل.. وطعن، وماطعن. فهو الطاعن الحاضر .. وهو الراحل المقيم.. لقد فتح لذكره ، ولذكراه أبواب الخلود حينما ترك لذوي الدنيا دنياهم ، واختار الله ورسوله ،والدار الآخرة .. ولقد احتوشته العواصف ، والأعاصير ، لكى تزيغه فى ظلامها عن الطريق .. أو تفقده بعض رشده .. أو تشغله عن غاياته ومبادئه فما زاغ عن الطريق .. ولا فقد الرشد ، ولا سئم صحبة مبادئه.. وحين أدركه الموت وجده عملاقا يحمل رايته..!!
وهذا الطراز النادر ، من البشرية ، تمنحه المقادير الخلود ، فلا تسلمه للنسيان ولا للعدم ، لأنه يشكل للإنسانية ضميرها ، ونهاها.
وإن سيرة ابن أبي طالب لناهضة في مجال خلودها العظيم ، تلقي على الجنس البشري في كل أزمانه وبلدانه ، نبأ الولاء العجيب للحق. ولاء الطفل، وولاء الشاب، وولاء الشيخ..
ولاء المقاتل، وولاء الناسك. ولاء المواطن، وولاء الحاكم.. ولاء ما تجد بينه في مراحل العمر كافة، وتباين الأوضاع من تفاوت. ذلك أنه ولاء مطبوع ، لا ولاء مصنوع .
ولاء الفطرة ، لاولاء الاحتراف . ولاء اليقين ، لا ولا ء المنفعة .
واذا كان الولاء للحق يتمثل أول ما يتمثل في قهر الدنيا ، والتفوق على اغرائها وفنونها ، فإن ابن عم الرسول وتلميذه العظيم، قدبلغ في ذلك المدى، وجاوز المستطاع !
ها هو ذا ، يخرج إلى سوق الكوفة ، وهو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، حاملا
أحد اسيافه الأثيرة لديه ، الحبيبة إليه ، عارضا اياه للبيع ، وقائلا : " من يشتري سيفى هذا ؟ فوالله لو كان معى ثمن إزار ما بعته !!
لماذا هذه الفاقة وبيت المال يستقبل كل يوم من أقطار الإسلام مالا غدقا .. ومن حقه كأمير للمؤمنين أن يأخذ منه كفايته..؟
لماذا يصر على أن يطحن بنفسه دقيقه؟ ويرقع مدرعته حتى لا يبقى فيها مكان لرقع جديدة.؟! لماذا لا يأكل الخبز الأ قديدا مخلوطا بنخالته؟ ويهرب من قصر الإمارة بالكوفة إلى كوخ من طين..!!
نقول لماذا..؟ لأن الولاء للحق ، والزهوبالدنيا لا يجتمعان . ولقد تعلم ذلك من قدوة سلفت ، طالما كان يلهج بها ذاكرا ، ومذكرا.. تلك القدوة التي لم تغب

عن خاطره لحظة من نهار، التي عبر عنها فقال: " في رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قبضت عنه أطرافها ، ووطئت لغيره أكتافها..
وفي موسى كليم الله، إذ يقول: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير، ووالله ما سأله الأ خبزا يأكله.
وفي المسيح عيسى ابن مريم، الذي كان يلبس الخشن. ويأكل الجشب، دابته رجلاه ،وخادمه يداه"..!!
تلك هي المنازل العلى التي يحلق عندها " البطل الزاهد الأواب ، وهو لهذا لا يعدل شيئا بجشب الطعام وخشن الثياب .
لقد كانت هوايته الكبرى، إهانة الدنيا ، وإذلال مغرياتها الهائلة بأن يرفع في وجهها يدا لا تهتز ولا تختلج ، تقول لتلك المغريات: لا .. !
فلما ولي أمر المسلمين، وصار لهم خليفة وأميرا ، تحولت الهواية إلى واجب..!
أجل - آنئذ لم يعد نبذ الدنيا واذلال سلطانها وإغرائها مجرد هواية لبطولته ، أو رياضة لروحه . بل صارت واجبا تفرضه مسئوليات الحكم ، وتبعات القدوة ..
وآنئذ سمعناه يقول: " !!أقنع من نفسي بأن يقال أميرالمؤمنين، ثم لا أشارك المؤمنين في مكاره الزمان؟!
والله لوشئت لكان لي من صفو هذا العسل ، ولباب هذا البر ، ومناعم هذه الثياب ، ولكن هيهات أن يغلبني الهوى، فأبيت مبطانا وحولي بطون غرثى وأكباد حرى ..!!

هواذن مقيم لم يرحل.. يعلم الناس في كل جيل وعصر،أن الولاء للحق أثمن تكاليف الإنسان..
ويعلم الحكام في كل جيل وعصر،أن الولاء للحق يعني رفض إغراء الدنيا .. ورفض غرور السلطان. وهو مقيم لم يرحل.. يجد عصرنا هذا في نهجه وحكمه أستاذا ومعلما وهاديا .
فاليوم ، حيث تعبىء الحضارة كل قواها لمحاربة الفقر ، وإرباء الكفاية ، وتوزيع العدل، نجد أمير المؤمنين عليا.. يدرك من قرابة ألف وأربعمائة عام بؤس الفقر و"وظيفة المال" ادراك الحاكم المسئول، لا إدراك الواعظ المتمني.
انظروا. . هاهو ذا ناسك لم يمنعه نسكه وزهده عن أن يعرف ضراوة الفقر وبؤسه وعداءه لتقدم الروح والضمير ،فيقول قولته الباهرة: لوكان الفقر رجلا لقتلته!!
وها هو ذا يبدأ الساعات !!لأولى من حكمه وخلافته بوقف تضخم الثروات التي سببها التمييز في الأنصبة والعطاء بين الذين أسلموا قبل الفتح ، والذين أسلموا بعده .. فيلتزم منهج التسوية في العطاء. وفي حدود قدرة بيت المال يأخذ كل حاجته ولا يزيد .

وإنه ليفحم المعارضين لمنهجه بكلمات قصار ، لكن بإكبار ، إذ يقول : " لوكان المال مالي، لسويت بينهم، فكيف والمال مال الله، وهؤلاء عباده..؟ "٠
إن وظيفة المال عنده ، تتمثل فى سد حاجات الشعب فردا فردا .. وهو-أي المال- ليس مثوبة على دين، ولا تكريم المركز، بل ولا ثمنا لجهد.
إنه قيام بضرورات العيش ، وسد لحاجات آلناس، لا أكثرمن هذا ، ولا أقل.
وهو بهذه المثابة ، لا يصلح قط أن يكون حكرا ولا أن يكون دولة بين أيدي قلة مثرية.
إن تحديد إقامة المال في بضع أيد ، أو بضعة بيوت، هدر لوظيفته ، وإلغاء لدوره الصحيح في فقه الإمام ، الذي هو فقه الإسلام . من أجل هذا قال كلمات راشدة صاغ بها مبدأ من أعظم مبادئ حكمه وحكومته : "إن الله فرض فى أموال الأغنياء أقواتا للفقراء .
فما جاع فقير،إلا بتخمة غني ".
من العسير أن نجد عبارة تحدثنا عن وظيفة المال ويجتمع فيها المنطق العلمي ، والألق الإنساني، على أن هذا النسق الفريد والرشيد !
" إن الله فرض في أموال الأغنياء أقواتا للفقراء ، فما جاع فقير الأ بتخمة غني " .
ألا وإن الإمام بهذا المبدإ، لا ينفي عن المال نزوة الاحتكار فحسب، بل ينفي عنه كذلك نزوة السرف في إنفاقه ، الجموح في طلب المناعم به .
فجوع الفقير ناشئ عن تخمة الغني..
والجوع والتخمة - كلاهما مظهر لخلل في وظيفة المال وعدالة التوزيع .
فحين تأخذ وظيفة المال دورها الصحيح في تغطية المعايش وسد الحاجات بغير سرف أو ترف ... فانئذ لا توجد التخمة التي تخلق الجوع ، ولا وجد الجوع الذي يحقد على التخمة .
وعبارته الرشيدة هذه : " إن الله فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء " .
تعطينا دلالتها الرائعة حكما فقهيا باهرا ،هو أن أموال الأغنياء ليست حقا خالصا لهم ما دام في مجتمعهم فقراء.. بل هي حق لهم وللفقراء معا .. هي حق للفقراء الذين خلت منه أيديهم ، بقدر ما هي حق للأغنياء الذين تمتلىء به أيديهم !!
ولقد كان الإمام رضي الله عنه يضع مبدأه هذا كما يضع كل مبادئه موضع التنفيذ السديد ، لا يصرفه عن ذلك تلك الفتن المجنونة حوله، ولا الحرب المتسعرة ضده.
ترى هل كان لسياسته هذه دور في تألب الأحقاد عليه وانفضاض الذين كانوا أنصاره٠ بالأمس من حوله ؟ !
هل كان لمخاوف المسلمين الذين أثروا ثراء كبيرا، والذين كانوا في طريقهم إلى الثراء دورغيرمنظور في محاربة الخليفة الذي رفع هذا الشعار، وهذا المبدأ : "إن الله فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء" ؟.

***

على أي حال ، فقد رحل عن الدنيا - الشكل الخارجى - للبطل : أما موضوعه الحى ومضمونه النقى، فقد بقيا غذاء للحقيقة وريا .

وسيظل الإمام حيا في جميع القيم، وفي كل الحقائق التي عاش يناضل دونها ، ومات حاملا رايتها .

سيظل حيا وماثلا في فضائله وعظائمه التي صاغ منها حياة امتدت إلى الثالثة والستين، والتي أجاد وصفها ضرار بن ضمرة الكناني.

فقال واصفا الإمام: " كان بعيد المدى ، شديد القوى .. يقول فصلا ، ويحكم عدلا .. يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطلق الحكمة من لسانه .. يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته.. كان غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفيه ويخاطب نفسه. يعجبه من اللباس ما خشن - ومن الطعام ما جشب .. وكان فينا كأحدنا - يجيبنا إذا سألناء ، ويبتدئنا إذا تبيناه ، ويأتينا إذا دعوناه . وكنا والله مع قربه منا لانكاد نكلمه لهيبته ، ولانبتدئه لعظمته . وكان إذا تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم.. يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين.

لا يطمع القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله.

وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه ، قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين.

فكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا ، يا دنيا ، إلي تعرضت، أم الي تشوقت ؟ هيهات هيهات، غري غيري. قد ابئتك ثلاثا ، لا رجعة فيها !!

فعمرك قصير.. وعيشك حقير.. وخطرك كبير.. أمنقلة الزاد . وبعد السفر. . ووحشة الطريق"

لقد كان حظ الإمام مع الناس عاثرا .. لكن حظوظه مع نفسه - في طهرها وتقاها - كانت رابية ووافية .. فبغير عون من تأييد يبذله مؤيدون وأصدقا ء .. وبغير جزع أمام المؤامرات الضارية ، يثيرها في وجهه أعداء تلو أعداء .. وقف الإمام علي" يبني وحده - بإيمانه الفرد ، وبساعده الأشد ، حياة سامقة ، تبقى على مر الزمان منارا لذوي الرشد والنهى.

***

ولئن كان لم ينصفه الذين غلوا في حربه. ولم ينصفه الذين غلوا في حبه. قد أنصفته عظمته الفريدة، إذ فرضت على الأعداء جلالها .. وعلى الأصدقاء استغناءها ..

وسات على وجه الزمان طاهرة ، ناضرة ، ظافرة .. و تلكم هي العظمة حقا.. !!

معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز

مقدمه

معذرة إلى أمير المؤمنين.. من كاتب يجاوز قدره بالحديث عنه ، والتأريخ له - كما جاوز قدره من قبل فى محاولات مماثلة.. ومعذرة إلى أميرالمؤمنين ..من كاتب لم يستطع أن يكبح جماح رغبته هذه، وهو يعلم علم اليقين قدر مقت أمير المؤمنين للحديث عنه وإطراء شمائله ومزاياه ..!
وليكن شفيعي أن – أمير المؤمنين - لم يكن ملك نفسه إنما هو ابن الإسلام البار، وملكيته الثمينة. .! ومن ثم ، فالكناية عنه ليست حقا له ، بل هي للإسلام الذي كان- بن عبد العزيز - ثمرته و معجزته ... أفياذن إذن أن أؤدي للإسلام حقا أطيقه ، وإن قصرت من قبل ، ومن بعد ، في حقوق كثار. ؟؟

***

ألا إن نبأه لعجيب.. وإن تصوره مجرد تصوره لأمر ممعن في الصعوبة يا رجال.. !!
ومع ذلك فحتم علينا ، لا أن نتصور فحسب ، بل نجاوز التصور إلى التصديق ، ما دمنا نحترم التاريخ ونثق به...
فبأوثق أسباب النقل والرواية والتاريخ ، نقلت الينا هذه الآيات المعجزات التي سنراها ، والحقائق المتحراة التي سنشهدها و نطالعها .
أجل - في صدق تاريخي عظيم، يرفض كل تساؤل وشك، جاءتنا أنباء هذا الإنسان الباهر. والحاكم القديس.!!
وإن الصعوبة التي تواجهني الآن، لتتمثل في : ماذا أخذ وماذا أدع من ذلك الحشد الهائل من الحقائق التي تحكي لنا جلال قداسته... وروعة بساطته... وسمو عدله.. ونبل روحه ... وإعجاز مسلكه .. !!
واذا كانت الحكمة العربية تقول : من أخصب تخير .. فانى اجدها الآن : من اخصب تحير..!!

***

ولقد كنت أحسب أن كتاباتى فى السير الإسلامية ستقف عند ما أخرجت فيه من مؤلفات : عن خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم الأربعة .. ثم عن تلك الثلة المباركة من الرجال حول الرسول صلى الله عليه وسلم ثم عن الإمام الشهيد الحسين وأبناء الرسول في كربلاء

كنت أحسب أنني سأقف عند هذه النماذج العالية لعصر الوحي الذي يبهرني دائما جماله وجلاله ... بيد أني ما لبثت ، حتى أبصرت هناك في الذرى الشاهقة مكانا شاغرا لرجل ، هو وإن لم ينتم لعصر الوحي تاريخيا - إذ تفصله عنه عشرات الأعوام - فانه بقداسة روحه وجلال نسكه ، ينتمي إليه أروع ، وأجمع ، و أوثق ما يكون الإنتماء ...
ذلكم هو معجز الإسلام – عمر بن عبد العزيز .. ا!
****
إنه لا ينتمي لعصر الوحي فحسب .. بلم إنه الرجل الذي حاول نقل عصر الوحي بمثله وفضائله إلى دنيا مائجة هائجة ، مفتونة مضطربة ، متلفعة بالظلم والقهر ، متعفنة بالتحلل والترف . ثم نجح في محاولته نجاحا يبهرالألباب.!
فهل ندهش ونذهل لأنه بمفرده حاول تحقيق هذا المستحيل ..؟؟!
أم ندهش ونذهل لانه بمفرده قد حقق المستحيل فعلا .. وجعل من الملك العضوض الذي شاده الأمويون عبر ستين عاما ، خلافة أوابة ، عادلة ، بارة ، تمثل كل فضائل وشمائل عصر النبوة والوحي .. ؟! ومتى. ؟!
ليس في عشرين عاما .. ولا في عشرة أعوام.. بل في عامين، وخمسة أشهر، وبضعة أيام..!
****
على انه ليس في هذا التوفيق العظيم ، والقدرة الخارقة ، ما يجذب وحده انبهارنا .. فهناك تلك الميزة الفريدة التي جعلت من ابن عبد العزيز ومن سيرته أكثر الحقائق الإنسانية إثارة للعجب ، والبهر ، والإجلال، والتي جعلت منه أسطورة أصدق من الحقيقة .. وحقيقة أعجب من الأساطير .. !
فهو لم يشغل الناس والتاريخ بكثرة عبادته ، ووفرة عدله ورحمته ، وسمو حكمه وخلافته فحسب.. !! بل إنه - قبل ذلك كله - شغل الناس والتاريخ وبهرهما بذلك الإنقلاب الروحي المذهل، وبالظروف التي أحدثته وواكبته..
فقد يكشف منصب الحكم والخلافة في شاغله عن عبقرية في التنظيم، والإدارة ، والسياسة
أما أن يكون هذا المنصب بكل إغرائه وفتونه وزهوه وسلطانه سببا مباشرا لتفجير عبقرية الروح والقداسة ، فذلك ما يصعب تصوره ، فضلا عن تفسيره.. !!
وهذا هو الذي حدث بالنسبة لعمر بن عبد العزيز .
فعلى الرغم من انه كان قبل استخلافه ، وطوال سني عمره طاهرا ، صالحا فاضلا ، فإن ذلك كله لا يبدو شيئا مذ كورا أمام حياته ومسلكه بعد القفزة المجيدة والمباغتة التي حدث خلالها أعظم وأندر انقلاب روحي شهدناه في كل بني الإنسان. . !!
ويزيد الأمر عجبا ، ان هذا الإنقلاب الباهر ، تم بتكامله المطلق في بضع دقائق من الزمان .. وإن هذا الإنقلاب الروحي المعجز ، لم يجى ثمرة طارئ يغري

بالزهد ، ويدفع للعزلة والإخبات. بل هو على النقيض من ذلك، ثمرة مفاجاة تفجر في النفس - مهما يكن ورعها وتقاها –كل رغبات الحياة المتانقة .. ومباهجها المتألقة.. !!
اجل.. ففي الدقائق ، وإن شتم ففي اللحظات التي هتف فيها باسمه خليفة وحاكم لأعظم امبراطوريات عصره وعالمه ، تم هذا الإنقلاب الذي يتحدي كل وصف وكل تصوير... !!
والرجل الذي كان قبل دقائق استخلافه يضمخ ثيابه بأغلى العطور ، ويسكن أعلى القصور ، ويلبس أبهى الحلل ، ويأكل أطيب الطعام ، ويركب الصافنات الجياد ، ويبلغ دخله السنوي أربعين ألف دينار ... هذا الرجل ذاته ، يصير بعد دقا ئق - لا أيام ولا ساعات - إنسانا آخر ، عطره عرقه .. وجياده قدماه .. وملبسه من أخشن الثياب .. ومطعمه من أجشب الطعام .. ودخله لا شيء ... فقد حمل كل ثروته إلى بيت المال .. وقصوره الفارهة لا قصور .. فقد تحول عنها إلى دار متواضعة من الطين... وعرشه - يا لجلال عرشه – حصير قديم يجلس عليه فوق التراب . !!
ويزيد الأمر تعقيدا ، كما يزيده روعة وجلالا ، أن بطل هذا الإنقلاب الروحي المثير لم يكن من أوساط الناس .. بل هو ربيب الملك، والقصور ، والأمجاد ، والنعيم...
كذلك لم يكن ساعة هذه الوثبة الروحية الهائلة شيخا هرما ، في سن الستين أو، السبعين، بل كان في رائعة شبابه ورجولته، في سن الخامسة والثلاثين... !

***

تحت أي تاثير لا يقاوم سحره ، ولا يرد قدره ، وقع هذا الإنقلاب داخل هذه الظروف..؟؟
لا شيء أمامنا سوى مسئولية الحكم .. نقلته في لحظات إلى قديس لانظير له بين جميع القديسين .. !!
ذلك أنه لم يصر قديس صومعة ، بل قديس صولجان وسلطان ، ودولة من أعظم دول الأرض والزما ن..
وذلك - لعمرالحق - ما يكاد يذهب بالألباب..!
لقد صار منذ استخلف يتلوى تحت وقع مسئولياته ، ويصرخ من أعماقه : "من ينقذني يوم القيامة من حق الفقير الجائع. . المريض الضائع.. والمظلوم المقهور.. واليتيم.. والأرملة ..والاسير.."..؟؟!!
أه يا بن عبد العريز تقدم ولا تخف ٠
تقدم .. لترى لدنيا كيف أنجب الإسلام.. وكيف ربى محمد وعلم. . !
تقدم يا حفيد الخلافة والملك ، ورضيع المباهج والنعيم.. !!
تقدم يا ريان الشباب ، ويباناعم الإهاب، ويافواح العطور والعبير .. !!
تقدم يا أميرالمؤمنين وأرنا اليوم مرقعاتك، وأسمالك. .!

أرنا القميص الذي كنت تغسله ، ثم تنتظره في ركن دارك حتى يجف ، لأنك لا تملك سواه.!
أرنا وجهك الشاحب ، وجسدك الناحل من فرط ما تبذل من جند ، ومن أثر الخبز المتبل بالملح، والمبلل بالزيت. ا!
ارنا الحصير الذي اتخذت منه عرشا يا خليفة المسلمين ، ويا أمير المؤمنين .. ا!
أرنا دارك التي شدت اليها الرحال من بلاد بعيدة ، سيدة جاءت تطلب المزيد من عطائها فلم تلبث حين رأتها ان قالت في مرارة: أتراني جئت أعمر بيتي من هذا البيت الخرب.. ؟!
ألا حيا الله فاطمة زوجتك، فك مكانت صادقة حين اجابتها : " إنما خرب هذا البيت ، عمارة بيوت أمثالك " .. !
تقدم.. يا أميرالمؤمنين!! فما نعرف يقينا اشبه بالاسطورة .. ولا أسطورة أصدق من اليقين ، منك أنت ، ومن نبئك العظيم..!!

***

ومعذرة - مرة أخرى - فقد نسيت إنك تكره الاطراء والثنا ء، ولكم كنت أود أن أعدك الأ أعود .. ولكني غيرقادر.. والدنيا المبهورة بعظمتك تقف هي الأخرى عاجزة وغير قادرة..
فمن ذا الذي يستطيع الصمت أمام الذي أتيته من معجزات. .. ؟؟
من ...يا أمير المؤمتين؟؟!!
" خالد"

الفصل الأول الطفولة المرهصة

"...إنك إذن لسعيد"!
كان ذلك في طفولته الغضة الناضرة. وكان أبوه عبد العزيز بن مروان يحكم مصر واليا عليها لأخيه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ،حيث لبث عبد العزيز في ولايته هذه عشرين عاما .
وغادرت أم عاصم المدينة المنورة حيث كانت تقيم، لاحقة زوجها عبد العزيز فى مصر ، مصطحبة معها ولدهما الحبيب عمر ... وفي حلوان التي اكتشف عبد العزيز جمال مناخها فاتخذها منتجعا ومستراحا ، را ح الطفل المتفتح يجري في مرابعها ، ويعب من هوائها .
وذات يوم، دخل حظيرة الخيل، فركضه جواد ، فشجه وأدماه، وحمل الطفل الجريح إلى داره، وما كادت أمه تبصره حتى أخذها الروع ، وفجعها المشهد .
واستدعي أبوه، فجاء على عجل، ورأى الدم يغطي وجه ولده، والشجة الفاغرة تنز..

وقبل آن يغشاه الأسى، طوفت بخاطره ذكرى ألقت على محياه تهللا ، وعلى ثغره ابتساما .. ولما فرغ من تضميد جرح طفله الحبيب ، ربت كتف زوجته والبسمة تزدا د على شفتيه اتساعا وتالقا ،وقال: " ابشري يا أم عاصم" !
ثم بسط يمناه يداعب بها رأس ولده ، وعيناه تحدقان في وجهه الشاحب الوديع ، وراح يقول له: " إن تكن أشج بني أمية، إنك إذن لسعيد" .. !!
فماذا كانت الذكرى التي آثارها هذا الحديث؟ وما شان النبوءة التي أومات اليها كلمات عبد العزيز.. ؟؟
نعد الي الوراء كي نشهد النبأ من أوله .. فهناك في تلك الليلة الشاتية حيث المدينة ساكنة ساجية ،قد أوى لناس فيها إلى دورهم ومضاجعهم يلتمسون الدفء من ذلك الصقيع الراعد ، الأ رجلا واحدا أفزعته - مسئولياته - وقد كانت دائما تفزعه - فنضأ عنه غطاءه، وخرج إلى طرقات المدينة التي خلت من كل حي، ولم يبق بها سوى كتل الظلام ، وغواء الريح ..
خرج الرجل وحده يتعسس فلعل هناك جائعا ، أومريضا ، أو مقهورا ، أوابن سبيل...
لعل هناك شأنا من شئون الناس قد غاب عنه، والله سائله عنه ومحاسبه عليه.. فالرجل خليفة للمسلمين وأمير للمؤمنين.
اجل .. إنه - عمر بن الخطاب - رضى الله عنه وأرضاه .
وطال تعسسعه وتطوافه حتى أدركه التعب ووخزه الصقيع . فلاذ بجدار دار صغيرة فقيرة ، وجلس يستريح قليلا ليستأنف خطوه فيما بعد إلى المسجد ، فقد أوشك الفجر أن بجىء ..
وإذ هو في متكئه ، سمع حوارا داخل الدار .
كان الحوار يجري بين أم وابنتها حول ذلك القدر الضحل من اللبن الذي جاد به ضرع شاتهما في ذلك الهزيع ، وكانت الأم تدعو ابنتها كي تخلط اللبن بالماء ، حتى يزداد ويفي ثمنه بحاجات يومهما الوافد .. سمع أمير المؤمنين حوارهما :
الأم تقول لابنتها : "يا بنية ، امذقي اللبن بالما ء " .والبنت تجيب أمها : " كيف أمذق، وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق ؟؟ ". . وتعود الأم قا ئلة :
"إن الناس يمذقون، فامذقي، فما يدري أمير المؤمنين بنا إن مذقنا ، ولا يرانا .. "
وتجيبها الفتاة : "ي!!ماه، إن كان أمير المؤمنين لا يرانا ، فرب أمير المؤمنين يرانا ! ".
واغرورقت عينا أمير المؤمنين بدموع الغبطة والفرح ، وسارع إلى المسجد ، فصلى الفجر بأصحابه ، ثم عاد مسرعا إلى داره ، ودعا ابنه عاصما وأمره أن يأتيه بحقيقة أهل تلك الدار.
وعاد عاصم الى أبيه بمعلومات وافية عن الأم وابنتها ، وقص أمير المؤمنين على ولده ما سمعه من حوار ، ثم قال له وقد كان مزمعا على زواج : "اذهب يا بني فتزوجها ، فما أراها الأ مباركة، ولعلها تلد رجلا يسود العرب" !!

وتزوج - عاصم - تلك الفتاة الفقيرة الشريفة الورعة ، وآنجبت له فتاة اسموها ليلى ، وكنوها أم عاصم . ودرجت أم عاصم هذه في شبابها التقي النقي، حتى تزوجها عبدالعزيز بن مروان ، فولدت له "عمر بن عبد العزيز".
تلك إذن ذرية بعضها من بعض .. ولقد صدقت نبوة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الفتاة المباركة.
بيد إن هذا الجزء من النبوءة، لم يكن هو الذي دار بخلد عبد العزيز بن مروان حين قال لطفله الجريح : " إن تكن أشج بني أمية ، إنك إذن لسعيد " .

" ١" مذق اللبن والشراب بالماء : مزجه وخلطه.

فللنبوءة بقية أخرى،هي التي استجاشت الذكرى في وعي عبد العزيز.
ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .. رأى ذات ليلة رؤيا نهض من نومه على إثرها يعجب ويقول : "من هذا الأشج من بني أمية، ومن ولد عمريسمى عمر، يسيربسيرة عمر... ويملأ الأرض عدلا "..؟؟
رأى عمر هذه الرؤيا ،واستشرف ذلك الغيب قبل أن يولد حفيده عمربن عبد العزيز بقرابة اربعين عاما !!
وانتقل ابن الخطاب رضي الله عنه إلى الرفيق الأعلى، وظلت نبوءته هذه تدوي بين أهله وذويه الذين را حوا يتلمسون تلك العلامة في وجوة أبنائهم .
وحين ولد لعبد الله بن عمرابنه بلال وأصيب في طفولته بشجة في وجهه ، حسبوه المبشر الموعود ، لكن الأقدار تخطته حتى جاء اليوم الذي شج فيه وجه ابن عبد العزيز ، فتذكر أبوه النبوءة القديمة ، وقال قولته المفعمة بالرجاء والأمل ..
" إن تكن اشج بني أمية ، إنك إذن لسعيد " !!
***
هذه إحدى ظواهر الإرهاص في طفولة - بطلنا - وليست كل الظواهر .
فلسوف نرى إرهاصات طفولته تغطي ببشائرها كل مجال ، وتتكامل بالقدر الذي سيكون عليه تكامل الدور العظيم لحياة الرجل في - عمر بن عبد العزيز - وحياة الخليفة فيه...
وهذا الإرهاص لا يتمثل في تلك العلامة الجسمانية التي أحدثتها شجة الوجه فحسب...
بل يتمثل في ذلك الإنتماء المزدوج للنقيضين الكبيرين: عمر بن الخطاب وسلالته التقية الورعة .
والأمويين ، وسلالتهم المتقحمة المستهترة .
وهنا يجاوز الارهاص شخص عمر بن عبد العزيز إلى دائرة اوسع، ومغزى أبعد.
فكان القدر ، وقد أمهل بني أمية حين اغتصبوا الخلافة ، وأحالوها إلى ملك عضوض، وإلى مزرعة أموية، قد قرر أن يجيئهم برجل منهم، يذيع على الملأ

وثائق إدانتهم، ويرد إلى دين الله حقيقته المضيئة، وإلى دنيا الناس عافيتها الغائبة، وإلى منصب الخلافة كرامته وتقاه .! ثم يكون للدنيا بأسرها آية على ما يستطيع الإسلام العظيم أن يصنعه حين تتقمص روحه الغلابة المشرقة رجلا من الناس، فتحيله إلى نور إلهى معجز ، حتى حين يجى هذا الرجل من أصلاب أولئك الذين ملأ أكثرهم الأرض فسادا وبغيا !!

***

على أن هذا النوع من الإرهاص كان يدور خارج شخصية الطفل الموعود .. هو إرهاص يديره القدر بنفسه ولحسابه، دون أن يكون للطفل دخل فيه، أوعلم به...

فلننتظرالآن نوعا آخر من ذلك الإرهاص ، كانت شخصية الطفل مادته وأداته .. وكان مظهرا لجهده الذاتي في اكشاف نفسه ، وبناء شخصيته ، حيث نبصر رغبات الطفل تشير الى مستقبل الرجل.. وحيث نلمح في اتجاهه النفسي والعقلي - إبان طفولته - من النضج والاستواء والرشد ما يرهص بغده ، وببشره بمستقبله .

ولقد تحدث هو فيما بعد عن طفولته تلك فقال : " لقد رايتني بالمدينة غلاما مع الغلمان ، ثم تاقت نفسي للعلم ، فاصبت منه حاجتى"!

ومن هنا تبدأ اطلالتنا الواسعة على الإرهاص الذاتي لهذه الطفولة المباركة فلقد رغب الطفل إلى أبيه ان يغادرمصر إلى المدينة يدرس بها ويتفقه.

والمدينة يومئذ منا رة للعلم والصلاح ، تمتلىء بالعلماء والفقهاء ، والعباد والصالحين. كما إنها مجتمع يموج بالنبوغ الإنساني في فنون الشعر ، والعزف والغناء .

ويستجيب - عبد العزيز بن مروان - الذي كان من خيار بنى أمية وبنى مروان، وأكثرهم قربا من الهدى والتقى والصلاح.. يستجيب لرغبة ولده، ويرسله إلى المدينة المنورة ، ويعهد به إلى واحد من كبار معلمي المدينة وفقهائها وصالحيها ٠٠ وهو صالح بن كيسان .

***

إن طفلا كصاحبنا ، نشأ في قصورالملك والنعيم.. يحمل لقب سموالأمير .. وبين يديه ، بل ملء يديه من مناعم الحياة ومباهج الأيام أكثر مما يشاء ، ما كان يتوقع منه - وفي طفولته على الأقل- الأ أن تحمله أشواق الطفولة ورغباتها إلى دنيا اللهو والمرح والانطلاق. فما باله ينأى عن ذلك كله، وينزع بكل فؤاده وهواه إلى آفاق الرجال، بل حكماء الرجال. ؟! ثم ما بال طفولته لا ترهص ببعض خصائص اكتماله المقبل فحسب ، بل ترهص بكل هذه الخصائص على نحو عجيب.. ؟!

أجل ... إن كل تألقات سلوكه الذي سنراه عندما يصير خليفة للمسلمين ، تبدو بشائرها في حياة الطفل والغلام مجتمعة متكاملة . فخوفه الشديد من الله ...

وإقباله النهم على العبادة والعلم... وتقديسه المطلق للحق ، ودحضه القوي للباطل.. وولعه بمعالي الأمور.
كل تلك الخصائص والسجايا التي ستشكل سلوكه وحياته في أثناء خلافته ، نرى بشائرها كلها في نشأته الباكرة تزاول تدريبها الذكي في توفيق عظيم.
فهو كما رأينا من قبل يرغب إلى أبيه كي يرسله إلى المدينة ليتزود من فقهها وعلمها قائلا له: " دعني أذهب إلى المدينة، فأجلس إلى فقهائها ، وأتادب بآدابهم" .
ثم لا يكاد ينزل بها حتى يلوذ بالشيوخ والعلماء والفقهاء ، متجنبا أترابه ولداته . ويعكف على حفظ القرآن حتى يتم حفظه في زمن جد قصير ووجيز.. ويقبل على العربية ، وآدابها ، وشعرها ، فيستوعب من ذلك كله محصولا وفيرا . وقد يبدو هذا النوع المبكر أمرا مألوفا إذا هو قيس بالمستويات المتفوقة للطفولة الناجبة الذكية. ولكن هل يبلغ مثل ذلك النبوغ من ضميرطفل ما يملؤه خشية لله، وما يجعله يبكي وينتحب من مخافة الله.. ؟!
لقد كان عمر بن عبد العزيز ذلك الطفل الورع البكاء .
فاجأته أمه ذات يوم ، وهو في حجرته وحده يبكي وينتحب ، فالقت نفسها عليه تسأله ما دهاه ؟ فكان جوابه : " لا شىء يا أماه، إنما ذكرت الموت" .. !
وقد تراودنا الرغبة في تفسير واقعة كهذه ، بأنها حالة عارضة ، ربما آثارها مزاج نفسي طارئ .. أو لعله كطفل مرهف الحس جزع من صورة الموت الذي سيسلبه مسرات هذه الحياة. بيد أن للصورة أبعادا أخرى.
فمعلمه صالح بن كيسان فقيه المدينة العظيم ، يعطينا الصورة كاملة وهو يتحدث عن طفولة ابن عبد العزيز فيقول: " ماخبرت أحدا ،الله اعظم في صدره من هذا الغلا م.
وحين يتحدث عالم في منزلة ابن كيسان أنه لم ير أحدا الله أعظم في صدره، من هذا
الغلام ، فإننا نجد انفسنا أمام نموذج إنساني نادر المثال .. ا!
ذلك أن هذا القدرمن الورع وخشية الله وإجلاله، إنما يواتي الأفذاذ من الصالحين بعد أن يكبروا ويتقدم بهم العمر .. أما وهم غلمان صغار فهيهات ، الأ أن يكون واحدا من أولئك الذين يصطنعهم الله لنفسه ، ويصنعهم على عينه.. !!
وتبهرنا طفولة ابن عبد العزيز بطريقتها في اختيارالقدوة والمثل الأعلى. .
فقد رأينا الغلام يجنح بكل ثقله الوجداني والعقلي إلى جانب الشيوخ ، بما معهم من دين، وحكمة، وفقه ، وخلق. ثم يذهب في تمييز مثله الأعلى واختياره مذهبا يبهر الألباب .
فالغلام الصغير ، لا يستمد مثله الأعلى من بيئته التي تعج بالأمراء والملوك ، ولا من دنياه الحا فلة بالمباهج والزخرف.. ولا من الرؤى والأحلا م المنا سبة لسنه وطفولته .

إنما برسل بصيرته الذكية إلى الآفاق البعيدة والمجيدة لتعود إليه بمثله الأعلى، متمثلا في شخص أعظم، وأعلم، وأورع، وأنقى أهل زمانه - ذلكم هو عبدالله بن عمر بن الخطاب !.
و عبد الله بن عمر هو عم والدة عمر بن عبد العزيز .. فهو منه بمثابة الجد ، وإن رأينا الغلام يحلو له أن يدعوه بخاله .
لقد راح منذ نزل المدينة يلوذ به ويلازمه ، ويتلقى عنه ، ويتأسى به ..
وكان إعجابه به شديدا ، فهو دائم الإشادة بعلمه ، وورعه ، وسخائه ، ونبل روحه .
ولطالما كان يداعب والدته بهذه الكلمات المصممة .
"تعرفين يا أماه !!؟؟ لأكونن مثل خالي، عبد الله بن عمر" !! إنها روح كبيرة. أكبر عشرات المرات من جسم صاحبها الغض ومن سنه ٠ الناشئة .
انها روح غلام يتعجل رجولته ، ليس لما فيها من فتوة ، وزهو ..بل لما فيها من اكتمال لفضائله وازدهار لخصائصه وشمائله ..
***
وفي طفولة - ابن عبد العزيز - نرى احتراما للنفس، نادر المثال .
فهو لا يتجنب اللهو المباح لأمثاله وأنداده فحسب .. بل يأخذ نفسه أخذا وطيدا بما لا يقدر عليه سوى أولي العزم من الرجال.. !!
و هو لا يتجنب من الأخطاء ما يحاسب عليه الكبار ، ويغتفر للصغار .. بل يتجنب منها كل خطأ كبير أو صغير. فرذيلة - كالكذب - مثلا - يواجهها الغلام بمقت شديد ، ورفض أكيد ..
ولسوف نسمعه يتحدث فيما بعد عن نفسه فيقول : " ما كذبت منذ شددت علي إزاري وعلمت أن الكذب يشين أهله" !!
***
وفي طفولته الراشدة، تبهرنا الاستجابة الفريدة التي كان الغلام يتوسل بها لتصحيح ما يتكشف له من خطأ، وتنمية ما يتاح له من سداد.
حدث يوما أن تأخر بعض الوقت عن صلاة إحدى الفرائض مع جماعة المصلين بمسجد الرسول في المدينة . .
وسأله معلمه ومؤدبه صالح بن كيسان عن سبب تأخره ،فأجاب الغلام في صدق: " كانت مرجلتي تمشط شعري " . وقال له استاذه في عتاب : " أو تقدم تصفيف شعرك على الصلاة"" "..؟
وكان عبد العزيز بن مروان - قد أوصى صالح بن كيسان أن يكتب إليه دوما بكل اخبار ولده ، فكتب إليه عن هذه الواقعة، فجاء أمر عبد العزيز إلى ولده ان يحلق شعر رأسه جميعه. . !
وهنا نبصر الغلام وهو يزيل أنصع مظاهر وسامته واناقته .. يفعل ذلك وهو ممتلى النفس غبطة ورضا ، ليس فقط لأنه عرف كيف يمتثل ويطيع حيث يجب الامتثال وتلزم الطاعة .. بل لأنه وجد في ذلك تكفيرا عن خطئه الذي

اجترحه حين ترك رغبته في استكمال آناقته ووجاهته التي آخرته بعض الوقت - لا كل الوقت - عن موعد الصلاة... ا!

***

ان التطلع إلى السداد يحدو روح الغلام بشكل فذ إلى - سداد الشعور ، وسداد التفكير ، وسداد السلوك ، وسداد الإرادة.
وهو،على الرغم من كونه مجرد غلام صغير لا ينظر إلى نفسه كأمير، له الحق في كثير، أو حتى في قليل من التدلل والامتياز. بل هو ينظر إلى نفسه كإنسا عادي . لروحه وحدها الحق في الامتياز بما تكتسبه من معرفة ، وفضيلة ، وصواب .
ونعود فنقول : إن المعجز في هذا كله ، إن بطله ليس الأ مجرد غلام .. غلام في سن اليفاع.!!
وغلام ولد في أحضان النعيم، ونشأ في دنيا حافلة الترف والإغراء..!
ومن أبهى مظاهر استجابته الرشيدة لتصحيح الخطأ ،واستكمال الرشد ،هذه الواقعة التي يرويها مؤرخو سيرته.. ا!
فلقد كان - في طفولته - متاثرا بموقف الأمويين من الإمام علي كرم الله وجهه ، وبالأباطيل التي روجوها ضده. ولم يكن الغلام قد تبين بعد وجه الحق في الصراع الذي نشب بين الإمام الراشد الشهيد ، وبين العائلة الأموية.
وحدث يوما أن ذكر الإمام بسوء ، وانتقلت كلماته إلى شيخه الصالح عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الذي كان -عمر- يكن له أعظم الحب والتوقير.
وذات يوم ذهب الغلام لزيارة الشيخ ، فاعرض عنه ولم يغمره بما عوده من ود ..
وأدرك الغلام أن في نفس شيخه شيئا منه ، فحاول بسؤال جانبي أن يتبين الأمر ، فانفجر فيه شيخه قائلا : "متى علمت أن الله سخط على أهل بدر، بعد أن رضي عنهم" .. ؟!
وفهمها الفتى الذكي الرشيد من فوره.. !
فهم أن أدنى مزايا الإمام علي ...وأقل فضائله وخصائصه أنه من أهل بدر الذين أخبرالرسول صلى الله عليه وسلم أن الله نظر إليهم فقال لهم: " اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم " .
وصحا على هذه اللفتة من شيخه صحوة ذكية رضية ، وأقبل عليه يقول له في خضوع وندم: " معذرة إلى الله .. ثم اليك" .
" ووالله لا أعود لمثلها أبدا " .. !!!
ثم عكف على دراسة القضية من جديد بعيدا عن لغو الأمويين وأباطيلهم، حتى اهتدى إلى الصواب في يسر ، وتحول إلى منافح عن الإمام العظيم.. حتى لقد جلس يوما - كما يروي لنا بعض المؤرخين - بين نفرمن العباد والصالحين راحوا يستعرضون فيما بينهم أقطاب الزهد والورع في الإسلام، فإذا ابن عبد العزيز

يصدع فيهم بهذه الكلمات : "أزهد الناس في الدنيا ، علي بن أبي طالب عليه السلام " !!

* **

إن الحديث عن الطفولة المرهصة للأغر ابن عبد العزيز لا يكاد يؤذن بانتهاء إذا نحن استطردنا وراء وقائع الحياة المتسامية للطفل وللغلام. ولقد تجلت في تلك السنوات الباكرة الناضرة عزيمة ماضية مقتدرة ، راحت تحرك دوافع الغلام وتقودها على طريق الخير والفضيلة والكمال ، حتى استطاعت طفولته أن تكون نموذجا متكامل الخصائص والسمات لسنوات خلافته التى ستجىء بعد ذلك بقرابة ثلاثين عاما ، والتي ستكون آية من آيات الله الكبرى ، ومعجزة فريدة من معجزات الإسلام.. وعلينا الآن أن نتابع هذه الطفولة الفذة .. أو بتعبير أصح ، علينا أن نجاوزها ونتخطاها ، لنواجه مرحلة أخرى من مراحل تلك الحياة العجيبة المثيرة الجليلة ، ريثما نبلغ فيما بعد عصر الخلافة والإعجاز .

الفصل الثاني النفس التواقة

" ... إن لي نفسا تواقة، لا تنال شيئا الأ تاقت إلى ما هو أفضل منه "
حين جاءه الشباب ، ومن بعد الشباب الرجولة ، كانت فضائله العالية قد وضع أساسها في رسوخ وثبات. وكانت كفاياته و مواهبه ، قد انطلقت تعبر عن نفسها ، وتعطى من طاقاتها . وفي فترة الشباب ، بكل ما للشباب من جموح وطموح ، نرى الكفايات كثيرا ما تؤثر ان تنفرد بالعمل بعيدة عن تاثير الفضائل التي تحاول كبح جماحها ، وبخاصة إذا كانت تلك الكفايات والمواهب انعكاسا لطاقة جياشة تمور مورا بالحيوية والاتقاد .
ولقد كانت مواهب ابن عبد العزيز ، التى فجرها شبابه ، من ذلك الطراز المتقد الجياش، بيد أنها لم تكن من ذلك الطراز الذي يؤثر العمل بعيدا عن فضائل صاحبه.
ذلك أن شخصية - عمر - كانت متكاملة على نسق فذ ، تكاملا أتاح أعظم قدر من التعاون والتعاضد بين المواهب والفضائل في ذات نفسه ،وبالتالي في منهجه وسلوكه .
كل الذي سنراه يحدث في شبابه ورجولته ، إن فضائله التي كانت إبان الطفولة تعبر عن نفسها وتعلن عن وجودها تعبيرا محدودا .. ستوسع الآن - من آفاق تعبيرها ، وانعكاسات وجودها . . ذلك أن الشباب يجيء دائما حين يجيء بمسافات واسعة للأحلام والرؤى ، والحركة . والفضائل التي كانت إبان الطفولة ترسل عبيرها من براعمها الحلوة ، تغادر تلك البراعم الآن ، وتذهب في نموها الجديد لتملأ المساحة الواسعة العريضة التي جاء بها الشباب . . وهكذا تتعدد تعبيرات تلك الفضائل ، وتتكاثر مظاهرها .
ولنضرب لهذا مثلا من حياة عمر ..
إن أناقة النفس فضيلة بزغت في طفولته ، ورأيناها تعبر عن نفسها آنذاك بالترفع عن
اللعب مع الأتراب والأندا د ،والإقبال على مجالس الحكمة مع العلماء والفقهاء .
كما رأيناها تعبرعن نفسها بالترفع عن الدنايا ، كالكذب مثلا ، الذي أدرك الطفل- وهو طفل - انه يزري بصا حبه ويوقع به الأذى والضر .. كما رأيناها تعبر عن نفسها بتجنبها لغو القول ، ولغو العمل ، والاستعاضة عن الأول بالصمت المتأمل المفكر .. وعن الثانى بالجد المثابر المتزن . .
هذ• الفضيلة نفسها التي أسميناها أناقة النفس نلتقي بها في شباب عمر تنمو وتتمدد مستصحبة معها تعبيراتها في أثناء الطفولة في نماء جديد لها . ثم مستحدثة تعبيرات أخرى فجرها وعى الشباب ومشاعره . وهكذا نرى أناقة

النفس تتسع لتشمل اناقة المظهر ، لا باعتبار هذه الأناقة ترفا ، أو تأنق ، بل بوصفها امتدادا لفضيلة أناقة النفس واتساعا لدائرتها ..
ومن ثم نبصرالشاب والرجل في عمر بن عبدالعزيز يلبس أبهى الثياب وأغلاها. ويضمخ نفسه بأبهج عطور دنياه ، حتى أنه ليعبر طريقا ما ، فيعلم الناس أنه عبرة من ذلك الأريج الفواح الذي يعبق به جو ذلك الطريق زمنا طويلا .. !!
ثم هو يتأنق في كل شيء .. حديثه .. لفتاته .. مشيته التي انفرد بها ، وشغف الشباب بمحاكاتها ، وعرفت لفرط اناقته واختيالها ب " المشية العمرية .. !!
ولكن ، لماذا نقول : إن هذا الإفراط في إناقة المظهر كان امتدادا لفضيلة أناقة النفس ، ولانقول: إنه كان رد فعل لها ؟
إن الإجابة عن هذا التساؤل ، هي الإجابة نفسها عن تساؤلات كثيرة ستطرح نفسها علينا كلما رأينا ابن عبد العزيز - وما أكثر ما سنراه يعب من مناعم الحياة عبا ،ويأخذ من أطايبها ومباهجها بغير حساب .
والجواب عن كل هذه التساؤلات ، اننا لم نر في كل مظاهر النعيم هذه ، ردود فعل تعكس ظمأ أو جوعا ، أو كبتا ، لان صاحبها لم يكن يقف من النعيم منذ ولد موقف الظمآن المحروم ، ولا الكابت المكظوم..
هذا ، اول..
وحقيقة آخرى ، هي أن عمر - في أروع تألقات وتأنقات شبابه ورجولته، وفي الأيأم التي كان يخوض خلالها في النعيم خوضا - لم يعرف عنه قط أنه ارتكب إثما أو اجترح خطيئة من تلك التي تشكل رد فعل لهوى مكبوت ، أو رغبة مكظومة . وعلى أي حال ، فإن تفتحا هائلا غمر شخصية الشاب والرجل ..
وأن نفسه التواقة - كما وصفها هو - لتتقدم خلال هذا التفتح العظيم لشخصيته ، نحو كل المطالع الجديدة لخصائصها وامكاناتها .
والطبيعة العربية في جوهره النقي ، من أشد الطبائع الإنسانية رفضا للكبت ، حتي حين يكون كبتا لأهواء إثمة ، فكيف إذن حين يكون - كما في موضوعنا هذا - كبتا لرغبات مشروعة ، وطموح فاضل وقويم .. ؟!
وهكذا ندرك أن تلك المباهج التي ستغمر وتميز حياة عمر في هذه الفترة لطويلة من حياته ، لم تكن رد فعل لفعل مساو له في القدر ، مضاد له في الاتجاه .. بل كانت امتدا دا للفعل الأول ذاته ، ولكن في مطالع جديدة.. وأزياء جديدة. !
وفي هذه الفترة من حياته تتعاون وراثاته مع مواهبه تعاونا وثيقا ، فالنفس التواقة التي سنراها ، تحرك مشاعره وتقود خطاه ، نجدها لدى أبيه عبد العزيز بن مروان تدفعه هو الآخر الى معالي الأمور على نحو عجيب!!
حدث ان لحن يوما في حديثه مع رجل جاء يشكو إليه ختنه ، أي زوج ابنته ، فساله عبد العزيز : ومن خَتَنَك؟
فاجاب الرجل : ختَنَني اِلخاِتن الذي يختن الناس.

فقال عبد العزيز : إنما أسألك عن اسم خَتَنِك ..
فاجابه الرجل معقبا : إذن كان ينبغي أن تقول : من ختنُك، بضم النون لا بفتحها .
فأسرها عبدالعزيز لنفسه في نفسه.
وفي اليوم التالي اغلق عليه داره ، وراح يتدارس نحو اللغة وقواعدها مع نفر من العلماء النحاة، حتى أجادها وأتقنها ، وصارمضرب اللمثل في الفصاحة. !
ليس ذلك فحسب ، بل اذاع يين الناس في مصر وافريقيا - حيث انتظمها حكمه وسلطانه - ان الذين يتعلمون العربية ويجيدونها سيكون عطاؤهم من بيت المال اوفى من الآخرين.
وتاقت نفسه إلى الجود ، فصار أجود أمراء بني أمية جميعا وأسخاهم ، ولم يكن يعطي عطاءه للشعراء كي يمتدحوه ويتملقوه كما يصنع الآخرون ،بل كان يعطي الذين هم بحاجة الى العطاء. وكان شعاره في هذا السلوك كلماته الماثورة : " عجبت لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويخلف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم الأجر وحسن الثواب " ؟!
ولقد وصفه مؤرخو سيرته ،فقالوا : "كان من أعطى الناس للجزيل" !!
كذلك كانت نفسه تواقة للتقوى ، ومخافة الله ، وإن لم يبلغ فيهما ما بلغه ابنه من بعده ، ولقد عبر عن هذه الخشية لربه حين أدركه مرض الموت ، فكان يقول : "وددت أني لم أكن شيئا مذكورا . ولوددت أني دفقة في هذا الماء الجاري.
او نبتة بأرض الحجاز " .. !!
هذه النفس التواقة عند الوالد تنتقل إلى الابن على نحو أعظم، و أشمل ، وأغزر .
ولسوف نلتقى بشخصيته المتطورة تحيا حياتها في مهرجان حافل بالنشاط والأبداع والاستمتاع - لا يمنعها تحرج ، ولا يصدها تأثم، لأنها في نشاطها وإبداعها واستمتاعها ، لا تعمل بمعزل عن فضائلها ، بل تعمل في صحبة هذه الفضائل جميعا .

***

قلنا : إن المدينة يومئذ كانت مجتمعا كبيرا حافلا بكل صنوف النشاط الإنساني.
ف الجانب الروحى ينهض فى ممثليه من الزهاد ، والعباد ، والصالحين..
والجانب العلمي في ممثليه من العلما ء ، والفقهاء، والمحدثين.. ودنيا الفنون ، ممثلة في الشعراء ، والعازفين ، والمغنين.. ولقد أشبع - عمر - نزعته الروحية منذ طفولته بصحبة العابدين والزاهدين والتلقي عنهم..
كما أشبع طموحه العلمي بجلوسه الطويل بين أيدي العلماء والفقهاء ، وبتعلمه منهم، وتأسيه بهم.. ولسوف توا صل دوافعه الروحية والعقلية نموها ورحلتها .

لكن الجديد الذي نلتقى به الآن في شبابه ، هو نزوعه الفني العجيب الذي يكشف عن موهبة فنية أصيلة لديه.. !
إن الرجل الذي أذن لكل مواهبه أن تنشط وتتألق ، يفاجئنا الآن بصوت شجى عذب ، لو احترف الغناء لبذ بصوته أساطينه . كما يفاجئنا بموهبة فى التلحين ، لو احترفها لبذ بها أقطابه .. يسبق هذا وذاك ولعه بالشعر العربى وحفظه الكثير منه ، وقدرته على نقده ، وتمييز أجوده، من جيده، من رديئه..
لقد وضع الفنان الموهوب لحنا آسرا لهذه الابيات:
سليمى ازمعت بينا   فاين تظنه اينا
وقد قالـــت لأتراب   لها زهر تلاقينا
تعالين فـــقد طاب لنا العيش تعالينا
وراح يتطرب بها ويتغنى لنفسه وبين أصدقائه ، بيد أن اللحن لم يلبث حتى ذاع، فرا ح المغنون يشدون به في كل مكان!
ولقد كان ابن سريج، وهو عميد المغنين بالحجاز يومئذ، يغني من لحن عمر :
علق القلب سعادا   عادت القلب فعادا
كلمــا عوتب فيها   أونهي عنها تمادى
وهو مشغوف بسعدى قد عصى فيها وزادا
غير أنه برغم استمتاعه بكل صوت جميل .. وانتشائه بكل غناء عذب ، بل على الرغم من صوته الندي الشجي ، لم يكن يرخي العنا ن لموهبته واستمتاعه ، فقد كان صوت تقاة يعلو دوما داخل نفسه، حتى إننا لنراه يقول - أكثر من مرة- وهو يستمع لابن سريج يغني : "لله درهذا الصوت ،لو كان بالقرآن" ا!
ونجد الشعر يشفر منه باهتمام كبير ، ولا غرو. فالشعر يومئذ كان ثقافة العصر ولغته..
ولئن كان -عمر - لم يقرض الشعر ولم ينشىء قصائده ، فإن نفسه التواقة التي جعلته يزاحم في العزف والغناء أقطابهما حتى يتفوق عليهم دون أن يشاركهم الاحتراف .. هذه النفس التواقة تدفعه لكي يدلي في ثقافة العصر بدلوه العظيم ، فالى جانب ما حصل من علوم الدين والفقه ، راح يقبل على الشعر حافظا وناقدا .
ولقد كان الولع بالشعر من أوضح سمات المجتمع العربي والإسلامي في تلك العهود .
وفي العصر الأموى،كان له دوي كدوي النحل، وكان فحوله الثلاثة - جرير، والفرزدق،

والاخطل - الذين نعتوا بالمثلث الأموي ..يملئون الدنيا وبشغلون الناس. .
****
ولسوف تطرأ على حياة الشاب ظروف جديدة تشد زناد نفسه التواقة الى أقصاه في مضمار التفوق في مجال العلم و دنيا الشعر .

ذلك أن أباه- عبد العزيز بن مروان - يموت بمصر حيث كان واليا ، ويدفن تحت ثراها الطيب، فيضم الخليفة عبدالملك بن مروان ابن أخيه إليه، ويزوجه ابنته فاطمة .
وعبد الملك هذا كان طويل الباع في الفقه ، والعلم ، والشعر بل كان في الفقه يضاهى بعروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب.
قال عنه الشعبي : " ما ذاكرت عبد الملك حديثا الأ زادني فيه ، ولا شعرا الأ زادني فيه" .
وقال هو عن نفسه : " شيبني ارتقاء المنابر ، وخوف اللحن " .
و لعل حواره هذا مع جرير يعطينا صورة لخبرته الواسعة بالشعر والشعراء .
فقد سأل جريرا يوما : من أشعر الناس ؟
قال جرير : ابن العشرين يعني طرفة بن العبد، لانه قتل في سن العشرين.
قال عبد الملك : فما رأيك في ابني سلمى.. ؟ يعني زهيرا ، وابنه كعبا .
قال جرير : كان شعرهما نيرا ، يا أمير المؤمنين.
قال عبد الملك : فما تقول في امرئ القيس ؟
قال : اتخذ الخبيث الشعر نعلين .
قال الخليفة : فما تقول في ذي الرمة ؟
قال جرير : قدر على طريف الشعر وغريبه ، كما لم يقدر على ذلك أحد ..
قال عبد الملك : فما تقول في الأخطل.. ؟ ...ثم ما تقول في الفرزدق.. ؟ ...ثم مارأيك في نفسك وشعرك .. ؟
ويمضي الحواربينهما طويلا -كما يرويه صاحب الأغاني- لتتجلى من خلاله الخبرة العميقة بهذا الفن لعبد الملك بن مروان . والآن ، وعمر بن عبد العزيز يعيش مع هذا العلامة تحت سقف واحد . فإن نفسه التواقة تدفعه دفعا قويا ليضارع هذا العم المتفوق في الفقه، وفي العلم، وفي الشعر.. !
بيد أن الزمام باق دائما في قبضة فضائله .. وأيان تذهب مواهبه وتحلق ، فإن لفضائله ولدينه الكلمة الأخيرة ، مهما تتواثب نفسه التواقة ، ومهما يأخذها الطموح ، فمع ولعه بالشعر وإقباله عليه ، نلقاه يعزف عزوفا نبيلا عن كل ما فيه من إسفاف الهجو والتشبيب حتى لسوف نراه حين يصبح والي المدينة ، يخرج منها عمر بن أبي ربيعة لما كان يزخر به شعره من مجانة ، واستخفاف بالحرمات. . !

***

خلاصة القول ، أن عمر بن عبد العزيز أسلم مواهبه لغاياتها البعيدة .. كما أسلم شبابه لطيبات الحياة ونعيمها في نطاق ما أحل الله لعباده .. ولقد ساعد طبيعته الجياشة في الظفر بكل ما تريد ، إنها وجدت في الحلال أقصى ما تريد .. وإن الشاب الذي لم يكن ينقصه الفقه وسعة الأفق . لم يحاول كبح جماحها قط .. !!!

لكأنما سره منها شرفها واستقامتها وترفعها ، فكافأها على ذلك وأثابها بتركها تنال من المناعم ، وتظفر من الطيبات بأقصى ما تشتهي وتريد ..
ولكأنما أراد القدر الحكيم أن يجيء شباب ابن عبد العزيز على هذه الصورة المستغدقة ، حتى إذا تسنم الخلافة فيما بعد ، ووقع في حياته ذلك الإنقلاب الروحي الذي سيحوله إلى واحد من أعظم القديسين ، يتبين للدنيا يومئذ أن زهده وورعه لم يكونا مظهرا لطبيعة منطوية ، هادئة هامدة .. بل كان ثمرة تفوق روحي خارق ، على طبيعة هادرة بالطاعة .. جياشة بالطموح .. !! اجل .. لسوف يرينا القدر من أمر هذا الرجل عجبا .. ا!
فبينما هو اليوم يجاء له بثوب من أغلى وا ثمن وأنعم حرير العراق فيتحسسه بأنامله ثم يقول متأففا : "ما أخشنه من ثوب.!"
اذا به غدا عندما سنلتقى به خليفة للمسلمين ، يجاء له بثوب خشن يعافه أكثر الناس فقرا ، فيتحسسه بنفس الأنامل ، ثم يقول والدموع تنهمر من عينيه : " ما ألينه ، وأنعمه ..
ايتوني بثوب أخشن منه .. !!! "

***

فليتق الأمير الأموي ماشاءت له نفسه التواقة الذواقة ، فإن فترة توقه هذه ستكون المرآة التي تعكس لنا الإعجاز الخارق الذي ستفاجئنا به سنوات خلافته .. !
ليتق الآن ما شاء. ليلبس من الثياب أرفهها وأنعمها .ولينل من المطاعم أشهاها وأطيبها.. وليركب من الجياد أعلاها واطهمها .. ومن الفرش أسخاها واوثرها .! ولينهل من العلم بغيرحساب.. وليذهب من الفضائل بكل مكرمة وثواب .. وليحتو الدنيا بطولها وعرضها ، كما يحتوي الغلاف الكتاب.. !!

***

هاهو ذا ، يتقلب في نعيم يتعاظم كل وصف، ويتحدى كل إحاطة. إن دخله السنوي من راتبه ومخصصاته، ونتاج الأرض التي ورثها من أبيه يجاوز أربعين ألف دينار..! وإنه يتحرك مسافرا من الشام إلى المدينة، فينتظم موكبه خمسين جملا ، تحمل متاعه..!!
وإنه ليشتري الثوب من أغلى الأثواب وأبهاها ، فيرتديه مرة واحدة.. وإن تواضع فمرتين.. ثم يبدو في عينيه قديما باليا. !!! وانه ليسبل إزاره، حتى يكاد يتعثر بذيله الهفهاف.. !! ويمشي مشية متأنقة، يكاد يحسده عليها الطاووس.. !! ويعصف ريحه ويتضوع عبيره حيثما سار. ! انه ليبدو، وكأنه في سباق ضارلا مع أصحاب النعيم بل مع النعيم ذاته.. فواعجبا.. !!
كيف يستطيع هذا الرجل أن ينسلخ من هذا كله، وفي لحظة من الزمان، حين تواتيه الخلافة، حتى يذهب إلى أقصى أبعاد النقيض وآماده.؟!
ألا إن شوقنا لرؤية ذلك التحول المذهل، ليكاد يعجل بنا ويقفز..

لكن علينا أن نصابر ونستأني، حتى لا يفوتنا من مشاهد حياة ذلك الإنسان المعجز ما نحن في حاجة إليه، لكي نرى كل ملامح الصورة.. وزوايا الإطار.. !!

الفصل الثالث التجربة

"أرى دنيا يأكل بعضها بعضا! "
في سنه الخامسة والعشرين اختاره الخليفة الأموي - الوليد بن عبد الملك - ليكون والي المدينة وحاكمها .
وتهللت المدينة لهذا الاختيار، فسيرة ابن عبد العزيز كانت تسبقه إلى كل مكان كالعبير..
ثم إنه بما عرف عنه من فضل ، يلي إمارة المدينة مكان أميرها المخلوع - هشام بن إسماعيل الذي كان لظلمه ولشراسته موضع النقمة والاستهجان .
وإن الأميرالجديد ليبدأ حكمه بداية تؤلق من فورها الفارق العظيم بين طرازه، وطراز الولاة الآخرين. فبينما كن سلفه يحيط نفسه بطائفة من القساة الغلاظ الفاسدين، فيلقي في روع الناس بمسلكه هذا أن العملة الزائفة هي الرائجة ..جاء هذا الأمير المبارك فأعلن بمنهجه الجديد والمجيد أنه لا يصح الأ الصحيح ا! وإن الخير ، لا الشر .. والصدق، لا الملق .. والاستقامة، لا الزيغ.. هي دستور إمارته ومنهج عصره.. !!
ومن ثم بدأ - أول ما بدأ - باختيار عشرة من أئمة العلم والورع والفضل في المدينة ، فجعلهم مجلس شوراه.
وهؤلاء العشرة هم : " عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعروة، وأبو بكر بن خيثمة، والقاسم بن محمد بن حزم، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسالم بن عبد الله، وعبد الله بن عامر بن ربيعة" .
وفي أول اجتماع له بهم قال لهم: "إني دعوتكم لأمرتؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوإنا لي على الحق..
أناشدكم الله إن رأيتم عدوإنا أوباطلا الأ أبلغتموني أمره، وارشدتموني إلى الحق".
ولقد كان في استهلاله هذا بتقدير أهل الصلاح والتقى والعلم ، إنما يرفع للناس جميعا لواء الحياة الجديدة التي سيحيونها في إمارته ، ويملأ أنفسهم بالسكينة والأمن..

***

وراح يجعل من ولايته مثلا عاليا . واتسعت رقعة سلطانه ، فصار واليا على الحجاز كله - مكة ، والمدينة ،والطائف، وما حولها . وكأنما أراد القدر أن يجعل من إمارته هذه تجربة للمهمة الجليلة والعظيمة التي يدخرها له في غد ، يوم تنتهي إليه خلافة المسلمين ، وحكم الدولة المسلمة من أقصاها الى أقصاها..

وسنرى كيف تبلغ التجربة مداها البعيد من النجاح والتوفيق..فابن عبد العزبز يضع كلتا عينيه على أخلاقيات الحكم ، ليجعل من إمارته واحة ريانة خضراء وسط الجحيم الذي كان يؤرث ناره أكثر الولاة الأمويين.. !
وانه ليلتمس مجده، لا فى صلف المنصب وجبروته ، بل فى تواضعه الشديد للناس، وفي العدل يتحراه ويقيم موازينه بالقسط ، وبالرحمة ينشر ظلها على كل مصطل وحرور ، ويمنع دفئها كل مفزع مقرور..!!
وهكذا صار وفي سرعة فائقة مهوى أفئدة الناس وموضع حبهم الوثيق.. ا!
والعلماء الذين كانوا لصلاحهم وترفعهم يتجنبون الولاة والأمراء ، ولا يحملون لأكثرهم مودة ولا احتراما - راحوا يهبون اجلالهم الصادق لابن عبد العزيز، حتى أن سعيد بن المسيب وهويومئذ من أعظم علماء المسلمين كافة ، والذي كان يرفض طوال عمره ان يسعى لزيارة أمير أو خليفة، بل كان يرفض استقبال الأمراء ومجالستهم..هذا العالم الورع الكبير نراه اليوم يخف في جلال مشيبه إلى دار الإمارة مرات ومرات ليلقى عمر بن عبد العزيز ، ويجالسه ، ويحادثه.. !!
راح الأمير الشاب ينشر بين الناس العدل والأمن. وراح يذيقهم حلاوة الرحمة وسكينة النفس ، مخترقا ذلك الستار الرهيب الذي أحاط الأمويون به أنفسهم وملكهم صارخا بكلمة الحق والمعدلة نائيا بنفسه عن مظالم العهد وآثامه ، متحديا جباريه وطغاته.. وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي..
حدث يوما أن أناب الخليفة عنه في موسم الحج، طاغية العراق الحجاج.
وكان عمر بن عبد العزيز يمقته أشد المقت بسبب طغيانه وعسفه ، فأرسل إلى، الوليد بن عبد الملك - الخليفة يومئذ - يسأله أن يأمر الحجاج الأ يذهب إلى المدينة، ولا يمر بها، برغم أنه يعرف ما للحجاج من مكانة في تفوس الخلفاء الأمويين، وفي نفس الوليد بصفة خاصة. بل برغم إدراكه لما سيسببه موقفه هذا من إثارة مغايظ الحجاج، الذي كان ذا مقدرة رهيبة على الإنتقام لنفسه.
ولقد أجاب الخليفة طلب - عمر بن عبد العزبز – وكتب إلى الحجا ج يقول:
" إن عمر بن عبد العزيز كتب الي يستعفيني من ممرك عليه بالمدينة، لا عليك الأ تمر بمن يكرهك، فنح نفسك عن المدينة" .
***
إن مقت عمر لرجل كالحجاج، وهولم يتبوأ منصب الخلافة بعد، ولم يقع له ذلك , الإنقلاب الروحي الهائل الذي سنشهده حين يستخلف، ليكشف عن نقاء جوهره، وأصالة تقواه.
فالأمويون مدينون للحجا ج إلى مدى بعيد ببقاء ملكهم واستمراره، واتساع رقعته.. وهو لهذا كان موضع اعجابهم، ورعايتهم. ولكن، ماذا يعني رجلا كعمر بن عبد العزيز من هذا الملك العريض، إذا كان قد قام واتسع على أكتاف طغاة كالحجاج؟؟

إن موقفه هذا من الحجاج ومن نظرائه ، يزكي إحساسنا بأن القدر أراد لفترة الإمارة هذه أن تكون تجربة لغده العظيم فعمر يعلم - كما أسلفنا أن تحدي الحجاج ليس أمرا سهلا ، إذ كان الحجا ج يومئذ قوي القبضة على الكثير جدا من مقادير الدولة ومصائرها .
وهو يعلم أن خلفاء بني مروان مستعدون أن يضحوا بكل عزيز وغال في سبيل الحجاج ، وما داموا لا يزالون بحاجة إلى بطشه ودهائه ..
لكن ذلك لا يعني الرجل الأمين على مسئولياته..إن الذي يعنيه ويتحتم عليه، هو أن يأخذ جانب الحق مهما تكن العقبات والعواقب..
إنه الآن يرى الأمور رؤية ذكية ، وإن تجربة الولاية والحكم لتفيء عليه بصرا سديدا بما يجري حوله فى الدولة الواسعة العريضة التى يسوسها الأمويون.
وهو ، وإن يكن أميرا أمويا ، لا يخدع بالمظاهر الفارغة عن الواقع والحقيقة ، ولا يبيع دينه بدنيا عائلته وقومه .. !!
* **
ان الدنيا تموج من حوله بالأطماع والضلالات.
انها كما أرته تجربته ، وكما وصفها هو : دنيا يأكل بعضها بعضا .. ا!
ولو كان أمر هذه الدنيا بيده لقوم اعوجاجها .. ولكن ليس بيده الآن سوى إمارته..
أجل .. ان سلطانه - بل بعض سلطانه - إنما ينحصر فى بلاد الحجاز وحدها ، حيث هو أميرها وواليها .. واذن فليؤذ واجبه تجاهها ، وليطبعها بطابع شخصيته المستقيمة الصادقة العادلة ، فما ينبغي أن يظل وجه الحياة بعد مجيئه كما كان قبل مجيئه.. !!
لابد من أن يتغير كل شيء .. الناس بنفوسهم وسلوكهم .. والأرض بما فوقها من عمارة ، وبما يشقها من طرقات وقنوات .. وهكذا راح يعمر وبعمر ، بادئا بالمسجد النبوي ، فاعاد بناءه .. وأرسل بعثات التعمير في كل أرض الحجاز، يحفرون الآبار، ويشقون الطرق..
وفي حدود ولايته وسلطانه ، رد للأموال العامة كرامتها وحرمتها ، فلم تعد سهلة المنال لكل ناهب وخالس ، كما لم تعد ألعوبة في يد كل مسرف ومترف ، بل وجد كل درهم مكانه الحق والصحيح ، لا يجاوزه ولا يتعداه ..
وفتح أبواب المدينة للهاربين من ظلم الولاء في كل أقطار الدولة .. وحماهم من المطاردة ، ووفر لهم الطمانينة والأمن.
***
وفي العام الثاني من إمارته حدثت ظاهرة يكتفي المؤرخون بمجرد تسجيلها ، على حين نرى فيها سببا وثيقا من أسباب التطور ، بل الإنقلاب الروحي الذي سيغمرشخصيته بعد حين . ففي ذلك العام، ولاه الخليفة إمارة الحج ، ولم يكد موكبه يبلغ مكة حتى ألفى أهلها في قحط و‘سر ومشقة ، فما كان منه الأ أن دعا صفوة العلماء والصالحين ، ومن شاء من عامة الناس أن يتبعهم ، ثم خرج

بهم إلى فضاء مكة ، ثم وقف ابن عبد العزيز يدعو الله ويضرع إليه بعد أن صلى بهم صلاة الاستقاء .. فإذا شيء يشبه المعجزات، إذ لم يغادر مكانه حتى هطل المطر على غير موعد ، وفي غير ميقاته، ولم يصدق الناس أبصارهم التي راحت احدق في سماء زرقاء ناصعة صافية ، ليس فيها مزعة سحاب.!
وشهدت مكة في عامها ذاك خصوبة نادرة !!
في تقديرنا ، إن هذه الظاهرة لابد من أن تكون قد استقرت واستكنت في أعماق نفس عمر ، متحولة مع الأيام إلى خبرة روحية سيكون لها أثرها المباشر في انقلابه الروحي المقبل.
إذ لابد من أن يكون شعوره ، أو لا شعوره ، أو هما معا - قد أدركا أمام هذه الكرامة الواضحة ما أودعه الله في روحه من سر ، وقداسة.. !

***

على أية حال ، فقد استغرقت الأمير مسئولياته ، فابتعد عن الكثير من هواياته - عن الشعر والشعراء .. والمغنين والغناء .. وإن بقى له شغفه بالتأنق وطيبات الحياة.
رأه يوما أحد الزهاد يشتري ثوبا رافها بثمن غال ومرتفع فقال له: أو ما كانا لخير لك أن تضع ثمنه في جيوب الفقراء ؟ فلم يغضب ولم يستنكف، بل أجابه قائلا: " وهل رأيتني أهملت الفقراء .. ؟ " !
وهوجوا ب حق لا مراء فيه، فقد كانت أيام إمارته على المدينة والحجاز أيام رخاء وبركة، قلما شهد الناس مثلها .
ولم تشغله الإمارة عن تجويد فضائله وتنمية تقاه، فعكف على العبادة عكوفا مثابرا ، وكثيرا ماكان يحلو له أن يقضي الليل فوق سطح مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم يعبد الله ويدعوه..
صلى وراءه أنس بن مالك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : " ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الرجل" !!
كذلك لم تشغله الإمارة عن مواصلة التزود من العلم والفقه ، فراح يثري عقله ، ويملأ بالعلم فكره ، حتى صار في هذا المضمار حجة وإماما ..
ووقف ابو النضر المديني يخاطب علماء المدينة يوما ، فقال وهو يشير صوب عمر بن عبد العزيز : "إنه والله أعلمكم"..!
بل إن العالم الجليل "مجاهد بن جبر الذي عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ..والذي كان من الأئمة المعدودين، يقول عن عمربن عبد العزيز : " أتينا عمر نعلمه ، فما رجعنا حتى تعلمنا منه" !!
والإمام الليث يقول أيضا : " ما التمسنا علم شيء ، الأ وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس باصله وفرعه ، وما كان العلما ء عنده الأ تلامذة" .. !!
إن هذه الشهادة من أولئك الأقطا ب الكبار ، لترسم صورة باهرة للطريقة التي كان عمر ينمى بها فضائله العقلية والروحية . ترى الى أي مدى يستطيع

النظا م العام للدولة الأموية ان يتحمل رجلا من طرا ز عمر .. تكشف استقا
مته ونزا هته كل عورات ذلك النظام وتفضح سوآته . ؟!
إنه لن يصبر عليه الأ قليلا .. وعلى الرغم من أنه أمير بارز في أسرة بني
مروان الحاكمة ، وعلى الرغم من أنهم جميعا ، بلا استثناء ، يهابونه ويحترمونه
، فانهم لن يطيقوا على منهجه الجديد المجيد صبرا .

***

لقد كان دائم التنديد بسوء الحكم وطغيان الولاة . ولقد قلنا من قبل : إن
الحجاج طاغية بني مروان، لن ينسى مقته له ، ولا تشهيره به .
وهانحن أولاء، نراه ينتهز فرصة إيوائه بعض المعارضين لمظالم العهد
والمنددين بها ، فينسج مؤامراته ووشاياته موغرا صدر الخليفة على ابن عمه
وزوج أخته، وواليه على الحجاز عمر بن عبد العزيز ...
لقد أرسل الحجاج إلى الخليفة - الوليد بن عبد الملك - يشكو إليه استقبال
عمر وإيواءه كل الذين يطلبهم الحجا ج ليحا كمهم على مؤامراتهم ضد
الأمويين..
ولقد كان السبيل ممهدا لوشاية الحجاج ، وربما لأي وشاية تريد النيل من -
عمر - ذلك أن منهجه العام كان من السمو بحيث لا يطيق الآخرون من بني
مروان محاكاته ، بل لا يطيقون معا يشته ..
علم الخليفة يوما أن بعض الناس في إمارته يمعنون في تجريح الخلفاء
الأمويين وسبهم ، فاستدعاه إليه وسأله : ما تقول فيمن يسب الخلفاء ؟ .
أيقتل .. ؟
فصمت عمر ،ولم يعقب .
وازداد الخليفة تجهما وعبوسا ،وأعاد سؤاله : ما تقول فيمن يسب الخلفاء ؟ .
أيقتل.. ؟
وفى استمساك وثيق بدينه وبفضائله ، أجاب وهو غير ملق للعواقب بالا : "هل
قتل نفسا بغيرحق ، يا أميرالمؤمنين" . ؟؟
قال الوليد :لا، ولكنه سب الخلفاء ، وانتهك حرماتهم .
وفي هدوء راسخ، أجاب عمر : " إذن يعاقب بما انتهك للخلفاء من حرمة ،
ولكن لا يقتل ... ".
وأنهى الخليفة المقابلة بأشارة غاضبة رعناء ، وانصرف ابن عبد العزيز عنه
وهو بتوقع منه نقمة عاجلة ، صورتها كلماته هذه : " .. فخرجت من عنده ، وما
تهب ريح الأ وأظنها رسولا منه يدعوني إليه " !!

***

في هذا الجو المتوتر ، قررالحجاج أن يصطاد غريمه ، فألقى وشايته السالفة ..
والحق ، أن عمر :كان يفتح صدره كما يفتح أبواب المدينة ، للهاربين من
طغيان الحجاج وغير الحجاج.

والحق أيضا ، أنه كان يحترم حقهم في نقد أخطاء الحكم و كشف زيفه وفساده.
بيد أنه لم يكن بين هؤلاء الذين يؤويهم ويحميهم من يدبر إنقلابا مسلحا ضد الدولة ، كما حاول الحجاج أن يوهم الخليفة الوليد ..
و لعل وشاية الحجاج كانت ستبوء الخذل لو أن عمر اصطنع قليلا من المسايرة واللين فى دحضها..
لكن فطرته الطاهرة النقية الجياشة، لم تكن تعرف في مثل هذا المجال مسايرة، أو لينا ..
وهكذا ، لم يكد الخليفة يرسل إليه متسائلا عن دعوى الحجاج، حتى كتب له ردا يفيض بأسا وصرامة .
فقد راح يحدثه عن العدل الغائب والظلم المخيم .. ويدمدم عليه بالمظالم البشعة التي يقترفها الحجاج وأشباهه تحت ستار استبقاء السلطان لبني مروان .. ورا ح يصارحه ، بأنه ليس ثمة دولة تحترم نفسها ،تقبل أن يكون طاغية كالحجاج بين ولاتها ..
ثم قال قولته الصادعة الرائعة: " لو جاءت كل أمة بخطاياها يوم القيامة .. وجئنا نحن بالحجاج وحده لرجحناها جميعا " .. !
ورأى الوليد نفسه أمام كفاية خلقية قادرة على تحديه بل إهانته ، فأصدر أمره بعزل عمر عن ولاية المدينة والحجاز. .
وغادر البطل المدينة التي لم يحب في الدنيا بلدا ، قدر حبه لها ..
غادرها إلى الشام، بعد أن لبث في ولايتها ستة أعوام، ملأ البلاد خلالها عمرانا وأمنا ، وملأ الناس رخاء وبهجة.. !!

***

وفي الشام لم يسأل نفسه ، ماذا يصنع .. ؟ ولا كيف يقضي أوقات فراغه ، فلم يكن في حياته فراغ .. إن كل دقيقة فيها مشغول بالعمل ، مملوءة بالطاقة ..
وإن الجهد المبذول لبلوغ الكمال المرموق ليدفع كل ساعات حياته ودقائقها في طريق هذه الرحلة المقدسة ، والسفر المبارك الميمون.. !!
وفور رجوعه الى الشام، وجد جيش الدولة يتحرك للقاء جيش الامبراطورية الرومانية الشرقية ، التى كانت دائبة التحرش بالدولة المسلمة والشغب على حدودها ، فانتضى عمر سلاحه وحمل نيته الصالحة ، وأخذ مكانه بين المقاتلين - جنديا عاديا ، يرجو ظفر المؤمنين، أو عقبى الشهداء الصالحين.. !!
ويعود من الحرب ، فيعكف على نفسه في محراب الفضيلة والتقى..
وكما وجدناه في المدينة يؤثر صحبة الأبرار من أمثال عبد الله بن عتبة نجده في الشام يؤثر صحبة الأخيار ، أمثال رجاء بن حيوة .كما راح يراسل إمام عصره الحسن البصري ويتعلم منه، ويحاول السيرعلى دربه..
وراح يدير خواطره على أخطأء الدولة ومشكلات الجماعة .

وكثيرا ما كان يأخذه الأسى والجزع - ولكن ماذا يصنع وليس له من الأمر شيء .. ؟!
ان كل ما يستطيعه ، أن يرفع صوته عاليا ضد الفساد والظلم ، ولقد فعل ..
وكان الناس يتناقلون عنه في الأقطار قاطبة بعض عباراته اللافحة التي يقذف بها في وجه البيت الأموي الحا كم .
من تلك العبارات قوله : " الوليد بالشام ، والحجاج با لعراق ، ومحمد بن يوسف باليمن ، وعثمان بن حيا ن بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر، ويزيد بن أبي مسلم بالمغرب..
امتلأت الأرض والله جورا "!!!
****
ويموت الوليد بن عبد الملك ... ويخلفه أخوه "سليما ن بن عبد الملك .
وعلى الرغم مما يكنه سليمان لعمر بن عبد العزيز من إجلال ومحبة ، فقد خافه واليا .. ومن ثم آثر استبقاءه أخا وصديقا وإن زاد ، فناصحا .. !!
كانت روح عمر تسمو صاعدة نحو مطالعها .
وكانت العبادة تصقل روحه ، كما يصقل العلم فكره ، وراح يثابر على أداء دوره مبشرا بالفضيلة ، والحق، والخير .. نذيا ضد السوء ، وا لضلال، والشر.
وإنه ليقيس بمقياس الدين القويم كل اتجاهات الدولة في حروبها وسياستها .. في مجتمعها واقتصادياتها ، واخلاقياتها .. فيجدها في كل ذلك جانحة لهوى الخلفاء والأمراء والولاة، بقدرما هي بعيدة عن روح الدين ومنهجه..
هنالك أخذ على عاتقه الجهر دوما بهذه الحقيقة وإعلانها .
اصطحبه الخليفة سليمان يوما لزيارة بعض معسكرات الجيش.
وأمام معسكريعج بالعتاد وبالرجال ، سأله سليمان في زهو: ما تقول في هذا الذي ترى يا عمر .. ؟!
وسرعان ماجاء جواب عمر ، كقاصمة الظهر ، فقد قال : " أرى دنيا ، يأكل بعضها بعضا ، وأنت المسئول عنها ، والمأخوذ بها " ا!
وبهت ,الخليفة لهذه الإجابة,, التي لم يكن يتوقعها فعقب عليها قائلا له: ما أعجبك. ؟!
وإذا عمر يجيب قائلا: " بل ما أعجب من عرف الله فعصاه ... وعرف الشيطان فاتبعه.. وعرف الدنيا فركن إليها"؟!!
كذلك اصطحبه الخليفة في رحلة للحج.. وفي الطريق فتحت السما ء أبوابها بماء منهمر، فزع سليمان وأرعبه السيل الكاسح، ونظر فإذا ابن عبد العزبز يضحك، فسأله سليمان:
ألمثل هذا يضحك الناس. .!
فاجابه عمر : "يا أميرالمؤمنين، هذا فى حين رحمته، فكيف به فى حين غضبه" ؟!!

أجل.. إذا كان المطرالذي هو من آثار رحمة الله وغوثه، يمكن أن يبتعث الخوف ويوقع الضر، فكيف بغضب الله وعقابه؟!. كيف بنقمة الله التي أعدها لتكون نقما ووبالا؟!

***

على هذه الوتيرة، راح عمر يلقي نذره، محاولا أن يفتح الأعين العمي، والآذان الصم.
وعما قليل ستمد الأقدار يمينها نحوه ، هاتفة به كي يتقدم ليحمل المسئولية الكبرى : خليفة للمسلمين، وأميرا للمؤمنين.
فإلى ان نلتقي إن شاء الله تعالى في أروع أيام حياته تلك، بل أروع أيام البشرية المتسامية كلها ، علينا الآن أن نلقي نظرة سريعة على نوع ذلك الميراث المبهظ الفادح، الذي سيكتب على ابن عبد العزيز أن يحمله ويقوم اعوجاجه.
هذا الميراث الذي ينتظم العهد الأموى، الذي بدأ باستخلاف معاوية ويقف الآن عند سليمان بن عبد الملك بن مروان.

الفصل الرابع التركة القاتلة

" انج سعد .. فقد هلك سعيد" !!

استقر الأمر لمعاوية بالشام حاكما للمسلمين ، بعد خدعة التحكيم في صفين ، وبعد استشهاد الإمام علي ، على يد أحد الخوارج الذين أضاعت الفتنة صوابهم.. ثم بعد الصلح الذي عقده معه الحسن بن علي ليحفظ به دماء المسلمين.
استقر له الأمر ، فراح يضع في دهاء وصبر ، أساس دولة أموية طويلة العمر ، ممتدة على الزمان.
ولسنا هنا بصدد تصويب أو ادانة موقف معاوية في نزاعه مع الإمام فقد فصلنا ذلك فى مؤلفاتنا- فى رحاب على و وداعا عثمان و أبناءالرسول فى كربلاء .
لكننا نكفي هنا ، كمدخل للموضوع ، برفض ودحض الموقف الذي وقفه معاوية باستخلاف ولده يزيد وأخذه البيعة له.
هذا اليزيد الذي هدم بالانحلال والقسوة ما بناه أبوه بالدهاء والحلم، الذي سن للدولة الأموية على طول عهدها شريعة الغاب التى سارت عليها وقامت بها .
ومن عجب أن هذا الذي توسل به معاوية لاستبقاء الملك في بيت أبي سفيان توسل به القدر في الوقت نفسه لحرمان هذا البيت من الخلافة والملك إلى الأبد ، بعد اربع سنوات لا غير من استخلاف يزيد .. !!
فقد مات يزيد بعد أعوام اربعة قضاها في الملك عابثا جبارا .
وفي مرض موته خلع الملك على ولده معاوية الثاني حرصا منه على أن نظل راية الخلافة خفاقة فوق بيت أبي سفيان!! لكن القدر العظيم كان يعد مفاجاة اذهلت الدنيا ولا تزال. .
ذاك أن معاوية الثاني - ذلك الشاب التقي الورع - جمع الناس في يوم مشهور ، ونهض فيهم خطيبا ،فقال : " إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق منه لقرابته من رسول الله ، وسابقته في الإسلام، وهو علي بن أبي طالب.. !!
ثم تقلد أبي - يزيد - الأمر من بعده ، فكان غير أهل له ..
ركب هواه وأخلفه الأمل.. !!
وإن من أعظم الأمور علينا ، علمنا بسوء منقلبه وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم ، وخرب الكعبة .. ا!
وما أنا بالمتقلد أمركم ، ولا المتحمل تبعاتكم . فاختاوا لأنفسكم" .. ا!
وعكف الشاب الصالح في داره رافضا الخلافة حتى لقي ربه راضيا مرضيا ..
وهكذا ، لم يحرم بيت أبي سفيا ن آماله في استبقاء الملك فحسب .. بل تلقى وثيقة إدانة رهيبة من أحد بنيها الأبرار!!

ولقد أفضى موقف معاوية الثاني إلى زلزال وبيل أصاب حكم الأمويين بدوار خلع أفئدة جباريه، من أمثال عبيد الله بن زياد ، قاتل الشهيد المجيد الحسين بن علي رضي الله عنه .. فرأينا ذلك الطاغية يهرب متنكرا في ثياب امرأة حتى يصرع فيما بعد قتيلا..!؛
وتمزقت الدولة تمزقا وضعهاعل نشفا الهاوية، وكاد الأمر ينتهي لعبد الله بن الزبير ليستقيم به على الجادة ، لولا ظروف كثيرة لا مجال لتبعها هنا ، هيأت لمروان بن الحكم أن يقفز إلى منصة الحكم وسط فتن مظلمة، ومؤامرات ماكرة..
وهكذا ، انتقل الحكم من بيت أبي سفيان، إلى بيت أموى آخر ، هو بيت مروان..
ومروان هذا ، صاحب تاريخ مريب ، منذ كان رئيسا لديوان الخلافة في عهد عثمان رضي الله عنه. وإن له لمواقف كثيرة تدمغه وتدينه ..
ولقد بدأ تجربته الشريرة هنا في مصر إذ كان واليها يومئذ عبد الرحمن بن جحدم مناصرا لعبد الله بن الزبير..
وكانت مصر حصنا يرهبه مروان، فجاء إليها على رأس جيش هزم به عبد الرحمن ابن جحدم ، ثم دعا الناس إلى بيعته طوعا وكرها . وحين احتفظ الكثير منهم ببيعتهم السابقة لابن الزبير ، ضرب اعناق ثمانين منهم ليرهب بهم الباقين..!
وفي الوقت نفسه ، أرسل عبيد الله بن زياد إلى العراق ، وأمره أن يستبيح الكوفة بعد فتحها.. !!
وغدر بخالد بن يزيد الذي كان قد اقامه وليا لعهده .. كما غدر بعمرو بن سعيد ابن الأشدق، الذي لولا بلاؤه العسكري لما استقر الأمر لمروان..
وهكذا بدأت الدولة الأموية المروانية منهجها في الحكم بالقهر... وبالغدر.!
وقبل أن يموت مروان الذي لبث في الحكم عشرة شهور، أخذ البيعة لولده عبد الملك ، ومن بعده عبدالعزيز ..أي إنه سار على نهج معاوية، فجعلها هرقلية؛ كلما مات، هرقل قام هرقل!!
وينهض عبد الملك بن مروان بالأمر ،ومن بعده ولده الوليد ومن بعد الوليد سليمان.
خلال هذا العهد تقوم ولا سيما في عصر عبد الملك - انجازات هائلة، لا يغمط لها قدر.
ولكن إلى جانب تلك الإنجازات يصيب الدولة من الفساد ، وبصيب الناس من الرعب، ويصيب الحياة من التزييف ما يشكل التركة القاتلة الت يسيرزأ بها عمر ابن عبد العزيز حين تضع المقاديرعلى كاهله مسئولية الخلافة . فماذا كانت هذه التركة الرهيبة. .؟؟
لقد تمثلت فى القسوة الواغلة التى توسل بها بنو مروان لتمكين سلطانهم..
وتمثلت في الفساد الذي غطى حياة الدولة وحياة الأمة معا .

وتمثلت في تزييف القيم والحقائق، مما جعل الناس يومئذ يعانون لا فراغا بل خرابا فكريا روحيا مدمرا .

* **

* فأما منهج المروانيين في القسوة والبطش، فيبدو واضحا في اصطناعهم الحجاج ونظراء الحجاج .
لقد اختاره عبدالملك لقتال عبد الله بن الزبير لمجرد أنه ندب نفسه لهذه لمهمة التعسة قائلا لعبد الملك : لقد رأيتني في المنام أمسك بعبد الله بن الزبير ، ثم أقوم بسلخه، فابعثنى إليه وولنى أمر قتاله. !ا وعلى الفور يبعثه عبد الملك، ليحقق رؤياه ، وليقوم بسلخ ابن حواري رسول الله.. وابن اسماء ذات النطاقين.. والعابد القانت الأواب. .! ومضى الحجاج التعس إلى غايته، فما أبقى على حرمة.
نصب المنجنيق فوق جبل قبيس ورمى به المسجد الحرام في الشهر الحرام، والمسلمون يؤدون شعائر الحج ومناسكه.. !! وتلقى مكافآته من عبد الملك الذي ولاه على مكة والمدينة واليمن واليمامة. ثم نقله إلى العراق ليصب عليه بطشه. ولا يكاد يضع قدمه فوق أرضه حتى يخطب في أهله خطبته المشهورة : "إني لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها .. ولكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى، قد شمرت عن ساقها تشميرا ... وقسما بالله ، لآخذن الولي بذنب مولاه ، والمقيم بذنب الظاعن ، والمطيع بذنب العاصي، حتى يلقى الرجل أخاه، فيقول له : انج سعد .. فقد هلك سعيد " !!
انج سعد ، فقد هلك سعيد ... !!.
هذا هو الوصف الصحيح للتركة القاتلة التي سيخلفها بنو مروان للرجل الصالح عمر بن عبد العزيز" .
القتل، والقتل، والقتل، حتى تمتلى الأرض أشلاء ودماء.. !!
ولقد يقال : إن هذه القسوة ، بل هذا السعار الدموي ، إنما فرضته ظروف التمرد والمقاومة المسلحة التى جوبهت بها الدولة الأموية طوال عهدها ذاك.. بيد أنه أصح من هذا وأصدق ، القول بأن هذا السعارالمتوحش هو الذي أجج نار ذلك التمرد ونشر لهبه في كل مكان.
ولقد شهد شاهد من أهلها بوحشية الطغيان الذي ميز ذلك الميراث الرهيب.. ذلكم هو عبد الملك بن مروان نفسه ، الذي راح يردد في مرض موته كلمات ، الندم هذه : " ماذا ساقول يوم المسألة عن أمر الحجاج" ؟؟
بل لقد هم ذات يوم أن يعزله ، وكتب إليه كتابا مملوءا بقوارع القول ، ومختوما بهذه العبارة : " .. فاعتزل عمل أمير المؤمنين، واظعن عنه باللعنة المستحقة، والعقوبة الناهكة" .. !! لكنه عاد فاستبقاه خوفا على ملكه وسلطانه.. !!
ولم يكن سفك الدماء المظهر الوحيد لتلك القسوة .. بل كان هناك اذلال الناس بغير حق.. فالموالي وهم المسلمون من غير العرب، والذين يعطيهم الإسلام كل ما أعطى للمسلم من حق ؛ راح بنو مروان يحرمونهم حقهم في

بيت المال. ويحرمون عليهم وظائف الدولة، ويفرضون عليهم الجزية بحجة أنهم دخلوا الاسلام تهربا من دفعها .. ا!
مع أنهم قد نبغ من صفوفهم الكثرة الكاثرة من علماء الإسلام وأئمته وعباده ونساكه.
كما كان هناك إغراء الناس بعضهم ببعض ، وذلك أيضا بتقسيمهم الأمة إلى عرب ، وموال .. وإحيائهم العصبية القبلية التي بدأها معاوية مع المضريين ، والقيسيين، واليمانيين.. !

* **

هذا عن القسوة ...
*فاما الفساد فقد طمر كل شيء في الدولة ، وفي الأمة. خربت الذمم ،فراح كل قادر على النهب ينتهب ما تصل إليه يداه .
وغابت الأخلاق، فشاع الترف والانحلال. ووراء الفساد سار الخراب ، فأخذت الأزمات المالية بخناق الدولة ، ومحق انتاجها ، حتى أن العراق - وهو أغنى اقاليمها يومئذ - لم يكن يغل في عهد الحجاج أكثر من خمسة وعشرين ألف درهم، وهو الذي كانت غلته من قبل، وحتى عهد معاوية، تبلغ مائة وعشرين مليونا من الدراهم. . هذا مع أن الحجاج لم تعرف عنه خيانة ولا إثراء غير مشروع ، لكنها حروبه التي كانت تولدها قسوته ، وكذلك إسرافه في اصطناع العملاء والإغداق عليهم بغير حساب ، والقتل الذي أجهز على الجموع العاملة ، في الزراعة ، والتجا رة ، والحرف الأخرى ... !!
* ولقد واكب هذه القسوة وهذا الفساد تزييف كامل لقيم الدين وقيم الحياة .. وحسبنا لهذا التزيف المهين مثلا ، أن نرى منابر المساجد فى كل الأقطار الإسلامية الرازحة تحت حكم الأمويين ، يلعن من فوقها بطل الإسلام العظيم وابنه البار ، وإمامه الأواب "على بن أبي طالب" !!
اجل.. يفرض على الخطباء أن يلعنوه.. ومتى.. ؟ فى خطبة الجمعة التى يستهلونها قائلين: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد .. آل محمد الذين يأخذ علي فيهم مكان الدرة الفريدة في العقد المنظوم... !!!
أهناك تزييف للقيم ، بل الغاء للمنطق و كرامة العقل أكثر من هذا ..؟؟!!
على أن هذا التزييف للحق وللحقيقة ، قام على أكتاف الشعر ، والشعراء الذين تولوا كبره ، واحتملوا وزره .. ولعل هذا يفسر لنا الموقف الذي سيتخذه منهم عمر بن عبد العزيز حين يحمل مسئولية الخلافة، فلسوف نراه يطردهم عن بابه، ويحرمهم العطاء الغدق الذي كانوا يتقاضونه من أموال المسلمين ثمنا لكذبهم ونفاقهم.. لقد كان لكل بلاط شعراؤه.. ولكل وال وأمير مادحوه..
ولقد أوضحنا على صفحات سابقة، كيف كان الشعر ثقافة العصر ولغته ،وإلى أي حد كان شغف الناس وإقبالهم عليه عظيما .
ومن ثم، فإن الخليفة الذي كان يريد أن يجرع الأمة أكذوبة أو ينسيها حقا ، لم يكن يجد وسيلة لذلك أفضل من الشعر.

وإن رجلا كمعاوية في دهائه العظيم ، لا يجد في ذلك الد هاء غناء عن الشعر حين هم بأخذ البيعة ليزيد ، فأوحى لشاعره الخاص أن يعد قصيدة لهذا الغرض ، ينشدها في جموع الناس الذين سيحشدهم معاوية في ميقات معلوم. وفي ذلك الميقات يجتمع وجهاء الشام في قصر الخليفة ، وهم لا يعرفون لماذا دعوا .. ؟ ولا لماذا اجتمعوا .. ؟ ويقف شاعرمعاوية ؛ ليقول الأ ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان، أم ماذا يقول سعيد

بنى خلفـــاء الله مهلا ، فإنمـــــا يبوئها الرحمن حيث يريـــــد

إذا المنبر الغربي خلاه ربـــــه فان أمير المؤمنين يزيـــــد

ولا يكاد يفرغ من القا ء قصيدته ، حتى يتظاهر معاوية الداهية بأنه فوجئ بما سمع ، فيفرك كفيه، ويقول في مكر شديد وهو يوجه الحديث إلى شاعره : " سننظر فيما قلت ، ونستخير الله!! " .

***

وحين يحاول عبد الملك بن مروان تبرير مذابح ولاته وقواده ضد الشيعة ، والخوارج، وأنصارعبد الله بن الزبير، يستنجد شاعره جرير :

لولا الخليفـــة، والقرآن يقرؤه ما قام للنـــاس أحكام ولا جمـع

أنت الأمين، أمين الله لا سرف فيما وليـــت ولا هيـــابه خرع

ي!!ل مروان إن الله فضـــــلكم فضلاعظيماعلى من دينه البدع

وهكذا تنقلب الأوضاع - كما يريد شيطان جرير - فعبد الملك بن مروان إمام الهدى، وعبدلله بن الزبير دينه بدع!! .

***

وحين يرث الوليد أباه في الملك يهتف بالشعر ليشد أزره ، وليجرع الناس سلطانه ، فيتقدم جرير أيضا :

إن الوليد هوالإمام المصطفى بالنصـــــــرهز لواؤه والمغـنم

ذوالعرش قدرأن تكون خليفة ملكت فاعل على المنابرواسلم

وهكذا صار الوليد إماما مصطفى، وصارت خلافته قدرا من الله ونعمة ورحمة !!

***

وكما اعتمد الخلفاء على الشعر في ترويج باطلهم والتمكين لأنفسهم، راح ولاتهم وقادتهم يحاكونهم ويقلدونهم.

فزيا د ابن أبيه يتوجه شاعره بالقصائد الكثيرة ، حيث يقول في بعضها :

تقاسمت الرجال به هواها فما تخفى ضغائنها الصدور

فلما قام ســـيف الله فيهم زياد ، قام أبلــــج مســتنير

والحجا ج ، هل ينسى نصيبه الأوفى في هذه الولائم الباذخة الكاذبة ؟ ؟

إنه يدرك أن جرائمه تتعاظم كل دثار يغطيها ويخفيها .. هنالك يلجأ إلى بطلي الثالوث الأموي : جرير، والفرزدق.. فهذا جريريجرع الناس قوله:

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضي البصيرة واضح المنهاج

وينافسه الفرزدق الذي يكتشف للحجاج من المناقب ما لا يعرفه الحجاج عن نفسه، ولا يصدقه .. !!
ولم ار كالحجاج عونا علي التقى ولا طالبـــا يومـــا طريدة نابـــل
بسيف به لله يضرب من عصـــى على قصرالأعناق فوق الكواهل
وتتفتح شهية الحجاج ، فلا يشبعه زيف الفرزدق وجرير ، فيهتف باعشى همدان الذي يتقدم بدوره ليجعل منه قديسا ومنقذا .. ا!
أبى الله الأ أن يتمم نـــوره ويطفـــئ نارالفاســـــقين فتخمدا
وبنزل ذلا بالعراق وأهلـــه لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
فقتلاهمو قتلى ضلال وفتنة وحيهمـو أمسى ذلـــيلا مطــــردا
هكذا استخدم الشعر أسوأ استخدام لتزييف الصدق والخير ، ولطمس الحقيقة في وجدان الناس ووعيهم، ولإثارة البلبلة في خواطرهم، وتوهين علاقاتهم بالقيم والأخلاق.
فماذا يربط الناس بالقيم بعد .. حين يرؤن قواد الوليد بن عبد الملك. يملئون الأرض دما وعذابا ،ثم تتردد في المحافل قصيدة شاعره عدي بن الرقاع :
صلى الذي الصلوات الطيبات له والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا
إن الوليد أميرالمـــــــؤمنين له ملـــك عليه أعـــان الله فارتفعـا
وماذا يربط الناس بالقيم حين يرون خليفتهم - عبد الملك بن مروان - يصطفى لنفسه الأخطل ، وهو يذكر هجاءه المقذع السافل للأنصار الذين بوأهم القرآن والرسول مكان عليا..؟؟
لقد فقد الناس إيمانهم بأشياء كثيرة ، ووقعوا في تيه مظلم بين ما يبصرون وما يسمعون ، وتحطمت أعصابهم تحت وطاة الكذب ، والزيف ، والبهتان.
لقد رأوا الأبرار يذبحون ويقتلون ، والسفلة يرتفعون!!
وتاهت في الزحام أصوات القلة المؤمنة الورعة - مثال الحسن البصري وإخوانه- ففقدت العقيدة سلطانها ،وعاد الاسلام غريبا أو كالغريب. .!
وكما كان الحنفاء في الجاهلية يقلبون وجوهم في السماء ، وبهيمون بين الجبال با حثين عن النبي المنتظر، يخرجهم من الظلمات الى النور – راح الحنفاء ، والمظلومون ؛ والمقهورون في ذلك العهد الأموي يتطلعون إلى السماء في انتظا ر النجم الذي يجدد الله به دينه.. والذي يرد للخلافة كرامتها وقدرها ، ويضع عن الناس إصرهم، والأغلال التي كانت عليهم..
صحيح أن التركة قاتلة؛ والميراث رهيب ؛ لكن عون الله واصطفاءه كافيان لجعل العسر يسرا .. . لقد كان الأمر بحاجة إلى معجزة.. ويمين الله ملأى بالمعجزات ..
افما أن للمتعبين أن يظفروا منها بواحدة ؟؟ بلى، آن. . وإن رحمة الله لواسعة .. وان عطاءه لجزيل. .

الفصل الخامس البشرى

"والله لاعقدن عقدا ، لا يكون للشيطان فيه نصيب " .. !

ونعود من جديد لصحبة الرجل الصالح - عمر بن عبد العزيز - .. لنصاحب الجهد ا لخارق الذي سيكون على البطل أن يبذله حتى يجعل من الظلمات نورا ..
هاهي ذي الخلافة تقترب منه.. اتراه يطمع فيها ، أو يريدها .. ؟
كلا ، إنه ليس له فيها مطمع ، فسليمان بن عبد الملك كان له أولاده .. ومن عادة خلفاء بني أمية إيثار أولادهم بالاستخلاف.
فعل ذلك معاوية حين جعل الحكم ليزيد .. وفعله يزيد حين استخلف معاوية الثاني . ثم فعله مروان حين استخلف ولده عبد الملك ، وفعله عبد الملك حين نحى أخاه عبد العزيز ،وأخذ البيعة لولده الوليد.
كذلك لم يكن يريد الخلافة ، إذ كانت بما تورطت فيه ، قد صارت عبئا مبهظا على كل ذي تقى وضمير .. وكانت قداسة روحه التواقة إلى مرضاة ربها قد أخذت تنأى به شيئا فشيئا عن كل مغانم الحياة وزخرفها .
وكان ثمة حادث وقع في أثناء ولايته على الحجاز، ترك في نفسه فزعأ شديدا من السلطة والسلطان، وعاش عمره كله يغص بمرارته، وبعجب كيف غلب فيه على أمره وتقاه .
اما الحادث ، فخلاصته أنه تلقى كتابا من الخليفة الوليد يتهم فيه خبيب بن عبد الله بن الزبير بالتحريض على الأمويين والتشهير بهم، ويأمره بضربه. .
وقام عمر بضرب خبيب ضربا أفضى به إلى موته، وحين أبلغوا عمر نبأ موته، نزل الخبر عليه كالصاعقة، بل كأن السماء انفطرت، والكواكب انتثرت، والقيامة قامت.. !!
وغشاه الحادث بحزن قاتل ، فأغلق على نفسه باب داره سبعين يوما - لابسا مسوحا سوداء ضارعا إلى الله أن يغفر له ويعفو عنه ..
وكشف له هذا الحادث - كما قلنا - عن خطر السلطة والإمارة ، وتذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " إنها نعمت المرضعة " .
" وبئست الفاطمة " !!! وقوله عليه السلام : " إنها في الدنيا إمارة ،وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، الأ من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها"..!!
رأى كيف وهو يتحرى العدل والرحمة أعظم التحري، قد ورطته السلطة في بعض آثامها .
ولسوف يقضي العمر كله يرزخ تحت وقع الندم ، لا تزايل خياله صورة ضحيته ، حتى حين يصير خليفة للمسلمبن، ويأتي من معجزات العدل والورع والتقى ما يبدو أبعد من الأساطير .. حتى حين ذاك ، لا ينسى ذلك الحادث الوحيد الذي وقع ضد ارادته وضد طبيعته ..

أجل .. سنراه وهو خليفة يطيل البكاء ، فيقول له حواريوه المقربون : فيم بكاؤك ، وقد وفقك الله لعمل أهل الجنة.. ؟
فتزداد دموعه انهمارا ويقول : " وكيف بخبيب ؟؟ وكيف بخبيب ؟؟ "
ثم يصيح كالثكلى : " إن نجوت من خبيب ، فانا بخير " .. !!
لم يكن إذن يطمع في الخلافة ولا يريدها .
ولقد آثر أن يحيا مع نفسه يزودها بزاد التقوى ، ويهينها للقاء الله يوم تلقاه على خير حال، وأهدى سبيل..
وفى هذه الفترة من حياته ، نجد نفسه التواقة تغير مسارها ، فتأخذ فى العزوف شيئا فشيئا عن الاغراق في التأنق ، وتتخفف من المناعم والطيبات ، وتشغف بالعزلة والتأمل العميق.ثم نراه يحصر علاقاته المحدودة في نفر كريم من العباد والعلماء والزهاد .
وخلال ذلك تتوثق صلته برجاء بن حيوة ، وكان من علماء التابعين وفضلائهم، وكان موضع ثقة الخلفاء ألأمويين ، عاش معهم دون أن يفقد فضائل نفسه ..
ورجاء بن حيوة شخصية جليلة، لا نملك ونحن نتحدث عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الأ أن ننحني له تحية وتقديرا ؛ فلقد اختارته المقادير -كما سنرى فيما بعد - ليكون السبب الأول والأوثق في إفضاء الخلافة لابن عبد العزيز ، حيث سترى الدنيا منه معجزة الحا كم الورع العادل الطهور .. ! فسلام الله ورحمته عليك يا رجاء ..
***
ان العزلة التي أخذت نفس عمر تجنح لها ، لم تسلخه عن عالمه ، ولم تنسه إحساسه بمشاكل دولته وأمته، ولم تحمله على نفض يديه من مسئولية التحذير.
ففي هذه الفترة نراه ومعه شيخه وصديقه رجاء بن حيوة لا يكفان عن قرع أجراس الخطر ، وإسداء النصح للخليفة سليما ن .
لقد كان غياب العدل والرحمة عن دولة الأموبين، أكثر ما ينغص نفس عمر من أجل ذلك صارت كلمتا العدل والرحمة تسبيحة عذبة على لسانه ، يلهج بها دوما ، ويصبها في أسماع الخليفة صبا .
* **
وذات يوم طاف الخليفة سليمان طائف المرض .. وكان قبل مرضه قد عقد ولاية عهده لولده أيوب ، لكن أيوب كما يحدثنا ابن عبد الحكم مات، فصارت ولاية العهد شاغرة .
فلما مرض سليمان وشعر انه مرض الموت، شغله أمر الخلافة.
وتفرس وجوه بنيه ، فألقاهم صغارا .. فأمر ان يلبسوهم أقمصة الخلافة وأرديتها ، ويقلدوهم السيوف ليرى - على الطبيعة - كيف يكونون.. ؟؟
وجيء بهم إليه مزركشين بثياب الخلافة ، متوشحين سيوفها ، فوجدهم لا يملئون جانب العينِ ..فقال آسفا : " إن بني صبية صغار ، أفلح من كان له كبار

" . وخلا بمشيره الأمين رجاء بن حيوة ، وراح يقلب معه وجوه النظر ، فقال له رجاء : " إن مما يحفظك في قبرك ، ويشفع لك في أخراك ،أن تستخلف على المسلمين رجلا صالحا "..
قال سليمان : ومن عساه يكون.. ؟
و أجاب رجاء : عمر بن عبد العزيز .. !
وتلقى سليمان مشورة رجاء كالبشرى ، فقد صادفت هوى في نفسه ، بل صادفت عزما كان يضمره ويخفيه ..
وهتف سليما ن بعبارته المأثورة الباهرة : " والله ، لاعقدن لهم عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب" !!!
ولكن كيف السبيل إلى ذلك وإخوة سليمان قابعون كالنمور ، واقفون للمنصب بالمرصاد..؟
هنالك اهتدى" سليمان إلى الحل،وهو أن يوصى إخوته بولاية العهد بعد عمربن عبد العزيز ..وسارع رجاء لانجازالخطة.. وكتب مع الخليفة وصيته.
"بسم الله الرحمن الرحيم.. " هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ، لعمر بن عبد العزيز .. " إني قد وليته الخلافة من بعدي.. ومن بعده.. يزيد بن عبد الملك.. فاسمعوا له واطيعوا ،واتقوا الله.. " ولا تختلفوا فيطمع فيكم .. "
هكذا تمت الخطوة الأولى نحو استخلاف عمر ، وسطر العقد الذي لن يكون للشيطان فيه نصيب!
وسارع رجاء لى الخطوة التالية ، فدعا الأمراء الأمويين لمقابلة الخليفة، وكان كتاب الخليفة قد طوي وختم ، وتواصى الخليفة ورجاء الأ يعلم بمضمونه أحد ما دام الخليفة حيا. .
واحتشد الأمراء حوله ، وأمرهم سليمان أن يبايعوا من استخلفه واستودع الوثيقة اسمه .. وحاول بعضهم ان يعرف قبل أن يبايع ، لمن أوصى الخليفة ، فزجره سليمان ، فبايعوا جميعا ، ثم انصرفوا يتبادلون الحدس والظنون ٠
أين كان ابن عبد العزيز والأمر يقضى ويبرم .؟؟
لقد كان يعود سليمان يوما ، فاستقبله قائلا : يا "عمر".
" ما أهمني أمر قط، الأ خطرت فيه ببالي"..
ومن ذلك اليوم ، وهو يحس شعورا مبهما في نفسه ، شعور التوجس من أن يصنعها سليمان من ورا ء ظهره، ويرزأه بمسئوليات الخلافة.. هنالك ، يسارع إلى حيث يلتقي برجاء بن حيوة ، ويقول له متوسلا : " يا رجاء ..
انى أري أمير المؤمنين فى الموت، ولا أحسبه الأ سيعهد..
وإني انأشدك الله إذا ذكرني بشيء من ذلك أن تصرفه عني.. وإن لم يذكرني الأ تذكرني له في هذا الأمر أبدا " .
وكان على رجاء أن يستخدم ذكاءه في انتزاع هذا الإحساس من نفس عمر فهو يعلم أنه إذا تحؤل شعوره هذا الى مجرد ظن قوي بأن الخليفة عهد إليه

فسيسعى إلى الخليفة معتذرا ومتنصلا ، بل ربما غادر البلاد كلها إلى حيث لا يعرف له مقر أو مقام.. من أجل ذلك أدى رجاء دوره بدهاء عظيم حين أجاب عمر قائلا: " لقد ذهب ظنك مذهبا بعيدا ، ما كنت احسبك تذهب إليه ..
أتظن بنى عبد الملك يدخلونك في أمورهم" ؟!
وتهلل وجه عمر.. وانصرف عن رجاء . الذي تهلل وجهه هو الآخر، وراح يفرك كفيه مغتبطا مسرورا ، فقد ربح الجولة !!الأولى مع الهارب من الملك والمجد والخلافة ... !!!

****

وذهب إليه هشام بن عبد الملك أخو الخليفة سليمان ؛ وكان يتطلع إلى المنصب في رغبة ضارية.
قال لرجاء : " يا رجاء . إن لى معك حرمة ومودة ، فانبئنى بهذا الأمر: إن كان صائرا إلي علمت.. وإن كان لغيري تكلمت.. ولك علي العهد الأ أذكر من ذلك شيئا أبدا"..
وكان جواب الشيخ الجليل له : إن الخليفة قد ائتمنه وأ خذ عليه العهد الأ يتكلم.. وانصرف عنه هشام حيران أسفا ، يسائل نفسه : " إذا كنت قد نحيت عنها . فإلى من يا ترى ؟ وهل ستخرج الخلافة من بني عبد الملك ..؟؟".
ويذهب رجاء ذات يوم ليعود الخليفة ، فيجده في اللحظات الأخيرة من حياته ، فيجلس إلى جواره حتى تفيض روحه فيسجيه.. ويتكتم النبأ في ثبات وطيد ، مهيئا الظروف ل!!علان الخليفة الجديد ،زافا مع اعلانه هذا أعظم البشريات لدين لله، ولدنيا الناس.!!
ولنصغ إليه يكمل النبأ ويصف المشهد : " ... وخرجت ؛ فأرسلت إلى كعب بن حامد العبسي - رئيس الشرطة - ليجمع أهل بيت أمير المؤمنين. "
فاجتمعوا في مسجد دابق ،فقلت لهم : بايعوا .. قالوا : قد بايعنا مرة؛ أنبايع آخرى.. ؟؟
قلت لهم: هذه رغبة أميرالمؤمنين؛ فبايعوا على من عهد إليه في هذا الكتاب المختوم. فبا يعوا رجلا ؛ رجلا . فلما بايعوا رأيت أني قد أحكمت الأمر ؛ فقلت لهم : إن الخليفة قد مات... ومضيت أقرأ عليهم الكتاب " ... !

*** ****

إنه مادام النظام المعمول به في منهج الأمويين هوالاستخلاف ؛ فإن العمل الذي أنجزه رجاء بن حيوة لعظيم ، جد عظيم..
فالرجل الذي اختير للخلافة هذه المرة ؛ ليس ثمة من طرازه سواه ..
انه رجل ، لو أن أروع ما عرف التاريخ الإنساني كله من ديمقراطية وشورى أراد ان يختار له نظيرا لاعياه وجود النظير .. !!
ومع ذلك ، فسوف نراه عما قريب ؛ ينتهز أول فرصة مواتية ليحاول خلع الخلافة من عنقه، وليرد الأمر إلى المسلمين يختارون من يشاءون.. !!

****

رأينا كيف بايعه الأمراء الأمويون بعد أن فاجأهم كتاب الخليفة الذي قرأه عليهم رجاء .. وكان هشام..فيمن بايع على مضض. اذ قدم من عمر وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ نحيت عنى ..!! ".
فاجابه عمر : " بل، إنا لله وإنا إليه راجعون، أن صارت إلى، وأنا لها كاره"!
ولم يكد يفيق من غمرة المفاجأة ، حتى راح يرتجف كعصفور غطه الثلوج ، واستقبل رجاء بن حيوة يقول له في عتاب: " ألم أناشدك الله، يارجاء " .. ؟!
ثم سار إلى الخليفة المسجى ؛ فصلى عليه ، وشيعوه إلى مثواه .. وعاد يعزي أهل بيته فيه ، ويتلقى فيه العزاء . وفي الغداة- وكان النبأ قد طارالى كثير من بلاد الشام، حيث سارع خلق كثيرون إلى دابق - دخل أمير المؤمنين المسجد فإذا هو غاص بحشود هائلة من الوافدين، فرأى الخليفة أنها فرصته للخلاص من المنصب الكبير قبل أن يتشبث بكاهله.
وفجاة صعد المنبر ، وخطب الناس: " .. أما بعد ، فقد ابتليت بهذا الأمر على غير رأي مني فيه ، وعلى غير مشورة من المسلمين .. وإني أخلع بيعة من بايعني، فاختاوا لأنفسكم" .. !!
ولعله قدر أن المفاجاة ستذهل الناس ، فتعقد ألسنتهم على الكلام ولو لحظات . يستطيع هو خلالها أن ينجو بنفسه ، مبررا صمتهم بقبول تنازله..! بيد أنه لم يكد يفرغ من نطق هذه العبارة : " فاختاروا لأنفسكم " حتى كان المسجد يهتز بدمدمة رهيبة ، أطلقتها الحناجرالصائحة الصادحة : ".. بل إياك نختار، يا أميرالمؤمنين" .. !! واندفعت الجموع التي بداخل المسجد ، والجموع التي كانت خارجه ، صوب المنبر الذي كادت تصهره أنفاسهم الحارة.. وهبط درج المنبر ، محاولا أن يجد له وسط الجموع طريقا . كانت أصواتهم الصادعة المبايعة ، قد حولت المنا سبة إلى مهرجان..
وراحت اذرعتهم المشرعة تلوح وتخفق ، كأنها الرايات الظافرة ، وعيونهم المغتبطة تبرق بفرحة العمر و بهجة الحياة .. وراح هو يجهش بالبكا ء .. !

الفصل السادس المعجزة

" بل جزى الله الإسلام عني خيرا "

نحن الآن أمام رجل جديد ،مغاير تماما لهذا الذي كنا معه عبر الصفحات السالفة من الكتاب. . فكيف ظهرهذا الرجل فجأة.. ؟!
كيف بزغ على نحو مباغت، ومن أين جاء..؟؟
أكان القدر يصنعه على عينيه ، ليقدم به محيا باهرا للفضيلة والخير ، فى دنيا كادت تجدب من الفضيلة والخير .. ؟
* أكان روح الإسلام يعمل في مثابرة غير منظورة؛ ليثبت أنه لا يزال ينجب من ابنائه البررة ورجاله الشاهقين المعجزين، ما حسب الناس أن زمانهم ولى ودرس.. ؟
* أكان الضمير الإنساني قد أقلقه غياب القدوة الصالحة ، وإجداب الوجدان البشري منها ، فراح يبحث عن أقوى الناس ليحقق به وفيه ظهورها وتجليها ، وليذكر الطموح البشري بطريق القداسة .. ؟
أكانت الحقيقة قد سئمت عبقرية التنظيم والمعرفة والإدارة ، تعمل وحدها ، فراحت تهيب بعبقرية الروح كي تملأ الفراغ الموحش، وتروي برهبانيتها الناشطة وبتبتلها النبيل عقل الحياة..؟
أكانت فضائله الكامنة تنمو داخل نفسه نموا غير منظور ، وتحتشد فى تركيز هائل، لتتفجرفي ميقات معلوم ملاقتها الجبارة.. ؟؟ الأ إن ذلك كله قد كان.. وبهذا كله ، ومن أجل هذا كله ،جاء إلى الحياة هذا الرجل الجديد ، والزائر الجليل - عمر الخليفة - في رحلة سريعة لن تلبث الأ عامين، وخمسة أشهر ، وبضعة أيام.. !!

* **

ولو أن هذا الخليفة كان قبل الخلافة واحدا من عامة الناس.
ولو أن البيئة التي قضى فيها طفولته وشبابه ورجولته كانت مألوفة بين البيئات .. ولو أن الزمن الذي استغرقه انقلابه الروحي المذهل، امتد على طريق تطورطويل أو حتى قصير.. ولو أن السبب المباشرة لهذا الإنقلاب كان شيئا آخر غير المنصب الذي يشعل الطموح ويفتح الشهيات . لو أن ذلك كان كذلك ، لتيسرلنا تصورالإعجازالذي حدث ..
أما والأمر مختلف عن هذا كله ، فإن ذلك الإعجاز يبقى - وإلى الأبد - سرا جليلا يتحدى كل إدراك.!
فبطل الإنقلاب الروحي الذي سنطالع الآن صورته الخارقة ؛ لم يكن من أوساط الناس في معيشته ورزقه ؛ فيقال: إن زهده وورعه كانا امتدادا لمعاناة

تجاربه .. بل هو منذ مولده إلى استخلافه ربيب الملك ؛ وحفيد المجد ، وابن القصور الناعمة ، والمباهج الهاطلة..!
وهو لم يكن حين تسنم الخلافة شيخا تقدمت به السن ، فيقال : أن استغناءه عن نفوذها وجاهها ونعيمها إنما هو مظهر لحياة شبعت من النعيم والجاه حتى بشمت ، وأعراض شيخوخة ولى عنها ولع الشباب وطموحه.. بل إن البطل والقديس كان يوم استخلافه في رائعة الرجولة والاقتدار والطموح.. لقد كان في الخامسة والثلاثين من عمره .. ا! وهو لم يستغرق في انقلابه الروحي الهائل المفاجئ سنين ولا شهورا ،بل جاء كما سنرى ابن اللحظة التى اختيرفيها أميرا للمؤمنين.! ولم يكن وراء هذا الإنقلاب الروحي يأس من غاية أرهقت طموحه ، ولا هزيمة في الحياة راح يلتمس عوضا عنها ، وبديلا لها ، ولا رد فعل لإفراط قديم في شهوات النفس، ولذاذات الجسد ، ولانوبة صلاح وتقى دفعت به إلى صوامع العابدين ، ولانزعة تشاؤم ترى العدم وراء الأشياء ، فتلوذ باللامبالاة، صائحة : الكل باطل..
بل كان وراء انقلابه الروحي شيء هو أبعد ما يكون عن النتائج التي أفضى إليها .. أجل ، كان هناك منصب الخلافة وصولجان الملك لأعظم ،واقوى ، وأوسع امبراطوريات عصرها وزمانها .. !!!
وفي هذا قبل أي اعتبار آخر - تتراءى قداسة هذا الإنقلاب المفاجى الجليل، وتتمثل المعجزة كلها .. !!

***

ونحن نصف هذا الإنقلاب بالمفاجى ، لانه كان كذلك فعلا ، فمع أن حياة عمر كانت منذ طفولته طاهرة فاضلة ، نزاعة إلى المزيد من الصلاح والتقى ..
ومع أنه بعد عزله عن ولاية الشام أيام الوليد بن عبد الملك عكف على تنمية فضائله وتزكية نفسه ، وشرع يخفف من غلواء ، تأنقه وتنعمه .. فإنه لا هذا ولا ذاك ولا أضعافهما معهما ، لا شيء من هذا كله بقادرعلى اقناعنا بأنه كان مقدمة لذلك الإنقلاب الفذ الذي تفوق حتى على ذاته ، والذي تقمص شخصية الخليفة في اللحظة التي جرى فيها ريقه بالمذاق الرهيب لا الرطيب - لمسئولية الحكم والخلافة.. ا!

***

لا ريب في أن اصطفاء الله وتوفيقه، يقفان قبل كل سبب ودافع وراء المعجزة.. فالله سبحانه على كل شيء قدير.. وهو- سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم حيث يضع سره وبركته.
لكن إذا ذهبنا نلتمس للمعجزة سببا ودافعا مما يدخل فى حوزتنا ويشكل حياتنا ، كبشر مختارين، ومسئولين. نفكر ، ونقدر ، ونسعى ، ونختار ، ونريد ، فأين نجد هذا الدافع يا ترى.. ؟ إنه- في رأينا- مستقر فيه معنى واحد ، ذلكم هو طريقة ابن عبد العزيز في فهم مسئولية الحكم ،وإحساسه بها ،وتقديسه لها . فكل شيء داخل شخصيته ، وخارج شخصيته ، يتغير في إنجاز خاطف تحت

ضغط هذه المسئولة وحدها !! و هو الآن .. ليس هو الذي كان. .! والدولة ، والأمة ، والحياة كلها ، تجاوز أوضاعها السابقة في مثل لمح البصر ، إلى أوضاع أخرى تعكسها عظمة الخليفة وقداسته .
ثم إن ارتباط هذه المسئولية في ضميره بالله ارتباطا وثيقا ومباشرا يدعوه أن يقهر الزمن لمشيئة التغيير. فهو لا يصبر يوما ، ولا ساعة على خطأ قديم ، لأن لله سائله لماذا ترك هذا الخطأ ساعة من نهار ؟ ولأنه لا بضمن لنفسه الحياة إلى الساعة التالية .. ومن ثم فلا وقت للإرجاء..! والان فلننظر! ..

* **

ها هو ذا يعود من دفن سلفه "سليمان بن عبد الملك فلا يكاد يستقر به المقام في مجلس العزاء حتي يطلب إلى مولاه مزاحم أن يسارع إليه بقرطاس، وقلم، ودواة. . ويقترب منه رجاء بن حيوة وقد رأى جسده ينتفض ، كان به رعدة مرض ثقيل ، وينصحه بإرجاء ما يريد أنجازه الآن الى غد، حتى يستريح .. لكنه يجيبه ، ودموعه تنثال من مآقيه: " لقد فعلتها يا رجاء .. فدعني استنقذ نفسي من عذاب يوم عظيم " !!
إنها المسئولية الموصولة بالله ، وبما لله في نفس عمر من عظمة ، ورهبة ، وجلال . أجل .. إنها هي، لن تدعه ينعم ، ولن تتركه ينام .. !!
ويجيء مزاحم بالقرطاس ،وبالقلم ، وبالدواة .. ويختطفها الخليفة منه في لهفة من يختطف حياته ومصيره من فوهة إعصار .. ويروح يكتب على عجل :
إلى مسلمة بن عبد الملك ، ليعود بجيشه من القسطنطينية ..
وإلى يزيد بن أبي مسلم ، يخبره بعزله عن أفريقيا ، ويدعوه ليقدم حسابه ..
وإلى أسامة التنوخي ، يخبره بعزله عن خراج مصر وبدعوه ليقدم حسابه .
وأمر أن تحمل الكتب فورا إلى أصحابها ..
وبهت الأمراء الأمويون لما رأوا .. وتهامس بعضهم معلقا على هذا المشهد الذي أثارعجبهم وحنقهم معا فقال: " إنه الولع بالسلطان، لا يدعه يصبر حتي الصباح" !! مساكين.. !! فقد كانوا أعجزمن أن يبصروا روح القداسة التي بدأت تعمل داخل ضمير الرجل الذي لم يجد في منصب الخلافة الذي يتكالبون عليه سوى رزء رهيب.. !!
وإن عجلته الحازمة فى البدء بهذا الثالوث ، لتكشف لنا طرفا من ولائه الوثيق لمسئولية الحكم، ومنهجه في تحمل هذه المسئولية.
فأما مسلمة بن عبد الملك فقدكان على رأس جيش كبير يحاصر القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية..وكاد الحصار يؤتي أكله ويفتح أبوا ب العاصمة، لولا خدعة ورطه فيها القائد الرومانى اليون فردت القوة عجزا ، والنصر هزيمة.. وعلى الرغم من ضياع الفرصة، وانقطا ع خطوط التموين وتفشي المرض والمجاعة في الجيش، فإن الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك رفض أن يصدر أمره للجيش بالعودة، ربما تحت وطاة كبريائه الشخصي والقومي، وربما أملا في تحسن ظروفه وإمداده بقوات

جديدة وهكذا ترك الجيش المتداعي فريسة للضياع.. ولقد كان عمر بن عبد العزيز قبل استخلافه يتميز غيظا من هذا الموقف، ويلح على الخليفة باستدعائه. ولكن لا رأى لمن لا يطاع. والآن، وقد صار الأمر إليه ، فانه لا يطيق صبرا ، ولا يرجى أمر الانسحاب إلى الصباح ، بل يبدأ باصداره وبإرسال الرسل به في أولى ساعات خلافته ومسئوليته - هذه !!الأولى..
فأما الثانية، وهي عزل أسامة التنوخي عن خراج مصر؛ فقد كان أسامة هذا - كما يصفه ابن عبد الحكم - غاشما ، ظلوما ، مسرفا في العقوبات بغيرما أنزل الله ؛ يقطع الأيدي، ويملأ أجواف الدواب بأشلاء ضحاياه، ثم يطرحها للتماسيح" !ا!
أفهذا طراز يسكت عنه ابن عبد العزيز طرفة عين.. ؟؟ لطالما نصح الخليفة السابق بوجوب عزله..
والآن وقد صار الأمر إليه فإنه لا يدعه فى مقامه لحظة، فقد يبتر فى هذه اللحظة يدا تجيء يوم القيامة معلقة في عنق عمر - تقول : يا رب - لقد قطعت بغيا وعدوانا في عهد هذا الخليفة..!
وأما الثالثة، وهي عزل يزيد بن أبي مسلم عن افريقية فقد كان هو الآخر طاغية متجبرا ، يعامل الناس بوحشية مسعورة ويتسلى برؤيتهم وهم يعذبون ويذوقون نكاله..

***

هكذا بدا الخليفة عهده.. بالتغيير السريع الحاسم العميم الذي يجب أن يتم على مستوى الدولة والأمة بنفس السرعة والشمول اللذين تم بهما الإنقلاب الروحي داخل وجدانه وضميره. لا مجال للتلكؤ ولا للارجاء أمام عزيمة الرجل الذي صارت عيناه لا تكفان عن البكاء ، والذي لم يعد لسانه يلهج بغير هذه الآية المنذرة : " إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم "
وعصيان ربه - في تقديره - يتمثل في إرجاء التغيير، بالقدر نفسه الذي يتمثل به في إهمال التغيير.
وكأنه كان يدرك بحاسته السادسة ، وببصيرته المضيئة ، أن حياته على جناح طائر، وإنه لن يلبث بين الناس الأ قليلا ثم يلبي نداء ربه، فراح يملا اللحظة العابرة بجهاد أعوام ثقال.. ا!

***

والآن، لننظر مرة أخرى!!
ها هو ذا في اليوم التالي، يتهيأ آخذا طريقه إلى السرادق الذي جرت العادة بإقامته حيث يجري فيه أول لقاء بين الخليفة الجديد وصفوة قومه ..
ولا يكاد يضع قدميه على الطريق ، حتى يرى موكبا فخما من الجياد المطهمة ، تتوسطها فرس زينت كالعروس، ليمتطى الخليفة ظهرها الباذخ..
وفجاة تأخذه الرجفة ، ويسأل مستنكرا : ما هذه؟؟

فيجيبونه : هذه جياد لم تركب قط ، تعد لموكب خليفة جديد .. فينادي عمر : يا مزاحم .. ضم هذه إلى بيت المال !!
ويمضي على قدميه حتى يبلغ السرادق، فإذا هو فتنة ولا كإيوان كسرى..
فتعاوده الرجفة ، ويسأل : ما هذا.. ؟؟
فيجيبونه : انها السرا دق الذي يعد لاستقبال الخليفة الجديد .. فينادي : يا مزاحم ضم هذا إلى بيت المال!
ويدعو بحصير فيفرشه على الأرض، ثم يجلس فوقه في غبطة قديس!!
ثم يجاء بالأردية المزركشة ، والطيلسانات الفاخرة، فيسأل : ما هذه؟؟
فيقولون : إنها ثياب الخلافة ، يتحلى بها كل خليفة جديد .. فينادي : يامزاحم.. وهذه أيضا ضمها إلى بيت المال ا!
ثم تعرض عليه الجواري، ليختار منهن وصيفات قصره.. وهنا ينهض فزعا ، ويقبل عليهن واحدة واحدة : من أنت. ؟ ولمن كنت. وما بلدك .. ؟
حتى إذا فرغ من سؤالهن جميعا ،نادى: ٤ يا مزاحم.. تول أمرهن جميعا ، وارجع كل واحدة منهن إلى أرضها وذويها..
ألا فلندخر الكثير من عجبنا ودهشنا ، وانبهارنا ، فإننا مقبلون على عالم آهل وحافل بمثل تلك المعجرات ٠ !!
بعد قليل ينتقل أمير المؤمنين إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية.
ومن دمشق حينا .. ومن خناصرة أحيانا سيباشر مسئوليات الدولة الطويلة العريضة التي أصبح مسئولا عنها - والمعجزا ت التي ستشهده أيامه المباركات؛ سنراها ثمرة لأمرين التزم بهما في إخبا ت شديد :
اولهما :الولاء المطلق للدين..
ثانيهما : الولاء المطلق للأمة. .
يدثر هذا الولاء وذاك، خوف بالغ من الله، يكاد تتصدع من مثله الجبال
فاما ولاؤه للدين ، فقد كان إيمانه بالإسلام عظيما . كان يرى فيه مفاء نعمته وفردوس حياته.
يقول له بعض إخوانه، وقد بهرهم عهده العظيم : جزاك الله عن الإسلام خيرا ..
فإذا هو يجيب : " بل جزى الله الاسلام عني خيرا ". . ا
ولقد زاده إيمانا بعظمة دينه ، تلك التطبيقات الباهرة التي كشفت مقدرته في بناء الدولة العادلة ، والأمة الفاضلة ، يوم كان يحمل رايته ذلك الرعيل الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق.. والفاروق عمر..
ولقد قضى عمره منذ طفولته ملتزما أوامر الدين وحدوده ، لكنه اليوم وقد صار خليفة للمسلمين ، فإن علاقته بالدين لم تعد علاقة المؤمن المطيع فحسب ، بل جاوزت ذلك إلى موقف الحارس والمنقذ ، والمسئول عن ترجمة حقيقة الإسلام ومبادئه إلى طريق عام ، تسير فيه الدولة والمجتمع

وأما ولاؤه للأمة ، فهو في الحقيقة امتداد لولائه للدين . فالدين بوصفه كلمة الله ، استوصى أول ما استوصى بالإنسان. والإسلام خاصة يعطى أكثر اهتماماته لقضية الإنسان. . !
على أن الظروف التي ولي فيها ابن عبد العزيز الخلا فة، كانت تعطي ولاءه لحقوق الناس وقودا هائلا من المظالم والمشكلات والأزمات التي خلفتها العهود الأموية السالفة.
لقد حدد ولاؤه هذا طبيعة مسئولياته وفلسفتها ، وراح يحملها في مزيج عجيب من الإرهاق والإشفاق.
الإرهاق لنفسه، حتى لا يكاد يعطيها فرصة للتنفس.. والإشفاق عليها أن يأتيها الموت قبل أن نفرغ من واجبها .. !!
واذا كانت الشهورالتسعة والعشرون التي عاشها خليفة تعتبربالنسبة للتاريخ الإنساني كله بمثابة لحظة ، فإن هذه اللحظة قد صارت من أعظم ازمان التاريخ تزكية للإنسان وتاثيرا في الحقيقة ، إذ أعطت البشرية في مختلف عصورها وأديانها وأجناسها ، المثل على ما تستطيع الإرادة الإنسانية أن تحقق من قداسة، وتصنع من إعجاز ، إذا جعلت الله رقيبها ، والحق كتابها.!!
***
لقد حرص أمير المؤمنين على أن يدرك الناس أنه لا يأتيهم بجديد من المبادئ والنظم، فكل ذلك في قرآنهم ودينهم، وتراث الرعيل الأول الصالح من خلفاء رسولهم و أصحابه ، والتابعين لهم بإحسا ن.
إنما هو يأتيهم بروح جديدة، هي روح المسئولية الورعة الصادقة، يزكيها فهم سديد لجوهر الإسلام و أهداف شريعته .
وإذن . فإن علينا أن نرصد مسار علاقته بمسئولياته في ثلاثة مطالع :
المطلع الأول - وضوح المسئولية في وعيه..
المطلع الثا ني - استغراقه فيها ..
المطلع الثالث- إخلاصه لها.
* فأما عن الأول ، فنحن نعلم أنه لكي تستغرق قضية ما إنسانا ما ؛ استغراق إيمان لا استغراق بحث ، فإنها لابد من أن تكون قد بلغت من الوضوح والإسفار في تفكير صاحبها وشعوره المدى الذي يقهر كل غموض، ويتخطى كل تساؤل.
والقضية التي استغرقت - عمر بن عبد العزيز - كانت من هذا الطراز - فهي لا تستغرقه استغراق باحث يحاول التأكد من صحتها وصدقها ، بل استغراق مؤمن مفعم باليقين.. !!
فلننظر الآن مظاهر وضوحها لديه ..وإذا كانت كلماته وخطبه إنما تعبر تعبيرا مطلقا عن حقيقة اتجاهاته ومقاصده، فإنها إذن كفيلة بإعطائنا صورة هذا الوضوح.
ولنبدأ معه بهذه الخطبة : " .. لقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه من بعده سننا ، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله ، وقوة لدين الله . ليس

لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا الركون لأمر خالفها ..
من اهتدى بها ؛فهو المهتدي. . ومن استنصر بها ، فهو المنصور . ومن تركها واتبع غيرسبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، و أصلاه جهنم وساءت مصيرا .. "
" أيها الناس. إنه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب.
فما احل الله على لسان نبيه ، فهو حلال إلى يوم القيامة. وما حرم الله على لسان نبيه، فهوحرام ليوم القيامة. الأ وإنى لست بقاض ، وإنما أنا منفذ ..
ولست بمبتدع إنما أنا متبع . ولست بخيركم، إنما أنا رجل منكم، غير أني اثقلكم حملا " .. !



هكذا تتضح المسئولية في روعه غاية الوضوح.. فموضوعها - هذا الدين الذي أتم الله به النعمة وارتضاه للناس دينا .
وحاملها - ليس مشرعا ، ولا قاضيا .. إنما هو منفذ لمشيئة هذا الدين ومبادئه.
وهذا الوضع لا يمنحه أي امتياز. لست بخيركم، وإنما أنا رجل منكم .
والفارق الوحيد بينه وبين أفراد أمته هو أنه أثقلهم حملا – وهو كما نرى، محسوب عليه .. وليس محسوبا له . بل إنه حين يدعو الناس إلى العبادة ومكارم الأخلاق لا يقف منهم موقف المعلم ولا الواعظ ، بل نراه يتهم نفسه بالتقصير ويضرع إلينا كي نصدقه .. هو الذي بلغ أرفع مستويات التقى والعظمة والهدى والكمال.
ها هو ذا يستقبل الناس خطيبا ، فيقول بكلمات يخنقها النحيب والبكاء : "وأيم الله، إني لأقول لكم هذه المقالة. وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلمه عندي. فاستغفرالله وأتوب إليه.. " !!
ووضوح مسئولياته كأمين على دين الله وهو نفس وضوحها كأمين على عباد الله .
تروى زوجته فاطمة بنت عبد الملك هذه الواقعة : دخلت عليه يوما ، وهو جالس في مصلاه، واضعا خده على يده، ودموعه تسيل.. فقلت له :ما بالك، وفيم بكاؤك..؟
"فقال : ويحك يا فاطمة .. إني قد وليت من أمرهذه الأمة ماوليت ، ففكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والمظلوم المقهور ، والغريب، والأسير، والشيخ الكبير، والأرملة الوحيدة، وذي العيال الكثير والرزق القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة ، وإن خصمي دونهم يومئذ محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت الأ تثبت لي حجة ؛ فلذلك أبكي" .. !!
هذا وضوح مسئوليته عن الأمة كلها والناس جميعا ، وكما قال :
" في أقطار الأرض و أطراف البلاد " . إن قلبه الورع الذكي الكبير، مع كل فرد من أمته. مع كل يتيم، وكل شيخ، وكل أرملة.. مع كل فقير، وكل مريض، وكل مجهود.. مع كل مظلوم، وكل أسير، وكل مقهور.. كل هؤلاء وأولئك قابعون في ضميرة ، يجلجلون بحاجاتهم ، ويجأرون بشكاواهم ، وينتظرونه - كما يتصور - ليخاصموه يوم القيامة أمام الله رب العالمين ، حيث لا ينجيه منهم غدا ،إلا مايبذله لهم اليوم من حق، وعدل، وخير، وبر!
من هذه الصورة السريعة الوضوح مسئوليته في عقله وقلبه ، ننتقل إلى صورة سريعة أخرى ترينا استغراقه في هذه المسئولية وفناءه فيها .. لقد احتوته المسئولية في خضمها ، فنسي نفسه ، وأهله ، ودنياه، وعالمه .. نسي كل شيء سواها !! بل نسي حقه في استشعارالرضا والأمن جزاء ما يقدم لدين الله و دنيا الناس من ولاء وبر .. حتى حقه هذا ، نسيه فى غمرة خوفه المشبوب من الله !! لم يعد يذكر سوى مسئوليته الفادحة ، وبدت له أعماله

الشامخات كأنها ليست شيئا مذكورا .. وسيطرت على شعوره وفكره صورة واحدة - تلك هي صورة موقفه بين يدي الله سبحانه، يسأله عن كل شعيرة من دينه، وعن كل فرد من عباده.!
تقول فاطمة زوجته: " لقد كان يذكر الله في فراشه ، فينتفض انتفاضة العصفور من شدة الخوف ، حتى أقول : ليصبحن الناس ولا خليفة لهم "
ويقول علي بن زيد : " كان يبدو، وكأن النار لم تخلق الا له"!!
ويقول ميمون بن مهران : "رأيته مرة يبكي؛ فإذا هو يبكي دما" !!
إن المضمون الإلهي للمسئولية دفع استغراقه إلى أقصى قيعان المسئولية وأبعادها. ولقد أصبح يستحي من ربه أن يرى في فمه لقمة شهية.. أو أن يرى على جسده ثوبا ناعما .. بل أن ترى على شفتيه ضحكة - مجرد ضحكة.. ! فمنذ ولي الخلافة إلى أن يلقى ربه، لن يرى ضاحكا .
والرجل الذي كان قبل الخلافة بدقائق متأنقا ، فواحا للعبير، قد جعلته المسئولية فى لمح البصرإنسانا آخر ، أشعث، أغبر...
تماماً مثل جده العظيم عمربن الخطاب ، لو لقيه من لايعرفه من الناس. لسأله : أين أجد أمير المؤمنين.. ؟؟!!
لغد رفض رفضا مطلقا كل أطايب الحياة ومناعمها، ولاذ بتقشف بعيد، وشظف شديد.. إن الرجفة الكبرى التي نجمت عن وضوح مسئوليته بكل رهبتها وجلالها ، قد أخرجت حياته كلها عن مدارها الأول ، إلى مدار جديد ، محوره سؤال الله له عن كل حق للدين، وللدولة، وللأمة..
إنه يعبد الله كثيرا ،ولكن المعبود لا العبادة هومناط مخاوفه واهتماماته. .
والآن وقد صار خليفة للمسلمين ، فإن علاقنه بالله لم يعد يكفي فيها أن تكون علاقة عابد بمعبوده .. بل قبل ذلك يجب أن تكون علاقة مسئول" ب" مستخلفه .
تقول زوجته فاطمة وقد سئلت عن عبادته : "والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا أكثرهم قياما. ولكنى والله ، ما رأيت أحدا أخوف لله منه " .. !!
أجل .. لو كانت مخاوفه هذه مخاوف عابد يخشى التقصير في عبادته ، لوجدت تلك المخاوف مرفاها سريعا ، لكنها مخاوف مسئول يرى الله قد ائتمنه على الدين والدنيا ..على الناس، والزرع، والأنعام..
وهكذا كان استغراقه فى مسئوليته ، واستغراقها إياه، حقيقة تتحدى كل وصف ، وتفوق كل مبالغة ..

***

وإنا لنشهد صور هذا الاستغراق تتوالى على جميع مستويات حياته - خليفة ، وزوجا ، و أبا ، و أخا ، و قريبا ، وصديقا .. ا!
فجميع علاقاته بنفسه ، وبعشيرته ، وبالناس اجمعين ، غائصة معه في أعماق استغراقه البعيدة ..بل إن الناس أنفسهم غائصون معه بدرجة قربهم منه ، مما جعل قرابته وصداقته تتحولِ الى غرم فادح للأقرباء والأصدقاء ..

ولقد عبر عن هذه الحقيقة أجمل تعبير، خادم له رآه أميرالمؤمنين يسحب برذونه، فسأله : "كيف حال الناس. ؟؟ ".
أجابه : "كل الناس في راحة، الأ أنت،وأنا، وهذا البرذون..!! " !
ولقد انعكس استغراقه في مسئولياته على نفسه ، وعلى أهله ، وعلى كل الذين حوله انعكاسا مجيدا .
فأما هو ، فكما رأينا ، حل في إهابه إنسان آخر عجيب..
هذا محمد بن كعب العرظي يتحدث، فلنصغ إليه : "دخلت على عمر بن عبدالعزيز بعد استخلافه، وقد نحل جسمه، وعفا شعره، وتغير لونه - وكان عهدنا به في المدينة وهو أمير عليها ، حسن الجسم ممتلئ البضعة..
فجعلت انظر إليه، لا أصرف بصري عنه..
فقال لي : يا بن كعب، مابالك تنظر الي نظرا ما كنت تنظره الي من قبل.. ؟
قلت : لعجبي، يا أميرالمؤمنين.. !!
قال : ومم عجبك.. ؟
قلت : مما نحل من جسمك . ونفا من شعرك وتغير من لونك ..
اين ذاك اللون النضير .. والشعر الحسن.. والبدن الريان. . ؟!!
فقال لى : إنك إذن لأشد عجبا من أمري ، وانكارا لى ، لو رأيتنى بعد ثلاث فى قبري، وقد وقعت عيناي على وجنتي، وسكن الدود منخري وفمي" .. !!!
ثم راح يبكي.. ويبكي!
لقد تغيرت الصورة والإطار .. وذوي الجسد الفارع الذي غذاه النعيم تحت مطارق الإحساس الرهيب بالمسئولية.. !!
وإنه ليدعو إليه في الأيام !!لأولى لخلافته زوجته فاطمة ، ويواجهها بحقيقته الجديدة .. ويخبرها في رفق أنه كزوج لم يعد له وجود ؛ فقد ثقلت أحماله حتى لم تعد هناك لحظة في وقته يهبها لغير تلك الأعباء الثقال . ثم يعطيها حقها الكامل في اختيار مستقبلها ومصيرها !!
و فاطمة هذه ستظل متألقة في وعينا طوال هذه الصفحات التي نسطرها عن زوجها الخليفة، وسنظل نزجى لها من التحية والإجلال ماهى له أهل - أي أهل.. !!
فلقد ظلت بجوار زوجها القديس تشاركه التقشف القاسي الذي فرضه على نفسه .. ولم تكن تزيد حين تقرقر أمعاؤها من الجوع، وترتعد أوصالها من الصقيع، على أن تقول : "يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين .. فوالله ما رأينا سرورا مذ دخلت علينا " .. !
لقد أخذها معه إلى قيعان مسئوليته واستغراقه .. واضحت السيدة التى كانت زوجة خليفة .. وبنت خليفة .. وأخت خليفة .. والمتقلبة فى أبهى ما كانت الدنيا تعرف يومئذ من حرير ولؤلؤ وذهب ونعيم .. أضحت لا تملك الأ ثوبين خشنين .. فقد حمل الخليفة كل حلله وحللها وحلل أبنا ئه وبناته وأمر ببيعها ، ووضع أثمانها في بيت مال المسلمين.. وأضحت لا تأكل - أكثر ما تأكل - الأ الخبز

الجاف مبللا بالزيت، آو مثرودا بالعدس .. واضحت صاحبة الوجه الشاحب ، والجسد الضامر الوهنان .. !!!
دخل عليها - أمير المؤمنين - يوما ، وهي تخيط ثوبها بيديها فربت كفها مداعبا وقال : "يا فاطمة.. لنحن ليالي دابق أنعم منا اليوم" ا!
مشيرا بهذا الى حياتهم المنعمة قبل الخلافة في مرج دابق .
فاجابته قائلة: "والله ما كنت على ذلك – يومئذ أقدرمنك اليوم" !!
تعني أنه الآن وهو خليفة وحاكم لدولة عظمى، أقدر على التزود من النعيم، منه قبل ذلك..
وفجأة، يمتقع لونه، وتنثال دموعه، ويدرك أنه جاوز بهذه الدعابة حده، فيقول : " يا فاطمة.. إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم" !!
ولم تلبث فاطمة الأ قليلا حتى ألفت شظف الحياة التي اختارها عمر لنفسه ولذويه .. وحتى راحت تحياها بروح محبة متفانية ..
لقد مستها بركات زوجها القديس ، فراحت تكتشف النعيم الكامن، في الشظف الماثل.. وتستشرف من وراء دنيانا الفانية فردوس الله الأعلى، ورضوانه العظيم.. ا!

***

وبهذا الوضوح الكامل لمسئوليته .. وبهذا الاستغراق العظيم فيها ، يستكمل الولاء زواياه الإخلاص المطلق الذي يربطه بهذه المسئولية أوثق رباط ..
والإخلاص للمسئولية - أي مسئولية - يشكل السياج المنيع الذي يحفظها داخل موضوعيتها ، ويصونها من تقحم الأنانية والهوى عليها ..
وهذا هو جوهرالإخلاص لدى أمير المؤمنين عمربن عبد العزيز ..
فهو لا يستغرق فيها استغراق من يريد أن يبلغ بها مجدا شخصيا ، أو مغنما ذاتيا .. بل استغراق فان فيها، متبتل لها . ليس بين يديه، ولامن خلفه، ولا عن يمينه، ولاعن شماله شيء يلهيه عنها أويغريه بها ..
إنه إخلاص يعكسه إخلاصه لله رب العالمين. ورجل كعمر حين يخلص لله ، فلا تستطيع ألف دنيا كدنيانا أن تدخل في هذه الصفقة ندا ،أو شريكا .. ا!
لقد كان- رضي الله عنه وأرضاه - دائم الترديد لهذه الآية الكريمة : " وما يؤمن أكثرهم بالله الأ وهم مشركون." واتخذ منها نذيرا يلهب به نفسه لتبلغ بإخلاصها لربه ولدينه ولمسئوليته أقصى ما يستطيع أولو العزم الراشدون .
وكان يدرك بنور بصيرته أن أدنى مجاملة على حساب إخلاصه لمسئوليته إنما هو شرك متنكر وخفي ، من نوع الشرك الذي حذر الرسول ۰ أصحابه منه ، مخبرا أن له دبيبا كدبيب النمل .. لقد نجح القديس نجاحا باهرا في صون إخلاصه من دبيب النمل هذا ..وأضحى الناس يقول بعضهم لبعض : " هذا أول خليفة أموي لانجد حاجة في قرع أبوابه.
فإنما يكون لنا من حق يأتينا ونحن فى دورنا .. وما ليس لنا بحق ، فدون بلوغه قطع الرقاب..!!>>.

أجل.. لم يكن لإخلاص ابن عبد العزيز مزاحم ولا منافس، لا من قرابة، ولا من صدا قة. يقع خلاف بينه وبين بعض أمراء بني أمية حول حقوق يرونها لأنفسهم.
ويقول أحدهم للخليفة : سآتيك بصك الوليد ..
وفي كلمات حازمة ، يقول عمر : " أبالمصحف ستجيء " .. ؟؟!
لقد صار الحق وحده هو الفيصل والحكم .. فلا صكوك ولا مواثيق الأ صكوك الحق ومواثيقه.. ولا رحم ولا قرابة الأ رحم الحق وقرابته..
ولا يحول بينه وبين الحق شفاعة ، ولا رغبة ، ولا رهبة ..
* **
كانت عمته أم عمرو بنت مروان ، صاحبة دالة على خلفاء بني مروان وأمرائهم .. وكانت أثيرة لدى - عمر بن عبد العزيز - وموضع حبه العميق، واحترامه الوثيق.
وحين ألغى كل مخصصات بني مروان ، ألغى مخصصاتها أيضا ، فسارعت إليه ، وفوجئت به جالسا يتناول طعام عشائه .
و سلمت العمة ثم جلست ، وراحت تحملق بعينيها لا تكاد تصدق ما تراه ..
لقد كان كل ما بين يديه من طعام ، خبزا جافا، وطبق عدس، وملحا ا!
ودارت بها الأرض.! اهذا هو عمر الذي كان يخوض في النعيم خوضا ؟
الآن - وهو الخليفة المطاع - يصير هذا طعامه .. ؟! ولم تتمالك نفسها ، فأجهشت بالبكاء ؛ ثم قالت : " لقد جئتك في حاجة لي. ولكني لم أكد أراك حتى رأيت أن أبدأ بك قبل نفسي" . !
قال الخليفة: "" وما ذاك، يا عمة" .. ؟؟
قالت: لو اتخذت لك طعاما ألين من هذا ". . ؟
قال: لا أملك غيره ياعمة، ولو كان عندي لفعلت ...
قالت: إن عمك عبد الملك كان يجري علي ما تعلم.. ثم كان أخوك ألوليد فزادني.. ثم كان سيمان فزادني.. ثم وليت أنت فقطعته عني .. :
فأجابها : " يا عمة : إن عمي عبد الملك وأخي الوليد وأخي سليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس ذلك المال لي فاعطيكه، ولكني اعطيك مالي إن شئت" .
قالت: وما مالك ، يا أمير المؤمنين" .؟
قال: عطائى. مائتا دينار في العام .
قالت: وما يبلغ مني عطاؤك .. ؟؟!
ثم انصرفت عنه يائسة بائسة ، وهي التي كان الخلفاء ينحنون لرغبتها ، ويسارعون الى هواها.!
أبقيت هنا لا شفاعة لشافع .. أو مطمع لطامع .. ؟!
لا .. ففي وقدة إخلاصه احترقت كل الأطماع .. وإن هذا الإخلاص ليحيطه بسياج ترتد عنه كل المحاولات عاجزة مفلسة .
كما يحيطه بغلاف من الأمن النفسي لا يخترقه وعيد ، أو تهديد ، أو خوف ..

قال له بعض أصفيائه، حين جرد الأمراء الأمويين من كل ثرواتهم وممتلكاتهم ودفع بها إلى بيت المال: " يا أمير المؤمنين ، الا تخاف غوال قومك " .. ؟؟
فإذا الحليم الأواب ، الهادئ السمت ، الباكي العين ، ينتفض كالأسد ، وتخرج الكلمات من فمه كالزئير : " أبيوم سوى يوم القيامة تخوفونني.. ؟؟
فكل خوف أتقيه دون يوم القيامة لا وقيته" !!
حقا . إن الفضيلة مثوبة نفسها .. وحين يخلص أمرؤ للحق مثل هذا الإخلاص الذي نراه، فإن إخلاصه يفيء عليه ما لا يفيء معشاره ذكاء ، أو جهد ، أو حظوظ .
إن العقبات التي كانت تتشامخ أمام عمر لتصده عن السبيل كانت تتحدى كل طاقة واقتدار..
فأمراء البيت المالك .. والطبقة العريضة التي أنجبها الحكم الأموي ، وأصبحت اسيرة مصالحها ونفوذها ..والفساد الذي كان ناشرا سلطانه ..والاقتصاد المتردي.. والأزمات الطاحنة ، ثم علاقته بأهله وبا صدقائه.
كل ذلك ومثله معه ذاب تحت أنفاس إخلاصه الحار المتألق .. !

***

وإذا كان إخلاصه هذا يبهرنا بمقدرته الفائقة على اكتساح السدود ، فإنه ليبهرنا قبل ذلك بمفهومه الذي كان له فى وعى عمر وضميره.
فهو بكل مواهبه وكفاياته لا يرى لنفسه الحق في أن يحمل مسئولياته بذكانه .. بل عليه أن يحملها وينجزها بالإخلاص وحده.
إنه يبرأ إلى الله من حوله ومن قوته.. وإنه في ضياء إخلاصه العامر ليهرب من قدرته إلى قدرة الله ، ومن اختياره إلى اختيار الله، ومن رأيه إلى توفيق الله.. !!
لهذا كان دعاؤه الدائم : " اللهم رضني بقضائك. وبارك لي في قدرك؛ حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت " !!
إنه يعلم أن الإخلاص حين يحتوي قوى الذكاء الإنساني ويصهرها في بوتقته ، فانه يضاعف من فاعلية هذا الذكاء أضعافا كثيرة . وبدلا من أن يشتته الهوى والغرض ، تؤلفه وحدة العمل والاتجاه.. هذه الوحدة ، التي يفيئها الإخلاص ويزجيها ..

***

وكما تولد الكهرباء الحركة وتفجرها ؛ فإن الإخلاص لمسئولية الحكم قد فجر وولد حركة حياة ابن عبد العزيز .. هذه الحركة التي لم تكن سوى : القداسة .. والقداسة،هى الحاصل النهائي لفضائل الروح مجتمعة ومتألقة في ذروة تجليها وظهورها .. هنالك تكون القداسة ، ويكون القديس ..
ولقد أفاءت المسئولية على - عمر - التوفيق الذي سما بفضائل روحه - من ورع وزهد ، وطهر ونسك - إلى أعلى مستوياتها ، ومن ثم كانت المسئولية سببا مباشرا لظفره بالقداسة، وهذا جوهر إعجازه الفريد .

فلو أنه كان قديسا من قبل ، ثم جاءته الخلافة وهو متمكن من فضائله وقداسته ، لبقي وفيا لها ، مثابرا عليها .. ؟؟
لكن الذي حدث أن منصب الخلافة الذي يغري بكل شىء الأ بالقداسة ،هو الذي كان، وكانت مسئولياته الجسام ، مرقاة روحه الطاهرة العظيمة توقلته "1" في لمح البصر إلى فردوس القداسة ، ومكانة القديس.. !!

****

وهناك عبارة يكتبها مؤرخو سيرته تستوقفنا طويلا ، وتبهرنا كثيرا .. أما العبارة فهاهي ذي: ".ثم بويع عمربن عبد لعزيز فقعد للذاس على الأرض" ..!!
إن هذه العبارة الموجزة تفتح بصائرنا على قوة القداسة التي أنعم الله بها على عبده الصالح عمربن عبد العزيز .
إنها قوة تكتسح كل الأوضاع الرتيبة والعلاقات المألوفة ؛ لتنشئ أوضاعها الخاصة ، وعلاقاتها المخلصة ..
فما من بأس في أن يجلس الخليفة مجلسا فيه من روعة المظهر أو بهائه ما يحفظ وقار المنصب . أجل، ليس هناك بأس.
وعمر يعلم هذا بفقهه وسعة أفقه ..
بيد أنه من اللحظة التي طوقته فيها المسئولية ، لم يكن تحركه روح الخليفة .. بل روح القديس..!
والقداسة - دا ئما - تضع الوسيلة في مستوى الغاية، فلا يعنيها بلوغ الغاية الأ بالقدر الذي يعنيها فيه نوع الوسيلة .. ثم إن لها وسائلها ومنطقها ..
إنها تتعامل مع جوهر الأشياء ، لا مع الأشياء نفسها .. ولما كان جوهر السلطة في نظر القداسة ، الخضوع المطلق لحقوق الناس الذين يلي الخليفة أمرهم ، ويحمل مسئولية مصائرهم فإن مكانه إذن أن يكون بين أيديهم، وليسوا هم الذين بين يديه..
والشكل الذي رآه عمر ملائما للتعبير عن هذه الحقيفة ، هو جلوسه للناس على الأرض ٠. !!
اجل.. ليس مجرد الجلوس على الأرض الأمرالذي كان يعنيه، إنما هي الحقيقة المجيدة التي يمثلها هذا الجلوس.. حقيقة أن السلطة خضوع كامل لحقوق الناس تجاهها .. !!
وإذن فلتأخذ من ناحية الشكل أقصى مظاهر الخضوع ، كما ستأخذ من ناحية

"١ " توقلته : صعدت به .

المضمون أقصى مظاهر الالتزام.. ! ومن أجل هذا قعد الخليفة على الأرض ، لا يفصله عن ترابها سوى حصيرمتواضع..
قعد على الأرض ؛ ليهدم كل ما للسلطة من بذخ واستعلاء ، ولينزلها عن عرشها الصلف وكبريائها الزائفة إلى أرض البساطة ، والتواضع، والمرحمة ٠٠

!!
والقداسة التي تمتع بها ابن عبد العزيز، قداسة رجل أراه الله مناسكه.. فهو يرى بنور من ربه، ويطل من جميع النوافذ دون أن تحتبسه صومعة، أو يعطل رؤيته تزمت وانطواء .. إنها قداسة تبهرنا بما تنطوي عليه من فطنة وحذق ومضاء . فهل يتصور أحد أن قديسا كهذا القديس لا يكف عن العبادة والنسك ، يطلب إليه ذات يوم الموافقة على صرف مبلغ كبير من المال لكسوة الكعبة ، فيكون جوابه :
" إنى أرى أن أجعل هذا المال فى أكباد جائعة؛ فإنها أولى به من الكعبة " .. !!
هل يتصور حدوث ذلك من عابد ، ناسك ، قديس ؟ "
لكنها القداسة الذكية التى تحدق دائما في الجوهر ، وتضع على همسه العميق سمعها ، و تتتبع مواقع الحق، كما يتتبع الطير مواقع الندى.. !
إن هذا الناسك الأواب ، ليذكر له يوما نبأ واعظ يدعو الناس إلى طاعات لا يأتيها ، فإذا القديس يعلق على هذا بقوله: " لو أن كل امرئ لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يلزم بذلك نفسه، لما كان هناك أمر بالمعروف ولانهي عن المنكر.. ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة.. !! إنها قداسة ذكية نفاذة. .
قداسة رجل كان يدعو ربه دائما فيقول : " اللهم انفعني بعقلي" .. !!!
***
وهي قداسة أتيح لها أن تحدث تغييرا من أعدل وأنبل ما شهدت دنيا الناس من تغيير.. ! قداسة جاءت الحياة ، ومعها من الزهد ، والورع ، والطهر ، والتقى ، والعدل ، والرحمة ،ما كان الناس يحسبون أن الدنيا فرغت منه إلى الأبد .
قداسة لم تكد تجلس للناس على الأرض حتى أنبتت الأرض عدلا ورحمة..
وأمطرت السماء عدلا ورحمة .. ورعى الذئب مع الشاة ، في تآخ وسلام.. !!!
ولقد أنجزالقديس كل هذا التغييرالهائل الذي بدا وكأنه تغيير في كيمياء الزمن، وكيمياء الحياة .. أنجزه بمنهج لا ندري أنقول : إنه بالغ اليسر .. أم نقول : إنه بالغ الصعوبة . أم أن اليسر والصعوبة يتراجعان بعيدا ليفسحا المكان لوصف آخر أحق منهما وأولى.. ؟؟ اجل.. إن ذلك لكذلك..
فلنقل إذن : إنه منهج بالغ الإعجاز . !

الفصل السابع المنهج

" .. بل يصلحهم العدل والحق فأبسط ذلك فيهم.. " !!
كتب إليه واليه على خراسان يستاذنه في أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها قائلا في رسالته للخليفة: إنهم لايصلحهم الأ السيف والسوط ..
فكان رده التقي الحازم : " كذبت .. بل يصلحهم العدل والحق ، فأبسط ذلك فيهم ، واعلم ان الله لا يصلح عمل المفسدين".. !!!

***

العدل ، والحق .. !! بهما وعليهما سيقوم منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقهما اللاحب المستقيم ستمضي خطاه .. آخذا معه على ذاك الطريق جميع الناس أمراءهم ، وعامتهم .. أغنياءهم ، وفقراءهم.. أقوياءهم، وضعفاءهم..
والخليفة ، الذي نراه دائم البكاء ، بل النحيب ، كلما ذكر الله واليوم الآخر ..
والذي ينتفض تحت تقاه انتفاضة العصفور ، حتى لنحسبه لا يصلح لغير الصومعة يتحنث فيها ويتعبد.. ! هذا الخليفة ، سيبهرنا الآن ونحن نطالع منهجه وأسلوبه في الحكم ، حيث تطل علينا من ورا ء دموعه المنثالة روح عالية تناضل في جهاد مستبسل لبلوغ أسمى آفاق العدالة والحق .. وحيث تطل علينا كذلك بصيرة نافذة لا يفلت من ضيائها شىء ،وإرادة حازمة لا يهولها صعب، ولا يجفلها خطر...
وفجاة سنرى العينين السابحتين فى دموعهما دوما ، تحدقان كعينى الصقر..
وترسلان بريقا أخاذا يقنع كل من يتلقاه أنه امام عينين ثاقبتين ليس الى خداعهما سبيل.. !!

***

ان المصاعب المتطاولة ، والأخطار المحدقة ، والمؤامرات المتساوقة ، لن تزيد الإرادة الرافعة لواء العدل والحق الأ تقدما ومضاء .
فلتغن العواقب لنفسها ، أما هو فلن يبالي بما كان ولا بما سيكون منها .. بل سيضع يمينه في يمين الحق ، ويمضي معه إلى حيث يدمدمان معا على مظالم وظلمات الأعوام الستين التي سبقته في الحكم الأموي. والى حيث يجعلان ظلماتها نورا .. وهجيرها فردوسا .. وترفها قناعة .. وانحلالها ورعا . واستعلاءها تواضعا .. وقهرها رحمة . ورعبها أمنا ..
وبين يدي عزمه الرباني القدير ، راحت كلماته تقرع أسماع الغطرسة ، والتحدي : " والله، لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل الأ بتقطيع أوصالي وأعضائي، لأمضيت ذلك وأنا سعيد" !
" ووالله ، لو لبثت فيكم خمسين عاما ، ما أقمت الأ ما أريد من العدل" .. ا!
فلنتابع منهجه لنرى.

ولكن علينا الأ ندع التفاصيل الكثيرة تشغلنا ببهرها عن الأسس والقواعد .
وعلينا أن نقتصد في ذكر الوقائع والمشاهد التي تحكي خصائص المنهج وسماته ، حتى يفيء علينا هذا التركيز في الرؤية تركيزا مماثلا في نشوة العقل وغبطة الروح.
أي اننا سنكتفي من المنهج بنقاط ارتكازه ومحاوره التي تدور حولها بقية التطبيقات والتفاصيل.
و تتلخص هذه المحاور في :
نظرته إلى دور الدولة ووظيفتها ..
نظرته إلى دور الشورى ووظيفتها.
نظرته إلى دور المال ووظيفته .
موقفه من وحدة الأمة وسلامتها .
*أسلوبه في العمل.

***

فأولا : الدولة قدوة. .
إن الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة لا يأتون أمرا مذكورا ، فتلك سنة مألوفة معتادة : أن تحمي القوة القانون.
أما الحكام الذين يحمون القانون وينفذونه بالقدوة ، فأولئك الذين يجاوزون المألوف المعتاد إلى الخوارق والمعجزات.
ولقد كان ابن عبد العزيز واحدا من هؤلاء .
لقد كانت الدولة قبل عهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها ، إذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى.
والدولة عنده تمثل في كل الأجهزة العاملة، لكن يأتي في المقدمة دائما :
"1" الخليفة بوصفه رئيس الدولة .
"٢" الولاة بوصفهم حكام الأقاليم .
"٣"القضاة.
"٤" أمناء بيوت المال.
والخليفة - اى خليفة - وإن وضعته وظيفته ومسئولياته على رأس الدولة ، فانه يظل عاجزا عن أداء دوره مالم يقف معه في مستواه - أو قريبا من مستواه - ولاته وقضاته وأمناؤه على الأموال العامة .
ها هو ذا عمر يقول : إن للسلطان أركانا لا يثبت الأ بها.
فالوالي، ركن. والقاضي، ركن. وصاحب بيت المال، ركن.
"والركن الرابع أنا"..!
واذن، فلكي تكون الدولة قدوة في حمل دين الله وحقوق الناس، لابد من أن تتشكل هذه القدوة من سلوك هؤلاء الأربعة مجتمعين : الخليفة ، وولاته ، وقضاته ، وخزنته .. ولكي تكون الدولة قدوة ، لابد من أن تكون بمسئوليها جميعا ، وعلى رأسهم أمير المؤمنين ، طليعة العمل ورائده ..

وهكذا راح عمر يضع الدولة كلها - وهو على رأسها - في مكان القدوة ، حاملة وحاملا معها كل ما تلقيه القدوة من مسئوليات، وباذلا كل ما تتطلبه من تضحيات. وقبل أن يأمر ولاته وقضاته، وخزنته، بدأ بنفسه.
لقد تلونا آمن قبل كلمته العظيمة .
" لست الأ كأحدكم، غير أني أثقلكم حملا " ا!
وهنا ، نرى طريقته في وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم ، الحازم ، الفريد .. لقد كان دخله السنوي حتى اليوم الذي ولي فيه الخلافة أربعين ألف دينار .. هى حصيلته من مخصصاته كأمير أموي.. ومن الأرض التي كان يملكها . ومن نصيبه الوفير من ميراث أبيه عبد العزيز بن مروان.
والآن ، تتفتح بصيرته على الحقيقة العميقة ، فيرى أن هذا الثراء الفاحش الذي يمتلكه أمراء بني مروان وهومعهم - لم يبلغوه بعرق الجبين.. وما هذه الثروة المتمركزة في أيدي حفنات من الأمراء والسادة الأ حقوق الملايين وأقواتها سلبت منها بغير حق، وبغير سلطان.. !!
ومن فوره ، اتخذ قراره الحاسم بالغاء مخصصات الأمراء كافة، ومخصصات حرسهم وخدمهم، وقراره بنزع الاقطاعيات الزراعية منهم جميعا ، وردها إلى بيت المال. .
وبدا بنفسه ، فتخلى عن جميع أملاكه وأمواله!! حتى أرض فدك في خيبر وكانت خيرممتلكاته وأثمنها ،ولم يكن أحد أقطعه إياها ،بل ورثها عن أبيه .
ولكنه سال نفسه : ومن أين جاء بها أبوه .. ؟!
لقد أفاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم خيبر ، فخصصها لأبناء السبيل وظلت كذلك حتى ملك الأمر معاوية ، فوهبها لمروان .. ومن مروان ، وصلت إلى ابنه عبدالعزيز والد عمر .
نقول: حتى هذه الأرض ، تخلى عنها وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمها لملكية الدولة ،وأن يصرف ريعها ونتاجها ، حيث كان يصرف على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وخلفائه.
ليس ذلك فحسب.. بل لقد تنازل عن كل درهم في راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين. !
لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بقطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بحر ماله، ولم تكن تغل أكثرمن مائتي دينار في العام، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة.
مائتا دينار في العام، لرجل كان دخله منذ أيام لا غير - أربعين ألف دينار .. !
مائتا دينار ، لحاكم أعظم ، وأكبر ، وأغنى امبراطوريات عصره وعالمه ، يعيش بها طول العام وعرضه ، وتعيش معه أسرته التي كانت هي الأخرى منذ أيام لا غير تخب في النعيم خبا .. وتعب المباهج عبا .. !!!
ولكن، أي بأس!
أليس قد رفع الحق شريعة والعدل منهاجا ؟!

فليكن حسبه الأ تسقط الراية من يمينه . وليكن حسبه آن يحلق بها في مستوى تنقطع دون بلوغه الأنفاس.. !!
كل أرضه تركها للدولة. كل ثروته النقدية، دفعها إلى خزانة الدولة.. بل لقد جمع ثيابه وحلله الرافهة، وحلل زوجته وأولاده... ثم جمع مراكبه وعطوره ومتاعه، ثم دفع ثمنها الذي بلغ ثلاثة وعشرين ألف دينارالى بيت المال.
ثم حرم نفسه حتى حقها المشروع في راتب الخلافة الذي كان يستطيع أن يتنازل عن نصفه أو عن ثلثيه ، لكنه رفضه جميعا إلى آخر درهم منه .. وراح يعيش بعائد أرضه الصغيرة مائتي دينار في العام - بواقع ثلاثة أرباع دينار في اليوم، لأمير المؤمنين وزوجة أمير المؤمنين، وأولاد أمير المؤمنين. !
أفما كان يكفيه أن ينفرد هو بأعباء القدوة ، تاركا أهله وأولاده يحيون ولو في مستوى حياة أوساط الناس .. ؟؟
إنه يعتبر هذا - لو حدث - احتيالا على المسئولية، وهروبا من تبعات القدوة، ويرى النار تمد إليه السنتها اللاهبة، لتطوقه حسابا له وعقابا .. !!
ومن ظن اننا نبالغ في التصوير ، ونسرف في صيغ الألوان فليطالع هذه الواقعة : لقد عاد يوما إلي داره بعد صلاة العشاء ، ولمح بناته الصغار ، فسلم عليهن كعادته ، وبدلا من أن يسارعن نحوه بالتحية كعادتهن ، رحن يغطين أفواههن بأكفهن ويتبادرن الباب. فسأل :ما شأنهن.؟
فاجيب : بأنه لم يكن لديهن ما يتعشين به سوى عدس وبصل.. فكرهن أن يشم من أفواههن ريح البصل ، فتحاشينه لهذا ..
فبكى أمير المؤمنين، وقال يخاطبهن :
"يا بناتي.. ما ينفعكن أن تعشين الألوان والأطايب ، ثم يذهب بأبيكن إلى النار..؟"!
وترى إحدى بناته الصغار صديقة لها تزين أذنيها بلؤلؤتين جميلتين ، فترسل إحداهما إلى أبيها ضارعة أن يشتري لها مثلها .
ويدعو أمير المؤمنين خادمه، ويأمره أن يجيء بجمرتين ملتهبتين.. ثم يطلب ابنته فيقول لها : " إن استطعت ان تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك، جئتك بلؤلؤتين كهاتين" .. ا!
إن مسئولية القدوة - إذن - لا تنحصر فيه ، هو الخليفة والحاكم .. بل - وبحسب منهجه وتقديره - تنال أهله جميعا ، حتى بنياته الصغار . !
وهكذا راح يحملهم على التضحية في سبيل المسئولية والقدوة .
اقترب يوما من زوجته فاطمة ،وقال لها :
" إنك لتعلمين من أين أتاك أبوك - عبد الملك بن مروان- بهذه الجواهر، فهل لك أن أجعلها في تابوت ، أضعه في أقصى بيت المال ، وأنفق ما دونه ، فإن خلصت إليه أنفقته في حاجات المسلمين".. ؟؟
ولم يكن قد بقي لفاطمة سوى هذه الحلي وهذه الجواهر ، وهي عزيزة عليها ؛ لأنها هدية ابيها لها في عرسها وزفافها. ولكنها لا تجادل زوجها القديس حتى

في هذه . وتجرد منه نحرها ، ومعصميها ، في غبطة ورضا . !
***
ويغادر - أمير المؤمنين - قصور الخلافة ، ويأوي إلى دار متواضعة . ثم لا تشهد هذه الدار إيقاد النار الأ لماما..
ويأخذ على نفسه العهد الأ يستحدث لنفسه شيئا من أشياء الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه ٠٠
يحدث ابن عياش، فيقول : كان لعمر مرقاتان يرقى عليهما من صحن داره إلى حجرته.. فتهدمت إحدى المرقاتين، فأعاد بناءها رجل من أهله..
فلما جاء عمر ووجدها ،سأل: من صنع هذا .. ؟
قالوا : فلان قال: إلي به.
فلما جاء قال له عمر : "ويحك أنفست على عمر أن يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة. ؟!
والله ، لولا أن يكون هدمي لها إفسادا بعد إصلاح لهدمتها ورددتها إلى ما كانت عليه.. " !!!
***
ويدخل عليه في داره أحد خاصته المقربين ، فيجده بركن منها تغطيه الشمس ،وقد دثر جسمه كله في إزار .. وحسبه الزائر مريضا ، فسأله ما باله .. ؟
فاجاب أمير المؤمنين : " لا شيء ، غير أني انتظر ثيابي حتى تجف" ..
قال الزائر : وما ثيابك يا أميرالمؤمنين .. ؟
قال عمر : قميص ، ورداء ، وإزار..
قال صاحبه : الأ تتخذ قميصا آخر ورداء، وإزارا ؟
قال الخليفة : كان لي ، ثم بليت .. !!
قال الزائر: الأ تتخذ سواها.؟
وهنا شرقت كلماته بدموعه ، وراح يجبش بالبكاء مسندا جبهته على راحتيه ، مرددا آية القرآن الكريم:
" تلك الدارالآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين؟.!
ولما كان يريد للدولة في عهده أن تكون رحمة وحنانا ؛ فقد راح يمزق عنها كل أقنعة الصلف والكبر والتمايز .. وأيضا ، بدا بنفسه ، فمنع الحراس أن يسيروا بين يديه . بل منعهم كما منع الناس جميعا أن يقوموا له حين يطلع عليهم ، وقال لهم : " إنما يقوم الناس لرب العالمين" !!
وناداه يوما رجل من المسلمين قائلا : ياخليفة الله في الأرض ..فأخذته الرعدة الصالحة ، وصاح في الرجل : "" مه.. إني لما ولدت أسماني أهلي عمر ،فلو ناديتني يا عمر ,أجبتك..
ولما كبرت اخترت لنفسي كنية، فكنيت أبا حفص ، فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتك .

ولما وليتموني آموركم سميتموني آميرالمؤمنين ، فلوناديتني يا آميرالمومنين أجبتك. وأما خليفة الله في الأرض، فلست كذلك..
إنما خلفاء الله فى الأرض رسله وأنبياؤه" .. !
ومنع الدعاء له فوق المنابر في خطبة الجمعة . وأرسل بذلك كتابا حازما إلى ولاته في جميع الأقاليم، قائلا فيه: "مروهم فليصلوا على النبي عليه السلام، وليكن فيه أطناب دعائهم وصلاتهم.. ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات .. وليستنصروا الله .. وليكن دعاؤهم لعامة المسلمين ..
وليدعوا ما سوى ذلك" !!
***
واذا كان قد حمل وأهل بيته معه مسئولية القدوة على هذا النحوالمجيد والفريد . إذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين ؛ فإن هذا لا يكفيه ، بل لابد من أن يحملها أيضا أمراء بني مروان جميعا طائعين إن شاءوا ..وإن أبوا فكارهين. .!! لن يدعهم يتبذخون باسمه ، ويتخذون من قرابته ملجأ ومغنما . إذا كان ولابد ، فلتكن هذه القرابة ملجا لهم من أطماعهم وشهواتهم .. ومغنما بالتزامهم منهج أميرالمؤمنين..!
أما دون ذلك ، فلن تكون دنياهم في عهده كدنياهم قبل عهده.
لن يظلوا طبقة فوق الأمة .. ولن يدلف إلى قصورهم وجيوبهم ثلث الدخل العام للدولة ، كما كان أمرهم من قبل أن تهل على الدنيا أيام الأغر ابن عبد العزيز .. ا! ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الإبقاء على بعض امتيازاتهم ، فلما اخفقوا راحوا يناورون، ولما أخفقوا ،راحوا يهددون.
لكن رجل القداسة وقف لهم كالقدر ، وأحكم وضع الشكائم على غرورهم وأهوائهم، ثم دفع بهم جميعا أمامه على طريق العدل والحق ، مصفيا ترفهم المنهوم.. !
حدث يوما أن أرسل إلى كل أمير وأميرة بقدر من المال يدبرون به أمورهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشنة، فتنادوا واجتمعوا ، وقرروا أن يوفدوا إليه صديقا له يرجوه باسمهم أن يرفع لهم العطاء ..
فكان جوابه لهذا الصديق : " والله لقد ندمت على هذا الذي أعطيته إياهم ، وإنى لأعلم أن في المسلمين من هو أحق به، وأحوج إليه منهم" .. !
وعاد مبعوثهم إليهم يقرع أسماعهم بكلماته المنذرة ، ويقول لهم : "يا بنى أمية. لا تلوموا الأ انفسكم ، فقد عمدتم إلى صاحبكم عبد العزيز بن مروان فزوجتموه حفيدة عمر بن الخطاب ،فجاءتكم بعمر بن الخطاب ، ملفوفا في ثياب عمر بن عبد العزيز ، فلا تلوموا الأ انفسكم " !!!
* **
ويعود الخليفة ليضع كلتا عينيه على الولاة والقضاة ، والأمناء على الأموال العامة - أولئك الذين سمعنا 0 من قبل ينعتهم بأنهم والخليفة معهم يشكلون أركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى ان الولاة ؛ بحكم كونهم نوابه في حكم الأقاليم . والقضاة ؛ بوصفهم أهل الفصل في مصائر الناس بما يملكون من كلمة الشريعة والقانون . وأمناء بيوت المال ؛ بما لهم من سيطرة مباشرة على الأموال العامة وأرزاق الناس . نقول : كان يرى في هذه المناصب أخطر مناصب الدولة وأكثرها ثقلا وحساسية .. كما كان يرى في استقامة أمرها العامل الأول والأهم لتمكين الخليفة من حمل مسئولياته في قسطاس وسداد ..
وهكذا راح القديس يستكمل سمات القدوة للدولة ، باختيار ولاته ، وقضاته ، وأمنائه في حرص من يختار عاقبته ومصيره ! ولقد كان من المفروغ منه أنه لن يجد من هؤلاء من هو في مستوى ورعه ، وشموخ نسكه وفضائله ، فراح يجتهد في العثور على من يكونون في مستوى رجائه وثقته .. وسارع ، فعزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا في خدمة المظالم السابقة ، ثم ولى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة ، أمثال : أبي بكر بن حزم ، وعبد الرحمن القشيري ، وعدي بن أرطاة الفزاري ،وآخرين من طرازهم وإخوانهم:
وكان أول ما أوصاهم به ،هذه الوصاة الجامعة الرائعة : " كونوا في العدل والإصلاح والإحسان بقدر من كانوا قبلكم في الظلم والفجور والعدوان".. !!
كذلك ، كان أول ما قدم به ولاته للناس هذه الكلمات الأمينة : " إني قد وليت عليكم رجالا .. لا اقول : انهم خياركم ، ولكني أقول : إنهم خير ممن هم شر منهم " ا!
انه رجل يضع ذاته كلها فوق الميزان.. وإن كل حركاته وكلماته وقراراته ، ومشاعره لتتحرك بقدر معلوم . !!
ويمضي ولاته إلى أقطارهم ، ويسهرون على مسئولياتهم في ولاء صادق .. تقودهم على الطريق وتثبت أقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم العادل القديس .. هذه السيرة التي كان أريجها ينتشر انتشار الضياء ،وعبيرها يفوح ويهب هبوب الرياح والبشريات. .
لقد راحوا يخجلون من كل تقصير يبدر من أحدهم .. وإذا سولت لأحدهم نفسه ، شفاها من وساوسها بمجرد تذكر خليفته القديس في حياته الشظفة ، ورقاعه البالية! وراح الخليفة يواليهم برسائله ووصاياه .. وصية من بعد وصية ،وكتابا وراء كتاب. . لنقرأ واحدا من هذه الكتب : " .. أما بعد
فان من ابتلي من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتلي بلية عظيمة !
فنسأل الله عافيته وعونه.. وإني أدعوك أن تقف نفسك في سرك وعلانيتك، عند الذي ترجو به النجاة من ربك.. تذكر ما سلف منك من خطأ فأصلحه ، قبل ان يتولى صلاحه غيرك. ولا يمنعك من ذلك قول الناس.. وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحا في دينهم وأعراضهم..
واستر كل عوراتهم.. واملك زمام نفسك تجاههم إذا هويت، واذا غضبت" !!
***

وكما أحسن اختيارولاته أحسن اختيارقضاته ، وأمناء بيوت المال.
وأمرهؤلاء وأولئك أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الأمناء على دين الله، ودنيا الناس.
وراحت أضواء قداسته وقدوته تتعالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية، وسعت الدولة كلها والأمة جميعها بأنوارها الغامرة وهداها الوثيق.

***

و ثانيا الشورى ضرورة..
وننتقل الآن إلى المحور الثاني من محاور منهج الحاكم القديس وأسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفا فذا يمتاز بالعمق وبالشمول.
لقد أدرك ان كل ما يشيده من دنيا صالحة ، وعالم قويم ، لن يكون ثمة ضمان لاستمراره وإنمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه .. وتمثل له هذا السياج في توسيع قاعدة المسئولية حتى تنتظم أصحاب الحق فيها ، حاكمين ومحكومين .. والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة .. وبعث رأي عام ناصح ، وصادق ، وشجاع ، ينقد الأخطاء ويسهم في إصلاحها .
لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد .. لكن ديمقراطية الحاكم مع ذلك كانت تبين وتسفر كالشمس من خلال أسلوبه في الحكم، وطريقته في اختيار ولاته وبطانته ، واستعداده لتقبل النقد ، وسماع كلمة الحق ، ونظرته إلى الأمة التي يحكمها ، ومدى ولائه لحقوقها وحرياتها .
وبهذا المعيار والمسبار ، يقف عمر بن عبد العزيز في هذا المجال وكأنه نسيج وحده !!!
لقد أحاط نفسه بالأبرار الذين لا يخافون في الله لومة لائم، والذين لا يزيفون ا قتناعهم، ولا يلبسون الحق بالباطل، وإن قطعت منهم الرقاب..
جمعهم حوله ، يفكرون معه .. بل لقد كان يوصي بعضهم أن يجلس تلقاءه وهو في مجلس الحكم، ويضع عينيه المفتوحتين على حديثه، وحركاته ، فإن نسي وقال كلمة ، أو أتى حركة فيها شبهة من خطإ، نبهوه على الفور بأشارة، تعارف وإياهم عليها ..

***

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، وليست ترف .. وآمن بأنها كلما اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم، وشاع الحق، واستوثق العدل،وعاش الناس كما يريد لهم دينهم، وكما ولدتهم أمهاتهم أحرارا ...
من اجل ذلك، راح في سرعة الضوء يخلق رأيا عاما صادقا أمينا ، في طول آل دولة وعرضها.. وراح يضع الحاكمين والمحكومين وجها لوجه أمام مسولياتهما المشتركة ، بل الواحدة في دحض الخطأ والتزام الصواب..
فيكتب للولاة قائلا : " إنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيا . الأ أن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم"!!

ثم يكتب للنا س في مختلف الأقاليم قائلا : " أي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم. وقد صيرت أمره إليكم، حتى يراجع الحق وهو ذميم... !!! "
ويرسل إلى أحد ولاته قائلا : " قد كثر شاكوك.. وقل شاكروك.. فإما اعتدلت.. وإما اعتزلت" !! هكذا رفع سلطة الشعب في وجه سلطة الحكم ، وأسلم نواصي ولاته وعماله للراي العام يقودهم على طريق الحق طائعين أو كارهين.
ولكي يدعم هذه السلطة ، فتح أبوابه على مصاريعها لكل شاك أو متظلم من حاكمه وواليه.. وأرسل منشورا موجزا إلى جميع الأقطار: " من ظلمه إمامه مظلمة، فلا إذن له علي" . أي ليقتحم علي داري، غير منتظر إذنا، وغير واقف بباب!

***

وانه ليبهرنا أسلوبه الفريد في بعث الرأي العام الشجاع ، وتزكية حرية النقد ، وشد زنادها إلى أقصاه . ففي سبيل ذلك ، نراه يرسل من بيت المال جوائز مغرية لكل من يكشف عن خطأ ، ويهدي الى صواب. !!!
ولنطالع في إجلال ، المنشور الذي كتبه ، ثم أمر أن يقرأ على الناس في المواسم والمحافل والمجامع : أما بعد .. فأيما رجل قدم علينا في مظلمة نردها ، أو أمر يحيي الله به حقا ، أو يميت باطلا ، أو يجيء بخير ..فله منا ما بين مائة دينارالى ثلاثمائة دينار . بقدرما يتكاءده "١"فى ذلك من طول السفر وبعد الشقة" .. !
اليس عجبا هذا الذي نقرأ ونرى.. ؟؟
ألا ، وإن أعجب من ذلك، أن بطل هذا كله رجل لم تكن بيئته ولا عصره بقادرين على تشكيل بنانه . لكنها صبغة الله. ومعجزة الإسلام.. !!!
ولكم كان صادقا حين قال : "لو وكلني الله إلى نفسي لكنت كغيري".
لقد راح يضرب المثل الأسمى والقدوة الباهرة في تقبل النقد - هو الذي لم يعرف الناس له خلال خلافته كله خطأ واحدا يستأهل النقد والتفنيد ..
ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول له :
الى أين؟ ولماذا ؟! هنالك يربت كتفه ، ويدنيه منه ، ويقول له : " زدني يا أخى، جزاك الله خيرا " ا!
إنه يلتمس الحكمة والصواب وراء السنة الصادقين حتى حين يكون أحدهم طفلا ..
قدم عليه وفد من المدينة يوما ، وتقدم من بينهم غلام صغير ليتحدث باسمهم ويعرض قضيتهم، فتملاه أمير المؤمنين،وقال له: " يا بني.. دع القول لمن هو أسن منك" .
ويبدو أن الغلام العربي الاصيل كان يحمل نبوغا مبكرا ، فقد أجاب الخليفة من فوره : "يا أمير المؤمنين: المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ..
ولو كان الأمر بالسن،لكان في المسلمين من هو أحق بهذا الأمر منك" .. !

وفجاة، تنثال دموع الغبطة والفرح من عيني القديس، ويتهلل وجهه، ويهتف بالغلام : "" صدقت .. صدقت .. عظني يابني..!"
وإن أحد الناس ليقتحم مسجد المدينة يوما شاهرا سيفه ، يسب ويشتم أمير المؤمنين على ملإ من الناس ، وعلى مسمع من المدينة وحاكمها ، فيعتقله الوالى .. ويرسل لأمير المؤمنين بأمر÷، ويقول في كتابه: لقد هممت أن أقتله .. ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها فورا : " أما والله لو أنك قتلته لقتلتك به" .. !!

"١ " أي يصعب عليه.

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجل من عامة الناس رافعا عقيرته في وجه الخليفة بكلمات تثير غيظ الحليم .. فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل : " لعلك أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان ؛ فأنال منك اليوم في الدنيا ما تتقاضاه مني غدا عند الله. ولكن، لا.. قم عفا الله عنك " . !!!
ومن أذكى وأبلغ ما أداه ابن عبد العزيز في سبيل إنهاض رأي عام أمين على مسئولياته وقادر عليها - حسر ذلك المد الطاغي لدولة الشعر والشعراء التي كانت قائمة يوم ذلك.
لقد رأينا فيما سلف من حديث ، كيف اصطنع الأمويون الشعراء لتزييف الحق ، ولتمكين سلطانهم على حساب كل القيم والأخلاقيات ، حتى لقد كانوا عقبة كئودا في سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها .. والآن ، يتقدم البطل والقديس ، مطلقا رياح الحقيقة وراء هذا الضباب فتكنسه وتبدده ، وتترك آفاقا لمعرفة نظيفة نقية مشرقة بنور الحق وحده! ..
لقد وقف يخطب الناس فقال: " من أراد ان يصحبنا ، فليصحبنا بخمس ، أو فليفارقنا :
يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها.
ويعيننا على الخير بجهده..
***ويدلنا على ما لانهتدي إليه من الخير.**
***ولا يغتابن عندنا أحدا .**
ولا يعرضن لما لا يعنيه .. "
ومن الدلالة الطريفة والبالغة ، أن جميع كتب التاريخ التي تنقل هذا الخطاب، تتبعه بقولها : " فا نفض عنه الشعراء والخطباء
وثبت معه الزهاد والفقهاء .. ! "
أجل.. فمعظم شعراء عصره - وعلى رأسهم الأخطل ، والفرزدق، وجرير لم يكن لهم مع هذه الخمس، ولا مع واحدة منها رحم ولا قرابة..!
فهم إما مادحون بغير حق.. وإما هاجون بغير حق أيضا ..

وهم في كلتا الحالتين يحرمون الرأي العام رؤية الصدق بما ينشرون من أضاليل وبهتان.
والآن، يجيئهم رجل عظيم،لاحاجة به إليهم. فليست له عداوات، يحتاج للشعر في تأجيجها .. وليس له طموح ، يحتاج للشعر في قرع الطبول له ..
وليست له شهوات يحتاج للشعر في تزيينها ،ولا أخطاء بحاجة لتبريرها .
وليس له بالسلطة ولع، فيحتاج للشعرفي حمايتها واستبقائها .
ثم إنه لا وقت لديه ، ولا وقت لدى أمته لهذا الهذر العريض الذي ملأ به الشعراء ساحة العصر الأموي كله .. !!
وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابه ، ولم يعد أحد منهم يظفر بدرهم واحد من أموال الأمة ، مكافأة على مدح أو اتقاء لهجاء .. !!!
ورا ح - أمير المؤمنين - يشرف بنفسه على امداد الرأي العام بكل الصدق ، وبكل الحقيقة عن طريق منشوراته التي كان يرسلها للولاة، ويبعث بها إلى مختلف الأقطار كافة. .
ولقد بدأ يدحر تلك الخطينة الفاحشة التي كان الحكم الأموي يمارسها في سفالة ، وهي لعن الإمام علي كرم الله وجهه على المنابر.. !
وأمر أن يقرأ الخطباء مكان الكلمات الآثمة تلك الآيات الطاهرة: " ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إئك رءوف رحيم "
" إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي،يعظكم لعلكم تذكرون "
لقد وضع الكذب، ورفع الصدق.. ودحر الباطل، وآزر الحق..
وكان ذلك إسهاما فعالا في إنهاض رأي عام حصيف وأمين..
وأميرالمؤمنين عمر يدرك عظمة الشورى وقيمتها إدراك حاكم عادل صالح فحسب .. بل إنه ليدرك كذلك جوهرها إدراك فيلسوف .. !!
فهو لا يرى فيها مجرد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالأمة ، وتبادل المسئولية تجاه الدولة والمجتمع.. بل يمضى فى اتجاه التحليل النهائى لجوهرها ووظيفتها ، ليرى ذلك متمثلا في ظفركل فرد من الناس بحقه في اختيار اقتناعه. وحق هذا الاقتناع في التعبير عن نفسه، في غير زيف أو غموض..
ذلك أن الناس حين يزيفون اقتناعهم بسبب رغبة ، أو رهبة ، فإنه يستحيل في الوقت نفسه ، وللسبب نفسه معرفة آرائهم.
وما دامت الآراء الصادقة هي مادة الشورى وأداتها ، فإن اختفاء هذه الآراء إذن ، يعتبر وأدا للشورى والغاء مهمتها .. وهنا تطل علينا عظمة القديس عمر وهو يضع اقتناع الناس حتى حين يخالفهم ويخالفونه - موضع القبول والتقدير ..
والوقائع التي تحكي ولاءه الوثيق لحرمة الاقتناع تزدحم بها الشهورالتسعة والعشرون التي قضاها خليفة وإماما . لكننا نختارمنها هذه الواقعة التي تكاد تعطينا التعبيرالنهائي لهذا الولاء.

لعلنا نعرف الكثيرعن الخوارج الذين انشقوا على الإمام علي كرم الله وجهه، حتى اغتاله واحد منهم .. هؤلاء الذين تحولوا بعد ذلك ، وخلال العصر الأموي إلى فرق كثيرة ، حملت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كثرا ذهب منهم خلاله ألوف الضحايا .. وبالإضافة إلى نشاطها المسلح هذا ،فقد كان لبعضها آراء وعقائد لا يزكيها قرآن ولا سنة . ومع ذلك كله ، نرى الخليفة العابد الأواب لا ينسى حتى في فتنهم هذه ، حقهم في أن يكون لهم اقتناعهم، ثم لا ينسى واجبه في احترام هذا الحق لهم، وواجبه في اعطائهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت مرتفع، مادام نشاطهم لا يتحول إلى عمل إرهابي يستهدف سفك دماء ألآخرين الذين يخالفونهم في اعتقادهم واقتناعهم .. بل اننا سنراه يرى بحصافته الباهرة، أن السبيل الأمثل لصرفهم عن التآمر والارهاب، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ، وتمكين الرأي الحبيس المكبوت من الانطلاق ، قبل أن يتحول داخل نفس صاحبه المقهورة إلى حقد موتور ، وقذيفة رعناء .. !!!

وهكذا ،لا تكاد تلك الفرق تتحرك في الأيام !! الأولى من خلافته ، مستأنفة تمردها المسلح، حتى يرسل إلى زعيمها هذا الكتاب : " أما بعد ... فقد بلغنى أنك خرجت غضبا لله ولرسوله .. ولست أولى بذلك مني.. فهلم أناظرك... فان يكن الحق معنا ندخل فيه وإن يكن الحق معك نراجع أنكفسنا وننظر في أمرنا .

ويقرأ الزعيم الثائر كلمات القديس فيخجل من نفسه، ويلقي سلاحه، ويرسل مبعوثين إلى عاصمة الخلافة ، يجريان مع الخليفة حوارا حول ما بينهما من قضايا وخلاف.. ويجري الحوار بينهما رائعا صادعا ، تتجلى خلاله موهبة ابن عبد العزيز في رؤبة الحقيقة ، وتوجيه المنطق وامتلاك الأفئدة والعقول.. ! ثم تكون عاقبة هذا الموقف العظيم ، أن تلقي تلك الفرقة المتمردة سلاحها - بعد ما تبينت أنها فى عصر رجل جديد ينتمى لعصر النبوة والوحي.. رجل يخجل الشيطان نفسه أن يشغب عليه أو يتحداه .. !!

على أن لهذه الوا قعة - برغم دلالتها المفيضة - مثيلا آخر يكمل الصورة التي ترسم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الرأي وحرمة الاقتناع .

فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من منطق الخوارج وحججهم، لم يرى القوة قط سبيلا لدحض هذا المنطق واسكاته بل رأى أن قيام منطق أهدى ، وحجة أوضح وأصدق ، هو السبيل لإظهار الحق وإخماد الباطل.

وهكذا نلتقى به ، وقد قامت فرقة أخرى من الخوارج - هم حرورية الموصل يسيحون في البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم.. ويكتب إليه حاكم الموصل، يستأذنه في قمعهم وإسكاتهم..

أقول : نلتقى بأمير المؤمنين يجيب واليه فيقول : " إذا رأوا أن يسيحوا فى البلاد فى غير أذى لأهل الذمة.. وفى غير أذى للأمة. فليذهبوا حيث شاءوا

وإن نالوا آحدا من المسلمين، آو من آهل الذمة بسوء ، فحاكمهم إلى الله. بالله، ما أعدله.. وما أروعه.. !!
إنه لا يرى لنفسه حقا أي حق في الحجر على آراء الآخرين، ولا فى الوصاية عليها..
وهو كحا كم لا يرى لنفسه أي حق في التدخل الأ حين يواجهه خطر مسلح يتهدد سلامة الدولة والأمة..
أما دون ذلك، فلكل رأي حرمته، ولكل اقتناع حقه وحريته.. وهذا النهج الرأشد السديد، هو الذي مكن للشورى في عهده تمكينا تكاد تتقطع دون بلوغه أنفاس كل الديمقراطيات.. !!
ولطالما قالوا له يومئذ : إن هؤلاء الخوارج ينشرون بين الناس افكارا زائفة، ويلبسون الحق با لبا طل، وإن تركهم يجوبون البلاد بعقائدهم هذه، عمل ينذر بسوء مآب.. فلا يزيد القديس العادل على أن يذكر محدثيه ومحرضيه بآيات القرآن العظيم التى نهى الله فيها رسوله عن ان يسوس ضمائر الناس بالقهر والبطش: " أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" . ؟ "وما أنت عليهم بجبار " " إنما انت مذكر لست عليهم بمسيطر"!!
ولقد وقفت العواقب بجانبه ، واثبتت صدق رايه وذكاء تقديره . فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يوما واحدا منذ حكم معاوية ، حتى سليمان بن عبد الملك ، والذين لم تزدهم كثرة ضحاياهم الأ إمعانا في التحدي وضراوة في القتال.. نراهم في عصر هذا القديس الجليل يغمدون سيوفهم، وينسون طوال عهد خلافته كل ما لهم عند الأمويين من ترات، وثارات...!
***
و ثالثا :المال وديعة..
وأمام المشكلات الاقتصادية ، ومشكلات الدخل والتوزيع التي تحير الدول فى كل العصوروالأزمان ، لم تأخذ عمر حيرة ، ولم تعضله أزمة ..
ذلك أنه مؤمن بأن الحق والعدل قادران على تدبير أمرهما أعظم وأهدى مما تدبر ألمع عبقريات التنظيم والاقتصاد .
والدولة المسلمة - يومئذ لم يكن ينقصها المال. . إنما كان ينقصها اتباع الحق في تقاضيه ..واتباع العدل في توزيعه .
وقبل هذين ، بعث حرمة الأموال العامة وقداستها فى ضمير الدولة ، بكل مسئوليها .. وفى ضمير الأمة ، بكل أفرادها .. إن موقفه من الثروة القومية ، يبدأ من إيمانه بقول الله تعالى : " وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ".
فمصادر الإنتاج والإنتاج، والثروة .. كل ذلك إذن وديعة الله عند الناس دولا ، و أمما ، وجماعات ، وأفرادا ..
ولودائع الله هذه حرمتها التي تنأى بها عن التلف، والسرف، والبغي، والاحتكار.. فإذا اكسبت هذه الودائع صفة أخرى ووصفا آخر ، فصارت أموالا عامة ، فإن حرمتها وقداستها تربو وتزداد..

ذلك أن معنى كونها "أموالا عامة" إنها حقوق شائعة وثابتة لكل أفراد الأمة .
لكل أرملة فيها، وكل يتيم. لكل مسن، وطفل، ورضيع..لكل فقير، وعاجز، ومريض.. وهي بهذه المثابة ،مثابة انها - أولا: ودائع الله. وثانيا : حق الناس، جميع الناس. تتمتع بحرمة بالغة ، وقداسة وثقى ..
و ابن عبد العزيز يرى نفسه مسئولا عن اعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحق ..
وانه ليعبر عن ذلك في كلماته الفاصلة : إنما أنا حجيج المسلمين في مالهم كما يعبر بسلوكه تجاهها تعبيرا يبهر الألباب.. إنه يرسل خادمه يوما ليسخن له الماء كي يتوضأ به في يوم شات زمهرير.. ويعود الخادم مسرعا بالماء الدافىء ، فيسأله الخليفة : أين أدفأه بهذه السرعة .. ؟
فيجيب الخادم : في مطابخ المسلمين ..
وكان- عمر - قد توسع في إنشاء مطابخ عامة للناس ينفق عليها من بيت المال .
فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض أن يمس الماء جسده حتى يذهب الخادم إلى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدرالضحل جدا من الماء.. !!!
وإنا لنعرف تلك الواقعة المتواترة، حين كان يباشر أمور الدولة ليلا على مصباح يؤخذ زيته من بيت المال، فإذا عرض له في أثناء ذلك طارئ شخصي - ولو كان لا يستغرق سوى لحظات - فإنه يطفىء مصباح بيت المال، ويوقد شمعته أو مصباحه، حتى ينتهي من ذلك الطارئ.. !!
و لقد يرى بعضهم في هذا المسلك نوعا من التزمت المغرق.. ولقد يرون في إعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام الورع من رئيس دولة عظمى، كالدولة التي كان يحكمها - ابن عبد العزيز - أمرا غير مألوف.. وربما غير مستساغ. غير أنهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتهم أن الذي كان يحرك اهتمام الخليفة وورعه، لم تكن تلك الشكليات ذاتها ، إنما هو المعنى الكبير الذي يملأ ضميره ، ويشكل سلوكه تجاه الأموال العامة وحرمتها وقداستها..
وبعد ذلك يستوي أن يكون هذا المال : عدل درهم من زيت مصباح.. أو ملء حجرة فضة وذهبا. .!
إنه يذكر، ويذكرالناس دائما بالآية الكريمة:" ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة " !!
والغلول عنده في أحقر الاشياء ، مثله في أكثرها وأخطرها ..وفيما يستأثر به لنفسه، مثله فيما يجود به على غيره!! بل حتى الهدايا ، رآها غلولا ، أوشيئا يشبه الغلول .. جاءته يوما هدية ، فاعتذر عنها - فقيل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية..
فاجاب قائلا: لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رشوة !!

***

إن موقفه من أموال الأمة لعجيب . ثم عجيب .. !!

وإن لها في فؤاده الذكي التقي لحرمة تضاهي حرمة الإيمان ذاته، وحرمة التوحيد .. !!
يطلب منه أحد ولاته الإذن بمزيد من الشموع التي كانت دار الإمارة تضاء بها ، ويضاء بها للأمير وهو في طريقه إلى المسجد لصلاة العشاء والفجر .. فيجيبه الخليفة بكتابه هذا : " لقد عهدتك يا بن أم حزم ، قبل أن تكون واليا ، تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ..
ولعمري، لأنت يومئذ خير منك اليوم، ولقد كان في فتائل أهلك ما يغنيك" !!!
ويكتب إليه وال آخر ، يطلب المزيد من الأقلام وورق الكتابة، فيجيبه الخليفة أيضا : " إذا جاءك كتابي هذا ، فارق القلم ، واجمع الخط ، واجعل الحوائج الكثيرة في الصفحة الواحدة .. فإنه لاحاجة للمسلمين في فضل قول أضر ببيت مالهم... " !
هنا بيت القصيد .. "أضر ببيت مالهم" !!
فالمشكلة ليست مشكلة قليل أو كثير من الشموع والاقلام والأوراق.. فما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعا وأقلاما وورقا .. إنما المسألة في وعي الحاكم القديس هي حرمة هذه الأموال وقداستها .. هي تجنب التفريط فيها .. هي درجة الولاء لمسئولية رعايتها وحفظها .. وبهذا المعيار يصبح كل عبث بها مرفوضا مهما تكن ضالة مقداره.. ذلك أن الإسراف الذي يتمثل اليوم في شمعة أو قلم .. سيتمثل غدا - إذا استهين بأمره – فيما هو أوخم عاقبة وأسوأ مصيرا ..!
هكذا أرسى لحرمة الأموال العامة قواعد رأسخة من الإجلال والتقديس .
ونعود إلى موقفه من مشكلة الدخل والتوزيع .
فلنا : إن الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء. إنما كان ينقصها تقصي الحق في جمعه .. والعدل فى توزيعه .. ففيما يتعلق بالدخل .. نرى الخلفاء قبله ، وقد ارهق الترف والسرف ميزانية الدولة ، راحوا يعوضون ذلك بجمع المال بوسائل غيرمشروعة ، وضرائب غير عادلة .. فاهل الكتاب الذين يعتنقون الإسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة الجزية فورا . لكن الدولة الأموية تأبى في ذلك حكم الإسلام ، وتبقي الضريبة فوق كواهل الذين أسلموا ، مسوغة ذلك بأنهم إنما يسلمون فرارا من الضريبة .. !!
ويجيء الخليفة العادل فيرفض هذا التسويغ الزائف ، ويعلن أن فرح الإسلام بفرد واحد يدخل في دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الأرض مالا وذهبا .
ويطلق أمير المؤمنين كلماته المضيئة هذه : " ان الله بعث - محمدا – هاديا ولم يبعثه جابيا " !
ولقد أرسل إليه واليه على العراق عدي بن أرطاة يقول: إن الناس قد دخلوا في الإسلام أفواجا ،حتى خشيت أن يقل الخراج" .
فيجيبه الخليفة المقسط العظيم : والله ، لوددت أن الناس كلهم يسلمون ، حتى نكون أنا وانت حراثين ، نأكل من كسب أيدينا . !!! .

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التي كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على الناس فالغاها جميعها . بل حتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح، أو تتعرض لبوار. هاهو ذا يكتب لواليه على اليمن عروة بن محمد : اما بعد .. فقد كتبت الي تذكر أنك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة في أعناقهم، كالجزية يؤدونها على كل حال.. إن أخصبوا ، أو أجدبوا .. إن حيوا ، أو ماتوا . فسبحان الله رب العالمين!! ثم سبحان الله رب العالمين ا!
" إذا أتاك كتابي هذا ، فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق..
واعلم أنك إن لم ترفع الي من جميع اليمن الأ حفنة من كتم "١" ، فقد علم الله أني سأكون بها مسرورا ،مادام في ذلك بقاء على الحق والعدل" .. ا!
ولعل بعضنا يأخذه العجب . فبينما كان المتوقع منا ونحن نتحدث عن الدخل أن نشير إلى اكتشاف مصادر جديدة تزيده ، وموارد ثرة تضاعفه وتنميه ، إذا بنا نطري سياسة الخليفة تجاه الدخل العام، لأنه ألغى الكثير من تلك المصادر والموارد . ؟!

"١" الكتم : نبات يخضب به الشعر، ويصنع منه مداد للكتابة.

ولكن ، ما حيلتنا ، وهذه فلسفة القديس المبارك الميمون - ابن عبد العزيز ..؟!
إن المسألة عنده ليست مسألة كثرة .. بل مسألة وفرة ..
والوفرة، تكون في بركة الحلال المشروع ، لا في كثرة الحرام المغتصب ..
ولعل من واجبنا قبل أن نغادر هذه النقطة من الحديث ، أن نقول لبعض المؤرخين الذين يردون اضطراب مالية الدولة بعد موت أمير المؤمنين - عمر - إلى سياسته الضرائبية هذه . ومن واجبنا ان نقول لهم : اغلب الظن انكم مخطئون. فلقد سارت الأمور في عهده كله على أتم نسق. ولم تكن تنذر بأي عجز أو اضطراب. بل كانت على العكس من ذلك، ترهص وتبشر بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار .
إنما اضطربت فيما بعد ، حين غاب - البطل - عن مسرح العدالة والحق .. وعاد الترف والسرف والفساد ، وسياسة السطو مرة أخرى تعبث وتمرح ، بعد أن رحل الحارس اليقظ، والحاكم القديس.. !
على أن - الخليفة - حين الغي الضرائب الظالمة . أتاح في نفس الوقت موردا ثرا للدولة، حين رد اليها جميع الأرض والثروة التي كانت تحت أيدي الأمراء .
ومورد آخر ، اعتبره أمير المؤمنين من أعظم مصادر الدخل وأثراها .. ذلكم هو وضع كل درهم في مكانه وضرورته.. وتحريم كل تبذير، وتحريم كل سرف..
أجل .. لقد كان - ولايزال - وضع المال في مكانه الصحيح وداخل ضرورته الملحة وحدها ، خير مورد وأبقى مصدر..
ولقد- التزم - عمر-هذا النهج التزاما يكاد يكون مطلقا مع نفسه ، ومع أهله ، ومع ولاته ، ومع ذوي قرباه ، وأصدقائه ، والناس اجمعين.
ها هو ذا أحد المقربين إليه ، الاثيرين لديه - عنبسة بن سعيد - يذهب إليه يوما ، يسأله حاجة لنفسه . فلنطالع جواب الخليفة له : " يا عتبة إن يكن مالك الذي عندك حلالا ، فهو كافيك . وإن يكن حراما ، فلا تضيفن اليه حراما جديدا ..
أخبرني ياعنبسة. امحتاج انت .. ؟ لا..
أفعليك دين..؟ لا ..
اذن ، فكيف تطمع في أن أعمد إلى مال الله فاعطيكه في غير حاجة .. وادع فقراء المسلمين ؟! لو كنت غارما ، لأديت عنك غرمك .. أو محتاجا لأمرت لك بما يصلح شأنك .. فليكن لك في مالك غناء.
واتق الله، وانظر من أين جمعته، وحاسب نفسك قبل ان يحاسبك أسرع الحاسبين" !!.
إن هذا الذي قاله لصديقه لحميم عنبسة كان يقوله لكل من يسأله ما ليس له بحق.. على أن هذا الذي هوحق في تقديره، لم يكن يتمثل عنده الأ في ضرورات العيش والحياة.
وهكذا أتيح له أن يحول شهقات البائسين إلى بسمات متهللة ، وفرح غامر، دون أن يحول السراة إلى طبقة بديلة للبائسين.

ان كل ما صنعه بهم آنه آخذ منهم ترفهم وتخمتهم ، ثم تركهم يحيون كراما متواضعين. !!
وهنا ينقلنا الحديث من الدخل ،الى التوزيع . فكيف راح الحاكم القديس يوزع أموال الأمة، وأين كان يضعها .. ؟؟
لقد رد المال إلى وظيفته الحقيقية ، وإلى دوره الأصيل ومسئوليته الأولى في خدمة الأمة وتغطية احتياجاتها .
لقد بدأ فرسم حدود الكفالة الشاملة التي ستنهض بها الدولة تجاء مواطنيها جميعا فردا فردا .. و حدد بالتالي مسئولية بيت المال تغطية هذه الكفالة كلها نرى ذلك في كتابه إلى ولاته:
" لابد لكل مسلم من : *مكان يأوي إليه. وخادم يكفيه مهنته. وفرس يجاهد عليه عدوه . وأثاث في يبته. فوفروا ذلك كله.. ومن كان غارما ، فاقضوا عنه دينه" .. !!!
والتعبير بكلمة مسلم هنا .. لا تعني قصر هذه المزايا - بل الحقوق - على المسلمين وحدهم ، إنما استعمل هذا الوصف لغلبته لا أكثر .. ثم كانت هذه المزايا والحقوق من حق المواطنين جميعا - مسلمين وأهل كتاب. ..
وأمر الخليفة ولاته أن يبدءوا بتغطية حاجات أقطارهم ، وما فاض وبقي يرسل إلى الخزانة العامة .. ومن قصر دخل إقليمه عن تغطية حاجات أهله ، أمده الخليفة بما يغطي عجزه:
" استوعب الخراج واحرزه في غير ظلم .. فإن يك كافيا للناس، فحسنا .. وإلا اكتب الي حتى أبعث اليك من المال ما توفر به للناس أعطياتهم"..!!
* **
وراح المبارك الميمون ينشىء في طول البلاد وعرضها دور الضيافة ، يأي اليها المسافرون وأبناء السبيل.. ومضى، يرفع مستوى الأجور الضعيفة..
وكفل كل حاجات العلماء والفقهاء يتفرغوا لعلمهم ورسالتهم دون أن ينتظروا من أيدي الناس أجرا.. وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يفرغوا لمهامهم ، وحتى لا تضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام. . !
وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، أمر لكل أعمى بقائد يقوده ويقضي له أموره على حساب الدولة. . ولكل مريض أو مريضين بخادم، على حساب الدوله.. وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين، فقضى عنهم ديونهم..
وافتدى أسرى المسلمين جميعا واغدق عليهم العطاء .
وكفل اليتامى الذين لاعائل لهم في جميع أقطار دولته العريضة المترامية..
وكما فعل جده العظيم - عمر بن الخطاب - من قبل ، فعل هو أيضا ، فأمر أن يفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس بعد فطامه، حتى لا تتعجل الأمهات فطام الرضعاء فيتعثر نموهم، وتضمحل قواهم.. ا!
ومن أجل الأ يتحول عطاء الدولة إلى فرصة للطامعين، منع أن يجمع أحد يين عطاءين.. وحرم على جميع العاملين والموظفين الجمع بين راتبين مهما تكن

الأسباب. ا!

***

وهكذا تقسط الناس جميعا في عهده العظيم ما افاءه الله عليهم من خير ورزق. وإنا لنكاد نذهل أمام ذلك الاجماع التاريخي الذي يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء في عهد القديس الورع ، عمر بن عبد العزيز ، حتى لقد كان الأغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيرا يأخذها - ويبسط يده اليها .. !!
ذلك أن عدل - ابن عبد العزيز - لم يكف الناس حاجتهم فحسب .. بل ملأهم شعورا بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم الصدقات مهما تكن كبيرة وكثيرة ، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحق، وبالعدل، وبعبده الصالح عمر بن عبد العزيز !!

* **

و " رابعا : وحدة الأمة وسلامها. .

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعا ممزقا ، يتربص بعضه ببعض الدوائر .. ويتربص كله بالدولة الدوائر.. ا!
فخلفاء بني أمية كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحذ العصبية والقبلية والإقليمية ، فيختص أحدهم بعطفه القيسية ، ويختص آخر اليمانية .. ويميز أحدهم أهل الشام.. ويميز آخر أهل العراق..
وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة الى القبائل وزعمائها ؛ فظهر من ينادي بسيادة أهل الحضر - وفي مواجهتهم، ظهر من ينادي بسيادة أهل البادية..
كذلك كان الخلفاء الأمويون قد جنحوا للهبوط بمكانة المسلمين من غير العرب - أولئك الذين غرفوا باسم الموالي ، ففرضوا عليهم الجزية ظلما ، وحرموهم الحقوق التي يكفلها لهم الإسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء |لاسلام عاليا في كل مجال..!
كذلك كان هناك الفرق الكثيرة ، من شيعة وخوارج ومعتزلة ، منهم من يحمل السلاح في وجه الدولة، وفي وجه خصومه في الرأي، ومنهم من لا يحمل السلاح، ولكنه يحمل الكلمة المسمومة.. ومنهم من يلتزم حدود المنطق والحجاج..

***

ورث القديس المجتمع على هذا التمزق والتشتت ، فنفخ فيه من روحه الطاهرة الظافرة نفخة مباركة نفت عنه في لحظة كل هذه الخبائث . وطهرت - لا شكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب - بل ضميره وروحه أيضا ، فشهد مجتمع الإسلام في أيامه إخاء وثيق التراحم..وأخذ كل حقه. وقنع كل بحقه.. !!
فاما عن الخوارج ، فقد رأينا كيف أسكتهم بالحجة والبرهان . وأما الموالي ، فقد وضع عنهم إصرهم، وصحح وضعهم. وأما النزعة القبلية والأقليمية، فقد طواها بيمينه.

ولم يعد هناك قيسيون ويمنيون .. ولا عراقيون وشاميون .. ولا عرب وموال ..
لقد عادت رحم الإسلام تنتظم جميع أبنائه كالعقد المنظوم ، وسيطرت من
جديد روحه العظيمة المتمثلة في قول الله تعالى :" إنما المؤمنون اخوة."

***

ولم يقف تصور ابن عبد العزيز لوحدة الأمة عند هذه الحدود وحدها .. بل امتد
إيمانه بالوحدة وفهمه لها إلى وضع الأقليات ، فأكد دمجها في جسم المجتمع
المسلم ، وصان لها كل حقوقها .
ولقد رأينا في رسالة مرت بنا من قبل، أرسلها لأحد ولاته بشأن بعض الخوارج
فقال له: " إن ساروا في الأرض دون إساءة لأهل الذمة، وللأمة ، فدعهم" ..
وفي كتب كثيرة لولاته ، نراه يؤكد على الوصاة بأهل الذمة ، أولئك الذين
أسماهم الإسلام-أهل الذمة – توكيدا لما في ذمة المسلمين لهم من عهد
وميثاق.. !!
لقد كانوا إلى يوم استخلافه ، يلاقون الكثير من العنت .. ويقبعون تحت وطاة
ضرائب ظالمة .. فما كاد يتولى أمر الأمة حتى أصدر أوامره الحازمة بألا يؤخذ
منهم سوى الضريبة التي شرعها الإسلام لقاء حمايتهم وتوفير الامن لهم.
وإن موقفه من قضية كنيسة يوحنا بدمشق لمثل رائع ويباهرعلى عمله العظيم
والنبيل لدعم وحدة الأمة كامة ، بصرف النظر عن اختلاف الدين والجنس
واللون فيها .. !!
كان الوليد بن عبد الملك قد هدم جزءا كبيرا من كنيسة يوحنا ، ليقيم عليه
امتداد المسجد الأموي المشيد .
وحين ولي - عمربن عبد العزيز -الخلافة ، شكا إليه نصارى دمشق ما حدث
لكنيستهم ..
ترى ، ماذا يصنع أميرالمؤمنين ؟ إن الجزء الذي تهدم من الكنيسة قد صار
مسجدا .. وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل في مثل هذا الموقف أن يعطي
تعويضا سخيا ، أو أرضا بديلة.. لكن ابن عبد العزيز يتعامل مع العدل والحق
بأسلوب مختلف عن أساليبنا .. إنه أسلوب قديس جليل !!
وهكذا اصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ، وإعادة الأرض
التي أقيم عليها إلى الكنيسة.!
ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها ، فأرسلوا وفدهم لاقناع أمير المؤمنين
بالعدول عن قراره.
لكن أمير المؤمنين ، أصدر أمرا جديدا حدد فيه اليوم ، بل الساعة التي يجب
أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم. !!
ولم يجد العلماء سبيلا لإنقاذ المسجد سوى أن يفاوضوا زعماء الكنيسة في
دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقا يرضونه. ويتنازلون بموجبه عن الجزء الماخوذ
من كنيستهم. ثم يذهب وفد من الفريقين لابلاغ الخليفة نبأ الاتفاق . فيحمد الله
عليه ، ثم يقره ويرضاه .. !!

***

بم إذن نفسر ذلك الموقف الذي اتخذه من بعض أهل الكتاب من النصارى ، حين أمر ان يعاملوا معاملة خاصة فيها تضييق عليهم ، و إحراج لهم.. ؟؟
إننا في ضوء موقفه العام الذي رأيناه ، لانرى لموقفه الطارئ هذا تفسيرا الأ أن يكون قد دعاه إليه سلوك بعض أولنك الذين عملوا كطابور خامس للامبراطورية الرومانية التي كانت تشن باسم الصليب - حروبا عدوانية على دولة الإسلام ..
يزكي ذلك - في رأينا - تلك الرسالة التي حملت أوامره بشأن أولئك النصارى . فقد ركزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد في دورهم من سلاح.. مما يومئ إلى وجود مؤامرة كانوا يهمون بها .. على أنه في موقفه من هؤلاء ، لم يأمر با تخاذ أي إجراء عنيف.
كل الذي أمر به أن يميزوا بلباسهم الخاص.. وحتى هذا الإجراء يشير إلى الريبة التي داخلت نفسه تجاههم ،فاراد أن يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلا لكشفهم ..
فإذا جاوزنا هذه الفئة التي فقدت ولاءها للدولة وللمجتمع ، وجدنا موقفه من المسبحبين عامسيبة موقف الحارس الأمين لحقوقهم ولعهودهم ولكراماتهم.
لقد أثار موقفه من الأديان ومن حقوق الأقليات في دولته الراشدة انبهار واعجاب العالم الخارجى من حوله ؛ حتى ان امبراطور الروم ليو الثالث - وقد كان خصما عنيدا لدولة الإسلام - لا يكاد يبلغه فيما بعد نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى يبكي بكاء مرا ، أذهل حاشيته وأساقفته ، فسألوه في ذلك ، فاجاهم بكلمات تعد من أصدق واجمع ما قيل في تابين أمير المؤمنين: "مات والله ملك عادل، ليس لعدله مثيل.. !!
وليس ينبغي أن يعجب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله في صومعته.
إنما العجب لهذا الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها .. !
ولقد كان حريا أن يعج به ؛ فاهل الخيرلا يلبثون مع أهل الشر الأ قليلا " ..
أفكان هذا الامبراطور ليشهد فيه هذه الشهادة لو عرف عنه أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق أهل الكتاب في عهده.. ؟؟
بل هل كان كبير أساقفة الرومان سيخف مسرعا حين علم بمرض الخليفة ، ليقيم إلى جواره يطببه ويعالجه .. ؟؟

***

ونعود للعمل الذي عمله أمير المؤمنين من أجل وحدة الأمة؛ لنرى كيف كان في الوقت نفسه عملا فى سبيل سلامها الداخلى : فالسلام الداخلي، إنما يتوفر بالقدر الذي يتجمع فيه شمل الأمة وتتآخى أرواح بنيها .
ولقد أنعم الله عليه وعلى أمته بما تمنى من وحدة الإسلام..
فماذا عن السلام الخارجي ووضع أوزار الحروب التي كانت مشبوبة الأوار خارج الحدود. ؟

لقد رأيناه يبدأ في الساعات الأولى من خلافته بإصدار أمره للجيش الذي أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة .
ثم رأيناه يفتدي جميع الأسرى على كثرتهم ويردهم الى ديارهم ووطنهم.
ثم نراه يضع حدا لكل الأعمال العسكرية التي كانت تقوم بها الدولة .. ويعلن أن الإسلام قد صار عزيزا منيعا بما تم له من فتوح ، وإن على جيش الدولة الأ يتحرك بعد اليوم لقتال الأ دفاعا عن حدود الدولة إذا هوجمت ، وعن سلامة الأمة اذا تعرضت للأخطار..
واستعاض عن زحف الجيوش ، بكتبه التي أرسلها إلي ملوك الهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم إلى الإسلام ، فاسلم أكثرهم متأثرين بما كان قد ترامى إليهم من أنباء ورعه وزهده ، وعظمته وتقاه..
كذلك كتب الى البربر، في افريقية.. يدعوهم إلى الإسلام، فدخلوا فيه افواجا .. وكتب إلى ملوك ما وراء النهر ، فأسلم أكثرهم ورفعوا راية الإسلام..
اليس رجلا مباركا ذلك القديس. ؟؟
***
و خامسا : أسلوبه في التنفيذ ..
ماذا كانت الأمة ستفيد من ورعه وزهده وتقاه وعدله ،لو لم تكن كفاءته في التنفيذ موازية لكفاءته في حمل المسئولية والاخلاص لها .. ؟؟
هنا نلتقي بجانب من أبهى وأغنى وأقوى جوانب شخصية ذلك القديس الفطن الحازم الأريب .. نلتقى به صاحيا يقظان. . !
إن كل ساعات اليوم الأربع والعشرين منذورة لمسئولياته..
ليس منها سوى الوقت الذي تستغرقه صلاته وعبادته ، والساعتين أو الثلاث التي يمنحها لنومه وراحته ..
أما بعد ذلك ، فلا وقت لديه الأ لمسئوليته المقدسة . وله أسلوب فريد في إنجاز هذه المسئولية وتنفيذ منهجها . فاللين ، والحزم .. والآناة ، والحسم.. والاشراف العميم ، واللامركزية .. والمطاولة ، واليقظة..كل هذه تعمل مجتمعة لا مختلطة -فى اتساق فذ وتكامل عجيب. .
يبلغ به التعب يوما أشده ، فيسأله بعض خاصته أن يريح نفسه ، فيقول :
" ومن يجزي عني عمل اليوم".. ؟
فيقولون له : تنجزه فى الغد ..
فيجيب : " لقد فدحني عمل يوم واحد حتى سألتموني أن أريح نفسي ، فكيف إذا اجتمع علي عمل يومين". .؟؟
إنه لا يجري حسابه الختامي كل شهر ولا كل اسبوع.. بل لكل يوم مسئوليته وحسابه الختامي، ولا يحيل يوما على آخر ، لان لكل يوم مزدحمه وأحماله.. ا!
وهو بالنسبة لعشرات الملايين التى تنتظمها دولته الواسعة ، نداء النجدة .. لا تهتف به حاجة فرد ولا مظلمة مظلوم في أدنى الأرض وأقصاها الأ ألفته وكأنه في انتظارها وحدها !! وصغار الأمور عنده مثل كبارها .. لها الاهتمام نفسه

والمسارعة نفسها .. حمل إليه بريده يوما رسالة من الجيزة بمصر .. اماصاحبة الرسالة فاسمها فرتونة السوداء ،تشكو لأمير المؤمنين أن لها حائطا متهدما لدارها يتسوره اللصوص ويسرقون دجاجها ، وليس معها مال تنفقه في هذا السبيل . ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو في عاصمة خلافته بالشام حتى يكتب إلى واليه على مصر أيوب بن شرحبيل هذا الخطاب: من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى أيوب بن شرحبيل.
سلام الله عليكم.. أما بعد ، فإن فرتونة السوداء كتبت الي تشكو قصر حائطها ، وإن دجاجها يسرق منها ، وتسأل تحصينه لها .
فإذا جاءك كتابي هذا ،فاركب بنفسك وحصنه لها " .. !!
والبريد نفسه الذي حمل هذا الكتاب لوالي مصر . حمل كتابا آخر من الخليفة لفرتونة السوداء : "من عبد لله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء . سلام الله عليك. اما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وما ذكرت فيه من قصر حائطك حيث يقتحم عليك ويسرق دجاجك. . وقد كتبت إلى أيوب بن شرحبيل آمره أن يبني لك الحائط حتى يحصنه مما تخافين إن شاء الله".. !؛
يقول ابن عبد الحكم الذي روى لنا هذه الواقعة الباهرة : " فلما جاء الكتاب إلى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة، وظل يسأل عن فرتونة حتى وجدها ، فإذا هي سوداء مسكينة؛ فأعلى لها حائطها " .. !!
هذا خليفة قديس لن تفلت من رحمته وعدله وأبوته شاردة ولا واردة .. ا!
ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شيء .
انظروا..! إنه يكتب لواليه على مصر أيضا : " أما بعد.. فقد بلغنى أن الحمالين فى مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ما تطيق.. فإذا جاءك كتابي هذا ، فامنع أن يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل.. ا! " .
بل إنه ليبصر فى جولاته أناسا يحملون مقارع ، في أسلفها حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم، فلا يكاد يستقر في مجلسه حتى يوقع قرارا يحرم استخدام هذه المقارع . ؟!
وتأتيه يوما سلتان كبيرتان مملوءتان من رطب " الأردن ، فيسأل : ما هذا ؟
فيقال : رطب بعث به أمير الأردن إلى أمير المؤمنين .
ويعود يسأل : وعلام جيء به .. ؟
فيقال له : على دوا ب البريد ..
فيهز رأسه، ويقول: " لقد حملتموها فوق طاقاتها .. بيعوا الرطب ، واشتروا بثمنه علفا لدواب البريد التي حملته. . !
***
ويبهرنا لينه ،وأناته، وسعة صدره التي لم تعرف حدودا .
وفي تتبعنا لهذه الفضيلة لديه ، نجدها تنبع من رحمته العميقة الأصلية - هذه الرحمة الذكية التي لم تكن تعني مجرد الشفقة بالناس ، بل تعني القيام

بحقهم في بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر فيهم، وعلى هواجس النفس، ونقاط الضعف.
وإنا لنتسمع هذا النبض الحنون النبيل من خلال دعائه الذي كان يضرع به إلى الله كثيرا: " اللهم زد محسن أمة محمد إحسانا . وارجع مسيئهم إلى التوبة .. اللهم وحط من أوزارهم برحمتك" !!
إنه لا يتحسس الأخطاء ، ليعاقب عليها ، بل ليعالجها في رحمة وحنا ن.
وإن أخطاء الناس لتشغله إلى المدى الذي رأيناه حيث لا ينظر اليها كحاكم ؛ بل كعابد، يصلي من أجل مغفرتها وإنهاض ذويها .. !!
وهو لا يستبقي أناته وحلمه وسعة صدره وتسامحه . داخل إطا ر ذاته كخلق شخصي له فحسب ، بل يحولها إلى فلسفة للحكم ومنهاج .
ولطالما كان يوصى كل وال من ولاته بهذه الوصية : " إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكي فلا تكوينه أبدا .. ا! " .
ولقد كان من حق حكام الأقاليم قبل عهده ان ينفذوا حكم القتل فيمن يشاءون عدلا أوظلما. فلما ولي، حرمهم هذا الحق، وأصدر أمره الأ ينفذ حكم القتل في أحد ، حتى يطلع بنفسه على قضيته ، ويرى فيها رأيه ..
وراح يتجنب كل عنف وقسوة قا ئلا : "والله لا أصلح الناس بهلاك ديني" !!
***
على أن رفقه وأناته اللذين وسعا أمته جميعا ، لم يكونا مطمعا يغري باستضعافه أو مخادعته، فقد كان هناك الحزم اليقظ لكل من تسول له نفسه عبثا ، أو فتنة.. !ا ولقد كانت فضائله كلها مهيأة على الدوام لحماية مواقعها ، وأداء دورها.. فلا يجيء موقف يتطلب الرحمة؛ فيجدها غافية. ولا موقف يتطلب الحزم؛ فيجده كليلا .. "
و لقد نراه مع عامة الناس ينتفض كالعصفور تواضعا وحنانا ورحمة . .
ثم نراه مع الجبارين أسدا يزأر .. وجلالا يهاب .. ا!
بعد أن يئس الأمراء الأمويون من استرداد اقطاعاتهم وثرواتهم بالضراعة والحيلة ، أغروا واحدا منهم وهو - عمر بن الوليد بن عبد الملك - بالكتابة إليه مهددا متوعدا .. فكتب يقول : " أما بعد ، لقد أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل، وعملت بغير الحق في قرابتك، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلما وجورا وعدوإنا . فاتق الله يا بن عبد العزيز ، فإنك توشك الأ تطمئن على منبرك " .. !! وفي اللحظة التي يفرغ الخليفة فيها من قراءة هذا الخطاب المتسم بالسفه والطيش ، يتقدم خلق الحزم الصارم ليؤدي دوره تجاه الباطل الذي يتوعد الحق باسترداد سلطا نه وبهتانه .. !
ويكتب أمير المؤمنين رده : " من عمر أمير المؤمنين،الى ابن الوليد..
سلام على من اتبع الهدى. أما بعد ، فعهدي بك أنك كنت جبارا شقيا ، والآن تكتب الي تتهمني بالظلم ، لأنني حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين ماهو

حق للضعيف والمسكين وابن السبيل.. !! الأ إن شئت آخبرتك بمن هو أظلم مني وأترك لعهد الله ..! إنه أبوك الوليد ، الذي حين كان خليفة للمسلمين استعملك عليهم صبيا سفيها تحكم في دمائهم وأموالهم.. !! فويل لك، وويل لأبيك - ما أكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة. !
وأظلم مني وأترك لعهد الله ، من استعمل الحجاج بن يوسف ، يسفك الدم الحرام. وأظلم مني وأترك لعهد الله، من استعمل يزيد بن أبي مسلم على جميع المغرب. يجبي المال الحرام .. ويسفك الدم الحرام ..
ألا رويدك يا بن الوليد . فلو طالت بي حياة لاتفرغن لك ولأهل بيتك حتى أقيمكم على المحجة البيضاء .. !!! " .
لنضع خطابه السابق إلى فرتونة السوداء تجاه خطابه هذا إلى ذلك الأمير الأموي المتجبر ؛ لنرى في غيرتعليق كيف كانت تعمل فضائل هذا الإنسان الباهر الجليل .. ا!
إن الرجل الذي يجلس للناس على الأرض وهو خليفة.. الإنسان، الوديع، العذب، يتحول إلى إعصار مدمدم أمام جبروت الباطل أنى يكون.. !!
ومثل هذا الموقف من الأمراء المتمردين. موقفه من امبراطور الروم..
لقد أخبر أن أحد جنود الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية ، وكان مقاتلا شديد البأس ، قد وقع أسيرا في ايدي الرومان، وحمل إلى الامبراطور الذي حاول إكراهه على الخروج من دينه الإسلام ورفض الأسير ..فأمر الامبراطور ان تسمل عيناه .. بلغ النبأ - أمير المؤمنين - فهب حزمه الشديد ليعالج الموقف . وحمل قلمه وكتب إلى ملك الروم : " أما بعد. .
فقد بلغنى ما صنعت بأسيرك فلان .. وإني أقسم بالله، لئن لم ترسله الي من فورك لأبعثن اليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندي " . !
ويعود الاسير إلى وطنه وأهله..!!

***

وهو ذو يقظة شاملة ، لا تتجلى في الإنجاز وحده - بل في رؤية القضايا ، وإدراك الكليات والتفاصيل..
ولو تتبعنا كتبه الى ولاته لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظرته وفطنته ما يبهر الألباب. فلنقنع ببعض فقرات من تلك الكتب.
* اتبعوا ما أحل الله وحرموا ما حرم، واعترفوا بحقه تعالى، وأحكموا بما أنزل. افتحوا للمسلمين باب الهجرة ..
دعوا الناس يتجروا بأموالهم في البر والبحر، لا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم.
أبيحوا أرض الحمى للمسلمين عامة، وليكن حق الأمير فيها كحق واحد منهم..
*الخمر باب الخطايا ، فحرموا كل مسكر..
كافحوا التطفيف فى المكيال والبخس فى الميزان..

لا تتجروا وأنتم ولاة ، فإن الأمير إذا اشتغل بالتجا رة استأثر ، وأصاب ظلما ، وإن حرص الأ يفعل.
لا تأخذوا من أموال الناس الأ الحق الذي شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله – لا فرق بين مسلم وأهل كتاب.
ضعوا السخرة عن الناس، وليكن لكل عمل أجره. .
ردوا المزارع لما خلقت له ، فإنما جعلت لأرزاق المسلمين كافة ..
لا تتخذوا على أبوابكم حجابا يمنعون ذوي الحاجات والمظلومين ..
اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدعوا الناس يقول أحدهم ، أنا مضري ، ويقول الآخر : أنا يمني ؛ فالمؤمنون إخوة..
الخيل عدة الجهاد ، فلا تدعوها تركض في غير حق..
امنعوا النساء أن ينشرن شعورهن ويخرجن نائحات وراء الموتى..
قاتلوا هواكم كما تقاتلون أعداءكم..
سددوا المخالفين ، وبصروهم ، وارفقوا بهم ، وعلموهم ، فإن اهتدوا كانت نعمة من الله وفضلا .. وإن أبوا فتحروا الحق فيما تنزلون بهم من عقاب..
أكثروا من دعاء الله بالعافية لأنفسكم ولمن ولاكم الله أمره ؛ فإن لكم في إصلاحهم أكثرمما لهم ، وعليكم من فسادهم أكثرمما عليهم ..
تعاهدوا حجابكم ورؤساء حرسكم وشرطكم والعاملين معكم ، وأكثروا المسألة عنهم حتى نستيقنوا أنهم لا يرتكبون غشما ولا ظلما ..
لا يأخذنكم الزهو بنظر الناس إليكم ؛ ولا بحديثهم عنكم . وضعوا أعينكم على الذي هو أبر وأتقى، واخلصوا لله رب العالمين. .
اتركوا أعمالكم عند حضورالصلاة فان من أضاع الصلاة كان لما سواها أضيع ..
تحروا الحق؛ ثم اعملوا به بالغا ما بلغ بي وبكم.. حتى وإن ذهب بحياتنا وبمهج انفسنا ..!!
هذا نموذج من أوامره وتوجيهاته بكشف عن يقظة شاملة لتفكيره ومشاعره وإرادته . يقظة تعطي الجزئيات الاهتمام نفسه الذي تعطيه الكليات ا!
وبهذا المنهج الذي يستمد من قداسته ، وفطنته ، وعزمه ، قطع ابن عبد العزيز طريقه وثبا ؛ متخذا من الانجاز وسرعة الحركة طابعا لمسيرته المباركة .. لقد كانت مسئوليته عن كل شيء واضحة وضوح الشمس ، ومشكلات الدولة والأمة لا تنتظرمن يكشف عنها أو يفلسفها ، بل تنتظر من يواجهها بذمة وصدق وحسم، ففيم إذن يكون تلفت أو انتظا ر . ؟!
ومن هنا انطلق ينجز ، وينجز ، وينجز ، معطيا كل مسئول مسئوليته ، آمرا اياه أن يمضى بها فى شجاعة وحكمة وأمانة .
أجل، لقد كان ينهى ولاته عن أن يكونوا إمعات، أومتواكلين هيابين.
وإنه ليرضى أعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مقبلين على مسئولياتهم في شجاعة، منجزين إياها في حزم؛ ميممين وجوههم وأفئدتهم صوب الحق

وحده؛ لا يعدلون به آحدا ، حتى الخليفة نفسه : " إذا آرسلت إليكم أمرا يخالف الحق. فاضربوا به الأرض .. واستمسكوا بالحق وحده" !!
وكان يعينهم على قهرالتخوف من المسئولية بمنحهم قدرا كبيرا من اللامركزية، والاستقلال.
أرسل يوما إلى أحد ولاته أمرا ، فأرسل الوالي يستوضحه ببعض التفعيلات، فتجهم الخليفة وكتب إليه من فوره : " أما بعد .. فأراك لو أرسلت اليك : إن اذبح شاة ووزع لحمها على الفقراء . لأرسلت تسالني :ضانا أم ماعزا . ؟ فإن أجبتك .. أرسلت إلى تسألني : كبيرة أ م صغيرة ؟ فان أجبتك ، أرسلت تسأل : بيضاء أم سوداء ؟!! إذا أرسلت اليك بامر ، فتبين وجه الحق فيه ، ثم امضه" . !
انه لا يريد أن تتلكأ حقوق الناس وتتعثر فى شكليات عقيمة. إنه يجد نفسه مسئولا عن كل خطأ ، أو مظلمة تبقى دقيقة من الزمان .. ومن ثم فهو يقطع الأيام وثبا وراء كل خطأ حتى يصلحه، ووراء كل حق حتي يؤديه لصاحبه.. !
وبمثل هذا الحسم والانجاز، كان يغير كل وال، أو قاض، أو أمين، أو رئيس شرطة، أو مسئول ، لا تثبت التجربة السريعة الصادقة أنه في مكانه .. وإذا خدع في أحد فظنه للمنصب أهلا .. ثم تبين له أنه غير أهل، لم ينظره لحظة تحت تاثير حرج أو مجاملة .
ولقد ملأت يقظته وإنجازه بلاد الدولة إعمارا وحياة، وفجرت طاقات الناس تفجيرا . وعلى الرغم من أنه كان يرى القدوة التي يقدمها للناس جميعا تفعل فيهم فعل السحر ، وتجري من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم في العروق، فانه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه .. فنراه يتنقل في مواطن كثيرة متخفيا ومتنكرا يسأل ، ويفحص . ولم تكن في الحياة باسرها متعة تشيع في روحه البهجة والغبطة مثلما يرى أو يسمع أن ظلما قد دحض وأن عدلا قد نهض .. وإن حقا قد رد لصاحبه في غير جهد منه ، أو إلحاف!.
ركب يوما في إحدى جولاته هذه مصطحبا معه مولاه مزاحم ، حيث خرجا إلى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين.. وهناك راح وهو متنكر في ثيابه يسأل الغادين منهم والرائحين. ومن بين هؤلاء رجل في إحدى القوافل، اقترب منه - عمر - وسأله : كيف تركت الناس فى بلدك..؟
فقال الرجل : إن شت جمعت لك خبري ، وإن شت بعضته تبعيضا . !!
فابتسم الخليفة ، وقال : بل اجمعه .. أي : أوجزه ..
قال الرجل: "تركت البلاد ، الظالم بها مقهور .. والمظلوم منصور .. والغني موفور .. والفقير مجبور " . وسارع - عمر - بالانصراف بعيدا عن محدثه قبل أن تشي به انفعالاته ودموع الشكر التى راحت تنحدر من مآقيه .
وولى مسرعا ، مسرعا ، وقلبه الشكور ولسانه الذكور يضرعان إلى الله بآيات الحمد والثناء . والتفت إلى مزاحم وقال له: " والله ، لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل ، لأحب الي مما طلعت عليه الشمس". .!

الفصل الثامن الرحيل

" وإن أمت، فما أنا على صحبتكم بحريص ."

ثقلت الدنيا على البطل .. كما ثقل هو عليها ، فناءت تحت ضغط ورعه الصارم ، وعدله الحازم .. لقد عقد عزمه على أن يحمل مسئولية الحكم بضمير عمر بن الخطاب في زمن مختلف جدا ، بل مناقض جدا لزمن عمر بن الخطاب .. !
كان ابن الخطاب "يحيا في امتداد عصر الوحي والنبوة ، ومعه أعوان كثيرون على الحق والعدل. أما ابن عبد العزيز ، فيحيا في ميراث ملك عضوض ، وسنوات ترف وانحلال وضياع ، وليس معه على الحق أعوان الأ قلة نادرة تاهت في الزحا م.. !

***

ولقد نجح فيما عقد عليه عزمه نجاحا لا يعرف له نظير .. بيد أن هذا النجاح الخارق تم على حساب كل ذرة بل كان جزيء من ذرة في عافيته وحياته..
وحين نستعرض برنامج يوم من أيام حياته ، لا ياخذنا العجب لقصر مدة خلافه وعمره ، بل يأخذنا العجب لانه بكل هذا الجهد المميت ، استطاع جسمه أن يتحمل ويقاوم ويستمر في الحياة - على هذه الصورة - عامين وخمسة أشهر .. !!
إن الجسد الذي كان قبل الخلافة - يحيا ، وتترعرع خلاياه على أهنأ ما في الدنيامن غذاء ونعيم ، حرم فجاة - لحظة استخلاف صاحبه – لا من ذلك النعيم فحسب ، بل من المقومات الأساسية واللازمة لحفظ الحياة ، مجرد الحياة ..
ثم هو مع هذا ، لا يبذل جهدا متكافئا مع فاقة صحته ، وضمور جسده ، بل يبذل جهد رجل يرى نفسه مسئولا مسئولية مباشرة وكاملة عن كل فرد من مواطني دولته العريضة المترامية. ثم هو لا يعيش المشكلات الطاحنة للامة والدولة فحسب ، بل يعيش في استغراق رهيب مشكلته مع نفسه، ومع الموت، ومع المصير غدا بين يدي العلي الكبير .. !!
فهو كما قال واصفوه - يرتجف دوما ويبكي ،وكأن النارلم تخلق الأ له.!
يرحمك الله أبا حفص .. !! من أي شيء تخاف.؟ ولمن جنات الله ، وخلده ..؟ ولمن رضوانه ومجده .. اذا لم تذهب أنت منه بالنصيب الأوفى .. ؟
لكنها يا بن عبد العزيز شيمة الذين يقدرون الله حق قدره..
أجل .. فما كان للقديس ذنب يخافه ، ولا تفريط يحاذره.
إنما هو جلال الله ، تجلى منه في روحه ومضة، فجعلته دكا . وخر منها صعقا .. !!

***

لقد عاش فترة خلافته - تسعة وعشرين شهرا .. وكأنها تسعة وعشرون قرنا ..
!! وفي كل دقيقة ، كانت روحه وأعصابه وعافيته تعطي جهد عام..
إن التغيير الهائل الذي أراده للدولة وللأمة ، كان يتطلب لو سارت ريحه رخاء
جيلا أو جيلين، فأبى الأ اتمامه في الأيام الباقية له على الأرض، وبين الناس..
وأي تغيير كان ؟.. انه تغيير لا يتطلب خليفة واحدا ، بل عشرات من الخلفاز ،
يحمل كل منهم روح رسول. !
إنه يريد أن ينقل إلى دنيا الترف والفساد والردة ، عصر الوحي والنبوة .. ثم هو
لا يريد أن ينقله إلى نظام الدولة والمجتمع فحسب .. بل إلى أفئدة الناس ،
وضمائرهم ، وسلوكهم.. !!
***
من هذه الصورة السريعة ، نلمح الأعباء الخارقة المهلكة التي حملتها روحه
وجسده في تفان رهباني ، واستبسال عظيم .. إن بعضا منها يكفي لتصديع
الجبال .. فكيف بها مجتمعة ؟ ثم كيف بها إذا اخترقت طريقها الأرزاء .. ؟
اجل ، فبينما الفدائي العظيم ماض في طريقه ، إذا به يفقد أحب الناس اليه،
واحناهم عليه ، وأوفاهم له ، وأبرهم به .. * اخوه "سهل . *وابنه عبد الملك .
*ومولاه مزاحم" .
رحلوا عنه تباعا ..وتركوا مكانهم حوله شاغرا ، الأ من الذكرى التي الألم
والشجن . انه لم يفقد فيهم - رضي الله عنهم اجمعين الاخ، والابن، والرفيق.
بل فقد فيهم أعوانه على الحق ، والنماذج الصحيحة لفضائل عصر الوحي الذي
شغفه حبا واجلالا . ولقد راح يحس أن ذهابهم إرهاص بقرب ذهابه .. وإن
رحيلهم أذان بقرب رحيله .. افلا يهدأ إذن ويستريح ؟؟
لا، بل راح يضا عف الجهد ، لينجز العمل قبل ان يرفع مرا سيه ويبحر.. !!
راح يتفوق على ما عهد البشر من طاقة ومقدرة، وقد تملكته الرغبة في
استشهاد نبيل.. !! لم يعد يؤرقه ولا يعنيه سوى أن يجيء حينه ، ويده القوية
الأمينة ممسكة براية الله عزيزة ظا فرة، يقول لربه حين يلقاه : "رب ، هذه
رايتك لم أسلمها .. ووديعتك، لم اخنها !! .. ".
[*] **
وبينما هو في عنائه، وعظمة جهاده وبلائه ، كانت هنالك مؤامرة تحاك، وجريمة
تدبر .. فبينما مرت الشهور التسعة والعشرون على الجموع كأنها حلم سعيد .
كانت كل دقيقة منها كابوسا خانقا مرهقا للأمراء والسادة، وذوي الامتيازات
الظالمة التي داستها أقدام موكب الحق الذي قاده أبوالشعب، وأمير
المؤمنين.. ا! هنالك ائتمروا به.
وكما تحدث بعض كتب التاريخ ، دسوا له السم في الطعام .. !
على أن قوة روحه لم تخذله قط فراح يسابق المنية في إنجاز ما يستطيع
إنجازه ويقول : إن لله شرائع وسننا إن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها .. وإن
أمت فما أنا على صحبتكم بحريص "

أجل .. إنه لا يربطه بالحياة الدنيا الأ الرسالة التي حملها في عنفوان وتقى .. وأعطاها حياته في إخلاص وتبتل.. !
لكن الآخرة سرعان ما ترسل إرهاصها وبشائرها في صورة شوق عارم يأخذ إلى الله قلبه وروحه.. لقد تأججت أشواقه إلى لقاء الله، وتركزت في قرب هذا اللقاء كل أمنياته وضراعاته ، وصار دعاؤه المفضل : " اللهم اقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط " .
بل إنه ليرسل في طلب عبد الله بن أبي زكريا ،وكان شيخا عابدا صالحا معروفا بأنه مستجاب الدعاء .
وحين يأتيه يسأله في الحاح ان يدعو الله له كي يعجل بلقائه .. !
إلى هذا المدى راحت أشواقه تدفع زورق حياته الى المرفإ السعيد..
وأمر أن تشترى له قطعة أرض بدير سمعان ، تكون لجسده مثوى وقبرا ..
واذ كان يأمر بشرائها ،قال له بعض أصفيائه : " لو ذهبت إلى المدينة، فإن أدركك الموت بها دفنت مع رسول الله وصاحبيه.. " .
فإذا هوينتغض كالطلقة المقذوفة، ويقول : "والله لأن يعذبني الله بكل عذاب دون النار؛ فإني لاصبر لي عليها،لأحب الي من أن أرى نفسي لهذا المقام أهلا " .. !!

***

واشتد به المرض.. وتحولت الملايين من أبناء أمته إلى أطفال، يوشك اليتم ان يحيق بهم حين يفقدون أباهم: الجياع الذين شبعوا .. والعراة الذين اكتسوا .. والخائفون الذين آمنوا .. والمستضعفون الذين سادوا .. واليتامى الذين وجدوا فيه أباهم. والأيامى اللائي وجدن فيه عائلهن وأخاهن. والضائعون الذين وجدوا فيه ملاذهم.. والتائهون الذين وجدوا فيه دليلهم. . كل هؤلاء وأولئك .. كل الناس في شعبه وأمته سحقتهم أنباء مرضه الداهم .. بل خارج أمته ، في الدنيا التي حوله ، والتي كانت سيرته تفوح فيها كالعبير ، تولاها الجزع والذهول.. حتى امبراطور الروم، العدو اللدود لدولة العرب والإسلام، يرسل كبير اساقفته، وكان بالطب خبيرا ، و برجوه أن يصنع المستحيل لانقاذ حياة الجار الطيب ، والخليفة العادل ، والقديس. الجليل.. لكن القديس الجليل رفض كل علاج وكل طب وكل دواء، وراح مع أشواقه ، ينتظران لحظة النداء.!
ها هو ذا راقد في داره المتواضعة فوق حصيره المعهود .. ويدخل عليه ابن عمه " مسلمة بن عبد الملك " فيقول له : " يا أمير المؤمنين الأ توصي لأولادك فإنهم كثيرون وقد أفقرتهم ولم تترك لهم شيئا" .
ويجيبه عمر : " وهل أملك شيئا أوصي لهم به ؟ أم تأمرني أن أعطيهم من مال المسلمين ؟ والله لا أعطيهم حق أحد .. وهم بين حالين : إما أن يكونوا صالحين والله يتولاهم.. وإما غير صالحين فلا أدع لهم ما يستعينون به على معصية الله .. وأمره أن يدعو أولاده ، فجاءوا مسرعين .. اثنى عشر ولدا وبنتا ، شعثا غبرا ، قد زايلت جسومهم الشاحبة نضرة النعيم !!

وجلسوا يحيطون به ، وراح يعانقهم بنظراته الحانية النسية . ويتحسس بيمينه ثيابهم البالية .. ويغالب دموعه ، فتغلبه ، فيواريها وراء كلماته التي راح يودع بها أبناءه وأحباءه: يا بني.. "إن أباكم خير بين أمرين.. أن تستغنوا ، ويدخل النار.. أو تفتقروا، ويدخل الجنة.. *فاختار الجنة..
*وآثر أن يترككم لله الذي نزل الكتاب ؛ وهو يتولى الصالحين " .. !

***

ثم برق بصره والتمع محياه ، وصوب حدقتيه تجاه الباب في اهتمام حفي ،كانما أبصر ضيوفا أعزاء ..
ثم ابتسم لابنائه ، ولأمهم العظيمة وزوجته الوفية ، وأذن لهم بالانصراف .
وبينما هم منصرفون عنه؛ كان يحرك كفيه ويشير بهما إشارة من يحيي ضيوفا قادمين!
أجل .. لقد كانت بعثة شرف من الملائكة المقربين ، جاءت تصحب القديس إلى حفل تتويجه المعد له هناك .. فى جنات الخلد وفردوس الله .. !!
وسمعه الذين وقفوا خارج حجرته يردد الآية الكريمة : " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ".
وجاءه مستشاره العظيم وصديقه الحميم رجاء بن حيوة يسعى.. وألقى نفسه إلى جواره ، وهمس في سمعه :
- كيف تجدك ، يا أمير المؤمنين .. ؟؟
لكن أمير المؤمنين يسترسل في تلاوة الاية الجليلة الكريمة.
" ...لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين" .

***

وفجاة ..مال رأسه الذي طالما أثقلته هموم أمته إلى وراء .. مال، ليستقر فوق وسادة ، حشوها ليف .. !!
وأغمضت عيناه اللتان لم تغمضا قط عن حق لله .. ولا عن حق للناس . ا!
وعاد المسافر إلى وطنه..وآب إلى داره..
مع الذين انعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء ، والصالحين..
وحسن أولئك رفيقا .